موسوعة
تاريخ مصر
N
نوبليس

موسوعة

التاريخ المصري

(١٢)

ميخائيل شاروبيم بك

موسوعة

التاريخ المصري

المجلّد الثاني عشر

الكافـــــي

في تاريخ مصر القديم والحديث

الجزء الثاني - ٣ -

عن فترة من ٦٤٠م إلى سنة ١٥١٢ م

٢٠هـ إلى سنة ٩٢٢ هـ

دار نوبليس

اسم الموسوعة: موسوعة التاريخ المصري

اسم الكتـــــاب: الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث
الجزء الثاني ـ ٣ ـ

اسم المؤلـــف: ميخائيل شاروبيم بك

قياس الكتـاب: ١٧ × ٢٤

عدد الصفحات: ٢٢٨

عدد صفحات الموسوعة: ٨٨٤٠

مكـان النشـر: بيروت

دار النشر والتوزيع: دار نوبِليس

تلفاكس: ٩٦١ (١) ٥٨ ٣٤ ٧٥

هاتــف: ٩٦١ (١) ٥٨ ١١ ٢١ ـ ٩٦١ (٣) ٥٨ ١١ ٢١

صندوق بريـد: ٧٠ ٦٩ ١٦ بيروت لبنان

بريد إلكتروني: info@nobilis-int.com

الطبعة الأولى: ٢٠١٢

EAN 9786144031339

ISBN 978-614-403-133-9

(الفصل الثامن والعشرون)

(فى خلافة المستظهر بالله أبى العباس أحمد)

ثم قام بالأمر بعد المقتدى بأمر الله ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد بويع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة سبع وثمانين وأربعمائة هجرية أى سنة أربع وتسعين وألف ميلادية بايعه الوزير ثم ركب إلى السلطان بركيارق وأعلمه الحال وأخذ بيعته للمستظهر بالله فلما كان اليوم الثالث من موت المقتدى جلس المستظهر للعزاء فحضر عز الملك بن نظام الملك وزير بركيارق وأمراء السلطان وجميع أرباب المناصب العالية والقضاة والعلماء فجلسوا فى العزاء وبايعوا، وكان للمستظهر بالله لما بويع ست عشرة سنة وشهران ليس إلا.

ولما استقرت به الخلافة جعل يتصرف فى الأمور فلم يكن له من حظها ماكان لأبيه المقتدى بأمر الله لشدة السلطان بركيارق وبسطة يده على جميع الأمور وكراهته لاتساع نفوذ الخلافة، وكانت أحوال سلطنة بركيارق مع ذلك فى غاية الضعف والانحلال لتغلب الفرنجة على الكثير من بلاده وفتحها عنوة إذ كانوا إلى سنة أربع وثمانين وأربعمائة قد ملكوا من بلاد الإسلام عدة مدن وتطرفوا إلى أطراف أفريقية فملكوا منها جزيرة سيسيليا التى كانت فى يد الفاطميين بعد نزعها من أيدى الغالبين الذين هم قدماء الفرنسيس وذلك أنه لما كثر شغب أهل هانه الجزيرة وانقسم بعضهم على بعض واستعصى على المعز لدين الله العلوى إصلاح ما أفسده عماله أكثر من العزل والتولية فى عمالها وشدد فى مراقبتهم وتبعه فى ذلك من أتى بعده من ذريته فلم يفلحوا أيضاً وتفاقم الخطب وتطاولت أيدى الفرنجة إلى دس الدسائس وإغراء من بالجزيرة من المسيحيين إلى الخروج وشق عصا الطاعة، وكان المسلمون من أهل الجزيرة أيضاً قد انقسموا إلى حزبين مختلفين وشطرين متخاصمين، وكان مقدم أحد الحزبين رجلاً يقال له ابن تمامة وهو من عظماء القوم وكبارهم فخرج فى أصحابه لقتال الفريق الثانى فانتشبت الحرب بينهما ثم إنجلت عن هزيمة ابن تمامة ومن معه ففر هارباً إلى كاتان، وكانت إلى هذا الحين فى يد الفرنجة فأكرم صاحبها وفادته وأمده بالعدة والرجال، وعلم الفريق الثانى بما آلت إليه حال ابن تمامة فطلبوا المدد من صاحب أفريقية فأمدهم فكانت بين الفريقين حرب هائلة، وكان ممن خرج مع ابن تمامة للقتال القمص دوجر فى طائفة عظيمة من الفرنسيس فأبلى هذا القمص فى

عسكر أفريقية بلاء حسناً وانتصر ابن تمامة وانهزم من كان فى تلك الجزيرة من المسلمين فدخلها دوجر وجعل يتصرف بدهاء وحكمة وما زال بأهلها حتى بايعوه سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة هجرية وخرجت من يد العلويين كخروج غيرها من بقية المدن والبلدان، وما زال دوجر يدبر أمرها ويتصرف فى ملكها حتى مات سنة خمس وتسعين وأربعمائة هجرية فقام بالأمر بعده ابنه ولقب دوجر الثانى فزاد فى عمارتها وبالغ فى تحسين أحوالها حتى زهت وغنيت وكثرت خيراتها وتنعم أهلها براحة العيش بعد العناء والشدّة، وفى سنة تسعين وأربعمائة خرج الفرنجة أيضاً إلى بلاد الشام وساروا فى جيش عظيم للغاية وقصدوا أنطاكية وصاحبها يومئذ آياغبسيان وكان أهل أنطاكية من المسلمين والنصارى فخاف آياغبسيان أن تغدر به النصارى وتخذله فلما علم بقرب الفرنجة أخرج المسلمين من أهلها ليس معهم غيرهم وأمرهم بحفر خندق حول البلد، ثم أخرج من الغد النصارى لعمل الخندق أيضًا ليس فيهم أحد من المسلمين فعملوا فيه إلى العصر، فلما أرادوا دخول البلد منعهم وقال لهم: أنطاكية لكم فلابد وأن تهبوها لى حتى أنظر ما يكون منا ومن الفرنجة، فقالوا: ومن يحفظ أبناءنا ونساءنا قال: أنا أخلفكم فيهم فساروا إلى عسكر الفرنجة فقبلهم ريشارد ملك الفرنجة وأنزلهم منزلا رحبا وحاصر ريشارد بعسكره البلد تسعة أشهر وظهر من شجاعة آياغبسيان وجودة رأيه وحزمه ما لم يشاهد من غيره، فلما طال مقام ريشارد على أنطاكية راسل الذى كان على برج الوادى من أبراج البلد واسمه بروزبه وبذل له أموالاً وإقطاعاً فلما تقرر الأمر بينهما أفرج لعساكر ريشارد عن البرج فتقدموا من ناحيته وتسلق جماعة كثيرة منهم بالحبال وما زالوا يتسلقون حتى زادت عدتهم عن الخمسمائة ثم ضربوا البوق وكان ذلك عند السحر والجند والحراس نيام فاستيقظ آياغبسيان وسأل عن الحال فقيل أن هذا البوق من القلعة ولا شك أنها قد ملكت فدخله الرعب وأمر بباب البلد ففتح وخرج هارباً فى ثلاثين غلاماً على وجهه وخرج نائبه أيضاً من باب آخر، ودخل عسكر ريشارد البلد فنهبوا وقتلوا من فيه من المسلمين وملكوه، فلما سمع ملوك الإسلام بما جرى على أنطاكية اجتمع منهم قوام الدولة كربوقا ودقاق بن تتش، وطغتكين أتابك، وجناح الدولة صاحب حمص وأرسلان تاش صاحب سنجار، وسليمان بن ارتق وغيرهم من الأمراء وتحالفوا على استخلاص أنطاكية من ريشارد وساروا فى جموع كثيرة نحو أنطاكية فما اقتربوا منها حتى وقع الخلاف بينهم وأساء كربوقا السيرة مع من معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم وانفرد بالكلمة ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذا الحال

فأضمروا له السوء وعقدوا النية على خذلانه إذا التقوا بجيوش الفرنجة، فلما أحاطوا بأنطاكية خرجت جيوش الفرنجة لقتالهم وضربوا مصفا عظيماً فوقع الخوف فى قلوب المسلمين وانهزموا شر هزيمـة ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم وانهزم كربوقا وتبـعهم الفرنجة فقتلوا منهم خلقاً كثـيراً وغنموا ما فى العسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة، فكـان شيئاً لا يكاد يدخل تحت الحصر، ولما وردت الأخبار إلى مصـر بهزيمة الترك عن أنطاكـية وضعفـهم وتفرق كلمتهم طمع أبو القاسم المستعلى بالله صاحب مصر فى استخلاص بيت المقدس من تاج الدولة تتش، وكان قد أقطعه للأمير سقمان بن ارتق فسير إليه عسكراً ومقدمهم الأفضل بن بدر الجمالى أمير الجيوش فحصروه وبه الأمير سقمان وايلغازى ابنا أرتق وابن عمهما سـونج وابن أخيهما ياقوتى ونصب عليه الأفضل نيـفا وأربعين منجنيقا فهدم مـواضع من سوره وقاتلهم أهل البلد فدام القـتال والحصار نيفـا وأربعين يوماً وملكوه بالأمان وأحـسن الأفضل أمير الجيـوش المصرية إلى سقمـان وايلغازى ومن معهما وأجزل لهم العطاء وسيرهم فسـاروا إلى دمشق ثم عبروا الفرات فأقام سقمان ببلد الرها، وسار ايلغازى إلى العراق واستناب الأفضل فى بيت المقدس رجلاً يعرف بافتخـار الدولة فبقى فيه، ولما فـرغ ريشارد من قتال المسلمين على أنطاكـية وأخذها سار بعسكره ومن معه من أمراء الفرنجة إلى عـكا وحاصروها أياماً كثيرة فلم يقدروا عليها فساروا عنها إلى بيت المقدس وحصروه نـيفا وأربعين يوماً ونصبوا عليه برجين أحدهمـا من ناحية صـهيون فـقوى عليه المسلمـون وأحرقوه وقـتلوا كل من به فلم يفرغـوا من إحراقـه حتى أتاهم المسـتغيث بأن المـدينة قد ملكت من الجـانب الآخر ودخل الفرنجة البلد وركب الناس السـيف ولبث الفرنجة أسبوعاً يقتلـون فيه المسلمين واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود فاعـتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام فبذل لهم الفرنجـة الأمان فسلمـوا إليهم ووفى لهم الفـرنجة وخرجـوا ليلاً وقتل الفـرنجة بالمسجد الأقـصى ما يزيد عن سبعـين ألفاً، منهم جمـاعة كثيرة من أئمـة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلاً من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا تنورا من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامى وأخذوا من القناديل الصـغار مائة وخمسين قنديلاً نقـرة، ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلاً وغنمـوا منه مالا يقع عليه الإحصـاء. رواه صاحب الكامل وكانت شدة عظيـمة للغاية على المسلمـين وتمكن الفرنجة من البـلاد واستتبت أقـدامهم ولم

يقدر المسلمون على ردهم لتفرق كلمة سلاطينهم واختلاف أهواء أمرائهم فقال أبو المظفر الأبيوردى فى هذا المعنى أبياتاً:

مزجنا دماء بالدموع السواجم	فلم يبق منا عرضة للمراجم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه	إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فهيا بني الإسلام أن وراءكم	وقائع يلحقن الذري بالمناسم
أتهويمة في ظل أمن وغبطة	وعيش كنوّار الخميلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها	على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم	ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم	تجرّون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمي	توارى حياء حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرّة الظبا	وسمر العوالي داميات اللهازم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة	تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها	ليسلم يقرع بعدها سن نادم
سللن بأيدي المشركين قواضبا	ستغمد منهم في الطلي والجماجم
يكاد لهن المستجن بطيبة	ينادي بأعلى صوت ياآل هاشم
أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا	رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى	ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى	ويغضى على ذل كماة الأعاجم

ومنها

فليتهم إذ لم يذودوا حمية	عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم
وإن زهدوا في الأجر إذ حمس الوغا	فهلا أتوه رغبة في الغنائم
لئن أذعنت تلك الخياشيم للبري	فلا عطسوا إلا بأجدع راغم
دعوناكم والحرب ترنو ملحة	إلينا بالحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية	تطيل عليها الروم عض الأباهم
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه	رمينا إلى أعدائنا بالجرائم

فاستعظم المستعلى صاحب مصر ما تم على أهل القدس واغتم له ورسم إلى الأفضل أمير الجيوش بقتال الفرنجة واستخلاص بيت المقدس منهم فحشد الأفضل

جيشاً عظيماً وسار إلى عسقلان وأرسل إلى الفرنجة ينكر عليهم ما فعلوا ويتهددهم بالقتال فأعادوا الرسول بالجواب ورحلوا على أثره بخيلهم ورجلهم وطلعوا على المصريين عقب وصول الرسول ولم يكن عند المصريين خبر بوصولهم ولا من حركتهم ولم يكونوا على أهبة القتال فلما أحسوا بهم نادوا فى الجند بالخروج وكثر النداء بركوب الخيل فأعجلهم الفرنجة فهزموهم وقتلوا منهم خلقاً وغنموا ما فى المعسكر من مال وسلاح وغير ذلك، وانهزم الأفضل ودخل عسقلان وهرب الكثير من جنده فأختفوا فى شجر جميز كان هناك كثيراً فأحرق الفرنجة بعض الشجر فمات من كانوا فيه وأعملوا السيف فيمن خرج منهم، ثم عاد الأفضل فى نفر قليل من خواصه وأتباعه إلى مصر ونازل الفرنجة عسقلان وضايقوها فبذل لهم أهلها قطيعة أثنى عشر ألف دينار، وقيل عشرين ألف دينار فعادوا إلى بيت المقدس ظافرين غانمين وعظم أمرهم فملكوا أكثر سواحل الشام وغيرها مما لا علاقة له بنا هنا، وأنكف المستعلى عن قتالهم بعد هزيمة الأفضل أمير جيوشه عند عسقلان وإهلاكهم لعسكره، وكذلك تشاغل عنهم السلطان بركيارق بقتال أخيه السلطان محمد وغيره من الأمراء الذين خرجوا عن طاعته ومزقوا سلطنته لا سيما طائفة الباطنية الذين هم الإسماعيلية أصحاب الحسن بن الصباح الذى تقدم ذكر خبر حضوره إلى المستنصر صاحب مصر ومخاطبته إياه فى إقامة الدعوة له بأرض العجم بأسرها وجعلهم نزار ولده إمامهم بعد المستنصر المذكور، فقد كان عظم شرهم وكبر أمرهم وخافهم الأمراء والعظماء والقواد والجنود وتبعوا طريقتهم صاغرين وانبثت تعاليمهم فى أكثر المدن فظفروا بها وأقاموا القلاع والحصون وجندوا الأجناد وكادت تعم دعوتهم المشرق بأسره، وحيث قد وعدنا بأن تأتى على ذكر حال هذه الشيعة مفصلاً فى محله، وهذا محله الآن، فها نحن نتلو عليك ما قاله أصحاب التاريخ وأجمعوا عليه من أحوال هؤلاء الشيعة التى كانت تسمى قبلاً بالقرامطة، قالوا: كانت ابتداء ظهور دعوتهم الأخيرة التى اشتهرت بالباطنية والإسماعيلية فى أيام السلطان ملك شاه وكان أول ما انكشف من أمرهم أنه اجتمع منهم ثمانية عشر رجلاً فصلوا صلاة العيد فى ساوة على طريقتهم الشيعية ففطن بهم أصحاب الشحنة وانكشف لهم بعض ما خفى من أمرهم فقبض عليهم واعتقلوا أياماً ثم أفرج عنهم بشفاعة بعض الوجوه والأعيان فكان ذلك أول اجتماع لهم ظاهر للناس ولما أطلقوا من الحبس وأقاموا بساوة يدعون الناس ويكاشفون بعضهم، ثم ساروا إلى أصبهان يدعون أيضاً فكان من دعوهم مؤذن من أهل ساوة كان مقيماً بأصبهان فلم يجبهم إلى دعوتهم

فخافوا أن ينم عليهم فقتلوه فكان أوّل قـتيل لهم وأول دم أراقوه فبلغ خبر قتله نظام الملك فأمر بأخذ من يتـهم بقتله فوقعت التهمة على نجار اسمـه طاهر فقتل ومثل به وجروا برجله فى الأسـواق فكان أول قتيل منهم، وكـان والد طاهر هذا واعظاً أتى بغداد مع السلطان بركيارق سنة ست وثمانين وأربعـمائة هجرية فحظى منه ثم قصد البصرة فولى القـضاء بها ثم توجه فى رسالة إلى كرمان فقـتله العامة فى الفتنة التى جرت وقالوا: إنـه باطنى وتقوى الباطنية وأشـتد أزرهم بمن انضم إلى شيعـتهم من العظماء والقوّاد وظهـور دعوتهم فتمكنوا من قـتل نظام الملك فكان لفعلهم هذا أثر مهم للغـاية وكان أول فتكة مشـهورة لهم ولذلك كانوا يقـولون قتل نظام الملك منا نجاراً فـقتلناه به ثم نزلوا ببلد عند قـاين وبها مقـدمهم فـاجتمـعوا عنده فتـقووا به فأجتـازت بهم قافلة عظيمة من كرمان إلـى قاين فخرج عليهم المقدم المذكـور ومعه أصحابه ومن اجـتمع إليه من الباطنية فـقتل أهل القفل جميـعهم ولم ينج منهم إلا رجل تركمانى فـوصل إلى قاين فأخبر بالقـصة فتسارع أهلهـا مع القاضى الكرمانى يريدون قتالهم فلم يفلحـوا ورجعوا عنهم وفشا مذهبـهم بين جند السلطان بركيارق وتقوى به كـثير منهم وزاد أمـرهم فصاروا يـتهددون من لا يوافـقهم بالقتل فـصار يخالفهم من يخالفـهم حتى أنه لم يتجاسر أحد لا أميـر ولا مقدم على الخروج من منزله إلا حاسرا فيلبس تحت ثيابه درعـا حتى إن الوزير الأغر أبا المحاسن كان يلبس زردية تحت ثيـابه واستأذن السلطـان بركيارق خـواصه فى الدخـول عليه بسـلاحهم وعرفوه خوفهم ممن يقـاتلهم فأذن لهم فى ذلك وأشاروا على السلطان أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافى أمرهم.

ولما مات السلطان ملكشاه وقد تمكنوا من قـتل نظام الملك عظم أمرهم واشتدت شوكتـهم وقويت أطماعهم واجتـمعوا فى أصبهـان بعد أن كانوا متفـرقين واتخذوا أصبهان مقرا وعظم شرهم فصاروا يسـرقون من قدروا عليه من مخالفيهم ويقتلونهم وقد فعلوا ذلك بخلق كثير وزاد الأمـر وكثر خوف الناس فكان الرجل إذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتاد تيقن أهله قتله وقعدوا للعزاء فتحذر الناس وصار لا ينفرد أحد خوفاً من فتك الباطنية ودعا أحدهم جارا له إلى مذهبم فلم يقبل فأخذه وأخفاه فقام أهله للنياحة عليـه فأصعده جمـاعة من الباطنية إلى سطح داره من غيـر أن يشعر به أحد وأروه أهله كيف يلطمون ويبكون عليه فنظر إليهم وهو لا يقدر أن يتكلم خوفاً منهم واشتد الحال بالناس فى أصبهان وهاجـر الكثير من أهلها فرارا من فعال هؤلاء الطغاة واتفق أن رجـلاً بأصبهان دخل فى دار صديق له فـرأى فيها ثيـاباً ومداسات

وملابس لم يعهدها فداخلته الظنون وخرج من عنده وأخبر الناس بما رآه فكشف الناس عنها فعلموا أن صاحب الدار من الباطنية وأن الملابس هى ملابس الناس الذين قتلهم الباطنية فثاروا جميعاً يبحثون عمن قتل ويستكشفون فظهروا على الدروب التى تسكن فيها تلك الطائفة وعلموا أنهم كانوا إذا اجتاز بهم إنسان أخذوه إلى دار منها وقتلوه وألقوه فى بئر فى الدار قد صنعت لذلك وكان على باب درب من دروبهم رجل أعمى فإذا اجتاز به إنسان يسأله أن يقوده خطوات إلى باب الدرب فيفعل ذلك فإذا دخل الدرب قبض عليه وسلمه إلى جماعة منهم فيقتلونه فلما انكشف أمرهم وعلم الناس بما هم عليه قاموا قومة رجل واحد وتجرد للانتقام منهم أبو القاسم مسعود بن محمد الخجندى الفقيه الشافعى وانضم إليه لفيف الأهالى بالأسلحة وأمر بحفر أخاديد وأوقد فيها النيران وجعل العامة يقبضون على الباطنية جماعات وفرادى فيلقونهم فى النار وأوقفوا جماعة يشعلون النيران وسموا أحدهم مالكاً فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وتفرّق من بقى واختفى وكذلك ثار بهم جاولى سقاو وصاحب البلاد التى بين رامهرمز وأرجان وذلك لأنهم لما ملكوا القلاع والحصون بخوزستان وفارس وغيرهما وكثر شرهم وقطعوا الطريق بتلك البلاد وقتلوا وسبوا وفعلوا ما لا خير فيه اتفق جاولى المذكور مع جماعة من صناديد أصحابه على أن يظهروا الشغب عليه ويخرجوا عن طاعته ويفارقوه ويقصدوا الباطنية ففعلوا وأظهروا أنهم معهم وعلى مذهبهم فأقاموا عندهم حتى وثقوا بهم ثم أظهر جاولى أن الأمراء من بنى برسق يريدون قصده وأخذ بلاده وأنه عازم على مفارقتها لعجزه عن ردهم وأنه يريد همذان فلما شاع هذا الخبر وسار قال من عند الباطنية من أصحابه لهم الرأى إننا نخرج إلى طريقه ونأخذه وما معه من الأموال فساروا إليه فى ثلثمائة من أعيانهم وصناديدهم فلما التقوا ثار من معهم من أصحاب جاولى عليهم ووضعوا السيف فيهم فلم يفلت منهم سوى ثلاثة نفر صعدوا إلى الجبل وهربوا وغنم جاولى ما معهم من دواب وسلاح وغير ذلك وركب عليهم أيضاً السلطان بركيارق وقتل منهم خلقا كثيراً للغاية فكادت تضعف شوكتهم وتزول هيبتهم وانكفوا عن أفاعيلهم فقل أذاهم واطمأنت قلوب الناس واستراحت واختفى كبارهم وتتبعهم بركيارق فكان لا يظفر بأحد منهم إلا قتله وشهره.

وأقام المستعلى يدبر الأمور بمصر إلى أن مات سنة خمس وتسعين وأربعمائة لسبع عشرة خلت من شهر صفر فكانت سلطنته سبع سنين وقريباً من شهرين فولى بعده ابنه أبو على المنصور. بويع له فى اليوم الذى مات فيه أبوه وله خمس سنين

وشهـر وأربعة أيام ولقب الآمـر بأحكام الله ولم يكن ممن تولى قط أصغـر منه ومن المستنصر فقام بتدبير دولته الأفضل بن أمـير الجيوش أحسن قيام وأخلص فى خدمته غاية الإخلاص. قال ابن يسر فى تاريخه: لما توفى المستعلى أحضر الأفضل أبا على وبايعه بالخلافة ونصـبه مكان أبيه ولقبه بالآمر بأحكام الله وكـان له من العمر خمس سنين وشهر وأيام فكتب ابن الصيرفى الكاتب السـجل بانتقال المستعلى وولاية الآمر وقرئ على رؤوس كـافة الأجناد والأمراء وأوله مـن عبد الله ووليـه أبى علىّ الآمر بأحكام الله أميـر المؤمنين ابن الإمام المستعلى بالله إلى كافـة أولياء الدولة وأمـرائها وقوّادهـا وأجنادها ورعاياها شـريفهم ومـشروفـهم وأميـرهم ومأمورهـم مغربيـهم ومشرقيهم أحـمرهم وأسودهم كبيرهم وصغيرهم بـارك الله فيهم، سلام عليكم فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ويسـأل أن يصلى على جده محمد خـاتم النبيـين صلى الله عليـه وعلى آله الطيـبين الطاهرين الأئـمة المهـديين وسلم تسليـما، أما بعـد، فالحـمد لله المنفـرد بالثبات والدوام البـاقى على تصرم الـليالى والأيام، القاضى على أعمار خلقه بالتقضى والانصرام، الجاعل نقض الأمور معقودا بكمال الإتمام جاعل الموت حكما يستوى فـيه جميع الأنام ومنهلا لا يعصم من ورده كرامة نبى ولا إمام. والقائل معزيا لنبيه ولكافة أمته ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ الذى استدعى الأئمـة لهذه الأمّة ولم تخل الأرض من أنوارهم لطفا بعباده ونعمـه وجعلهم مصابيح الشبه إذا غدت داجيـة مدلهمة لتضىء للمؤمنين سبل الهداية ولا يكون أمرهم عليهم غمة يـحمده أمير المؤمنين حمد شاكر على ما نقله فيه من درج الإمامه، ونقله إليـه من ميراث الخلافة، صابراً على الرزية التى أطار هجوعها الألباب والفجيعة التى أطال طروقها الأسف والاكتئاب ويسأله أن يصلى على جـدّه محمـد خاتم أنبيـائه وسيد رسله وأمنائه ومـجلى غيـاهب الكفر ومكشف عمائه الذى قام بما اسـتودعه الله من أمانته وحمله على أعـباء رسالته ولم يزل هاديا إلى الإيمان داعيا إلى الرحمن حـتى أذعن المعاندون وأقر الجاحدون وجاء الحق وظهـر أمر الله وهم كـارهون فـحينئـذ أنزل الله عليـه إتماماً لحكمتـه التى لا يعترضها المعترضون ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ صلى الله عليه وعلى أخيـه وابن عمه وأبناء أمير المؤمنين عـلىّ بن أبى طالب الذى أكرمه الله بالمنزلة العلية وانتخبه للإمامة رأفة بالبرية وخصه بغوامض علم التنزيل وجعل له مبرة التعظيم مزية وقطع بسيفه دابر من زل عن القصد وضل عن سواء السبيل وعلى الأئمة من ذريتـهما العتـرة الهادية من سلالتهـما آبائنا الأبرار المصطفين الأخـيار ما

تصرفت الأقدار وتوالى الليل والنهار وأن الإمام المستعلى بالله أمير المؤمنين قدس الله روحه كـان ممن أكرمـه الله بالاصطفاء وخـصه بشـرف الاجتبـاء ومكن له فى بلاده فامتدت أفياء عدله واستخلفه فى أرضـه كما استخلف أباه من قبله وأيده بما استرعاه أباه بهدايته وإرشاده وأمدّه بما استحفظه عليه من مواد توفيقه وإسعاده ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده فلم يزل لأعلام الدين رافـعاً ولشبه المضلين دافعاً ولراية العدل ناشرا وللدين عـامرا وللعدوّ قاهرا إلى أن استوفى المدة المحـسوبة وبلغ الغاية الموهوبة فلو كانت الفضائل تزيد فى الأعمـار أو تحمى من ضروب الأقدار أو تؤخر ما سبق تقـديمه فى علم الواحد القهـار لحمى نفسه النفـيسة كريم مـجدها وشريف محتـدها وكفاها خطير منصبـها وعظيم هيبتها ووقـتها أفعالهـا التى تستقى من منبع الرسالة وصانتها خلالها التى ترتقى إلى مطلع الجلالـة لكن الأعمار محررة مقسومة والآجال مقدرة معلومة والله تعالى يـقول وبقوله يهتدى المهتدون ﴿ولكل أمـة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ فأمير المؤمنين يحتسب عند الله هذه الرزية التى عظم أمرهـا وفدح وجرح خطبهـا وقرح وغدت له القلوب واجـفة والآمال كاسـفة ومضاجع السكون مـنفضة ومدامع العـيون مرفضة فـإنا لله وإنا إليه راجعون صـبرا على بلائه وتسليما لأمـره وقضائه واقتداء بمن أثنى عـليه فى الكتاب ﴿إنا وجدناه صابرا نـعم العبـد إنه أواب﴾ وقد كان الإمام المسـتعلى بالله قدّس الله روحه عند ثقلته جعل لى عهد الخلافـة من بعده وأودعنى ما حازه من أبيه عن جده وعهد إلىّ أن أخلفه فى العالم وأجرى الكافة فى العدل والإحسان على منهجه القائم وأطلعنى من العلوم علـى السر المكنون وأفـضى إلىّ من الحكمـة بالغامض المصـون وأوصانى بالعطف على البرية والعمل فيهم بسيرته المرضية على علمى بما جبلنى الله عليه من الفضل وخصنى به من آثار العدل، وإننى فيما استرعيته سالك على منهاجه عامل بموجب الشرف الذى عصب الله فى تاجه. وكان مما ألقاه إلىّ وأوجبه علىّ أن أعلى مـحل السيـد الأجل الأفـضل من قلبه الـكريم وما يجب إليـه من التـبجـيل والتكريم، وإن الإمام المستنصر بالله كان عندما عـهد إليه ونص بالخلافة عليه أوصاه أن يتخذ هذا السيد الأجل خليـفة وخليلاً ويجعله للإمامة زعيمـاً وكفيلاً ويحفظ به أمر النظر والتقرير ويفوّض إليه تدبير مـا وراء السرير، وإنه عمل بهذه الوصية حذوا على تلك الأمانة النبوية وأسند إليـه أحوال العساكر والرعية وناط أمر الكافـة بعزمته الماضية وهمته العلية فكان قلمه بالسداد يرجف ولا يجف وسيفه من دماء ذوى العناد يكف ولا يكف ورأيه فى حسم مواد الفساد يرسخ ولا يخف فأوصانى أن أجعله لى

كما كان له صفيا وظهيرا وأن لا أستر عنه فى الأمور لا صغيراً ولا كبيراً وأن أقتدى به فى ردّ الأحوال إلى تكليفه وإسناد الأسباب إلى تدبيره، وإلينا حوط نازل الخطب ومنتقله إلى غير ذلك مما استودعنى إياه وألقاه إلىّ من النص الذى يتضوّع نشره ورياه نعمة من الله قضت لى بالسعد العميم ومنذ شهرت بالفضل المتين والحظ الجسيم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم، فتعزوا معاشر الأولياء والأمراء والقواد والأجناد والرعايا والخدام حاضركم وغائبكم ودانيكم وقاصيكم عن الإمام المنقول إلى جنات الخلود واستبشروا بإمامكم هذا الإمام الحاضر وابتهجوا بكريم نظره المطلع لكم كواكب السعود ولكم من أمير المؤمنين أن لا يغمض جفنا عن مصابكم وأن يتوخى ما عاد بميامنكم ومناجحكم وأن يحسن السيرة فيكم ويدفع أذى من يعاديكم ويتفقد مصلحة حاضركم وباديكم ولأمير المؤمنين عليكم أن تعتقدوا موالاته بخالص الطوية وتجمعوا له فى الطاعة بين العمل والنية وتدخلوا فى البيعة بصدور منشرحة وآمال منفسحة وضمائر نقية وبصائر فى الولاية قوية وأن تتقدموا بشروط بيعته وتنتهوا بفروض نعمته وتبذلوا الطارف والتالد فى حقوق خدمته وتتقربوا إلى الله سبحانه وتعالى بالمناصحة لدولته وأمير المؤمنين يسأل أن تكون خلافته كافلة بالإقبال ضامنة بلوغ الآمال وأن يجعل ديمتها دائمة بالخيرات وقسمتها نامية على الأوقات إن شاء الله تعالى. اهـ.

ولم تكد تستقر الولاية بالآمر بأحكام الله حتى كثر عبث الفرنجة بالأملاك المصرية وتطاولت أيديهم إلى إيذاء المسلمين فأنفذ الأفضل أمير الجيوش بمصر سعد الدولة الطواشى مملوك أبيه إلى الشام فى جيش عظيم لحرب الفرنجة وردعهم فلقيهم بين الرملة ويافا فتصافوا واقتتلوا قتالاً عنيفاً وطال القتال ثم حمل الفرنجة حملة صادقة على المسلمين فانهزموا شر هزيمة ومات سعد الدولة تحت سنابك الخيل. قال بعض الكتاب: وكان المنجمون يقولون لسعد الدولة: إنك تموت تحت سنابك الخيل فكان يتحرّز من ركوب الخيل حتى ولى بيروت وأرضها مفروشة بالبلاط فقلعه خوفاً أن تزلق فرسه فيسقط فلم ينفعه الحذر عند نزول القدر وملك الفرنجة خيمه وجميع ما للمسلمين وشردوا من بقى منهم فلما رجع المستنفرون إلى مصر غضب الأفضل وسير ابنه شرف المعالى فى جمع كثير فالتقوا هم والفرنجة بيازور بقرب الرملة فانهزم الفرنجة وتفرّقوا وسار شرف المعالى بن الأفضل من المعركة ونزل على قصر بالرملة وبه جماعة من كبار الفرنجة فقاتلهم خمسة عشر يوماً حتى أخذهم أسرى وحمل منهم جماعة إلى مصر ثم اختلف أصحاب شرف المعالى وتفرّقت أهواؤهم فمنهم

من أراد المسير إلى بيت المقـدس لاستخلاصه من الفرنجـة ومنهم من أراد المسير إلى يافا وأخذها وبقوا على هذا الخلاف أياماً بينما هم كذلك إذ وصل إلى الفرنجة المدد فاجتمعـوا وساروا إلى عسقلان وبها شرف المعالى فقاتـلوه ومن معه فلم يصبر على قتالهم فـقفل منها راجعا إلى مـصر بمن بقى من أصحابه فـأحزن ذلك ابن الأفضل وسير رجـلا يقال له تاج العجم فى البر وهو من كـبار مماليك أبيه وجهز مـعه أربعة آلاف فارس وسير فى البحر رجلاً يقـال له القاضى ابن قادوس فى عمارة حربية إلى يافا ونزل تاج العجم على عسقلان فاستدعاه ابن قادوس إليه ليتفقا على كيفية القتال فلم يجبه إلى ذلـك ولا أرسل إليه أحدا فراجعـه فلم يقبل فأشهـد عليه ابن قادوس قاضى عسقلان وشهودها وأعيانها وسـير الخبر بما وقع إلى ابن الأفضل أمير الجيوش فأرسـل ابن الأفضل من قـبض على تاج العجم وأرسل رجـلاً يلقب بجمـال الملك فأسكنه عسقلان وجعله مقدم العسكر فلم يقدر على استخلاص ما بأيدى الفرنجة من السـواحل والمدن الشامـية فـقـد كانوا استولوا إلى هذا الحـين على فلسطين ويافـا وارسوف وقيسارية وحيفا وطبرية ولاذقـية وأنطاكية ماعدا بيت المقدس ولهم بالجزيرة الرها وسروج والرقـة وقلعة جـعبر وجـبيل وعسـفان من الشـام وبيروت وطرابلس وباياناس وصيـدا وكان السلطان بركـيارق كلمـا سمع بفوز الفـرنجة وأخـذهم لبلاد المسلمين زادت همومه وعظم حزنه وجد فى حشد الجنود والإكثار من معدات القتال فإذا همّ بالخروج لحربهم عاقته العوائق وحالت دون عزمه الموانع وما زال حتى مرض وهو بأصبـهان وثقل به مـرضه فـسار منها فى مـحفـة طالباً بغداد فلـما وصل إلى بروجرد ضعف عن الحركة فأقام بها أربعين يوماً فاشتد مرضه وأيس من نفسه فخلع الأمر على ولده ملكشـاه وعمره يومـئذ أربع سنين وثمـانية أشهر وأحـضر جمـاعة الأمراء وكبـار قواده وأعلمهم بما فعله وأخذ عليـهم العهد بالطاعة لولده ومـساعدته على حفظ السلطنة فحلفوا وتعهدوا فأمرهم بالمسير إلى بغداد فساروا فلما كانوا على اثنى عشر فرسخا من بروجرد وصلهم خبـر موته وكان بركيارق قد تخلف على عزم العود إلى أصبـهان فعاجلتـه منيته فرجع جـماعة منهم وحملوا تابوته إلى أصـبهان ودفن بهـا، ووصل السلطان ملكشاه بن بركـيارق إلى بـغداد فخـرج وزير الخليـفة وأصحاب الوظائف لـلقائه وكان وصوله فى خمـسة آلاف فارس فخطبـوا له ولقبوه بألقاب جده ملكشاه ولم تستقر به السلطنة حتى علم السلطان محمـد أخو بركيارق بخبر موت بركيارق فسار فى جيش عظيم يريد بغداد وحمل الناس بها على البيعة له فلما وردت الأخـبار بذلك إلى الأميـر آياز وزير ملكشاه الوصىّ عليه من قـبل أبيه

بركيارق خاف كثيراً وجمع إليه كبار الجند وقواد بركيارق وأعلمهم بخبر مجيء السلطان محمد ورغبته فى أخذ الملك من ابن أخيه ملكشاه واستحلفهم على الطاعة لملكشاه فحلفوا فلما وصل السطان محمد فى عسكره ونزل بالجانب الغربى من بغداد نقض بعض القواد العهد وأظهروا الميل إلى السلطان محمد فخاف الوزير أياز وأسرع إلى تقرير الصلح مع السلطان محمد وتسليم السلطنة إليه وترك منازعته فيها فعبر إلى عسكر السلطان محمد واجتمع به وسلم إليه مقاليد السلطنة فأمنه هو وجميع الأمراء والقواد وضم إليه ولد أخيه ملكشاه ودخل السلطان محمد إلى بغداد فى موكب حافل لبث بها أياماً حتى رتب أمورها وأحكم نظامها وسار عنها إلى أصبهان وجعل يتصرف فى الأمور ويقاتل الفرنجة على ما أخذوه من بلاد المسلمين حتى وافته منيته فى الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وكان لما اشتد به مرضه أحضر ولده محمودا وقبله وبكى كل واحد منهما وأمره بالخروج والجلوس على تخت السلطنة وأن ينظر فى أمور الناس وعمره إذ ذاك قد زاد على أربع عشرة سنة فقال: ياأبت إنه يوم غير مبارك يعنى من طريق النجوم فقال له: صدقت يابنى ولكن على أبيك وأما عليك فمبارك بالسلطنة فخرج وجلس على التخت بالتاج والسوارين فلم يمض على السلطان محمد اليوم الثانى من جلوس ابنه حتى مات فجمعوا الأمراء وقرئت عليهم وصيته إلى ولده محمود يأمره فيها بالعدل والإحسان وكان السلطان محمد عادلاً حسن السيرة شجاعاً أطلق المكوس والضرائب فى جميع البلاد فأحبه الناس كثيراً واجتمعوا على طاعته اثنتى عشرة سنة.

ولما تمت البيعة للسلطان محمود ودبر دولته الوزير الرئيس أبو منصور أرسل إلى الخليفة المستظهر بالله يطلب أن يخطب له ببغداد فخطب له فى يوم الجمعة ثالث عشر المحرم سنة اثنتى عشرة وخمسمائة فلم يتم على الخليفة المستظهر بالله بعد الخطبة للسلطان محمود ببغداد إلا ثلاثة أشهر وبضع أيام حتى مات بعلة التراقى وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما ومضى فى خلافته ثلاثة سلاطين خطب لهم بالحضرة وهم تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان والسلطان بركيارق ومحمد ابنا ملكشاه. قال بعض الكتاب: ومن غريب الاتفاق أنه لما توفى السلطان ألب أرسلان توفى بعده القائم بأمر الله ولما توفى السلطان ملكشاه توفى بعده المقتدى بأمر الله ولما توفى السلطان محمد توفى بعده المستظهر بالله وكان الخليفة المستظهر بالله لين الجانب كريم الأخلاق محباً للخير وأهله كثير البر والإحسان لا يرد مكرمة تطلب منه وكانت أيامه

أيام سرور للرعية فكأنها من حسنها أعياد وكان حسن الخط جيد التوقيعات جيد الشعر فمن شعره:

أذاب حر الهوى في القلب ما جمدا   لما مددت إلى رسم الوداع يدا
وكيف أسلك نهج الاصطبار وقد   أرى طرائق في مهوى الهوى قددا
قد أخلف الوعد لما أن شغفت به   من بعد ما قد وفى دهري بما وعدا
إن كنت أنقض عهد الحب في خلدي   من بعد هذا فلا عاينته أبداً

وكانت أيامه عند الرعية كأنها أعياد فكان إذا بلغه ذلك فرح به وسره وإذا تعرض سلطان أو نائب إلى أذى أحد بالغ فى الإنكار والزجر عنه. فلما مات تولى الخلافة بعده ولده أبو منصور الفضل ولقب المسترشد بالله.

ومات فى خلافة المستظهر بالله أيضاً زخزياس بطرك الإسكندرية بعد أن أقام ثمانياً وعشرين سنة صرفها فى الشدائد العظيمة والبلايا الكثيرة واعتقل ثلاثة أشهر وضربت عليه المغارم الفادحة وأخذت منه الأموال الكثيرة وأمر به يوماً فألقى إلى السباع هو وسوسنه النوبى فلم تضرهما بإذن الله تعالى فأخذت السلطان يومئذ إخاذة من الخوف فصرفهما وانكف عنهما ورسم بالكف عن إيذاء النصارى فانكفوا عنهما حينا ولما مات خلا الكرسى بعده أربعة وسبعين يوماً ثم أقيم بعده سانوتيو أو هو شنودة خامس ستيهم من بلدة تلبانة وكان راهباً بدير أبو مقار وكان عالماً كبيراً وإماماً خطيراً وله مناقب كثيرة ومكارم لا تعد ووقع من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل التاسع والعشرون)

(فى خلافة أبى منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر بالله)

ثم قام بالأمر بعد المستظهر بالله ولده المسترشد بالله أبو الفضل بن أبى العباس أحمد بن المستظهر بالله بويع له بالخلافة يوم موت أبيه بعهد منه سنة إحدى عشرة وخمسمائة هجرية أى سنة سبع عشرة ومائة وألف ميلادية وكان سن المسترشد يومئذ سبعا وعشرين سنة وبايعه أخواه ابنا المستظهر وهما أبو عبد الله محمد وأبو طالب العباس وعمومته بنو المقتدى بأمر الله وغيرهم من القضاة والأمراء والأئمة والأعيان.

وكان المتولى لأخذ البيعة القاضى أبو الحسن الدامغانى. وكان نائباً عن الوزارة فأقره المسترشد بالله عليها. قال أصحاب التاريخ: ولم يأخذ البيعة قاض غير هذا وأحمد ابن أبى داود فإنه أخذها للواثق بالله والقاضى أبو علىّ إسماعيل بن إسحق أخذها للمعتضد بالله ثم إن المسترشد عزل قاضى القضاة عن نيابة الوزارة واستوزر أبا شجاع محمد بن الربيب أبا منصور وزير السلطان محمود ولما اشتغل الناس بالبيعة للمسترشد بالله ركب أخوه الأمير أبو الحسن بن المستظهر بالله سفينة ومعه ثلاثة نفر وانحدر إلى المدائن وسار منها إلى دبيس بن صدقة بالحلة فأكرمه دبيس وأخبره بموت المستظهر بالله وأقام له الإقامات الكثيرة فلما علم المسترشد بالله خبره أهمه ذلك وأقلقه وخشى عاقبته فأرسل إلى دبيس يطلب منه إعادة أبى الحسن ويشدد فى ذلك فأجابه بأننى عبد الخليفة وواقف عند أمره ومع هذا فإن أبا الحسن استذم بى ودخل منزلى فكيف أكرهه على الرجوع وكان رسول المسترشد فى ذلك إلى دبيس نقيب النقباء شرف الدين علىّ بن طراد الزينى فقصد الأمير أبا الحسن وكلمه فى عوده وضمن له عن الخليفة كل ما يريد فأجاب إلى العود. وقال: إننى لم أفارق أخى لشر أراده وإنما الخوف منه حملنى على مفارقته فإذا أمننى قصدته وتكفل دبيس بإصلاح الحال بنفسه والمسير معه إلى بغداد فعاد النقيب وأعلم الخليفة بالحال فأجاب إلى ما طلب منه ثم حدث من الأسباب والرواجف ما أخر الحال وأقام الأمير أبو الحسن عند دبيس إلى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة. ثم سار عن الحلة إلى واسط فانضم إليه كثير من الناس وكبر جمعه وأتت الأخبار إلى الخليفة بذلك فتكدر جداً وركب الأمير أبو الحسن على مدينة واسط فملكها وخيف جانبه فتقدم الخليفة المسترشد بالله بالخطبة لولى عهده ولده أبى جعفر المنصور وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة فخطب له ببغداد وكتب إلى الآفاق بالخطبة له وأرسل إلى دبيس بن مزيد فى معنىّ الأمير أبى الحسن وأنه الآن قد فارق جواره ومديده إلى بلاد الخليفة وزاحمه على سلطانه وما يتعلق به ورسم إليه بقصده ومعاجلته قبل قوّته فأرسل دبيس العساكر إليه ففارق واسط وقد تحير هو وأصحابه فضلوا عن الطريق ووصلت عساكر دبيس فصادفوهم عند الصلح فنهبوا أثقاله وهرب الأكراد من أصحابه والأتراك وعاد الباقون إلى دبيس وبقى الأمير أبو الحسن فى عشرة من أصحابه وهو عطشان وبينه وبين الماء خمسة فراسخ وكان الوقت قيظا فأيقن بالتلف وتبعه بدويان فأراد الهرب منهما فلم يقدر فأخذاه وقد اشتد به العطش فسقياه وحملاه إلى دبيس فسيره إلى

بغداد وحمله إلى الخليفة بعد أن بذل لـه عشرين ألف دينار فحمل إلى دار العزيزة وكان بين خروجه عنها وعوده إليها أحد عشر شهراً.

ولما أدخلوه على المسترشد بالله انكب على قدميه فقبلهما فقام المسترشد وقبله وبكيا وأنزله دارا حسنة كان يسكنها قبل أن يلى الخلافة وحمل إليه الخلع والتحف العظيمة وطيب نفسه فاطمأن وزالت عنه الوساوس وأخلص لأخيه المحبة وجعل المسترشد يتصرف فى الأمور فلم تكد تستقرّ به الخلافة حتى خرج عليه دبيس وخلع طاعته فكانت بينهما حروب كثيرة خرج فى إحداها الخليفة بنفسه ومعه العلماء والقضاة والمشايخ وهو متجمل بعمامة سوداء وجبة سوداء وشاش وعلى كتفه البردة وبيده القضيب وكان ينادى ياآل هاشم الغزاة الغزاة والعامة والعسكر ينادون يا منصور يامنصور فانكشفت الحروب المذكورة عن هزيمة دبيس وموت أصحابه وعظم أمر الخليفة وظهرت كلمته وهابه الأمراء وحسدوه وعظمت شوكة نوابه فاتفق أن وقعت بين نوابه وبين برتقش الزكوى نفرة وطالت أيامها فأرسل إليه الخليفة يتهدده إن هو أطال العناد معهم فخاف برتقش على نفسه وسار عن بغداد إلى السلطان محمود بهمذان وشكا إليه مما يفعله نوّاب الخليفة وحذره جانب الخليفة وأعلمه أنه قد قاد العسكر ولقى الحروب وقويت نفسه فإن لم تعاجله قصد العراق ودخلها فيزداد قوّة وجمعا ويمنعك عن نفسه وحينئذ يتعذر عليك ما هو الآن بيده فمال السلطان إلى مقالته وسار نحو العراق وأشاع الخبر بذلك فأرسل الخليفة يعلمه بما عليه البلاد من الضعف والوهن بسبب غارات دبيس وإفساد عسكره فيها وأن الغلاء قد اشتد بالناس لعدم الغلات والأقوات لهرب الأكرة عن بلادهم ويطلب منه أن يتأخر هذه الدفعة إلى أن ينصلح حال البلاد ثم يعود إليها فلا مانع له عنها وبذل له على ذلك مالاً كثيراً فلما سمع السلطان محمود هذه الرسالة قوى عنده ما قرره الزكوى برتقش وأبى أن يجيب إلى التأخير وصم العزم وسار إليها مجدا فلما بلغ الخليفة الخبر عبر هو وأهله وحرمه ومن عنده من أولاد الخلفاء إلى الجانب الغربى مظهرا للغضب والانتزاح عن بغداد إن قصدها السلطان محمود فلما خرج من داره بكاه الناس بكاء عظيماً فلما علم السلطان بذلك اشتد عليه وبلغ منه كل مبلغ فأرسل يستعطف الخليفة ويسأله العود إلى داره فأعاد الجواب أنه لابد من عودك هذه الدفعة فإن الناس هلكوا بشدة الغلاء وخراب البلاد وأنه لا يرى فى دينه أنه يزداد ما بهم وهو يشاهدهم فإن عاد السلطان وإلا رحل هو إلى العراق كيلا يشاهد ما يلقى الناس بمجيء العسكر فغضب السلطان لقوله ورحل نحو بغداد وأقام الخليفة بالجانب الغربى

فلما حضر عيد الأضحى خطب فى الناس وصلى بهم فبكى الناس لخطبته وأرسل عفيفاً الخادم وهو من خواصه فى عسكر إلى واسط ليمنع عنها نواب السلطان فأرسل السلطان إليه عماد الدين زنكى بن آقسنقر وكان له حينئذ البصرة فلما وصل عفيف إلى واسط سار إليه عماد الدين يحذره القتال ويأمره بالانتزاح عنها فأبى ولم يفعل فعبر إليه عماد الدين واقتتلوا فانهزم عسكر عفيف وقتل وأسر منهم خلق كثير وتغافل عن عفيف حتى نجا لمودّة كانت بينهما، وجاء الخبر إلى الخليفة بما جرى فجمع السفن جميعها إليه وسد أبواب دارالخلافة سوى الباب الغربى وأمر حاجب الباب ابن الصاحب بالمقام عليه لحفظ الدار ولم يبق من حواشى الخليفة بالجانب الشرقى سواه ووصل السلطان فى عسكره إلى بغداد ونزل بباب الشماسية ودخل بعض عسكره إلى بغداد ونزلوا في دور الناس فشكا الناس ذلك إلى السلطان فرسم بإخراجهم وبقى فيها من له دار وبقى السلطان يراسل الخليفة بالعود ويطلب الصلح وهو يمتنع فكان يجرى بين العسكرين مناوشة والعامة من الجانب الغربى يسبون السلطان أفحش سب ثم إن جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة ونهبوا التاج وحجر الخليفة فضج أهل بغداد من ذلك واجتمعوا ونادوا الغزاة فأقبلوا من كل ناحية فلما رآهم الخليفة خرج من السرادق والشمسية على رأسه والوزير بين يديه وأمر بضرب الكؤسات والبوقات ونادى بأعلى صوته ياآل هاشم وأمر بتقديم السفن ونصب الجسر وعبر الناس دفعة واحدة وكان له فى الدار ألف رجل مختفون فى السرادب فظهروا وعسكر السلطان مشتغلون بالنهب فأسر منهم جماعة من الأمراء ونهب العامة دار وزير السلطان ودور جماعة من الأمراء ودار عزيز الدين المستوفى ودار الحكيم أوحد الزمان الطبيب وقتل منهم خلق كثير فى الدروب وعبر الخليفة إلى الجانب الشرقى ومعه ثلاثون ألف مقاتل من أهل بغداد والسواد وأمر بحفر الخنادق فحفرت بالليل وحفظوا بغداد من عسكر السلطان ووقع الغلاء عند العسكر واشتد الأمر فكان القتال عليهم كل يوم عند أبواب البلد وعلى شاطىء دجلة وعزم عسكر الخليفة على أن يكبسوا عسكر السلطان فلم يتم لهم ذلك إذ غدر بهم أبو الهيجاء الكردى صاحب اربل وخرج كأنه يريد القتال فانضم إلى عسكر السلطان وترك الخليفة وكان السلطان قد أرسل إلى عماد الدين بواسط يأمره أن يحضر بنفسه ومعه المقاتلة فى السفن وعلى الدواب فى البر فجمع كل سفينة بالبصرة ليشحنها بالرجال المقاتلة وأكثر من السلاح وأصعد فلما قارب بغداد أمر كل من معه فى السفن وفى

البـر بلبس السلاح وإظهـار ما عندهم من الجلد والنهـضة فـسارت السـفن فى الماء والعسـاكر فى البر على شاطىء دجلة وقـد انتشروا وملئوا الأرض برا وبـحرا فرأى الناس منظرا عجـيباً كبر فى أنفـسهم وملأ صدورهم فـركب السلطان والعسكر إلى لقائهم فنظروا مـا لـ [illegible]ـنروا مثله وعظم عماد الدين فى أعـينهم وعزم السلطان على قتال بغداد حينئذ واجد فى ذلك براً وبحراً فلما رأى الخليفة المسترشد بالله الأمر على هذه الصورة وقد خرج الأمـير أبو الهيجاء من عنده بمن معـه من العسكر خاف شر العاقـبة وأجاب إلـى الصلح وترددت الرسل بينه وبين السلطان محـمود فـاصطلحا واعتذر السلطان مما جرى وكان السلطان حليماً جداً يسمع سبه بإذنه فلا يعاقب عليه فعفـا عن أهل بغداد جميعـهم، وكان أعداء الخليفة يشـيرون على السلطان بإحراق بغداد فلم يفعل وقـال: والله لا تساوى الدنيا مثل هذا الفعل وأقـام ببغداد إلى رابع شهر ربيع سنة إحدى وعشرين وحمل الخليفـة من المال كل ما استقرت القاعدة عليه وأهدى للسلطان سلاحاً وخيلاً وغير ذلك واستمرت الأمور بين صفاء وكدر وخروج وعصيان لا تستقرّ على حال من الأحوال والخليفة المسترشد يعالجها بالصبر والكياسة ويلبس لكل أمر منها لبوسه لعل الله يأتيه بالفرج القريب.

وكمـا كانت الحال على ذلك بين الخـليفة والسلطان مـحمود كـانت بين الآمر بأحكام الله صاحب مصر وبين أمرائه وقواده وجنوده وأهل البلاد إذ قد ساءت سيرته وقبح تصرفه وكثر أخذه للناس بالشبـهات فجار وظلم وأراق الدماء بغير موجب ولا سبب فاختل نظام البلاد وعاث فيها المفسدون فى البر والبحر وسلبوا وقتلوا وأحرقوا وارتفع الأمن وتعطلت الزراعـات وكادت تـقل الأقوات فـاتفق جمـاعة على قـتله وجعلوا يراقبون الفرص فلما كان اليوم الثانى من شهر ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمـسمائة علمـوا بعزمه علـى الخروج إلى متنزهه بالروضـة فكمنوا له فى الطريق فخـرج فى ثلاثة من قومه فـوثبوا عليه بالسـيوف فأثخنوه وقـيل إن الذين قتلوه هم الباطنية بإغراء بعض قـواده فكانت ولايته تسعاً وعشرين سنة وخمسـة أشهر وعمره أربع وثلاثون سنة وهو العاشر من ولـد المهدى عبيد الله. قال بعض الكتـاب: وكبر حبه فى آخر أيامـه للنساء واشتد شغفه بهن فكان لـه معهن كل يوم شأن وحكى له يوماً عن جارية مـن عرب البادية وأنها من الجمـال والكمال والرقة ومعـرفة ضروب الشعر والأدب على جانب عظيم فشغف بحبها وحمله عشقه إلى التزيى بزى العرب وخرج يتنسم أخبـار أهلها حتى نزل على حيـهم وما زال يتحيل حـتى رآها فأخذت

بمجامع قلبه ووقعت منه موقعاً عظيماً فطلبها من أهلها فأجابوه إلى زواجها فلما صارت فى قصره استوحشت فقالت له يوماً : ما لى ولهذه القصور العالية فهلا أرجعتنى إلى مضربى فتزيل عنى وحشتى قيل فبنى لها الهودج بالجزيرة على النيل وهو من غرائب البناء وكانت تحب ابن عم لها يعرف بابن مياح فكتبت له يوماً هذه الأبيات:

يابن مياح إليك المشتكي — ما لكم من بعدكم قد ملكا
كنت في حي حرا مطلقا — نائلا ما شئت منكم مدركا
فأنا الآن بقصر مؤصد — لا أرى إلا حبيسا ممسكا
كم تثنينا بأغصان اللوا — حيث لا نخشى علينا دركا
وتلاعبنا برملات الحمى — حيثما شاء طليق سلكا

فلما وصلت إليه هذه الأبيات كتب يقول:

بنت عمي والتي غذيتها — بالجوى حتى علا واحتنكا
بحت بالشكوى وعندي ضعفها — لوغدا أينفع منها المشتكي
مالك الأمر إليه يشتكي — هالك وهو الذي قد أهلكا
شأن داود غدا في عصرنا — مبديا بالتيه ما قد ملكا

فبلغت هذه الأبيات الآمر فقال: والله لولا أنه أساء الأدب فى البيت الرابع لرددتها إلى حيه وزوّجته بها.

ولما قتل الآمر لم يكن له ولد بعده فظهر غلام أرمنى من غلمانه وتغلب على البلاد لاختلال الحال واستحوذ على الأمور ثلاثة أيام ورام أن يتأمر فحضر الوزير أبو علىّ أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى أمير الجيوش وأقام الحافظ لدين الله أبا الميمون عبد المجيد بن الأمير أبى القاسم بن المستنصر بالله وبايعوه لينظر فى الأمر نيابة حتى يكشف عن حمل كان للآمر فتكون الولاية فيه ويكون هو نائباً عنه فلما تم له الأمر استحوذ الوزير أبو علىّ على جميع الأمور دونه وحصره فى مجلس لا يدخل إليه أحد إلا من يريده الوزير وخطب لنفسه على المنابر ونقل جميع الأموال من قصر الإمارة إلى داره وأسقط من الدعاء ذكر إسماعيل الذى هو جدّهم وإليه تنسب الإسماعيلية وهو ابن جعفر بن محمد الصادق وأسقط من الأذان حى على خير العمل وأمر الخطباء أن يخطبوا له بألقاب كتبها لهم وهى: السيد الأفضل الأجل سيد مماليك أرباب الدول والمحامى عن حوزة الدين وناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين ناصر إمام الحق فى حالتى غيبته وحضوره والقائم بنصرته بماضى

سيفه وصائب رأيه وتدبيره أمين الله على عباده وهادى القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده ومرشد دعاء المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده مولى النعم ورافع الجور عن الأمم ومالك فضيلتى السيف والقلم أبو علىّ أحمد بن السيد الأجل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش. قال أصحاب التاريخ: وكان الأفضل إمامىّ المذهب يكثر ذم الآمر والتناقص به فنفر منه شيعة العلويين ومماليكهم وكرهوه وعزموا على قتله فخرج فى العشرين من المحرّم سنة ست وعشرين يريد خزانة السلاح ليفرّق على الأجناد على جارى العادة فى الأعياد فسار معه عالم كثير من الرجالة والفرسان فتأذى من الغبار فأمر بالبعد عنه وسار منفرداً معه رجلان فصادف رجلين بسوق الصياقلة فضرباه بالسكاكين وجاء ثالث فضربه بسكين فى خاصرته فسقط عن دابته ورجع أصحابه فقتلوا الثلاثة وحملوه إلى داره فدخل عليه الحافظ وتوجع له وسأله عن الأموال فقال: أما الظاهر منها فأبو الحسن بن أسامة يعرفه وكان من أهل حلب وتولى أبوه قضاء القاهرة وأما الباطن فابن البطائحى يعرفه فقالا صدق فلما مات نقل من أمواله مالا يحصى عددا وبقى السلطان فى داره أربعين يوماً والكتاب بين يديه والدواب تحمل وتنقل ليلاً ونهاراً ووجد له من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة القليلة الوجود ما لا يوجد مثله لغيره واعتقل أولاده وكان عمره سبعاً وخمسين سنة وكانت ولايته بعد أبيه ثمانيا وعشرين سنة منها أيام المستنصر وجميع أيام المستعلى وأيام الآمر إلى هذه السنة من أيام الحافظ، وكان الأفضل المذكور حسن السيرة محبا للناس ميالا للخير عاملاً على إعلاء شأن البلاد مجداً فى عمارها ونماء ثروتها فبنى فيها المبانى العظيمة والعمائر المفيدة ووسع خلجانها وأكبر مساقى أرضها وهو الذى حفر البحر المعروف ببحر أبى المنجا فى سنة ست وخمسمائة هجرية وسماه باسم مهندسه أبو المنجا أبو شعيا اليهودى وأنشأ أيضاً المرصد الكبير على مقربة من المقطم فى المكان الذى كان يعرف قبل ذلك بالجرف وله غير ذلك من الآثار النافعة. حكى أنه لما قتل وظهر الظلم بعده اجتمع جماعة من الناس واستغاثوا بالسلطان وكان من جملة قولهم أنهم لعنوا الأفضل بحضرة السلطان فسألهم عن سبب لعنهم إياه فقالوا عدل وأحسن السيرة ففارقنا بلادنا وأوطاننا وقصدنا بلاده لعدله فقد أصابنا بعده هذا الظلم فهو كان سبب ظلمنا قيل فأحسن السلطان إليهم وأمر بالإحسان إلى الناس وكثرت الأقوال فى سبب قتل الأفضل وقاتليه فقال قوم: إن صاحبه الآمر بأحكام الله وضع عليه فقتله، قلت: وصوابه الحافظ لدين الله. قالوا: ولقد كان فى قصد

الآمر أن يضع عليه من يقتله إذا دخل عليه قصره للسلام أو فى أيام الأعياد فمنعه من ذلك ابن عمه أبو الميمون عبد المجيد. وقال له : إن فى هذا الفعل شناعة وسوء سمعة لأنه قد خدم دولتنا هو وأبوه خمسين سنة وليس منهم إلا النصح لنا والمحبة لدولتنا وقد سار ذلك فى أقطار البلاد فلا يجوز أن تظهر منا هذه المكافأة الشنيعة ومع هذا فلابدّ وأن نقيم غيره مكانه ونعتمد عليه فى منصبه فيتمكن مثله أو يقاربه فيخاف أن نفعل به مثل ما فعلناه بهذا فيحذر من الدخول إلينا خوفاً على نفسه وإن دخل علينا كان خائفاً مستعداّ للامتناع وفى هذا الفعل ما يسقط المنزلة. قال: والرأى عندى أن تراسل أبا عبد الله البطائحى فإنه الغالب على أمر الأفضل والمطلع على سره وقصده أن يوليه منصبه ونطلب منه أن يدبر الأمر فى قتله إذا ركب فإذا ظفرنا بمن قتله قتلناه وأظهرنا الطلب بدمه والحزن عليه فنبلغ غرضنا ويزول عنا قبح الأحدوثة ففعلوا ذلك وقتلوه وقال آخرون غير ذلك. قلت: ونسبة قتله إلى الآمر بأحكام الله خطأ فإن الآمر مات فى ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة والأفضل قتل فى المحرم افتتاح سنة ست وعشرين وخمسمائة فيكون بين موت الاثنين سنة وشهران فيكون القاتل له إذا الحافظ لدين الله بن محمد، ولما قتل ولى بعده أبو عبد الله بن البطائحى ولقب المأمون وتحكم فى الدولة وتصرّف واتسعت كلمته وبقى على ذلك إلى سنة تسع عشرة وخمسمائة فقبض عليه وصلب هو وإخوته واتسعت كلمة الحافظ بعد موت الأفضل وتصرّف فى الأمور واستبدّ بالملك فكثر ظلمه وكبر عسفه واشتدّ على الأمراء والقوّاد شدّة عظيمة وأخذ الكثير منهم بالشبهات واشتدّ على النصارى وبالغ فى التضييق عليهم لأنهم كانوا يحبون الأفضل ابن بدر الجمالى وكان يثق بهم ويعمل بمشورة كبارهم لإخلاصهم فى خدمة الدولة وخلودهم إلى السكون والطاعة وما زال على هذا الحال إلى أن كان من أمره ما سيذكر فى محله.

ولما كانت سنة تسع وعشرين وخمسمائة فى سابع ذى القعدة مات الخليفة المسترشد بالله فكانت خلافته كلها خروج وعصيان وتمرّد وطغيان ولكنه كان شهماً مقداماً عالى الهمة واسع الدراية كبير الدربة قيل لم يل الخلافة بعد المعتضد بالله أعظم شهامة منه إذ كان شديد الهيبة وقد ضبط الأمور وأحيا مجد بنى العباس

وجاهد وغزا مرارا فكانت خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وقيل سبعة أو ستة أشهر. روى أنه ورد إليه رسل فجلس لهم فى جماعة من أهل بيته فلما أحضروهم بين يديه هجم عليه الفداوية منهم بالسكاكين فقتلوه وقتلوا معه جماعة من أصحابه يقال إن مسعودا أخا السلطان محمود جهز عليه الفداوية المذكورين ففعلوا به ذلك وعمره يومئذ أربع وأربعون سنة وقيل خمس وأربعون فبايعوا بالخلافة بعده ولده أبا منصور جعفرا الراشد بالله.

ومات فى أيامه سانوتيو بطرك الإسكندرية بعد أن قام أربع عشرة سنة قاسى فيها من الشدائد أعظمها وفعل العمال بالنصارى من الجور والظلم ما لا يكاد يدخل تحت حصر فأقام المتأصلون بعده خرسطودولو ومعناه عبد المسيح وكان راهباً بصومعة سنجار وهو سادس ستيهم وأصلهم من بلدة بورا. فلما استقر به المنصب قام من مدينة الإسكندرية إلى مصر واتخذ كنيسة المعلقة بظاهر الفسطاط مقرا له وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل الثلاثون)

(فى خلافة أبى منصور جعفر الراشد بالله)

ثم قام بالأمر بعد المسترشد بالله ابنه أبو منصور جعفر الراشد بالله بن المسترشد ابن المستظهر بويع له بالخلافة ثانى يوم موت أبيه فى ثامن عشر ذى القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائه هجرية أى سنة أربع وثلاثين ومائة وألف ميلادية بعهد من أبيه فجعل يتصرف فى الأمور سنة فلما كانت سنة ثلاثين حضر برتقش الزكوى من عند السلطان مسعود إلى بغداد يطالبه بما كان استقر عليه الخليفة المسترشد من المال الى السلطان وهو أربعمائة ألف دينار كما تقدم بيان ذلك فذكر الخليفة الراشد بالله أنه لاشىء عنده وأن المال جميعه كان مع المسترشد بالله فنهب أيام الفتنة فلم يقتنع برتقش بذلك وأعاد القول فراجعه الخليفة وترددت الرسل بينهما أياماً ثم علم الراشد أن برتقش يريد الهجوم على دار الخلافة وتفتيشها وأخذ ما فيها من الأموال فجمع الخليفة العساكر لمنعها وأمر عليهم كبج آبه وأعاد عمارة السور الذى تهدم من الحوادث المترادفة فلما علم برتقش بذلك اتفق هو وبك آبه صاحب الشحنة ببغداد وأعلمه أن السلطان إنما يريد أن يهجم على دار الخلافة فأحس الراشد بذلك واستعد

لمنعهم وركب برتقش ومعه العساكر والأمراء الكبجية ومحمد بن عسكر فى نحو خمسة آلاف فارس ولقيهم عسكر الخليفة فاقتتلوا قتالاً شديداً فأخرجوا عسكر السلطان إلى دار السلطان فساروا إلى طريق خراسان ثم انحدر بك آبه إلى واسط وسار برتقش إلى البندنجيين فنهب العامة دار السلطان ولم يبقوا فيها شيئاً فاشتدت العداوة بين الخليفة وبين السلطان وعظمت الفتنة وكبر الأمر على السلطان واستخدم الخليفة الراشد جنداً كثيراً وأكثر من جمع السلاح ومعدات الحرب وتهيأ للقاء السلطان مسعود فلما جاء الخبر إلى السلطان باستعداد الراشد كاتب أتابك زنكى واستماله وكذلك فعل ببرتقش فأشار أصحاب الراشد عليه بالتوقف فأقبل السلطان مسعود بجيوشه ودخل بغداد فى ذى القعدة وقيل فى ذى الحجة سنة ثلاثين فنهب دور الجند ومنع من نهب البلد. واستمال الرعية إليه وأحضر القضاة والشهود فقدموا فى الخليفة الراشد بأنه صدرت عنه سيرة قبيحة من سفك الدماء المحرمة وارتكاب المنكرات وفعل ما لا يجوز فعله وشهدوا عليه بذلك فحكم قاضى القضاة وهو يومئذ ابن الكرخى بخلعه فخلعوه لأربع عشرة من ذى القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة، وكان الراشد لما دخل السلطان إلى بغداد ونهب عسكره الدور هرب فى قليل من خواصه ومعه أتابك زنكى الى الموصل فطلبه السلطان مسعود فهرب إلى فارس ثم دخل إلى أصفهان فحاصرها وتمرض هناك فدخل عليه جماعة من الفداوية فقتلوه وله إحدى وعشرون سنة وقيل ثلاثون سنة ووردت الأخبار بموته الى بغداد فجلسوا للعزاء به فى دار النوبة يوماً واحداً فكانت خلافته أحد عشر شهراً وأحد عشر يوماً.

ولما خلع الخليفة الراشد على هذه الصورة وانقطعت خطبته فى بغداد وجميع أعمالها استشار السلطان مسعود جماعة من أعيان بغداد منهم الوزير على بن طراد وصاحب المخزن وغيرهما فيمن يصلح أن يلى الخلافة فقال الوزير: أحد عمومة الراشد وهو رجل صالح قال: من هو؟ قال: من لا أقدر أن أفصح باسمه لئلا يقتل ثم ذكر السلطان أبا عبد الله الحسين وقيل محمد بن المستظهر بالله ودينه وعقله وعفته ولين جانبه فحضر السلطان دار الخلافة ومعه الوزير شرف الزينبى وصاحب المخزن ابن القشلانى وغيرهما وأمر بإحضار الأمير أبى عبد الله بن المستظهر من المكان الذى كان يسكنه فأحضر وأجلس فى الميمنة ودخل السلطان إليه والوزير وتحالفا وقرر الوزير القواعد بينهما وخرج السلطان من عنده وحضر الأمراء وأرباب المناصب والقضاة والفقهاء وبايعوه ثامن عشر ذى الحجة سنة ثلاثين وخمسمائة ولقب المقتفى لأمر الله كما سيذكر فى محله.

(الفصل الحادى والثلاثون)

(فى خلافة أبى عبد الله محمد المقتفى لأمر الله)

ثم قام بالأمر بعد الراشد عمه أبو عبد الله بن محمد ولقب المقتفى لأمر الله بن محمد المستظهر بن المقتدى بويع له يوم خلع ابن عمه وهو الرابع عشر من ذى القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة هجرية أى سنة خمس وثلاثين ومائة وألف ميلادية. فلما استقرت به الخلافة أرسل إليه ابن عمه الراشد رسولاً من الموصل مع رسول أتابك زنكى وهو كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزورى فأحضروه فى الديوان وسمعت رسالته عن الراشد بالله فى أمر خلع بيعته وقرروا ذلك بحضرة القضاة والشهود ثم سيرت الكتب بخلافته الى الآفاق واستوزر شرف الدين على بن طراد البرنشنى ابن عم الوزير وأعاده إلى منصبه وقرر كمال الدين حمزة بن طلحة على منصبه صاحب المخزن. قال بعض الكتاب: فجرت الأمور على أحسن نظام وأرسل السلطان مسعود بعد قليل إلى الخليفة المقتفى لأمر الله فى تقرير إقطاع ليكون لخاصته فكان جوابه إن فى الدار - يعنى دار الخلافة - ثمانين بغلة تنقل الماء من دجلة فلينظر السلطان ما يحتاج إليه ممن يشرب هذا الماء ويقوم به فترددت الرسل فى ذلك بينهما وطال الكلام أياماً كثيرة كادت تتكدر الخواطر فى خلالها ومازالوا حتى تقررت القاعدة بينهما على أن يجعل له ما كان للمستظهر بالله من الإقطاع فأجاب الخليفة إلى ذلك وقال السلطان لما بلغه قوله: لقد جعلنا فى الخلافة رجلاً عظيماً، قلت: وهو قول يدل على زوال ما كان باقياً إلى هذا الحين من بأس الخلافة وأنها صارت تحت كلمة السلطنة خاضعة لأمرها.

وجاءت الأخبار إلى الحافظ العلوى بمصر بخلافة المقتفى بالله فلم تهمه لاشتغاله بالفتنة القائمة بالقاهرة بسبب خروج وزيره تاج الدولة بهرام النصرانى الأرمنى وذلك أنه لما استوزره فى سنة تسع وعشرين وخمسمائة تمكن فى البلاد واتسعت كلمته وغلب على الحافظ واستعمل الأرمن وعزل المسلمين وأساء السيرة فيهم وأهانهم هو والأرمن الذين ولاهم وطمعوا فيهم ولم يكن من أهل مصر من تحركه الغيرة ولا تأخذه النخوة سوى الأمير رضوان بن الريحينى فإنه لما ساءه فعل الوزير وأقلقه جمع جمعاً كثيراً وقصد القاهرة فسمع به بهرام الوزير فخاف وهرب إلى الصعيد بغير قتال ولا حرب وقصد مدينة أسوان. فمنعه واليها من الدخول إليها وقاتله وقتل السودان

من الأرمن أصحابه كثيراً فلما لم يقدر على الدخول إلى أسوان أرسل إلى الحافظ يطلب الأمان فأمنه فعاد إلى القاهرة فسجن بالقصر فبقى مدة ثم لبس زى الرهبنة وترهب ولحق بأحد الديارات واستوزر الحافظ الأمير رضوان المذكور ولقبه بالملك الأفضل فكان أول وزير للمصريين لقب بالملك فجعل يتصرف فى الأمور واتسعت كلمته وكاد يتغلب على الحافظ ثم فسد ما بينه وبين الحافظ فعمل الحافظ على إخراجه فثار الناس عليه منتصف شوّال سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة فهرب من داره وتركها بما فيها فنهب الناس منها ما لايعد ولايحصى وركب الحافظ فسكن الناس واختفى النهابون ونقل ما بقى فى دار رضوان إلى قصره وسار رضوان إلى الشام يستنجد بالأتراك ويستنصرهم فأرسل إليه الحافظ الأمير ابن مصال ليرده بالأمان والعهد أن لا يؤذيه فرجع إلى القاهرة فحبسه الحافظ عنده فى القصر * وفى رواية أنه سار إلى الشام وقصد صرخد فوصل إليها فى ذى القعدة ونزل على صاحبها أمين الدولة كمشتكين فأكرمه وعظمه وأقام عنده ثم سار إلى مصر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ومعه جيش عظيم فقاتل المصريين عند باب النصر فهزمهم وقتل منهم جماعة كثيرة وأقام على الباب المذكور ثلاثة أيام فتفرق منه كثير ممن كان معه فخشى العاقبة وعزم على العود إلى الشام فأرسل إليه الحافظ الأمير بن مصال فرده وحبسه فى القصر وجمع بينه وبين عياله وأهله فأقام فى القصر إلى سنة ثلاث وأربعين فنقب الحبس وخرج منه وقد أعدت له خيل فهرب عليها وعبر النيل إلى الجيزة فاجتمع عليه كثير من المغاربة وغيرهم فحشد منهم جمعاً كبيراً وعاد إلى القاهرة فقاتل المصريين عند جامع ابن طولون وهزمهم ودخل القاهرة فنزل عند جامع الأفخر وأرسل إلى الحافظ يطلب منه مالاً ليفرقه على عادتهم فإنهم كانوا إذا وزروا وزيرا أرسلوا اليه عشرين ألف دينار ليفرقها فأرسل الحافظ إليه عشرين ألف دينار فقسمها وكثر عليه الناس فطلب زيادة فأرسل إليه الحافظ عشرين ألف دينار ففرّقها فتفرق الناس وخفوا عنه وبقى هو فى قلة من أصحابه وإذا الصوت قد وقع وعلت الضوضاء وخرج إليه جمع كثير من السودان وضعهم الحافظ عليه فحملوا على غلمانه فقتلوهم وأعملوا السيف فيمن معه من المغاربة فقدم إليه بعض أصحابه الفرس ليركبه فلما أراد ركوبه ضرب الرجل رأسه بالسيف فقتله وحمل رأسه إلى الحافظ فأرسله إلى زوجته فوضع فى حجرها فألقت به وقالت: هكذا يكون الرجال، ولم يستوزر الحافظ أحداً بعد موت رضوان وباشر الأمور بنفسه ومازال يتصرف والأمور طوع يده تارة وخارجة عنه أخرى حتى وافته منيته فى جمادى

الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة هجـرية فكانت سلطنته عشرين سنة إلا خمسة أشهر وعمره نحوا من سبع وسبعين سنة ولم يزل فـى جميعها محكوماً عليه مغلوباً على أمره لا كلمة له وإنما الكلمة لوزرائه حتى أنه جعل ابنه حسناً وزيره وولى عهده ليتخلص بـذلك من أسر الوزراء وتغلبهم عليه فلم يفلح إذ حكم علـيه ابنه المذكور واستبد بالأمر دونه وتجبر وظلم وقتل كثـيراً من أمراء دولته وصادر الكثير منهم فكبر ذلك على الحافظ واستعظمه جداً فسقاه سماً فمات * قال أصحاب التاريخ: ولم يل الأمر من العلويين من أبوه غيـر خليفة غير الحافظ والعـاضد، ولم مات الحافظ ولى الأمر بعده ابنه الظافر بأمـر الله أبو منصور إسماعيل بن عبد المجيـد الحافظ فاستوزر ابن مصال فلبث أربعين يوماً يدبر الأمر واتفق بعد ذلك أن خرج جماعة من السودان عن الطاعة فعاثوا وأفسدوا وعظم شرهم فخرج ابن مصال لقتالهم وردعهم فلما علم العادل بن السلار وهو بـالإسكندرية بخروج ابن مصار سار إلى الـقاهرة ونازعه فى الوزارة حتى تولاها وتمكن منها ثم سير ربيبه عباس بن أبى الفتوح بن يحيى بن تميم ابن المعز بن باديس الصنهاجى فى عـسكر لقتال ابن مصال فظفـر به وقتله وعاد إلى القاهرة واستقر العادل وتمكن وعلت كلمـته فلم يبق للسلطان معه حكم واشتد على الأمراء وأخذ بأسباب الحزم وبالغ فى التجلد فلم يغن هذا كله شيئاً إذ كثر الاختلال واشتـد وهن الدولة وتطاولت أيدى الطامعين إلـى أملاكها فـأخذ الفرنجـة فى أيامه عسقلان وجاءت مراكـبهم إلى دمياط فقاتلوا تنيس وحاصروها وضيـقوا عليها أياماً كثيرة ثم انصـرفوا عنها وأخذ نور الدين محمود دمشق من مـجير الدين أبق ومازال ابن العادل يتصرف إلى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة فقام عليه عباس بن أبى الفتوح بن يحيى الصنهاجى فقتله بإغراء الأمير أسامة بن منقذ ووافقه على ذلك الظافر بالله وولى الوزارة بعـده فكانت الـوزارة فى مـصـر لمن غلب والعلويون وراء الحـجـاب والوزراء كالمتـملكين لا كلمة فوق كلمـتهم. قال أصـحاب التـاريخ: وقل أن ولى الوزارة أحد بعض الأفضل أمير الجيوش إلا بحرب وقتل وما شابه ذلك.

وتمكن عبـاس من الدولة وبسط يده على الأمـور وعزل وولى وجـمع الأموال وهادته الأمـراء وخضعـت إليه العـمال فى جـميع الجـهات وكان الأمـراء والأجناد يعلمون أنه إنما ارتقى منصب الوزارة بفـعل الأمير أسامة بن منقـذ حيث أغراه على قتل العادل كما تقدم فعزمـوا على قتل ابن منقذ وصاروا يراقبون الفرص فلما أحس ابن منقذ بما عزمـوا عليه خاف على نفســه وأخذ يدبر الحيلة فى فساد أمـرهم فخلا بعباس وقـال له: كيف تصبر على مـا أسمع من قبيح القول؟ قـال: وما ذلك قال:

الناس يزعمون أن الظافر يواصل ابنك نصراً وكان نصر خصيصا للظافر وكان ملازما له ليله ونهـاره وكان من أجـمل الناس صورة وكـان الظافـر يهتم به فـانزعج لذلك عباس وعظم عليه وقال كيف الحيلة؟ قال: تقتله فيذهب عنا العار فذكر الحال لولده نصر فاتفقا على قتله. وفى رواية أخرى أن الظافر أقطع نصر بن عباس المذكور قرية قليوب وهى من أعظم قرى مصر يومئـذ فدخل عليه مؤيد الدولة بن منقذ وهو عند أبيه عباس فقال له نصر: قد أقطعنى مـولانا قرية قليوب فقال له مؤيد الدولة ما هى فى مهرك بكثير فعظم عليه وعلى أبيه وأنف من هذا الحال وشرع أبوه عباس فى قتل الظافر وأمر ابنه بذلك فحضر نصر عند الظافر يوماً وقال: أشتهى أن تجيء إلى دارى لدعوة صنعتها ولا تكثر من الجمع فمشى معه فى نفر يسير من الخدم ليلاً فلما دخل الدار قتله ومن معه وأفلت خويدم صغير اختباء فلم يره ودفن القتلى فى داره وأخبر أباه عباسـا بالخبر فبكر إلـى القصر وطلب من الخدم الخـصيصين بخدمـة الظافر أن يطلبوا له إذنا فى الدخول عـليه لأمر يريد أن يأخذ رأيه فيـه فقالوا له: إنه ليس فى القصـر فقال: لابـد منه وكان غرضـه أن ينفى التهـمة عنه بقتله وأن يـقتل كل من بالقصر ممن يخـاف أن ينازعه فيمن يقـيمه فى السلطنة فلما ألح عليـهم عجزوا عن إحضاره فبينما هم يطلبونه حـائرين دهشين لايدرون ما الخبر إذ دخل عليهم الخويدم الصغير الذى شـاهد قتله وقد هرب من دار العباس عند غفلتـهم عنه وأخبرهم بقتل الظافر فخرجوا إلى عباس وقالوا له: سل ولدك عنه فإنه يعرف أين هو لانهما خرجا جميعاً فلما سمع ذلك منهم قال: أريد أن أستعرض القصر لئلا يكون قد اغتاله أحد من أهله فاستعرض القصر فقتل أخوين للظافر وهما: يوسف وجبريل وأجلس الفائز بنصر الله أبا القاسم عـيسى بن الظافر بأمر الله إسماعـيل ثانى يوم قتل أبيه وله من العمر خمس سنين فحمله عباس على كتفه وأجلسه على سرير الملك وبايع له الناس وأخذ عبـاس يومئذ من القصر من الأمـوال والجواهر والأعلاق النفيـسة ما أراد ولم يترك فيه إلا ما لا خير فيه، وظن عباس بعد قتله للظافـر وإقامة ابنه الفائز أن الأمر يتم له على ما يريد فكان الحال خـلاف ما اعتقده فإن الكلمـة اختلفت عليه وثار به طوائف الجند من الأتراك والسودان فكان إذا أمر أمراً لايلتفت إليه ولا يسمع له قول فزالت هيبتـه وانحطت مرتبته فى أعين الرعية فأرسل من بالقـصر من النساء والخدم إلى الصالح طلائع بن رزيك وهو يومئـذ فى منية ابن خصيب بالصعيـد واليا عليها وعلى أعمالها ولم تكن يومئذ من الأعمال الجليلة ولكنها كانت أقرب الأعمال إليهم يشكون مـا حل بهم من عباس وكـان فى ابن رزيك شهـامة فـجمع جيـشاً عظيـماً

وانحدر يريد قتال عباس فلما سمع عباس ذلك خرج من مصر إلى الشام بما معه من الأموال التى لاتحصى كثرة ومن التحف والأشياء التى لاتوجد إلا هناك مما كان قد أخذه من القصر فلما سار وقع به عسكر الفرنجة فى الطريق فقتلوه وأخذوا جميع ما كان معه وسار الصالح صاحب منية ابن خصيب فدخل القاهرة بأعلام سود وثياب سود حزناً على الظافر والشعور التى أرسلت إليه من نساء القصر على رؤوس الرماح فخلع عليه خلع الوزارة واستقر له منصبها وأحضر الخويدم الذى شاهد قتل الظافر فأراه موضع دفنه فأخرجه ونقله إلى مقابرهم بالقصر ولما قتل الفرنجة عباساً وأخذوا ما معه من الأموال وغيرها أسروا ابنه فأرسل الصالح إلى الفرنجة وبذل لهم مالاً وأخذه منهم فسار من الشام مع أصحاب الصالح ولم يكلم أحدًا منهم كلمة واحدة إلى أن رأى القاهرة فأنشد:

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالى والجدود العواثر

فأدخلوه القصر ثم أخرج بعد أيام ميتاً وصلب على باب زويلة واستقصى الصالح بيوت الكبار والأعيان بالديار المصرية فقبض على أهلها وأخذ أموالهم وأبعدهم عن ديارهم فمنهم من هلك ومنهم من تفرق فى البلاد ومنهم من نزح إلى الحجاز واليمن وغيرهما. قال بعض الكتاب: وكان دخول الملك الصالح إلى القاهرة بالأعلام السود والثياب السود من الفأل العجيب فإنه لم يمض سوى خمسة عشر عاماً حتى دخلت القاهرة الأعلام السود العباسية وأزالت الأعلام العلوية ولم يزل الفائز بنصر الله لا كلمة له والحكم للصالح بن رزيك الوزير حتى مات الفائز فى صفر سنة خمس وخمسين وخمسمائة وعمره إحدى عشرة سنة فكانت سلطنته ست سنين ونحو شهرين فلما مات دخل الصالح بن رزيك القصر واستدعى خادماً كبيراً وقال له: من ههنا يصلح للخلافة؟ فقال ههنا جماعة وذكر أسماءهم وذلك له منهم إنساناً كبير السن فأمر بإحضاره فقال له بعض أصحابه سراً: لا يكون عباس الوزير أحزم منك حيث اختار الصغير للخلافة وترك الكبار واستبد بالأمر فأعاد الصالح الرجل إلى موضعه وأمر حينئذ بإحضار العاضد لدين الله أبى محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ ولم يكن أبوه خليفة وكان العاضد يومئذ مراهقاً قارب البلوغ فبايع له وزوجه الصالح ابنته ونقل معها من الجهاز ما لا يسمع بمثله.

وكما كانت أمور السلطنة فى مصر فى اختلال وأحوالها فى اعتلال بسبب الفتن

والخطوب المتراكمة المترتبة على فعال الطامعين فى منصب الوزارة فكذلك كانت أحوال الخلافة ببغداد الى هذا الحين إذ ظهرت الفتن وعمت الإحن وقامت الحروب فى كل الجهات على ساقها واشتدت وطالت أيامها فاختل نظام الأمور وتعذر تدبير الجمهور وعاث أصحاب الفساد فقتلوا ونهبوا وفعلوا ما لا خير فيه وكان من الحوادث أيضاً فى تلك الأيام أن زاد دجلة إلى حد لم يسبق له مثال فخرق الفوارج فوق بغداد وأقبل المد الى البلد فامتلأت الصحارى وخندق البلد وأفسد الماء السور ففتح فيه فتحة فوقع بعض السور عليها فسدها ثم فتح الماء فتحة أخرى وأهملوها ظناً أنها تنفس عن السور لئلا يقع فغلب الماء وتعذر سده فغرق كثير من الدروب والحارات ودب الماء تحت الأرض إلى الكثير من الأماكن فوقعت وأخذ الناس يعبرون إلى الجانب الغربى فبلغت أجرة المعبرة عدة دنانير ولم يكن يقدر عليها لما أصاب الناس ثم نقص الماء وتهدم السور وبقى الماء الذى بداخل السور يدب حتى كثر الخراب وبقيت المحال لا تعرف وإنما هى تلول وقد غرق أيضا بالجانب الغربى من دجلة جميع المقابر وانخسفت وخرج الموتى على سطح الماء فكان أمراً عظيماً جداً لم يسبق له مثيل فيما غبر.

ولما كانت سنة أربع وخمسين وخمسمائة مرض الخليفة المقتفى لامر الله واشتد مرضه وخاف الناس عليه ثم عوفى فضربت البشائر ببغداد وفرقت الصدقات من الخليفة ومن أرباب الدولة وغلقت الحوانيت أسبوعاً وعم الفرح جميع الأهالى ثم لم يلبث أن عاوده المرض فى سنة خمس وخمسين فمات فى ثانى ربيع الأول بعلة التراقى وهو ابن ست وستين سنة فكان خلافته ثلاثا وعشرين سنة وقيل أربعا وعشرين وثلاثة أشهر وستة عشر يوما وقيل خمسا وعشرين سنة وكان شهماً كريماً حليماً حسن السيرة ذا رأى وتدبير وهو أول من استبد بالحكم منفرداً عن السلطان بالعراق من أول يوم الديلم إلى موته وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المستنصر إلى الآن إلا الخليفة المعتضد وكان شجاعاً مقداماً مباشراً للحروب بنفسه وكان يبذل الأموال الجليلة لأصحاب الأخبار فى جميع البلاد حتى كان لايفوته منها شىء وقد عمل لنفسه من العقيق تابوتاً دفن فيه ، ولما مات ولى الخلافة بعده أبو المظفر يوسف المستنجد بالله.

(الفصل الثانى والثلاثون)

(فى خلافة أبى المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفى لأمر الله)

ثم قام بالأمر بعد المقتفى لأمر الله ابنه أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفى لأمر الله وقد كان أبوه ولاه العهد فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة فبويع له بالخلافة بعد موت أبيه بيوم وقيل بل يوم موت أبيه سنة خمس وخمسين وخمسمائة هجرية أى سنة ستين ومائة وألف ميلادية وكان للمقتفى حظية هى أم ولده أبى علىّ وكانت تكره أبا المظفر وتتمنى تسليم الأمر لولدها أبى على فلما اشتد مرض المقتفى وأيست منه أرسلت إلى جماعة من الأمراء وبذلت لهم الإقطاعات الكثيرة والأموال الجزيلة ليساعدوها على أن يكون ولدها خليفة فقالوا: وكيف الحيلة مع ولى العهد فقالت: إذا دخل على أبيه قبضت عليه وكان يدخل إلى أبيه كل يوم فقالوا: لابد لنا من أحد من أرباب الدولة فوقع اختيارهم على أبى المعالى ابن الكيا الهراسى فدعوه إلى ذلك فأجابهم على أن يكون وزيراً فقبلوا ما طلب فلما استقرت القاعدة بينهم وعلمت أم أبى على أحضرت عدة من الجوارى وأعطتهن السكاكين وأمرتهن بقتل ولى العهد المستنجد بالله وكان للمستنجد خصى صغير يرسله كل وقت يتعرف أخبار أبيه فرأى الجوارى بأيديهن السكاكين ورأى بيد أبى على وأمه سيفين فعاد الى المستنجد فأخبره وأرسلت هى إلى المستنجد تقول: إن والدك حضره الموت فاحضر لتشاهده فاستدعى أستاذ دار عضد الدولة وأخذه معه هو وجماعة من الفراشين ودخل الدار وقد لبس الدروع وأخذ بيده السيف فلما دخل ثار به الجوارى فضرب واحدة منهن فجرحها وكذلك أخرى وصاح فدخل أستاذ الدار ومعه الفراشون فهرب الجوارى فأخذ أخاه أبا على وأمه فسجنهما وأخذ الجوارى فقتل منهن وأغرق.

وجلس المستنجد للبيعة فبايعه أهله وأقاربه وأولهم عمه أبو طالب ثم أخوه أبو جعفر بن المقتفى وكان أكبر من المستنجد ثم بايعه الوزير بن هبيرة وقاضى القضاة وأرباب الدولة والعلماء وخطب له يوم الجمعة ونثرت الدنانير والدراهم ولما استقرت به الخلافة أقر ابن هبيرة على وزارته وأصحاب الولايات على ولاياتهم وأزال المكوس والضرائب وقبض على القاضى ابن مزاحم وبئس الحاكم هو وأخذ منه مالاً كثيراً وأخذ كتبه فأحرق منها فى الرحبة ما كان من علوم الفلسفة فكان منها كتاب الشفاء

لابن سينا وكتاب إخوان الصفا وما يشاكلهما وقدم عضد الدين بن رئيس الرؤساء فكان أستاذ الدار ومكنه وتقدم الى الوزير أن يقوم له تعظيماً وعزل قاضى القضاة أبا الحسن على بن أحمد الدامغانى وأقام مكانه أباجعفر عبد الواحد الثقفى وخلع عليه وأدناه منه، ووردت الأخبار إلى مصر بخلافة المستنجد وموت المقتفى فلم يلتفت إليها الملك الصالح بن رزيك وزير العاضد لدين الله وأهملها كإهماله لغيرها من بقية الأمور واشتغاله بالتحكم فى دولة العاضد واستبداده بالأمر والنهى وجباية الأموال وعزله الولاة والعمال وتبعيده كل من كان يخشى من وثوبه حتى أبغضه الأمراء والعامة وحرم القصر وتمنوا موته والخلاص من شره فأرسلت عمة العاضد لدين الله الأموال إلى بعض الأمراء ودعتهم إلى قتله وكان أشدهم عليه فى ذلك إنسان يقال له ابن الداعى فاتفقوا على قتله ووقفوا له يوما فى دهليز القصر فلما دخل ضربوه بالسكاكين على دهش منه فجرحوه جراحات مهلكة وحمل إلى داره وفيه رمق فأرسل إلى العاضد لدين الله يعاتبه على الرضا بقتله فأقسم العاضد أنه لايعلم بذلك ولم يرض به فقال: إن كنت لم ترض به وبريئا منه فسلم عمتك إلىّ حتى أنتقم منها فرسم بتسليمها إليه فأخذها قهراً وقتلها ووصى بالوزارة من بعده لولده رزيك ولقب العادل فانتقل الأمر إليه بعد أبيه. قال أصحاب التاريخ: وكان الصالح المذكور كريماً فيه أدب وله أشعار حسنة بليغة تدل على فضل غزير فمنها فى الافتخار :

أبى الله إلا أن يدوم لنا الدهر ... ويخدمنا فى ملكنا العز والنصر
علمنا بأن المال تفنى ألوفه ... ويبقى لنا من بعده الأجر والذكر
خلطنا الندى بالبأس حتى كأننا ... سحاب لديه البرق والرعد والقطر
قرانا إذا رحنا إلى الحرب مرة ... قرانا ومن أضيافنا الذئب والنسر
كما أننا فى السلم نبذل جودنا ... ويرتع فى إنعامنا العبد والحر

وكان لأهل العلم عنده منزلة ويرسل إليهم العطايا الكثيرة وكان إماميًا لم يكن على مذهب العلويين المصريين، وكان شديد المغالاة فى التشيع صنف كتاباً فيه الرد على أهل الفساد جمع له الفقهاء وناظرهم عليه وهو ويتضمن إمامة على بن أبى طالب والبحث فى الأحاديث الواردة فى ذلك ومن شعره فى التدين هذه الأبيات :

يا أمة سلكت ضلالاً بينا ... حتى استوى إقرارها وجحودها
ملتم إلى أن المعاصى لم تكن ... إلا بتقدير الإله وجودها
لو صح ذا كان الإله بزعمكم ... منع الشريعة أن تقام حدودها
حاشا وكلا أن يكون إلهنا ... ينهى عن الفحشاء ثم يريدها

قالوا: ولما ولى العاضد الخلافة وركب سمع الصالح ضجة عظيمة فقال ما الخبر؟ فقيل إنهم يفرحون بالخليفة فقال كأنى بهؤلاء الجهلاء وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا وما علموا أننى كنت فى ساعة أستعرضهم استعراض الغنم وقال عمارة دخلت إلى الصالح قبل قتله بثلاثة أيام فناولنى قرطاساً فى بيتين من شعر، وهما :

نحن فى غفلة ونوم وللمو ... ت عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا إلى الحمام سنينا ... ليت شعرى متى يكون الحمام

قال فكان آخر عهدى به، وقال عمارة أيضاً ومن عجيب الاتفاق أننى أنشدت ابنه قصيدة أقول فيها :

أبوك الذى تسطو الليالى بحده ... وأنت يمين إن سطا وشمال
لرتبته العظمى وإن طال عمره ... إليك مصير واجب ومنال
تخالصك اللحظ المصون ودونها ... حجاب شريف لا انقضا وحجال

قال: فانتقل الأمر اليه بعد ثلاثة أيام، وكان من جملة وصية الصالح لولده العادل عندما أشرف على التلف أن لا يغير على شاور والى الصعيد قال فإننى أنا أقوى منك وقد ندمت على استعماله ولم يمكن خلعه فلا تغيروا ما به فيكون لكم منه ما تكرهون، وشاور هذا تركى الأصل جاء إلى مصر ودخل فى خدمة الصالح ابن رزيك ولزمه فأقبل عليه الصالح وولاه الصعيد وهو أكبر الأعمال يومئذ بعد الوزارة، فلما استقر به المنصب ظهرت منه كفاءة عظيمة وتقدم زائد واستمال لنفسه الرعية والمقدمين من العربان وغيرهم فعسر أمره على الصالح ولم يمكنه بعد ذلك خلعه فاستدام استعماله لئلا يخرج عن طاعته فلما ولى العادل الوزارة مكان أبيه الصالح، حسن له أهله عزل شاور المذكور واستعمال بعضهم مكانه وخوفوه منه إن أقره على عمله فأرسل إليه بالعزل وخالف وصية الصالح فجمع شاور عند ذلك جموعاً كثيرة وانحدر بهم الى القاهرة فهرب العادل بن الصالح بن رزيك فلحقه شاور وأخذه وقتله فكانت مدة وزارته ووزارة أبيه قبله سبع سنين وشهراً وأياماً وتولى شاور منصب الوزارة ولقب بأمير الجيوش واستولى على جميع أموال بنى رزيك وودائعهم وخزائنهم وأخذ منها أيضا طيا والكامل ابنا شاور شيئاً كثيراً وأنكر ما أخذاه. قال بعض الكتاب: ثم ظهر عليهم عند انتقال الدولة عن شاور والمصريين إلى الأتراك ولم يلبث شاور فى منصب الوزارة طويلاً حتى ظهر الضرغام

فى جموع كثيرة للغاية وأخـذ ينازع شاور فى الوزارة وظهر أمره وعلت كلمته وطال نزاعه فانهزم شاور منه إلى الشام فـتولى ضرغام منصب الوزارة وأمر ونهى فكان فى هذه الدولة ثلاثة وزراء العادل بن شريك وشاور صاحب الصـعيد وضرغام هذا كان أحد كـبار الأمراء البـرقية الذين أقامـهم الملك الصالح بن رزيك على عـهد وزارته ويقال له ضرغام أبى الأشـبال وهو يومئذ حاجب الباب فلمـا تمكن ضرغام هذا من الوزارة قتل الكثير من الأمراء المصريين لتخلو له البلاد من المنازعين وأكثر من الأخذ بالشبهات فـضعفت لذلك الدولة وانحطت شهرتها وزالت هيـبتها وطمع فى أخذها الطامعون فخرجت بعد ذلك من أيديهم كما سيتلى عليك فى محله. أما شاور فإنه لما وصل إلى الشام التجأ إلى صاحبهـا نور الدين محمد بن زنكى واستجار به وشكا ما حل به من ضرغام فـأكرم نور الدين مثواه وأحسن إليه وأنعـم عليه وكان وصوله فى ربيع الأول من السنة أى سنة تسع وخمسين وخمسمائة وطلب من نور الدين أن يرسل معه عـسكراً إلى مصر ليعود إلى منصبـه ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العـسكر ويكون شيركوه بن شادى مقـدم العسكر التى تصحبه مـقيماً بعسكره فى مصر ويتصرف له بأمر نور الدين واختياره فبقى نور الدين يقدم الى هذا الغرض رجلاً ويؤخر أخرى فتارة تحـمله رغبات قصد شاور وطلب الزيادة فى الملك والتقوى على الفـرنجة وتارة يمنعه خطر الطريق وأن الفرنجة فيـه وكذلك تخوف من ابن شاور إن استقرت قاعدته ربما لا يفى له ثم قوى عزمه على إرسال الجيوش فتقدم بتجهيزها وإزاحة عللها وكـان هوى أسد الدين فى ذلك وميله شديداً إلى المسير إلى مصر وعنده من الشـجاعة وقوة النفس مـا لا يبالى معه بمخافـة فجهز جيـشاً جراراً وجعل عليه الأميـر أسد الدين شيركوه المذكور وهو مقدم عسـكره وأكبر أمراء دولته وأشجعهم وساروا وشاور فى صحبتهم وذلك فى جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وتقدم نور الدين إلى شـيركوه بن شـادى بأن يعيد شـاور إلى منصبـه وينتقم له ممن نازعه فيه وسار نور الدين إلى طرف بلاد الفرنجة مما يلى دمشق بعسكره ليمنع الفرنجة من التعرض لأسـد الدين شيركوه ومن معـه فوصل أسد الدين والعساكـر الذى معه إلى مدينة بلبيس فخرج نـاصر الدين أخو ضرغام بعسكر من مصر ولقيـهم فاقتتلوا فانهـزم ناصر الدين وعاد إلى القـاهرة خاسراً ووصل أسد الـدين فنزل على القاهرة أواخر جمادى الآخرة فخرج ضرغام من القـاهرة سلخ الشهر لقتال أسد الدين فقتل عند مشـهد السيـدة نفيسـة وبقى يومين ثم حمل ودفن بالقـرافة وقتل أخـوه فارس المسلمـين فلما تم الظفـر لأسد الدين خلع علـى شاور مسـتهل رجب وأعـاده إلى

الوزارة وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ينتظر وفاء مـا قرره شاور فغدر به شاور وعاد عمـا كان قرره لنور الدين من البـلاد المصرية ولأسد الدين أيضـاً. وأرسل إلى أسد الدين يأمره بالعود إلى الشـام فأعاد الجواب بالامتناع وطلب ما كان قـد استقر بينهم فلم يجبـه شاور إليه فـأرسل فى الحال أسد الدين إلى نوابه فـتسلموا مـدينة بلبيس وحكم على أقليم الشـرقية فأرسل شـاور إلى الفرنجة يسـتمدهم ويخـوفهم من نور الدين إذا ملك مصر فسـارعوا إلى تلبية دعوته ونصرته وطمعـوا فى ديارمصر وكان شاور قـد بذل لهم مالاً على المسير إليـه فتجـهزوا وساروا فلما بلغ نور الدين خـبر ذلك سار بعـساكره إلى أطراف بلادهم ليـمنعهم عن المسيـر فلم يتمكن من ذلك إذ سار ملك القدس فى عسكره على عجل وكان قـد وصل إلى الساحل جمع كثير من الفرنجة يريدون زيارة بيت المقدس فسار جمـاعة منهم مع صاحب القدس فلما قاربوا مصر فارقهـا أسد الدين وقصد مدينة بلبيس فأقام بها هـو وعسكره وجعلها له ظهراً يتحصـن بها فاجتمـعت العسـاكر المصـرية وجموع الفرنجـة ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة أشهر وهو يغاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضاً فبينما هم على هذا الحال إذ أتاهم الخبـر بهزيمة الفرنجة على حارم وملك نور الدين حارم ومسيـره إلى بانياس فأرادوا العودة إلى بلادهم ليحفـوظها فراسلوا أسد الدين فى الصلح والعـودة إلى الشام ومـفارقـة مصـر وتسليم ما بيـده منها إلى المصـريين فأجابهم إلى ذلك لأن الأقوات والذخائر قلت عليه وخرج من بلبيس فى ذى الحجة وسار إلى الشام وأقام على حاله فى خدمـة نور الدين ولكنه كان دائماً يتحدث بمصر مولعاً بها ويحب أن يقصدها وكان عنده من الحصر على ذلك كثير.

فلما كانت سنة اثنتين وستين وخمسمـائة تجهز للمسير إلى مصر وسار فى ربيع الأول فى جيش ضخم للغاية فسير معه نور الدين جماعة من الأمراء فكانت عدتهم يومئـذ ألفى فارس وكـان نور الدين كارها لذلك ولكن لما رأى من جـد أسد الدين ورغبته فى المسـير لم يمكنه إلا أن يسير معه هذا الجمع خوفـاً من الهزيمة أو حادث يتجدد عليهم وسار أسد الدين بعسكره براً وترك بلاد الفرنجة على يمينه فوصل مصر وقصد أطفيح وعبر النيل عندها إلى الجانب الغـربى ونزل بالجيزة مقابل مصر ومدينة الفسطاط وأخـذ يتصرف فى البلاد الغـربية وأنفذ حكمه فـيها وأقام على ذلك نـيفا وخمسين يومـاً وكان شاور لما بلغه مجئ أسد الدين أرسل إلى الفـرنجة يستنجد بهم فأتوه على الصعب والذلول طمعاً فى ملكها فتـرفع أسد الدين بمن معه إلى الصعيد فبلغ مكاناً يعرف بالبابين فتبعتهم العـساكر المصرية وعسكر الفرنجة فأدركوهم بها فى الخامس والـعشرين مـن جمادى الآخـرة وكان أسـد الدين قد أرسل إلى المصـريين

والفرنجة جواسيس فعادوا إليه وأخبروه بكثرة عددهم وعُدَدِهم وجدّهم فى طلبه فعزم على قتـالهم إلا أنه خاف من أصحـابه أن تضعف قلوبهم عن القتـال فى هذا المقام الخطير الذى عطبهم فيه أقرب من سلامتهم لقلة عـددهم فاستشارهم فأشاروا بعبور النيل إلى الجانب الشرقى والرجوع إلى الشام وقالوا إن نحن انهزمنا وهو الذى يغلب على الظن فإلى أين نلتجئ وبمن نحـتمى وكل من فى هذه الديار من جندى وعامى وفلاح عـدو لنا؟ فقـام أميـر من مماليك نور الدين يقال له شـرف الدين بن برغش صاحب شفيق وكان شجاعاً وقال: من يخاف القتل والأسر لايخدم الملوك بل يكون فى بيـته مع امرأته والله لـئن عدنا إلى نور الدين من غـير غلبـة ولا بلاء نعذر فـيه ليأخذن مالنـا من الإقطاع والجامكية ولا يعود علينا جميع مـا أخذناه منذ خدمنا إلى يومنا هذا، ويقول تأخذون أموال المسلمين وتفـرون من عدوهم وتسلمون مثل مصر إلى الكفار والحق بيـده فقال أسـد الدين: هذا الرأى وبه أعمل فـقال أخيـه صلاح الدين مثله وكثر الموافقون لهم واجتمـعت الكلمة على القتال فأقام أسد الدين بمكانه حتى أدركهم المصريون والفرنجة وهو على أهبـة وجعل الأثقال فى القلب يستكثر بها وجعل صـلاح الدين فى القلب وقال له ولمن معـه: إن المصريين والفرنجـة يجعلون حملتهم على القلب ظناً منـهم أنى فيه فإذا حملوا عليكم فلا تصـدوهم بالقتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا قدامهم بين أيديهم فـإذا عادوا عنكم فارجعوا فى أعقابهم واختار هو من شجـعان عسكره جمعاً يثق بهم ويعـرف صبرهم فى الحروب ووقف بهم فى الميمنة فلما تقاتل الطائفتان فعل الفرنجة ما ذكره وحملوا على القلب فقاتلهم من به قتالاً يسيراً وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين وتبعهم الفرنجة فحمل حينئذ أسد الدين فيـمن معـه على من تخلف من الذين حملوا من المسلمـين والفرنجـة الفارس والراجل فهزمـهم ووضع السيف فيهم فأثخـن وأكثر القتل فلما عـاد الفرنجة من أثر المسلمين رأوا عسكرهم منهزماً فانهزمـوا أيضاً ولما تمت هزيمة المصريين والفرنجة سار أسد الدين بمن معـه إلى ثغر الاسكندرية وجبى باقى القرى عـلى طريقه من الأموال ووصل إلى الاسكندرية فتسلمها بمساعدة من أهلهـا سلموها إليه فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد إلى الصعيد فملكها وجـبى أموالها وأقام بها حتى صام رمضان فكبر ذلك عـلى المصريين والفرنجـة واجتـمعوا بالقـاهرة وأصلحوا حـال عسكرهم وجمعوهم وسـاروا إلى الاسكندرية فحصروا صلاح الدين بها واشتـد عليه الحصار وقل الطعام على من بالاسكندرية فصبروا على ذلك وانـحدر أسد الدين من الصعيد إلى الاسكندرية وكـان شاور قد أفـسد بعض من مـعه من التـركمـان فوصل رسل

الفرنجة والمصريين يطلبون الصلح. قال بعض الكتاب: وبذلوا إلى أسد الدين خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد فأجاب إلى ذلك واشترط على الفرنجة أن يقيموا بالبلاد ولا يتملكوا منها قرية واحدة فأجابوه إلى ذلك واصطلحوا وعادوا إلى الشام وتسلم المصريون الاسكندرية من نصف شوال من السنة ووصل أسد الدين شيركوه إلى دمشق ثامن عشرى ذى القعدة، أما الفرنجة فإنهم اتفقوا مع المصريين بأن يكون لهم بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها بيد طائفة من فرسانهم ليمتنع نور الدين من إنفاذ عسكر إليهم ويكون لهم من دخل مصر فى كل سنة مائة ألف دينار وهذا كله استقر مع شاور إذ لم يكن للعاضد حكم ولا كلمة وقد حجب عن الأمور كلها وعاد جماعة الفرنجة بعيد ذلك إلى الساحل الشامى وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم وكان الكامل شجاع بن شاور أرسل إلى نور الدين سراً مع بعض الأمراء ينهى محبته وولاءه ويسأله الدخول فى طاعته وتعاهدوا أن يفعل هذا وبذل مالا يحمله فى كل سنة فأجابه نور الدين إلى ذلك فحمل إليه ابن شاور مالاً جزيلاً وبقى الأمر على هذا الحال وشاور لا يعلم بالخبر، فلما كانت سنة أربع وستين وخمسمائة قصد أسد الدين ديار مصر ثلاثة ومعه العسكر النورى فملكها وجعل يتصرف فيها، وتحرير الخبر أنه لما تمكن الفرنجة من البلاد المصرية وجعلوا لهم شحنة فى القاهرة حكموا وتصرفوا فى الأمور وشددوا على الرعية فضج المسلمون واستغاثوا فأرسل الفرنجة إلى ملكهم بالشام المسمى مرى وكان أشجع ملوكهم بالشام يستدعونه ليملكها وأعلموه خلوها من ممانع وهونوا عليه أمرها فلم يجبهم إلى ذلك، قال أصحاب التاريخ: فاجتمع إليه فرسان الفرنجة وذوو الرأى منهم فأشاروا عليه بتملكها فقال لهم: الرأى عندى أننا لا نقصدها ولا بغية لنا فيها وأموالها تساق إلينا فنقوى بها على نور الدين وإن نحن قصدناها لتملكها فإن صاحبها وعسكره وجميع بلاده وفلاحيها لايسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها ويحملهم الخوف على تسليمها إلى نورالدين ولئن صار له فيها مثل أسد الدين كانت العاقبة شراً علينا وأجلانا ولا محالة عن الشام فلم يقبلوا قوله وألحوا عليه فى قصدها فقبل منهم على كره وشرعوا يجهزون ويشيعون أنهم إنما يريدون مدينة حمص فلما سمع نور الدين بالخبر شرع أيضاً فى جميع عساكره وأمرهم بالقدوم عليه وجد الفرنجة فى السير إلى مصر فقدموها ونزلوا مدينة بلبيس وملكوها قهراً مستهل صفر ونهبوا ما فيها وقتلوا وأسروا وكان جماعة من أعيان المصريين قد كاتبوا الفرنجة ووعدوهم أن يأخذوا بناصرهم نكاية فى شاور وتخلصا من جوره منهم ابن الخياط وابن فرجلة فاشتد

عضد الفرنجة وساروا من بلبيس إلى مصر فنزلوا على القاهرة عاشر صفر وحاصروها فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم ما فعلوه بأهل بلبيس فحملهم الخوف على الامتناع فحفظوا البلد وقاوموا دونه وبذلوا جهدهم فى حفظه وأمر شاور بإحراق مدينة مصر تاسع صفر وأمر أهلها بالجلاء عنها إلى القاهرة وأن ينهب البلد فانتقلوا وبقوا على الطرق فى حالة تبكى الناظر ونهبت المدينة وأصبح أهلها لا يملكون شيئاً وذهبت أموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنجة عليهم بيوم فبقيت النار تضطرم فيها وتحرقها أربعة وخمسين يوماً فكانت شدة لم يسبق لها مثال ومنظر تنفطر منه الأكباد واشتد الفرنجة فى الحصار فعم البلاء وكبر خوف الناس فأرسل العاضد العبيدى إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنجة وأرسل فى الكتب شعور نسائه وقال: هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنجة فلما وصلت كتب العاضد إلى نور الدين كبر عليه الأمر وشرع فى تسيير الجيوش. أما الفرنجة فإنهم لما علموا بعزم نور الدين اشتدوا فى حصار القاهرة وضيقوا على أهلها وشاور هو ولى أمر العساكر فضاق به الخناق وضعف عن ردهم فأخلد إلى إعمال الحيلة وأرسل إلى ملك الفرنجة يذكر له مودته وصداقته له قديماً وأن هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد صاحب البلاد وإنما المسلمون لا يوافقونه على التسليم إليه ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يتسلم البلاد نور الدين فأجابه مرى إلى ذلك على أن يعطوه ألف ألف دينار مصرية يعجل بالبعض ويمهل بالبعض فاستقرت القاعدة على ذلك فعجل له شاور بمائة ألف دينار وسألهم الرحيل عنها ليجمع لهم المال فرحلوا قريباً وجعل شاور يجمع لهم المال من أهالى القاهرة ومصر فلم يتحصل إلا مقدار خمسة آلاف دينار وذلك لأن أهل مصر كانت قد احترقت بيوتهم وما فيها وما سلم من الحريق نهب وهم لايقدرون على الأقوات فضلاً عن الأقساط وأما أهل القاهرة فلأن أغلب أهلها الجند وغلمانهم تعذر عليهم المال وهم فى خلال ذلك يراسلون نور الدين بما أصبح الناس فيه وبذلوا له ثلث بلاد مصر وأن يكون أسد الدين مقيماً عندهم فى عسكره وإقطاعهم من البلاد المصرية أيضاً خارج عن الثلث الذى لهم وكان نور الدين لما وصلت كتب العاضد إليه بحلب أرسل إلى أسد الدين يستدعيه إليه فخرج القاصد فى طلبه فلقيه على باب حلب وقد قدمها من حمص وكانت إقطاعاً له وسبب وصوله أن كتب المصريين وصلت إليه أيضاً فى هذا المعنى فسار إلى نور الدين واجتمع به فعجب نور الدين من حضوره فى الحال وسر بذلك وتفاءل به وأمر بالتجهز إلى مصر وأعطاه مائتى ألف

دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك وحكمه فى العسكر والخزائن فاختار من العسكر ألفى فارس وأخذ المال وجمع ستة آلاف فارس وسار هو ونور الدين إلى باب دمشق فوصلها سلخ صفر ورحل إلى رأس المال وأعطى نور الدين كل فارس ممن كان مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة غير محسوبة من جامكيته وأضاف إلى أسد الدين جماعة آخرين من الأمراء منهم مملوكه عز الدين جرديك وغرس الدين قلج وشرف الدين برغش وعين الدولة الياروقى وقطب الدين ينال بن حسان المنبيجى وصلاح الدين يوسف بن أيوب أخى شيركوه على كره منه وسار أسد الدين شيركوه من رأس الماء مجداً منتصف ربيع الأول فلما قارب مصر رحل الفرنجة إلى بلادهم وسمع نور الدين بعودهم فسره ذلك جداً وأمر بضرب البشائر فى البلاد وبعث رسله إلى الآفاق مبشرين بذلك فلما وصل القاهرة ودخل إليها اجتمع بالعاضد لدين الله فخلع عليه العاضد وعاد إلى خيامه بالخلعة وفرح به أهل مصر وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والإقامات الوافرة ولم يمكن شاور المنع من ذلك لأنه رأى أن العساكر كثيرة مع أسد الدين وهوى العاضد العلوى معه فلم يتجاسر على إظهار ما فى نفسه وقد كان يكره بقاء أسد الدين فى مصر ويخشى منه على نفسه وشرع يماطل أسد الدين فى تقرير ما كان بذله لنور الدين من المال والأقطاع للجند وإفراد ثلث البلاد لنور الدين وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه.

وعزم شاور يوماً على أن يعمل دعوة يدعو إليها أسد الدين والأمراء الذين معه ويقبض عليهم ويستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الفرنجة وكلم ابنه الكامل فى ذلك فنهاه وقال له: والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعلمن به شيركوه فقال له أبوه: لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً فقال صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنجة فترك شاور ما كان قد عزم عليه ورأى العسكر النورى الذين مع أسد الدين مطل شاور فخافوا شره وتكلموا فى أمره كثيراً ثم اتفق صلاح الدين يوسف بن أيوب وعز الدين جرديك وغيرهم على قتل شاور فنهاهم أسد الدين على عادته فسكتوا وهم على هذا العزم من قتله فاتفق أن قصد شاور عسكر أسد الدين كما كان يفعل كل يوم فلم يجده فى الخيام وكان قد توجه لزيارة قبر الإمام الشافعى فلقيه صلاح الدين يوسف وجرديك فى جمع من العسكر فخدموه وأعلموه بأن شيركوه قد انصرف لزيارة قبر الإمام الشافعى فقال نمضى إليه فساروا جميعاً فسايره صلاح الدين وجرديك ومازالا حتى تمكنا منه وألقياه إلى الأرض عن فرسه فهرب أصحابه عنه فأخذ أسيرا ولم يمكنهما

قتله بغير أمر أسد الدين فتوكلا بحفظه وأعلما أسد الدين فحضر ولم يمكنه إلا إتمام ما عملاه فقتل شاور ووصل الخبر بما جرى إلى العاضد لدين الله العلوى فأرسل إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور وتابع الرسل بذلك فأرسلوا رأسه إلى العاضد فى السابع عشر من ربيع الآخر ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من اجتماع الخلق ما أخافه على نفسه فقال له أمير المؤمنين يعنى العاضد يأمركم بنهب دار شاور فتفرق الناس إلى الدار فنهبوها وقصد هو قصر العاضد فخلع عليه خلع الوزارة ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش فسار بالخلع إلى دار الوزارة وهى التى كان بها شاور فلم ير فيها ما يقعد عليه واستقل بالأمر وغلب عليه ولم يبق له مانع ولا منازع واستعمل على الأعمال من يثق به من أصحابه وأقطع البلاد لعسكره، وأما الكامل بن شاور فإنه لما قتل أبوه دخل القصر هو وإخوته معتصمين فكان آخر العهد بهم، ذكر أن أسد الدين شيركوه حزن على شاور لأنه بلغه ما كان منه مع أبيه من منعه من قتل شيركوه وما استتب الأمر لشيركوه وثبتت قدماه فى منصب الوزارة حتى أتاه أجله على عجل فمات فى يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام فلما مات قام جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا معه وطلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة العاضدية بعده منهم عين الدولة الياروقى وقطب الدين اينال وسيف الدين المشطوب الهكارى وشهاب الدين محمود الحارمى وهو خال صلاح الدين يوسف وكان كل واحد من هؤلاء يخطبها وقد جمع أصحابه ليغالب عليها فأرسل العاضد إلى صلاح الدين وأحضره عنده وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه وكان الذى حمله على ذلك أن أصحابه قالوا له: ليس فى الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من يوسف والرأى أن يولى الوزارة فإنه لا يخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العساكر من يستميلها إلينا فيصير عندنا من الجند ما نمنع بهم عن البلاد ثم نأخذ يوسف أو نخرجهم فوافقهم العاضد على ذلك وولاه الوزارة ولقبه بالملك الناصر فلم يطعه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه وكان معه الفقيه عيسى الهكارى فسعى مع المشطوب حتى أماله إلى صلاح الدين وقال له: إن هذا الأمر لايصل إليك مع عين الدولة والحارمى وغيرهما ثم قصد الحارمى وقال هذا صلاح الدين هو ابن أختك وعزه وملكه لك وقد استقام له الأمر فلا تكن أول من يسعى فى إخراجه عنه ولا يصل إليك فمال إليه أيضاً، ثم فعل هكذا بالباقين فأطاعه كلهم غير عين الدولة الياروقى فإنه قال أنا لا أخدم يوسف وعاد إلى نور الدين بالشام فلما استقرّت

بصلاح الدين الوزارة استمال إليه قلوب الناس وبذل الأموال فأحبوه وضعف أمر العاضد صاحب البلاد ولم يبق له إلا الاسم ثم أرسل يوسف إلى نور الدين يطلب أن يرسل إليه إخوته وأهله فأرسلهم إليه وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته وكلهم فعل ذلك وأخذ إقطاعات الأمراء المصريين فأعطاها أهله والأمراء الذين معهم وزادهم فازدادوا حباً له وطاعة لأمره وكان يوم ولاية صلاح الدين يوماً مشهوداً جداً. قال أبو شامة. كانت الخلعة التى لبسها صلاح الدين يوم ولايته عمامة بيضاء وثوباً دمبيقياً بطراز ذهب وجبة بطراز ذهب وطيلساناً مطرزاً بذهب وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار وسيفاً محلى بخمسة آلاف دينار وحجراً بثمانية آلاف دينار وعليه سرج ذهب وسرسار ذهب مجوهر وفى رأسه مائتا حبة جوهر وفى قوائمه أربعة عقود جوهر وفى رأسه قبعة بذهب شديدة البياض بأعلام بيض ومع الخلعة عدة بقج وخيل وأشياء أخر ومنشور الوزارة مكتوب فى ثوب أطلس أبيض وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين قال: وكان يوماً مشهوداً وارتفع قدر صلاح الدين بالديار المصرية واستلفت إليه القلوب وخضعت له النفوس واضطهد العاضد فى أيامه غاية الاضطهاد اهـ.

فلما كانت سنة خمس وستين حاصر الفرنج مدينة دمياط خمسين يوماً فقاتلهم صلاح الدين حتى أجلاهم وجعل صلاح الدين يأمر وينهى ويتصرف فى الأمور لا رادّ لكلمته ولا أمر فوق أمره والعاضد فى قصره محجور عليه لا يعرف من أحوال البلاد شيئاً ولا يدرى ما هى عليه فكان نور الدين صاحب دمشق إذا خاطب صلاح الدين يوسف لا يخاطبه مع ذلك إلا بالأمير الاسفهلار ويكتب علامته على رأس الجواب تعظيماً عن أن يكتب اسمه وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب الأمير الاسفهلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا وأرسل نور الدين إلى صلاح الدين بعد أن ضعف أمر العاضد وانحطت كلمته يأمره أن يخطب للخليفة المستنجد العباسى بمصر لأن الخليفة بعث يعاتبه فى ذلك ويطلب إعادة الخطبة إليه كما كانت قبل العلويين فأخذ صلاح الدين من هذا الحين فى تذليل العاضد والتضييق عليه فى جميع أموره واشتد عليه شدّة بالغة فشكى العاضد من ذلك وراسل صلاح الدين وعاتبه فلم يلتفت إليه فكبر الأمر على من بالقصر واتفق مؤتمن الخلافة وهو خصى كان بقصر العاضد إليه الحكم فيه والتقدم على جميع من يحويه مع جماعة من المصريين على مكاتبة الفرنجة واستدعائهم إلى البلاد والتقوى بهم على صلاح الدين ومن معه وسيروا الكتب مع رجل يثقون إليه وأقاموا ينتظرون

جوابه فسار ذلك القاصد إلى البئر البيضاء فلقيه إنسان تركمانى فرأى معه نعلين جديدين فأخذهما منه وقال فى نفسه لو كان مما يلبسه هذا الرجل لكانا خلقين فإنه رث الهيئة وارتاب فيه وفيهما فأتى به إلى صلاح الدين ففتقهما فرأى الكتب فيهما فقرأها وسكت عليه وكانت رغبة مؤتمن الخلافة أن يحرك الفرنجة إلى الديار المصرية فإذا وصلوا إليها وخرج صلاح الدين فى العسكر لقتالهم ثار مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على متخلفيهم فيقتلونهم ثم يخرجون بأجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتون من وراء ظهره والفرنجة من بين يديه فلا تبقى لهم باقية فلما قرأ صلاح الدين الكتاب سأل عن كاتبه فقيل إنه رجل يهودى فأحضره فأمر بضربه وتقريره فابتدأ وأسلم وأخبره بالخبر وأخفى صلاح الدين الحال واستشعر مؤتمن الدولة بما جرى فلازم القصر ولم يخرج منه خوفاً من صلاح الدين، وصلاح الدين لايظهر له شيئاً من الطلب لئلاً ينكر ذلك، فلما طال الأمر خرج من القصر إلى قرية تعرف بالخرقانة للتنزه فلما علم به صلاح الدين أرسل إليه جماعة فأخذوه وقتلوه وأتوا برأسه، ثم عزل جميع الخدم الذين يتولون أمر القصر واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش وهو خصى أبيض فكان لا يجرى فى القصر صغيرة ولا كبيرة إلا بأمره فغضب السودان لتقل مؤتمن الخلافة واجتمعوا فزادت عدتهم على خمسين ألفاً وقصدوا حرب الأجناد الصلاحية فاجتمع العسكر أيضاً وانتشبت الحرب بين القصرين وكثر القتل بين الفريقين وكاد يتم الظفر بالسودان وظهرت هزيمة الأجناد الصلاحية فأرسل صلاح الدين فى الحال إلى محلة السودان المعروفة بالمنصورة فأحرقها على أموالهم وعيالهم فلما جاءهم الخبر بذلك ولوا منهزمين فركبهم السيف وأخذت عليهم أفواه السكك فطلبوا الأمان بعد أن كثر فيهم القتل فأجيبوا إلى ذلك وأخرجوا من مصر إلى الجيزة فعبر إليهم شمس الدولة أخو صلاح الدين الأكبر فى طائفة من عسكره فأبادهم بالسيف ولم يبق منهم إلا الشديد ولم يراع لهم ذمة ولا عهداً وذلك سنة أربع وستين فكانت هذه الواقعة من الوقائع التى تمكنت بها سلطنة صلاح الدين وعلت كلمته.

واشتد خوف الفرنجة بالشام من تملك أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين لمصر فقاموا فى سنة خمس وستين وخمسمائة وكاتبوا إخوانهم بصقلية والأندلس وغيرهما يستنجدونهم، يعرفونهم ما يتجدد من ملك الترك لمصر وأرسلوا جماعة يستنهضونهم فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح واستعدوا للنزول على دمياط فلما عزموا على الرحيل كان أسد الدين قد مات كما تقدم وملك صلاح الدين فاجتمعوا عليها

وحصروها وضيقوا على من بها فأرسل إليـها صلاح الدين العساكر فى النيل وحشد فيها كل من عنده وأمـدهم بالأموال والسلاح والذخائر وأرسل إلى نور الدين يشكو ما هم فيه من المخافة ويقول إنى إن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنجة وإن سرت إليها خلفنى المصـريون فى أهلها بالشـر وخرجوا عن طاعـتى وساروا فى أثرى والفـرنجة أمامى فلا يبقى لنا باقـية فسير نور الدين العسكر إليه أرسالاً يتلو بعـضهم بعضاً ثم سار هو بنفـسه إلى بلاد الفرنجة الشـامية فنهبـها وأغار عليهـا واستباحهـا فوصلت الغـارات إلى ما لم تكن تبلـغه قـبل خلو البلاد من ممانـع فلما رأى الفـرنجة تتـابع العساكر إلى مصر ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وتخريبها رجعوا ولم يظفروا بشىء وكان مـدة مقامهم على دمـياط خمسين يـوماً وأخرج فيهـا صلاح الدين من الأموال ما لا يكاد يدخل تحت الحـصر، حكى أنه قال: ما رأيت أكـرم من العاضد أرسل إلىَّ مرة لمقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مـصرية سوى الثياب وغيرها وأرسل صلاح الدين إلى نور الدين والخليفة المستنجد بالله العباسى يعلمهما بأنه على عزم إعـادة الخطبة إلى المسـتنجد بديار مـصر فـفرح الخليـفة المستنـجد وأرسل إلى نورالدين يستحـثه على ذلك وظل المستنجد يتـصرف فى الخلافة ويدبر أمـرها جهد الاستطاعة حتى وافـته المنية فى الثامن من ربيع الآخر سنة ست وستين وخـمسمائة هجرية يقال إن سبب مـوته أنه مرض واشتد عليه المرض وكان قد خـافه أستاذ الدار عضد الدين أبو الفـرج ابن رئيس الرؤساء وقطب الدين قايماز القتفـوى وهو حينئذ أكبر أمير فى بغداد فلما اشتد مرض الخليفة اتفقا ووصيا الطبيب على أن يصف له ما يؤذيه فوصف له دخول الحـمام فامتنع لضعـفه فأدخلوه هم قهراً وأغـلقوا عليه بابه فمات وقيل إن الخليفة كتب إلى وزيره مع طبيـبه ابن صفية يأمره بالقبض على أستاذ الدار وقطب الدين وصلبهما فاجتمع ابن صفية بأستاذ الدار وأعطاه خط الخليفة فقال له تعود وتقول إننى أوصلت الخط إلى الوزير ففـعل ذلك وحضر أستاذ الدار وقطب الدين ويزدن وأخوه تنامش وعرض الخط عـليهم فاتفقوا على قـتل الخليفة فلم يكن بأسرع من أن دخل عليه يزدن ومعه قايماز الحميدى فحملاه إلى الحمام وهو يستغيث وألقياه وأغلقا الباب عليه وهو يصيح إلى أن مات ، وكان بين وزير الخليفة أبى جعفر ابن البلدى وبين أستاذ الدار وقطب الـدين عداوة مستحكمة لأن المسـتنجد بالله كان يأمر الوزير بأشـياء تتعلق بهمـا فيفعلهـا فكانا يظنان أنه هو الذى يسعى بهمـا فلما مرض الخليفة وأرجف بموته ركب الوزير ومعـه الأمراء والأجناد وغيرهم بالعدد فلم يتحقق عنده خبر موته فأرسل إليه عـضد الدين يقول إن أمير المؤمنين قد خف ما به

من المرض وأقبلت إليه العافية فخاف الوزير أن يدخل دار الخلافة بالجند فربما أنكر عليه ذلك فعاد إلى داره وتفرق عنه الناس وكان عضد الدين أستاذ الدار وقطب الدين قد استعدا للهرب لما ركب الوزير خوفاً منه إن دخل الدار أن يأخذهما فلما عاد أغلق أستاذ الدار أبواب الدار وأظهروا وفاة المستنجد وأحضر هو وقطب الدين أبا محمد الحسن ابن الخليفة المستنجد وبايعاه بالخلافة ولقباه المستضئ بنور بالله وشرطا عليه شروطاً أن يكون عضد الدين وزيراً وابنه كمال الدين أستاذ الدار وقطب الدين أمير العسكر فأجابهم إلى ذلك فبايعه بعد ذلك أهل بيته البيعة الخاصة يوم توفى أبوه وبايعه الناس من الغد فى التاج البيعة العامة وعلم الوزير ابن البلدى بما جرى فسقط فى يده وقرع سنه ندماً على ما فرط من عوده وأتاه من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضيء فمضى إلى دار الخلافة فلما دخلها صرف إلى موضع ثم دخل عليه جماعة فقتلوه وقطعوه قطعاً وألقوه فى دجلة وأخذوا جميع ما فى داره فرأوا فيها خطوط المستنجد بالله يأمره فيها بالقبض على أستاذ الدار وقطب الدين وخط الوزير قد راجعه فى ذلك وصرفه عنه فلما وقفا عليها عرفا براءته مما كان يظنان فيه فندما على تفريطهما فى قتله.

وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية عادلاً شهماً كثير الرفق بهم شديداً على أهل العبث والفساد والسعاية بالناس، قال صاحب الكامل: بلغنى أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لى إنساناً آخر مثله لأكف شره عن الناس ولم يطلقه قال وردّ كثيراً من الأموال إلى أصحابها وقبض على القاضى ابن المرخم وقد أخذ منه مالاً كثيراً فأعاده إلى أصحابه وكان ابن المرخم ظالماً جائراً فى أحكامه ا هـ.

ومات فى خلافة المستنجد آخر ستودولو بطرك الاسكندرية فكانت مدته ثلاثين سنة كلها إحن وشدائد وكان موته بكنيسة المعلقة بقصر الشمع بفسطاط مصر فبقى الكرسى خالياً مدة اثنين وسبعين يوماً ثم أقيم بعده كيرولس الثانى وهو سابع ستيهم كان حبيساً بصومعة سنجار واسمه جرجس من أهل أقلامه فأقام أربع عشرة سنة وثلاثة أشهر ونصفاً لم يقع فيها من الحوادث شيء يذكر ومات بكنيسة المختار من جزيرة مصر المعروفة بالروضة وهو أول من عمل الكسوة البطريكية من ديباج أزرق

مائة وأربعة وعشرين يوماً ثم أقيم خائل وهو ثامن ستيهم وأصله من بلدة سخا وكان حبيساً بصومعة سنجار وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل الثالث والثلاثون)

(فى خلافة المستضىء بنور الله بن المستنجد)

ثم قام بالأمر بعد المستنجد أبو الحسن على المستضئ بنور الله بويع له بالخلافة يوم موت أبيه فى ثامن ربيع الثانى سنة ست وستين وخمسمائة هجرية أى سنة سبعين ومائة وألف ميلادية وخطب له باليمن والديار المصرية وقد كانت الخطبة العباسية منقطعة منها من زمن المطيع كما تقدم الكلام وكان صلاح الدين يوسف قد شرع من أيام المستنجد فى تمهيد الخطبة لبنى العباس فقطع الأذان بحىّ على خير العمل من ديار مصر كلها وعزل قضاة مصر لأنهم كانوا شيعة وولى أقضى القضاة بها صدر الدين بن درباس الشافعى واستناب فى سائر الأعمال شافعية فلما كانت سنة سبع وستين أمر صلاح الدين بإقامة الخطبة لبنى العباس بمصر أو جمعة من المحرم وبالقاهرة فى الجمعة الثانية فكان ذلك يوماً مشهوداً قالوا: والعجب إن أول من خطب للمعز حين أخذت مصر عمر بن عبد السميع الخطيب بجامع عمرو وبجامع ابن طولون فكان أول من خطب لبنى العباس هذه النوبة شريف علوى يقال له: محمد بن الحسن بن أبى الضياء البعلبكى وسير صلاح الدين الخبر بذلك إلى نور الدين فأرسل نور الدين إلى الخليفة المستضئ يعلمه بذلك فزينت بغداد وأغلقت الأسواق وعملت القباب وفرح المسلمون فرحاً عظيماً قال ابن الجوزى: وقد ألفت فى ذلك اليوم كتاباً سميته النصر على مصر، وكتب العماد الكاتب صلاح الدين إلى نور الدين صاحب دمشق يبشره بذلك :

قد خطبنا للمستضىء بمصر　　نائب المصطفى إمام العصر

فى أبيات قد أضربنا عن إيرادها هنا صفحا ، وقال بعض شعراء بغداد فى ذلك أبياتاً كثيرة منها :

ليهنك يا مولاى فتح تتابعت　　إليك به خوص الركائب توجف
أخذت به مصراً وقد حال دونها　　من الترك ناس فيهم الحق يقذف
فعادت بحمد الله باسم إمامنا　　تتيه على كل البلاد وتشرف

ولا غـرو أن ذلـت ليـوسف مـصـره   وكـانـــــت إلى عليـائـه تـتـشـوّف
تملكهـا من قـبـضـة الكفـر يـوسف   وخلصـها من عـصبـة الرفض يوسف
كـشـفـت بهـا عـــن آل هاشم سيـأ   وعـــارا أبى إلا بـسـيــفـك يكـــشف

وهى طويلة . قـال صاحب حسن المحاضـرة: قال أبو شـامة: أنشـدت هذه القصيدة للخليفة قـبل موته عند تأويل منام رؤى فى هذا المعنى وأراد بيوسف الثانى الخليفة المسـتنجد فلم يخطب إلا لولده المستضىء فجـرى الفأل باسم الملك الناصر صـلاح الدين يوسف بن أيوب قـال صاحب الكامل: عنـد ذكر حوادث سنـة سبع وستين وخمسمائة، وفى هذه السنة فى ثانى جـمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لديـن الله أبـى محـمـد الإمام عبـد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله أبى الميـمون عبد المجيـد بن أبى القاسم محمد بن المستنصر بالله أبـى تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله أبى الحسن على بن الحاكم بأمـر الله أبي عليّ المنصور بن نزار بن المعز لدين الله أبى تميم معد بن المنصور بالله أبى القاهر إسماعيل بن القائم بأمر الله أبى القاسم محمد بن المـهدى بالله أبى محمد عبيـد الله وهو أول العلويين من هذا البيت الذين خطب لهم بالخلافة وخـوطبوا بإمرة أمير المؤمنين ، وكان السـبب فى إعادة الخطبة العباسية بمصر أن صلاح الـدين يوسف بن أيوب لما ثبت قدمه بمصر وأزال المخالفين له وضعف أمر الخليفة العاضد وصـار يحكم فى قصره صلاح الدين ونائبة قراقوش الخصى وهو من أعـيان الأمـر اء الأسدية كلهم يرجـعون إليه فكتب إلـيه نور الدين محمد بن زنكى يأمره بقطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبـة المستضيئية فامتنع صلاح الدين واعتذر بالخـوف من قيام أهل الديار المصرية عليـهم لميلهم إلى العلويين وكان صـلاح الدين يكره قطع الخطبـة لهم ويريد بقاءهم خـوفـاً من نور الدين فإنه كـان يخاف أن يدخل إلى الديار المصـرية فيأخـذها منه فكان يريد أن يكون العاضد مـعه حتى إذا قـصده نور الدين امتنع بـه وبأهل مصر عليـه. قال: فلما اعـتذر إلى نور الدين بذلك لم يقـبل عذره وألح عليه بقطع خطـبته وألزمـه إلزاماً لا فسـحة له فى مخالفته وكان على الحقـيقة نائب نور الدين واتفق أن العاضد مرض فى هذا الوقت مرضاً شديداً فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار أمراءه فمنهم من أشار به ولم يفكر فى المصـريين ومنهم من خافه إلا أنه لم يـمكنه إلا الامتثـال لأمر نور الدين وكان قد دخل إلى مصر إنسان أعجـمى يعرف بالأمير العالم رأيته أنا بالموصل فلما رأى ما هم فـيه من الإحجام وأن أحـداً لا يتجاسر يخطب للعـباسى قال: أنا أبتدئ بالخطبـة له فلما كـان أول جمعـة من المحرم صعـد المنبر قـبل الخطيب ودعا

للمستضيء ففعلوا ذلك فلم يتطح فيه عنزان وكتب بذلك إلى سائر بلاد مصر ففعلوا وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله ولا من أصحابه بقطع الخطبة وقالوا: إن عوفى فهو يعلم، وإن توفى فلا ينبغى أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته فتوفى يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة، فلما توفى جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه فحفظه بهاء الدين قراقوش الذى كان رتبه قبل موت العاضد فحمل الجميع إلى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الإحصاء وفيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثله ومن الجواهر التى لم توجد عند غيرهم فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهما أو سبعة عشر مثقالاً قال: أنا لا أشك فإننى رأيته ووزنته واللؤلؤ الذى لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذى طوله أربع أصابع فى عرض عقد كبير ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد وقد احتاطوا بالتحفظ عليه فلما رأوه ظنوه عمل لأجل اللعب به فسخروا من العاضد فأخذه إنسان فضرب به فضرط فتضاحكوا منه ثم آخر كذلك، وكان كل من ضرب عليه يضرط فألقاه أحدهم فكسره فإذا الطبل عمل لأجل القولنج فندموا على كسره لما قيل لهم ذلك. قلت: وهو موضع للنظر، قال: وكان فيه من الكتب النفيسة المعدومة المثال ما لايعد فباع بعض من فيه من أمة وعبد وأعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه كأن لم يغن بالأمس فسبحان الحى الدائم الذى لايزول ملكه ولا تغيره الدهور ولا يقرب النقص حماه ولما اشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة فلم يمض إليه فلما توفى علم صدقه فندم على تخلفه عنه وكان يصفه كثيراً بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه وانقياده، وكان فى نسبه تسعة خطب لهم بالخلافة وهم الحافظ والمستنصر والظاهر والحاكم والعزيز والمعز والمنصور والقائم والمهدى، ومنهم من لم يخطب له بالخلافة وهو أبوه يوسف بن الحافظ وجد أبيه وهو الأمير أبو القائم محمد بن المستنصر وبقى من خطب له بالخلافة وليس من آبائه: وهم المستعلى والآمر والظافر والفائز وجميع من خطب له منهم بالخلافة أربعة عشر خليفة منهم بأفريقية المهدى والقائم والمنصور والمعز إلى أن سار إلى مصر، ومنهم بمصر المعز المذكور وهو أول من خرج إليها من أفريقية والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلى والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد ومدة حكمهم من حين ظهور المهدى بسلجماسة فى ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين إلى أن مات العاضد مائتان واثنتان وسبعون سنة وشهر تقريباً وهذا دأب الدنيا لم تسكن إلا

اضطربت ولـم تعط إلا اسـتلبت مـا وهبت ولم تحل إلا وتمـررت ولم تصف إلا وتكدرت بل صفـوها لا يخلو من الكدر وكدرها قـد يخلو من الصفـو. نسأل الله تعالى أن يقبل بقـلوبنا إليه ويرينا الدنيا حقيـقة ويزهدنا فيهـا ويرغبنا فى الآخرة إنه سمـيع الدعاء قـريب من الإجابة قال ابن خلكان: سـمعت جماعـة من المصريين يقولون إن هؤلاء القوم يريدون العبيديين فى أوائل دولتهم قالوا لبعض العلماء اكتب لنا ألقاباً فى ورقة تصلح للخلفاء حتى إذا تولى واحد منا لقبوه ببعض تلك الألقاب فكتب لهم ألقـاباً وآخر مـا كتب فى الورقـة العاضـد فاتفق أن آخـر من ولى منهم العاضد أهـ.

قال ابن الأثير: ومن الغريب أن العاضد فى اللغة: القاطع، وفى الحديث: لا يعضد شجرها فبالعاضد قطعت دولة بنى عبيد ، قلت وزالت من ديار مصر وانمحت آثارها وقامت مكانها الدولة الأيوبية .

ولما وصلت البشائر إلى بغداد بإعادة الخطبة للخليفة العباسى كما سبقت الإشارة إلى ذلك سيّر الخليفة الخلع مع عمـاد الدين صندل وهو من خواص الخدم والمقدمين فى الدولة لنور الدين وصلاح الدين فسار صندل إلى نور الدين وألبـسه الخلعة وسيّر الخلعة إلى صلاح الدين بالديار المصرية والأعـلام السود ثم أرسل الخليفة إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف كتاب التقليد ولم نحجم عن إيراده هنا مع طوله تتميماً للفائدة قال : أما بعد فإن أمير المؤمنين يبدأ بحمد الله الذى يكون لكل خطبة قياداً ، ولكل أمر مهاداً ، ويستزيده على نعمتـه التى جعلت التقوى له زاداً ، وحمله أعباء الخلافـة فلم يضق عنه طوقا ولم يـأل فيه اجـتهاداً ، وصـغر لديه أمـر الدنيا فـما تسوّرت له محراباً ولا عرضت له جيـاداً ، وحققت فيه قوله تعالى: **﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا﴾**، ثم يصلـى على من أنزلت الملائكة لنصره أمداداً، وأسرى به إلى السماء حتى ارتقى سبعاً شداداً ، وتجلى له ربه فلم يزغ منه بصـر ولا كـذب فؤاداً ، ثم من بعـده على أسـرته الطاهرة التى زكت أوراقاً وأعواداً ، وورثت النور المبين بلاداً ، ووصفت بأنها آخر الثقلين هداية وإرشاداً ، وخصوصاً عمه العباس المدعو له بأن يحفظ نفساً وأولاداً، وأن تبقى كلمة الخلافة فيهم خـالدة لا تخاف دركاً ولا تخشى نفاداً، وإذ استـوفى القلم مراده من هذه الحمدلة، وأنبأ القول فيها عن فصاحته المرسلة، فإنه يأخذ فى إنشاء هذا التقليد الذى جعله حليفـاً لقرطاسه ، واستدام سجوده على صـفحته حتى لم يكد يرفع من راسه. وليس ذلك إلا قناصة فى وصف المناقب التى كثرت فحسن لها مقام الإكثار،

واشتبه الطويل فيها بالاختصار وهى التى لا يعزى واصفها إلى القول المعاد، ولم يستوعر سلوك أطوادها ومن العجب وجود السهل فى سلوك الأطواد ، وتلك هى مناقبك أيها الملك الناصر السيد الأجل الكبير العالم العادل المجاهد المرابط صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب والديوان العزيز يتلوها عليك تحدثاً بشكرك، ويباهى أولياءه تنويها بذكرك، ويقول أنت الذى تستكفى فتكون للدولة سهمها الصائب، وشهابها الثاقب، وكنزها الذى تذهب الكنوز وليس بذاهب ، وحاضرها وقد حضرت فى نصرتها إذا كان غيرك هو الغائب ، فاشكر إذا مساعيك التى أهلتك لما أهلتك، وفضلتك على الأولياء بما فضلتك، ولئن شوركت فى الولاء بعقيدة الإضمار، فلم تشارك فى عزمك الذى انتصر للدولة بسطة الانتصار، وفرق بين من أمدّ بقلبه وبين من أمدّ بيده فى درجات الإمداد، وما جعل الله القاعد كالذى قال لو أمرتنا لضربنا أكبادها إلى برك الغماد، وقد كفاك من المساعى أنك كفيت الخلافة أمر منازعيها، وطمست على الدعوة الكاذبة التى كانت تدعيها، ولقد مضى عليها زمن ومحراب حقها محفوف من الباطل بمحرابين ، ورأيت ما رآه رسول الله ﷺ من السوارين اللذين أولهما كذا بين ، فبمصر منهما واحد تجرى أنهارها من تحته ودعا الناس إلى عبادة طاغوته وجبته ، ولعب بالدين حتى لم يدر يوم جمعته من يوم أحده ولا يوم سبته، وأعانه على ذلك قوم رمى الله بصائرهم بالعمى والصمم، واتخذوه صنما ولم تكن الضلالة هناك إلا لعجل أو صنم، فقمت أنت فى وجه باطله حتى قعد ، وجعلت فى جيده حبلاً من مسد ، وقلت ليده تبت فأصبح ولا يسعى بقدم ولا يبطش بيد ، وكذلك فعلت بالآخر الذى نجمت باليمن ناجمته، وسامت فيه سائمته ، فوضع بيته موضع الكعبة اليمانية ، وقال هذا ذو الخلصة الثانية ، فأى مقاميك يعترف الإسلام بسبقه، أم أيهما يقوم بأداء حقه، وههنا فليصبح القلم للسيف من الحساد ، ولتقصر مكانته من مكانته وقد كان له من الأنداد ، ولم يحط بهذه المزية إلا أنه أصبح لك صاحباً ، وفخر بك حتى طار فخراً كما عز جانباً، وقضى بولايتك فكان بها قاضياً لما كان حده ماضياً ، وقد قلدك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمنية غوراً ونجداً ، وما اشتملت عليه رعية وجنداً ، وما انتهت إليها أطرافها براً وبحراً ، وما تستنفذه من مجاوريها مسالمة وقهراً ، وأضاف إليها بلاد الشام وما تحتوى عليه من المدن الممدنة ، والمراكز المحصنة ، مستثنياً منها ما هو بيد نور الدين إسماعيل بن نور الدين محمد رحمه الله وهو حلب وأعمالها فقد مضى أبوه عن آثار فى الإسلام ترفع ذكره فى الذاكرين، وتخلفه فى عقبه فى الفائزين،

ووالده هذا قد هـذبته الفطرة فى القـول والعمل، وليـست هـذه الربوة إلا من ذاك الجبل، فليكن له منك جار تدنو منه وداداً كما دنا أرضاً، وتصبح وهو لك كالبنيان يشدّ بعـضه بعـضاً ، والذى قدمناه من الثناء علـيك ربما تجاوزتك درجة الاقتـصاد، وألقتك عن فضيلة الازدياد، فاياك أن تنظر إلى سعيك نظر الإعجاب، فتقول هذه بلادنا افتتحتها بعـد أن أضرب عنها كثير من الأضراب، ولكن اعـلم أن الأرض لله ورسوله ثم لخليفته من بعده ، فلا منة للعبد بإسلامه بل المنة لله بهداية عبده ، وكم سلف قبلك ممن لو رام ما رمتـه لدنا شاسعه ، وأجلب مـانعه، لكن ذخـره الله لك لتحظى فى الآخرة بمفازه، وفى الدنيـا برقم طرازه، فألق بيدك عن هذا القول إلقاء التسليم، وقل لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، وقد قـرن تقليدك هذا بخلعة تكون لك فى الإسلام شعاراً، وفى الرسم فخاراً، وتناسب محل قلبك وبصرك، وخير ملابس الأولياء ما ناسب قلوبنا وأبصارنا ، ومن جملتها طوق يوضع فى عنقك مـوضع العهـد والميثـاق، ويشـير إليك بأن الإنعـام قد أطاف بك إطافـة الأطـواق بـالأعـنـاق، ثم إنك خـوطبت بالملـك وذلك خطاب يفـضى لصـدرك بالانشراح، ولأملك بالانفـساح، وتؤمر معه بمدّ يدك العليـا لا تضعها إلى الجناح، وهذه الثلاثة المشار إليها هى التى تكمل بها أقسام السيادة، وهى التى لا مزيد عليها فى الإحسان فيـقال إنها الحسنى وزيادة، فإذا صارت إليك فـانصب لها يوماً يكون فى الأيام كريم الأنساب، واجعله لها عيداً وقل هذا عيد الخلعة والتقليد والخطاب، هذا ولك عند أمير المؤمنين مكانة تجعله لك حاضراً وأنت ناء عن الحضور، وتضن أن تكون مشتركة بينك وبين غيرك والضنة من شم الغيور ، وهذه المكانة قد عرّفتك نفسها ومـا كنت تعرفها ، وما تقول إلا أنها لك صاحـبة وأنت يوسفها ، فاحرسـها عليك حراسة تقضى بتـقديمها ، واعمل لها فإن الأعمـال بخواتيمها، واعلـم أنك تقلدت أمراً يفتتن به التقى الحلوم، ولاينفك صـاحبه عن عهدة الملوم ، وكثيرا ما ترى حسناته يوم القيامة وهى منقـسمة بأيدى الخصوم، ولا ينجـو من ذلك إلا من أخذ أهبـة الحذار، وأشفق من شهـادة الأسماع والأبصار، وعلم أن الولاية مـيزان إحدى كفتـيه فى الجنة والأخرى فى النار، قـال النبى ﷺ : «يا أبا بكر إنى أحب لك ما أحبـه لنفسى لا تؤمرن على اثنين ولا تولين مال يتـيم» فانظر إلى هذا القول النبوى نظر من لم يخدع بحـديث الحرص والآمال ، ومثل الدنيا وقـد سيقت إليك بحذافيرها أليس مصيرها إلى الزوال، والسعيد من إذا جاءته قضى بها أرب الأرواح لا أرب الجسوم ، واتخذ منها وهى السم دواء وقد تتخذ الأدوية من السموم، وما

الاغتــباط بما يختلف على تلاشـيه المساء والصبــاح ، وهو كماء أنزلناه من الســماء فاختلط بـه نبات الأرض فأصبح هشيـما تذروه الرياح ، والله يعـصم أميـر المؤمنين وولاة أمره من تبعاتها التى لابستهم ولابسوها ، وأحصاها الله ونسوها ، ولك أنت من هذا الدعاء حظ على قدر محلك من العناية التى جذبت بضبعك ، ومحلك من الولاية الـتى بسطت من ذرعك، فخذ هذا الأمـر الذى تقلدته أخذ من لم يتعـقبه بالنسيان، وكن فى رعاية من إذا نامت عيناه كان قلبه يقظان، وملاك ذلك كله فى إسباغ العدل الذى جعله الله ثالث الحديث والكتاب، وأغنى بثوابه وحده عن أعمال الثواب، وقدّر يومنا منه بعباده ستين عاماً فى الحساب، ولم يأتمر به أمير إلا زيد قوة فى أمره، وتحصن به من عدوه ومن دهره ، وثم يجاء به يوم القيامة وفى يده كتاب أمان، ويجلس على منبر من نور على يمين الرحمن، ومع هذا فإن مركبه صعب لا يستوى على ظهره إلا من أمـسك عنان نفسه قبل عنانه، وغلبت لمة ملـكه على لمة شـيطانه، ومن أكبر فروضه أن تمحى السير السـيئة التى طالت مدد أيامها، وأيـس الرعايا من رفع ظلاماتها فلم يجعلوا أمداً لانحسار ظلامها، تلك السير هى المكوس التى أنشأتها الهــمم الحقيرة، ولا غنى للايدى الغنية إذا كانت ذات نفـوس فقيرة، وكلما زيدت الأموال الحاصلة منها قدراً زادها الله محقاً ، وقد استمرت عليها العوائد حتى ألحقها الظالمون بالحقوق الموجبة فسموها حقاً، ولولا أن صاحبـها أعظم الناس جرماً لما أغلـظ فى عقابه، وقبلت توبة المرأة الغامـدية بمتابه، وهى أشقى من يكون السواد الأعـظم له خصـماً، ويصـبح وهو مطالب بما يعلم وبما لم يحط به علمـاً ، وأنت مأمور بأن تأبى هذه الظلامات فتنهى عن إجرائها ، وتلحق أسماءها فى المحو وإهمالـها ، حتى لايبقى لها فـى العيان صورة منظوره، ولا فى الألسنة أحـاديث مذكوره، وإذا فعلت ذلك أزلت عن الماضى سنة سوء سنتها يداه فبادر إلى ما أمرت به مبادرة من يـضيق به ذراعاً ، ونظر إلى الحياة الدنيا بعينهــا فرآها فى الآخرة متاعاً، وأحمد الله على أن قيض لك إماما مـهديا يقف بك على هداك، ويأخذ بحجزتك عن خطوات الشيطان الذى هو أعدى عداك، وهذه البلاد المنوطة بنظرك تشتمل على أطراف مـتبـاعدة، وتفتقر فـى سياستها إلى أيد مـتساعده، ولهذا يكثـر بها قـضاة الأحكــام ، وأولو تدبيرات السيـوف والأقلام، وكل من هؤلاء ينبغى أن يفتن على الاختبار، ويسلط عليه شـاهد عدل من أمانته الدرهم والدينار ، فمــا أضل الناس شىء كحب المال الذى فرقت من أجله الأديان ، وهجرت بسببه الأولاد والإخوان، وكثيراً ما يرى الرجل الصائم القائم وهو عابد له عبادة الأوثان ، فإذا استعنت بأحد

منهم على شيء من أمرك فاضرب عليه بالإرصاد، ولاترض بما عرفته من مبدأ حاله فإن الأحوال تنقل بتنقل الأجساد، وإياك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد ، وكذلك تأمر هؤلاء على اختلاف طبقاتهم بأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر محاسبين، ويعلموا أن ذلك من دأب حزب الله الذين جعلهم الغالبين، وليبدءوا أولا بأنفسهم فيعدلوها عن هواها، ويأمروها بما يأمرون به سواها، ولايكون ممن هدى إلى طريق البر وهو عنها حائد، وانتصب لطب المرضى وهو محتاج إلى طبيب وعائد ، فما تنزل بركات السماء إلا على من خاف مقام ربه، وألزم التقوى أعمال يده ولسانه وقلبه ، فإذا صلحت الولاة صلحت الرعية بصلاحهم ، وهم لهم بمنزلة المصابيح ولايستضيء كل قوم إلا بمصابيحهم ، ومما يؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم إخوانا فى الأصحاب وجيرانا فى الاقتراب، وأعواناً فى توزع الحمل الذى يثقل على الرقاب ، فالمسلم أخو المسلم وإن كان عليه أميراً، وأولى الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه كبيراً ، وليست الولاية لمن يستنجد بها كثرة اللفيف ، ويتولاها بالوطء العنيف ، ولكنها لمن يمال عن جوانبه، ويؤكل من أطايبه، ولمن إذا غضب لم ير للغضب عنده أثر، وإذا ألحف فى سؤاله تخلق بخلق الضجر ، وإذا حضر الخصوم بين يديه عدل بينهم فى قسمة القول والنظر ، فذلك الذى يكون صاحبه فى أصحاب اليمين ، والذى يدعى بالحفيظ العليم والقوى الأمين، ومن سعادة المرء أن تكون ولاته متأدبين بآداب، وجارين على نهج صوابه، وإذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانوا حسنات مثبتة فى كتابه ، وبعد الوصية فإن ههنا حسنة للحسنات كالأم للولد ولطالما أغنت عن صاحبها إغناء الجود ، وتيقظت لنصره والعيون رقود ، وهى التى تسعى لها اللالاء، ولايتخطاها البلاء، ولأمير المؤمنين عناية يتبعها الرحمة الموضوعة فى قلبه ، والرغبة فى المغفرة والرحمة لما تقدم وتأخر من ذنبه ، وتلك هى الصدقة التى فضل الله بعض عباده بمزية أفضالها، وجعلها سبباً إلى التعويض عنها بعشر أمثالها، وهو يأمرك أن تتفقد أحوال الفقراء الذين قدرت عليهم مادة الأرزاق، وألبسهم التعفف ثوب الغنى وهم فى ضيق من الإملاق ، فأولئك أولياء الله الذين مستهم الضراء فصبروا، وكثرت الدنيا فى يد غيرهم فما نظروا إليها إذا نظروا ، وينبغى لك أن تهيئ لهم من أمرهم مرفقاً ، وتضرب بينهم وبين الفقر موبقا، وما أطلنا لك القول فى هذه الوصية إلا إعلاماً بأنها من المهم الذى يستقبل ولا يستدبر، ويستكثر منه ولا يستكبر، وهذا يعد من جهاد النفس فى بذل المال، ويتلوه جهاد العدو الكافر فى

مواقف القتال ، وأمير المؤمنين يعرفك من ثوابه بما يجعل السيف فى ملازمته أخاً ، وتسخو له بنفسك إن كان أحد بنفسه سخا، ومن صفاته أنه العمل المصحوب بفضل الكرامة ، الذى ينمو أجره بعد صاحبه إلى يوم القيامة، وبه يمتحن طاعة الخالق على المخلوق، وكل الأعمال عاطلة لا خلوق لها وهو المختص دونها بزينة الخلوق ، ولولا فضله لما كان محسوباً بشطر الإيمان ، ولما جعل الله الجنة ثمناً وليست لغيره من الأثمان ، وقد علمت أن العدو هو جارك الأدنى ، والذى يبلغك وتبلغه عينا وأذنا ، ولتكن للإسلام نعم الجار ، حتى لايكون له بئس الجار ، ولاعذر لك فى جهاده بنفسك ومالك إذا قامت لغيرك الأعذار ، وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مصافحاً ، أو تطرق أرضه مماسياً أو مصابحاً ، بل يريد أن تقصد البلاد التى فى يد عدوه قصد المغير ، وأن تحكم فيها بحكم الله الذى قضاه على لسان سعد فى بنى قريظة والنضير ، وعلى الخصوص البيت المقدس فإنه بلد السلام القديم ، وأخو البيت الحرام فى الشرف والتعظيم ، والذى توجهت إليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم وقد أصبح وهو يشكو طول الوحشة فى غربتها عنه وغربته فأنهض إليه نهضة تتوغل فى قرعه وتبدل صعب قياده بسمحه ، وإن كان له عام حديبية فأتبعه بعام فتحه ، وهذه الاستزادة بعد سداد ما فى اليد من ثغر كان مهملاً فحميت موارده ، أو مستهدماً فرفعت قواعده ، ومن أهمها ما كان حاضر البحر كأنه أعمى عورته مكشوفة، وخطته مخوفة، والعدو قريب منه على بعده ، وكثيراً ما يأتيه فجأة حتى يثق برقه برعده ، فينبغى أن ترتب بهذه الثغور رابطة يكثر شجعانها ، ويقل أقرانها ، ويكون قتالها لأن تكون كلمة الله العليا لا لأنه يرى مكانها ، وحينئذ يصبح كل منها وله من الرجال أسرار ، وتعلم أهله أن نبأ السيف أمنع من نبأ الأخبار ، ومع هذا فلابد له من أسطول يكثر عدده ، ويقوى مدده ، فإنه العمدة التى تعين على كشف العماء ، والاستكثار من سبايا العبيد والإماء ، وجيشه أخو الجيش السليمانى فذاك يسرى على متن الريح وهذا يجرى على متن الماء ، ومن صفات خيله أنها جمعت بين العوم والمطار ، وتساوت أقدار خلقتها على اختلاف مدة الأعمار ، فإذا أسرعت قيل جبال متلفعة بقطع من الغيوم ، وإذا نظر إلى أشكالها قيل أهلة غير أنها تهدى فى مسيرها بالنجوم ، ومثل هذا الخيل ينبغى أن يغالى فى جيادها ، ويكثر من قيادها ، وتؤمر عليها أميراً يلقى البحر بمثله من سعة صدره ، ويسلك طرقه سلوك من لم تقتله بجهلها ولكن قتلها بخبره ، وكذلك فليكن ممن أفنت الأيام تجاربه وزاحمتها مناكبه، وممن يذل الصعب إذا هو ساسه وإن سيس لين جانبه ، وهذا هو الرجل

الذى يرأس القوم فلا يجذ هزة بالرياسه ، فإن كان فى الساقة ففى الساق أو كان فى الحراسة ففي الحراسة ولقد أفلحت عصابة اعتصبت من ورائه ، وأيقنت بالنصر من رايته كما أيقنت بالنجح من روائه ، واعلم أنه قد أخل من الجهاد بركن يقدح فى علمه وهو تمامه الذى يأتى فى آخره كما أن صدق النية تأتى فى أوله ، وذلك هو قسم الغنائم فإن الأيدى قد تناولته بالإجحاف ، وخلطت جهادها فيه بغلولها فلم ترجع بالكفاف ، والله قد جعل الظلم فى تعدّى حدوده المحدوده، وجعل الاستئثار بالمغنم من أشراط الساعة الموعوده ، ونحن نعوذ به أن يكون زماننا هذا شر زمان والناس به شر ناس ، لا ممن يستخلفنا على حفظ أركان دينه ثم نهمل إهمال مضيع ولا إهمال ناس ، والذى نأمرك به أن تجرى هذا الأمر على المنصوص من حكمه ، وتبرئ من ذمتك مما يكون غيرك الفائز بفوائده وأنت المطالب بإثمه ، وفى أرزاق المجاهدين بالديار المصرية والشامية ما يغنيهم عن هذه الأكلة التى تكون غداً نكالاً وجحيماً ، وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً ، فتصفح ما سطرناه لك من هذه الأساطير التى هى عزائم مبرمات ، بل آيات محكمات ، وتحبب إلى الله وإلى أمير المؤمنين باقتفاء كتابها ، وابن لك بها مجداً يبقى فى عقبك إذا أصيبت البيوت فى أعقابها ، وهذا الذى ينطق عليك بأنه لم يأل فى الوصايا التى أوصاها ، فإنه لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ثم إنه قد ختم بدعوات دعا بها أمير المؤمنين عند ختامه ، وسأل فيها خيرة الله التى تتنزل من أبر منزلة نظامه ، ثم قال إنى أشهدك على ما قلدته شهادة تكون عليه رقيبة وله حسيبة فإنى لم آمره إلا بأوامر الحق التى فيها موعظة وذكرى ، ولمن تبعها هدى ورحمة وبشرى ، وإذا أخذ بها فلج بحجته يوماً يسأل فيه عن الحجج ، ولم يختلج دون رسوله على الحوض فى جملة من يختلج ، وقيل له لا حرج عليك ولا إثم إذا نجوت من ورطات الإثم والحرج والسلام ا.هـ.

وفرح يوسف بهذا التقليد فرحاً لايوصف وأمر فضربوا البشائر وسيرها إلى الآفاق وعملت الولائم والأفراح أياماً وامتدحه الشعراء وتواردت عليه التهانى من أقطار البلاد شرقاً وغرباً فتقوّت عزيمته وثبت جأشه وتاقت نفسه إلى الغزو والجهاد ومنع إغارات الإفرنجة فسير جيشاً إلى بلاد الفرنجة الشامية وسار هو خلف الجيش حتى نزل على أعمال عسقلان فأغار عليها وعلى الرملة وهجم على ربض غزة فنهبه وأتاه ملك الفرنجة فى قلة مسرعين لرده عن البلاد فقاتلهم وهزمهم وأفلت ملك الفرنجة هارباً، ثم عاد صلاح الدين يوسف إلى مصر فعمل مراكب مفصلة وحملها قطعاً على الجمال فى البر وقصد أيلة فجمع قطع المراكب وأنزلها فى الماء وحصر أيلة

براً وبحراً وفتحها عـنوة واستباح أهلها وما فيها ثم عاد غانمـا إلى مصر فجاءت إليه الأخبار بخـروج العرب بالأقاليم القـبلية وأنهم عاثوا وأفسـدوا وقتلوا ونهبوا فـسير لقتالهم أخاه تورانشاه فى عسكر كبير فـقاتلهم وقهرهم وسامهم الخسف حتى دخلوا تحت الطاعة وانكـفوا عن الفسـاد وانكمش كبارهم خـوفاً من صـلاح الدين وبطشه واتسعت كلمة صلاح الدين وطار صيته وأجله ملوك الفرنجة وحسبوا ما وراء ظهوره واتساع كلمته وحسده نور الدين صاحب الشام وكبر عليه ظهوره ، واتفق أن صلاح الدين يوسف سار عن مصر فى صـفر سنة سبع وستين وخمسـمائة إلى بلاد الفرنجة غازيا ونازل حصون الشوبك وبينه وبين الكرك يوم ليس إلا وحـصرها وضيق عليها وشدّد على من بها من طوائف الفـرنجة ودام القتال فطلبوا الأمان واستـمهلوا عشرة أيام فـأجابهم صـلاح الدين إلى ذلك فلمـا سمع نور الـدين بما فعله صـلاح الدين داخله الريب وحرك فؤاده الحسد فسار على عجل من دمشق قاصداً بلاد الفرنجة أيضاً ليدخل إليهـا من جهة أخرى فكلم صلاح الدين يوسف أصـحابه فى أمر نور الدين ومسيـره إلى بلاد الفرنجة فقالوا له: إن دخل نور الدين بلاد الفـرنجة على هذا الحال أنت من جانب ونور الدين من جانب ملكها نور الدين ومتى زال الفرنجة عن الطريق وأخذ ملكهـم لم يبق لك بديار مصـر مقام مع نور الدين وإن جـاء نور الدين إليك وأنت ههنا فلابد لك من الاجتماع به وحينئذ يكون هو المتحكم فيك بما شاء إن شاء تركك أو لا فـقد لا تقدر علـى الامتناع عليـه والمصلحة الرجـوع إلى مصـر فأذعن صلاح الدين إلى قولهم وأخذ برأيهم وأمر بالرحيل عن الشـوبك مسرعين إلى مصر ولم يأخذ من الفرنجة شيئاً وكتب إلى نور الـدين يعتذر باختلال البلاد المصرية لأمور بلغته عن بعض شيعة العلويين فيها وأنهم عازمون على الوثوب بها وأنه يخاف عليها إذا بعد عنهـا أن يقوم أهلها على مـن تخلف بها فيـخرجوهم وتعـود ممتنعة وأطال الاعتذار فلمـا وصل كتابه إلى نور الدين تغيـر حاله وتحرك بغضه الذى كـان يكتمه على يوسف وعلم أن ذلك من يوسف حيلة ومكر وعزم على قصـد مصر وإخراجه عنها وجعل يتهيأ لذلك فسمع صلاح الدين بالخبر فخاف العاقبة وجمع أهله وفيهم أبوه نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمى ومـعهم سائر الأمراء وأعلمهم بما بلغه من عـزم نور الدين وحركته إليـه واستشارهم فلم يجـبه أحد بكلمة فـقام تقى الدين عمـر ابن أخى صلاح الدين فقال إذا جـاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد فـوافقه غـيره مـن أهلهم وبالغـوا فى القـول فتطاول عـليهم نجـم الدين أيوب وأنكر ذلك واستـعظمه وسفه على تقى الديـن وأقعده وقال لصـلاح الدين أنا أبوك وهذا خالك

شهاب الدين ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى والله لو رأيته أنا وهذا خالك نورالدين لم نمكث إلا أن نقتل بين يديه ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فإذا كنا نحن هكذا فما بالك بغيرنا وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات فى سروجهم وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها فإن أراد سمعنا وأطعنا والرأى أن تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه: بلغنى أنك تريد الحركة إلى البلاد فأى حاجة إلى هذا يرسل المولى نجابا يضع فى رقبتى منديلاً ويأخذنى إليك وما ههنا ما يمتنع ، وقام الأمراء وغيرهم وتفرقوا على هذا الحال فلما خلا به أيوب قال له بأى عقل فعلت هذا أما تعلم أن نور الذين إذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه إليه وحينئذ لا تقوى عليه وأما الآن فإذا بلغه ما جرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا والأقدار تعمل عملها ووالله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل ففعل صلاح الدين يوسف ما أشار به أبوه فترك نور الدين قصده واشتغل بغيره وأرسل صلاح الدين يعتذر إلى نور الدين من نفسه بالحركة على ما يقرّره نور الدين فاستقرت القاعدة بينهما على أن صلاح الدين يخرج من مصر ويسير نور الدين من دمشق لغزو الفرنجة فأيهما سبق صاحبه يقيم إلى أن يصل الآخر إليه وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه فسار صلاح الدين من مصر فى عسكر عظيم فى شوال من السنة لأن طريقه أبعد وأشق فوصل إلى الكرك وحصره وأما نور الدين فإنه لما وصل إليه كتاب صلاح الدين بخروجه من مصر فرق الأموال وحصل الأزواد وما يحتاج إليه وسار إلى الكرك فوصل إلى الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان فلما سمع صلاح الدين بقربه خافه هو وجميع أهله واتفق رأيهم على العود إلى مصر وترك الاجتماع بنور الدين لأنهم علموا أنهم إن اجتمعوا به كان عزل صلاح الدين يوسف على نور الدين سهلاً فأمر صلاح الدين جنوده بالرحيل فرحلوا مسرعين وأرسل صلاح الدين الفقيه عيسى إلى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على مصر وإنه مريض شديد المرض ويخاف أن يحدث حادث الموت فتخرج البلاد من أيديهم وأرسل معه من التحف والهدايا شيئاً كثيراً فجاء الرسول إلى نور الدين وأعلمه بذلك فعظم عليه وعلم المراد من عود صلاح الدين وداخله ما داخله من الغيظ والكدر وعزم على قصد يوسف ، ولما وصل صلاح الدين إلى مصر وجد أن أباه نجم الدين أيوب قد مات وكان سبب موته أنه ركب فرسه يوماً بمصر فبينما هو سائر إذ جفل الفرس فدقه بالأرض دقة شديدة فحملوه إلى داره فلم يلبث إلا

يومين ومات فحزن عليه يوسف وبكاه وأقام بمصر يفكر فيما سيكون من نور الدين بعد تركه إياه فى الكرك وعدم لقائه به فعلم أن نور الدين حانق من ذلك وأنه على عزم الحركة فزاد خوفه وسقط فى يده وجمع أهله، وكلمهم فى الأمر وقال لهم: إن نور الدين على عزم الدخول إلى مصر فاستقر الرأى بينهم على أنهم يملكون بلاد النوبة أو بلاد اليمن حتى إذا وصل إليهم نور الدين لقوه وصدّوه عن البلاد فإن قدروا على منعه أقاموا بمصر وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا البلاد التى افتتحوها فجهز صلاح الدين أخاه شمس الدولة تورانشاه فى عسكر عظيم وسيّره إلى بلاد النوبة فوصل إلى جزيرة أسوان ثم سار منها إلى قلعة ابريم فحصرها وقاتله أهلها قتالاً شديداً فلم يتغلبوا عليه لأنهم لم تكن لهم جنة تقيهم السهام وغيرها من آلات الحرب فسلموه القلعة فملكها تورانشاه وأقام بها ولم ير فى البلاد شيئاً يرغب فيه وتحتمل المشاق لأجله ثم شق عليه ما لقيه من شظف العيش مع مباشرة الحروب ومعاناة الكروب والخطوب فترك البلاد وعاد إلى مصر بما غنم من الإماء والعبيد.

وظهر لصلاح الدين يوسف أن جماعة من كبار الدولة يريدون الإيقاع به وإعادة ذرية العلويين وذلك أنه كان قد اجتمع جماعة من الشيعة منهم عمارة بن أبى الحسن اليمنى الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضى العويرس وداعى الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالهم السودان وحاشية القصر ووافقهم على ذلك جماعة من الأمراء التابعين لصلاح الدين وجنده وتقرّرت القاعدة بينهم على استدعاء الفرنجة من صقلية ومن ساحل الشام إلى مصر على شىء بذلوه لهم من المال والبلاد فإذا قصدوا مصر فإن خرج صلاح الدين بنفسه لقتالهم ثاروا هم فى القاهرة ومصر وأعادوا الدولة العلوية وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه فلا يبقى له مقام مقابل الفرنجة وإن كان صلاح الدين يقيم ويرسل العسكر للقتال ثاروا به وأخذوه باليد لعدم الناصر له وقال لهم عمارة وأنا قد أبعدت أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه بعده وأرسلوا إلى الفرنجة وصقلية والساحل فى ذلك وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق إلا رحيل الفرنجة وكان جماعة المصريين قد أدخلوا معهم فى هذه المؤامرة زين الدين على بن نجا الواعظ والقاضى المعروف بابن بحية ورتبوا الخليفة من ذرية العلويين والوزير والحاجب والداعى وقاضى القضاة إلا أن بنى رزيك قالوا يكون الوزير منا وبنو شاور والقاضى قالوا يكون الوزير منا وكلاهما من بيت الوزارة بمصر فلما علم ابن نجا الحال دخل على صلاح الدين وأعلمه حقيقة الخبر فأمره بملازمتهم ومخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون فعله وتعريفه ما يتجدّد

أولاً فأولا ففعل وصار يطالعه بكل ما عـزموا عليه ثم وصل رسول من بلاد الفرنجة بالسـاحل بهدية ورسالـة وهى فى الظاهر إلى صلاح الدين وفى البـاطن إلى أولئك الجماعة وكان يرسل إليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنجة بما كان من سر خصومه فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق به من النصارى وداخله فأخبره الرسول بالخبـر على الحقيقة فقبض صلاح الدين فى الحال على المقدمين فى هذه الحادثة منهم عمـارة وعبد الصمد الكاتب والعويرس وغيرهم وأمر بصلبهم فصلبوا وبقوا كذلك أياما ، وقيل فى كشف أمرهم أيضاً عبارة أخرى وهى أنه كان بين عـبد الصمد الكاتب وبين القاضى الفـاضل الصلاحى مودّة فكان إذا لقى القاضى يخدمه ويتقرب إليه بجهـده وطاقته فلقيه يوماً فلم يلتفت إليه فقال القاضى الفاضل ما هذا إلا لسبب وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين فأحـضر على بن نجا الواعظ وأخـبره بالأمر وقـال: أريد أن تكشف لى الأمر فسعى فى كـشفه فلم ير له من جانب صـلاح الدين شيئاً فعـدل إلى الجانب الآخر فكشف الحال وحضر عند القاضى الفاضل وأعلمه فـقال: تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهى الحال إليه فحضر عند صـلاح الدين وهو فى الجامع وذكر له الحال فقام وأخذ الجماعة وقررهم فأقروا فأمر بصلبـهم جميعاً وكان بين عمارة والفاضل عداوة من أيام العاضد وقـبلها فلما أراد صلاح الدين صلبه قام القـاضى الفاضل وخاطب صلاح الدين فى إطلاقـه فظن عمارة أنه يحـرض على هلاكه فقـال لصلاح الدين: يامولانا لاتسمع منه فى حقى فغضب الفـاضل وخرج وقال صلاح الدين لعمارة إنه كان يشفع فيـك فندم فأخرج عمارة ليصلب فطلب أن يمـر به على مجلس الفاضل فاجتازوا به عليه فأغلق بابه ولـم يجتمع به فقال عمارة :

عبد الرحيم قد احتجب   إن الخلاص هو العجب

ثم صلب هو والجـماعـة ونودى فى أجناد المصـريين بالرحـيل من ديار مصـر ومفارقتها إلى أقاصى الصعيـد وأحيط بمن بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله ولم يتعرض صـلاح الدين للذين نافقوا عليه من جنده ولا أعلمـهم أنه علم بحالهم فكانت هذه الحادثة من أعظم الحوادث التى فـاز بالخلاص منها صلاح الدين ووقف على خفـى أمرها ، ولم يمض بعد ذلك إلا الـقليل حتى جاءته الأخـبار بموت نور الدين محمود بن زنكى بن آق سنقر صاحب الشـام وديار الجزيرة ومصر ففرح بموته فـرحـاً لايوصف ، مات فى يوم الأربعـاء الحادى عشر من شوال سنة تـسع وستين وخمســمائة بعلة الخوانيق ودفن بقلعـة دمشق ثم نقل منها إلى المدرسـة التى أنشأها بدمشق عنـد سوق الخواصـين قيل ومن عـجيب الاتفاق أنه ركب ثـانى شوال وإلى

جانبه بعض الأمراء الأخيار فقال له أحد الأمراء سبحان من يعلم هل نجتمع هنا فى العام المقبل أم لا فقال نور الدين: لا تقل هكذا بل سبحان من يعلم هل نجتمع بعد شهر أم لا فمات نور الدين بعد أحد عشر يوماً ومات الأمير المذكور قبل الحول فأخذ كل منهما بما قال.

وكان قد شرع فى التجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين يوسف فإنه رأى منه فتورا فى غزو الفرنجة من ناحيته وكان يعلم أن ما منع صلاح الدين من الغزو سوى الخوف منه ومن الاجتماع به فإن صلاح الدين يؤثر كون الفرنجة فى الطريق ليمتنع بهم على نور الدين فأرسل إلى الجزيرة والموصل وديار بكر يطلب الجند للغزاة وكان عزمه أن يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل والشام ويسير هو بعساكره إلى ديار مصر فيخلع يوسف عنها ويخرجه هو وجميع أهله منها ويستردها لنفسه فبينما هو يتهيأ لذلك أتاه أمر الله الذى لامرد له. قال صاحب الكامل: حكى لى طبيب كان يخدم نور الدين وهو من حذاق الأطباء قال استدعانى نور الدين فى مرضه الذى توفى فيه مع غيرى من الأطباء فدخلنا إليه وهو فى بيت صغير بقلعة دمشق وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته وكان يخلو فيه للتعبد فابتدأ به المرض فلم يتنقل عنه فلما دخلنا ورأينا ما به قلت له: كان ينبغى أن لا تؤخر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض الآن وينبغى أن تعجل الانتقال من هذا الموضع إلى مكان فسيح مضىء فله أثر فى هذا المرض قال: وشرعنا فى علاجه وأشرنا بالفصد فقال ابن ستين: لا يفصد وامتنع عنه فعالجناه بغيره فلم ينجع فيه الدواء وعظم الداء ومات رحمه الله ورضى عنه اهـ.

وكان نور الدين أسمر اللون طويل القامة ليس له لحية إلا فى حنكه وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين وكان قد اتسع ملكه جداً وخطب له بالحرمين وباليمن لما دخلها شمس الدولة بن أيوب وملكها وكان مولده سنة إحدى عشرة وخمسمائة وطبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله ، وبموته قام ابنه الملك الصالح إسماعيل بالملك بعده وكان عمره يومئذ إحدى عشرة سنة وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق وأقام بها وأطاعه الناس بالشام وجاءت الأخبار إلى صلاح الدين بولايته فخطب له بديار مصر وضربت السكة باسمه وتولى تربيته الأمير شمس الدين ابن محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم وصار مدبر دولته فلم يرض به بعض الأمراء بالشام وقال له كمال الدين: إن صاحب مصر من أصحاب نور الدين والمصلحة أن نشاوره فى الذى نفعله ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا ويجعل

ذلك حجة علينا وهو أقوى منا لأنه قد انفرد بملك مصر فلم يوافق هذا القول أغراض بعض أمراء الشام لاسيما شمس الدين محمد وخافوا أن يدخل صلاح الدين يوسف فيخرجهم فلم يمض إلا القليل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يعزيه ويهنئه بالملك وأرسل إليه دنانير مصرية عليها اسمه ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه فلما سار سيف الدين غازى صاحب الموصل إلى بلاد الجزيرة وملكها للأسباب التى لم نأت على ذكرها لبعدها عن غرضنا أرسل صلاح الدين يوسف إلى الملك الصالح يعاتبه حيث لم يعلمه بقصد سيف الدين بلاده وأخذها ليحضر فى خدمته ويكف سيف الدين عن أطماعه وكتب أيضاً إلى كمال الدين والأمراء يقول لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق إليه مثل ثقته بى لسلم إليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى وأراكم قد تفردتم بمولاى دونى فسوف أصل إلى خدمته وأجازى إنعام والده بخدمة يظهر أثرها وأجازى كلا منكم على سوء صنيعه فى ترك الذب عن بلاده.

وتمسك ابن المقدم ومن معه من الأمراء بالملك الصالح وهم يراقبون الأمور وكأنهم كانوا يعلمون بقصد الفرنجة بلاد مصر بناء على طلب جماعة الأمراء الذين كانوا تآمروا على صلاح الدين يوسف فلم يهتموا لجوابه ولا أعاروه أذناً صاغية فلما كانت سنة سبعين وخمسمائة سير صاحب صقيلة إلى الإسكندرية عمارة عظيمة عدتها مائتا سفينة تحمل الرجال وستاً وثلاثين طريدة تحمل الخيل وست مراكب تحمل آلات الحرب وأربعين تحمل الأزواد وفيها من الرجال خمسون ألفا ومن الفرسان ألف وخمسمائة وكان المقدم عليهم ابن عم صاحب صقلية وكان وصول هذه العمارة فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة تسع وستين وخمسمائة على حين غفلة من أهلها فلما شوهدت أمام المدينة خاف الناس خوفاً عظيماً وخرجوا بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول إلى البر فمنعهم والى الاسكندرية من ذلك وأمرهم بملازمة السور فنزل الفرنجة إلى البر مما يلى الماء والمنارة وتقدموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وقاتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل البلد وسيرت الكتب فى الحال إلى صلاح الدين يوسف يستدعونه لدفع العدو عنهم ودام القتال من أول النهار إلى آخره ثم أعاد الفرنجة القتال فى اليوم الثانى وجدوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات إلى قريب السور ووصل فى ذلك اليوم بعض الجنود المصرية ممن كانوا فى أقطاعهم القريبة من الإسكندرية فتقوت بهم عزائم أهل البلد وفرحوا بوصولهم

وأحسنوا القتال والصبر فلما كان اليوم الثالث فتح أهل الإسكندرية أبواب البلد وقاتلوا الفرنج قتالاً شديداً اليوم كله ثم عادوا إلى البلد فدخلوه وقد قتل منهم خلق كثير، وأما صلاح الدين فإنه لما وصله الخبر خرج بعسكره وسير مملوكاً له ومعه ثلاث جنائب ليجد السير عليها إلى الإسكندرية ويبشر بوصوله وسير طائفة من العسكر إلى دمياط خوفاً عليها واحتياطاً ووصل مملوك صلاح الدين والناس فى شدة ونادى فى البلاد بمجئ صلاح الدين والعسكر مسرعين ففرح الناس بذلك وتقوت نفوسهم وعاودوا القتال وجدوا فتأخر الفرنجة وتقهقروا وقد علموا بقرب وصول صلاح الدين وأنه على ما هو عليه من نفوذ الكلمة وبعد الصيت فأقلعوا بمراكبهم وعادوا إلى صقلية وكفى الله الناس شرهم، ولم يكن ليطمئن صلاح الدين يوسف برجوع مراكب الفرنجة عن الإسكندرية وكفهم عن قتال أهلها حتى جاءه الخبر من الأقاليم القبلية بخروج (الكنز) أحد المقدمين بالصعيد وأنه اجتمع إليه من أهل البلاد والغوغاء والسودان والعربان وغيرهم خلق كثير جداً فجعل صلاح الدين يتأهب لقتاله وأمر بجمع الجند وآلات الحرب وكان بالأقاليم القبلية أمير من الأمراء الصلاحية فى أقطاعه وهو أخو الأمير أبى الهيجاء السمين فقام عليه الكنز المذكور وقتله ونهب أرزاقه فعظم قتله على أخيه أبى الهيجاء وكان من أكبر الأمراء وأوسعهم شهرة وأشجعهم فى الحروب فسار إلى قتال الكنز وسيّر معه صلاح الدين جماعة من الأمراء وجيشاً كبيراً فلما وصلوا إلى مدينة طود قاتلوا من بها وجدوا فى قتالهم حتى ظفروا بهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ثم ساروا بعد فراغهم من طود إلى الكنز وقد عظم أمره واتسعت كلمته وخضع له معظم البلاد فقاتلوه قتالاً شديداً ومازالوا يجدّون فى قتاله حتى قتل هو ومن معه من الأعراب وغيرهم من السود والغوغاء وأمنت بعده البلاد وجاء الخبر بذلك إلى صلاح الدين فأمر بضرب البشائر فإنه كان يخشى من استفحال أمر الكنز وقيام الأقاليم القبلية معه.

ولما صفت لصلاح الدين الأمور تاقت نفسه إلى الغزو والجهاد وفتح المدن والبلدان فجمع عسكراً عظيماً للغاية وتأهب للخروج وبينما هو على هذا الحال إذ وردت إليه الأخبار باختلال الأمور فى دمشق واضطراب الأحوال بها وتطاول أيدى الطامعين إليها وانحطاط كلمة الملك الصالح بن نور الدين صاحب الشام واستقلال الكثير من عماله بأعمالهم وخروج بعض الأمراء عليه واجتماع كلمة بعض أصحاب الكلمة الذين فى خدمة الملك الصالح على استدعاء صلاح الدين يوسف ليملكوه عليهم ويسلموه جميع البلاد وكان مقدمهم فى ذلك شمس الدين بن المقدم فسر

صلاح الدين بذلك وبالغ فى التأهب والاستعداد ثم حصل من الأسباب ما أوجب تأخيره فجاءته الرسل من الشام تستحثه على المسير فلم يلبث أن سار جريدة فى سبعمائة فارس ومعه القاضى الفاضل وبعض الأمراء فلما وطئ أرض الشام قصد بصرى وكان بها حينئذ صاحبها وهو من جملة من كاتب صلاح الدين بالقدوم لأخذ البلاد فلما رأى قلة من كانوا مع صلاح الدين خاف على نفسه واجتمع بالقاضى الفاضل وقال: ما أرى معكم عسكراً وهذا بلد عظيم لا يقصد بمثل هذا العسكر ولو منعكم من به ساعة من النهار أخذكم أهل السواد فإن كان معكم مال سهل الأمر فقالوا هنا مال كثير مقدار خمسين ألف دينار فضرب صاحب بصرى على رأسه وقال: هلكتم وأهلكتمونا وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار ثم سار صلاح الدين إلى دمشق فما وصل خبر وصوله إلى من بها من العسكر حتى خرجوا جميعاً للقائه وخدموه ودخل البلد ونزل فى دار والده المعروفة بدار العقيقى وكانت قلعة دمشق بيد خادم اسمه ريحان فأحضر صلاح الدين كمال الدين بن الشهرزورى وهو يومئذ قاضى البلد والحاكم فى جميع أموره من الديوان والوقف وغير ذلك وأرسله إلى ريحان المذكور ليسلم القلعة إليه وقال أنا مملوك الملك الصالح وما جئت إلا لأنصره وأخدمه وأعيد البلاد التى أخذت منه إليه فصعد كمال الدين إلى ريحان ولم يزل معه حتى سلم القلعة فصعد صلاح الدين إليها وأخذها وأخذ ما فيها من الأموال وأخرجها إلى دار أبيه واتسع بها وثبتت قدمه وقويت نفسه وهو مع ذلك يظهر طاعة الملك الصالح ويخاطبه بالملك والخطبة والسكة باسمه ومازال بدمشق حتى قرر أمرها واستخلف بها أخاه سيف الإسلام طغدكين بن أيوب ثم سار عنها إلى مدينة حمص وكانت حمص وحماة وقلعة بعرين وسلمية وتل خالد والرها من بلد الجزيرة فى أقطاع الأمير فخر الدين مسعود الزعفرانى ولكنه كان مغلوباً عليها لا كلمة له فيها لسوء سيرته فى أهلها وتغلب ولاة نور الدين عليها وكان بقلعة حمص وال يحفظها فراسل صلاح الدين من بحمص بالتسليم فامتنعوا فقاتلهم فملك البلد وأمن أهلها وامتنعت عليه القلعة فسار عن حمص إلى مدينة حماة بعد أن وكل بحصار من فى القلعة وقطع عنهم الزاد وهو فى جميع أحواله لايظهر إلا الطاعة للملك الصالح بن نور الدين وأنه إنما خرج لحفظ بلاده من الفرنجة واستعادة ما أخذه سيف الدين غازى صاحب الموصل من بلاد الجزيرة فلما وصل إلى حماة ملك المدينة وكان بقلعتها الامير عز الدين جورديك وهو من المماليك النورية فامتنع من التسليم إلى صلاح الدين فأرسل إليه صلاح الدين يعرّفه ما هو عليه من طاعة الملك الصالح

وإنه إنما يريد حفظ بلاده فاستخلفه جورديك على ذلك وسيره إلى حلب فى اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح وفى إطلاق شمس الدين علىّ وحسن وعثمان أولاد الداية وقد كانوا معتقلين بحلب فسار جورديك إلى حلب واستخلف بقلعة حماة أخاه ليحفظها فلما وصل جورديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين وحبسه فلما علم أخوه بذلك خاف وسلم القلعة إلى صلاح الدين فملكها.

وسار صلاح الدين بعيد ذلك يريد أخذ حلب فحصرها وضيق على من بها فقاتله أهلها قتالاً شديداً وركب الملك الصالح وهو صبى وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة وجمع أهل حلب وقال لهم: قد عرفتم إحسان أبى إليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدى إليه يأخذ بلدى ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق فهل يرضيكم فعله وهل تطيقون الصبر على ما تكرهون ثم بكى وأعاد عليهم القول وبكى فأبكى الناس فبذلوا له الأموال والأنفس واتفقوا على القتال دونه والمنع من بلده، وجدوا فى القتال وأظهروا من الشجاعة والإقدام ما أعجز صلاح الدين عن التقدم نحو البلد وأرسل سعد الدين إلى سنان مقدم الإسماعيلية وبذل له أموالا كثيرة ليقتلوا صلاح الدين فأرسلوا جماعة منهم إلى عسكره فلما وصلوا رآهم أمير اسمه خمارتكين صاحب قلعة برقيس فعرفهم لأنه جارهم كثير الاجتماع بهم والقتال لهم فلما رآهم قال لهم ما الذى أقدمكم وفى أى شىء جئتم؟ فقاموا عليه وضربوه بالسكاكين فجرحوه جراحات مثخنة وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله فقتل دونه وقاتل الباقون من الإسماعيلية جماعة ثم قتلوا وتحرز صلاح الدين واشتد تحفظه وبقى محاصراً لحلب إلى سلخ جمادى الآخرة سنة سبعين وخمسمائة ثم رحل عنها مستهل رجب قاصداً حمص لرد الفرنجة عنها حيث كانوا قد حضروا لنجدة أهل حلب وخلاص ما بيد صلاح الدين من البلاد الشامية فلما علم الفرنجة بوصوله إليهم رحلوا عن حمص ووصل صلاح الدين إليها فحصر القلعة إلى أن ملكها وقد كانت ممتنعة عليه كما تقدم ثم سار منها إلى بعلبك وكان الوالى بها من أيام نور الدين خادم اسمه يمن فحصرها صلاح الدين وهم بقتالها فأرسل إليه يمن يطلب الامان له ولمن معه فأمنهم وتسلم القلعة رابع عشرى رمضان من السنة فصار أكثر بلاد الشام بيده وعظم الأمر جداً على الملك الصالح بن نور الدين فكتب إلى ابن عمه سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود يستنجده على صلاح الدين ويخبره بما جرى على بلاده ويطلب أن يعبر إليه ليقصدوا صلاح الدين معاً ويأخذوا البلاد منه فجمع سيف الدين عساكره وكاتب أخاه عماد

الدين زنكى صاحب سنجار لينزل إليه بعساكره فيجتمعوا على المسير إلى الشام فامتنع عماد الدين من ذلك وكان صلاح الدين قد كاتب عماد الدين وأطمعه فى الملك لأنه هو الكبير فحمله الطمع على الامتناع على أخيه. فلما رأى سيف الدين امتناعه جهز أخاه عز الدين مسعوداً فى معظم عسكره وسيّره إلى الشام وجعل المقدم عليه أكبر أمرائه المدعو عز الدين محمود زلفندار وسار هو إلى سنجار فحصرها وقاتلها وجدّ فى قتالها فامتنع أخوه عماد الدين بها وجد فى حفظها والذب عنها فدام الحصار عليها فبينما هو يحاصرها ويضيق على من بها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذى مع أخيه عز الدين مسعود من صلاح الدين فراسل حينئذ أخاه عماد الدين وصالحه على ما بيده ورحل إلى الموصل وثبت قدم صلاح الدين بعد هذه الهزيمة وخافه الناس واتسعت شهرته وترددت الرسل بينه وبين سيف الدين غازى على الصلح فلم يستقر حال ، هذا والملك الصالح بن نور الدين يراسل سيف الدين ويطلب حضوره إليه بعسكره ويستحلفه فكبر الأمر على سيف الدين واستعظمه وسيرّ عسكره مع أخيه عزالدين زلفندار إلى حلب ففرح الملك الصالح بوصولهم واجتمع معهم عسكر حلب وساروا كلهم إلى صلاح الدين ليحاربوه فأرسل صلاح الدين إلى سيف الدين يبذل تسليم حمص وحماة وأن يقر بيده مدينة دمشق وهو فيها نائب الملك الصالح فلم يقبل ذلك وأبى إلا تسليم جميع ما أخذه صلاح الدين من بلاد الشام والعود إلى مصر وكان صلاح الدين فى هذه الأثناء يحشد الجنود ويكثر من معدات الحرب ويتجهز للقتال فلما سمع بامتناع سيف الدين من إجابته إلى ما طلب نادى فى عسكره بالركوب فركبوا وركب وسار بهم إلى عز الدين مسعود وزلفندار فالتقوا بالقرب من مدينة حماة بموضع يقال له قرون حماة. قال بعض الكتاب: وكان زلفندار جاهلاً بالحروب غير عالم بتدبيرها مع جبن فيه إلا أنه قد رزق سعادة وقبولاً من سيف الدين فلما التقى الجمعان لم يثبت عسكر سيف الدين وانهزموا شر هزيمة وثبت عز الدين أخو سيف الدين بعد انهزام أصحابه فلما رأى صلاح الدين ثباته تعجب جداً وقال: إما أن هذا يكون أشجع الناس أو أنه لايدرى شيئاً فى الحرب وأمر أصحابه بالحملة عليه فحملوا فأزالوه عن موقفه وتمت الهزيمة على عسكر سيف الدين وتبعهم صلاح الدين بعسكره فقتل وغنم من السلاح والدواب شيئاً كثيراً للغاية ووصل المنهزمون إلى حلب فلحقهم صلاح الدين فى عسكره وقاتلهم عليها وحاصرها وجدّ فى حصارها وضيق وأمر بقطع خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه من السكة فى جميع بلاده ، ولما طال الحصار

واشتد عليهم الأمر راسلوا صلاح الدين فى الصلح فتقررت القاعدة بينهم على أن يكون ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها فتم الصلح على هذه القاعدة ورحل صلاح الدين بجيوشه عن حلب إلى حماة فسيّر إليه الخليفة العباسى بها خلعة نفيسة للغاية مع رسوله ثم سار إلى دمشق وأقام بها وقد عظم شأنه بما ملكه من بلاد الشام وبفوزه المتتابع على الملك الصالح وجميع عماله وولاته وقد ملت جنوده من طول الإقامة بأرض الشام وامتلأت أيديهم من السلب والغنائم فطلبوا العود إلى بلادهم والاستراحة فأذن لهم وسار هو كذلك فى عسكر مصر ومعه الغنائم الكثيرة فلما وصل إليها خرج إليه أهله وضربت البشائر وأولم وتصدق وأكثر من الخير للناس.

ولما كانت سنة خمس وسبعين وخمسمائة مات الإمام المستضئ بنور الله أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد وكان موته فى ثانى ذى القعدة فكانت خلافته نحو سبع سنين وسبعة أشهر وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمسمائة وكان عادلاً حسن السيرة فى الرعية كثير البذل للأموال غير مبالغ فى أخذ ما جرت العادة بأخذه وكان الناس معه فى أمن عام وإحسان شامل وسكون وطمأنينة لم يروا مثلها وكان حليماً محباً للعفو والصفح عن المذنبين، واستوزر فى أيامه عضد الدين أبا الفرج ابن رئيس الرؤساء فلبث يتصرف فى الأمور إلى أن قتل فى ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة فاستوزر بعده ظهير الدين أبا بكر منصور بن نصر المعروف بالعطار وكان خيراً حسن السيرة كثير العطاء فتمكن من الخلافة وظهرت كلمته فلما مات المستضىء قام ظهير الدين المذكور بأخذ البيعة لولده الناصر لدين الله فلما تمت له البيعة صار الحكم فى الدولة لأستاذ الدار مجد الدين بن أبى الفضل بن الصاحب. قال صاحب الكامل: ولم يلبث ابن العطار أن قبض عليه ووكل عليه فى داره ثم نقل إلى التاج وقيد ووكل به وطلبت ودائعه وأمواله وفى ليلة الأربعاء ثامن عشر ذى القعدة أخرج ميتاً على رأس حمال فغمز به بعض الناس فثار به العامة فألقوه عن رأس الحمال وكشفوا سوأته وشدوا فى ذكره حبلاً وسحبوه فى البلد ووضعوا بيده مغرفة كأنها قلم وغمسوها فى العذرة وصاروا يقولون: وقع لنا يامولانا إلى غير ذلك من الأفعال الشنيعة ثم خلص من أيديهم ودفن قال هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وكفه عن أموالهم وأعراضهم.

ومات فى خلافه المستضئ خائيل بطرك الإسكندرية فكانت مدته تسع سنين وقيل تسع سنين وثمانية أشهر وكانت وفاته بالمعلقة بمصر واتفق فى أيامه أن نقص

النيل نقصاً فاحشاً فسيره الخليفة إلى بلاد الحبشة بهدية سنية إلى النجاشى فتلقاه النجاشى وأكرم وفادته وأجله كثيراً وسأله عن سبب قدومه فعرفه بنقص النيل وضرر أهل مصر بسبب ذلك قيل فأمر بفتح سد يجرى منه الماء إلى أرض مصر ففتح فزاد النيل فى ليلة واحدة ثلاثة أذرع واستمرت الزيادة حتى روت البلاد وزرعت ثم عاد خائيل البطرك فخلع عليه الخليفة وأحسن إليه وأكرمه جداً فلما مات أقيم بعده مقارى أو هو مكاريوس الثانى تاسع ستيهم وهو راهب من دير بو مقار وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

الفصل الرابع والثلاثون
(فى خلافة أبى العباس أحمد الناصر لدين الله)

ثم قام بالأمر بعد المستضئ ابنه أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه فى أول ذى القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة هجرية أى سنة تسع وسبعين ومائة وألف ميلادية وعمره ثلاث وعشرون سنة وسيرت الرسل إلى الآفاق لأخذ البيعة له فسير صدر الدين شيخ الشيوخ إلى البهلوان صاحب همدان وأصفهان والرى وغيرها فامتنع من البيعة فراجعه صدر الدين وأغلظ عليه فى القول حتى أنه قال لعسكره فى حضرته: ما لهذا عليكم طاعة ما لم يبايع أمير المؤمنين بل يجب عليكم أن تخلعوه وتقاتلوه فخاف البهلوان وأذعن للبيعة والخطبة للناصر وسير رضى الدين القزوينى مدرس النظامية إلى الموصل لأخذ البيعة فبايع صاحبها وخطب للخليفة الناصر لدين الله فى هذه السنة وجاءت الأخبار إلى صلاح الدين يوسف بموت المستضىء وخلافة ابنه الناصر لدين الله فبايع له وخطب له أيضاً وسير إليه الهدايا النفيسة والأعلاق الثمينة وهو بمصر ينشئ العمائر العظيمة والأبنية الجسيمة فإنه منذ رجوعه من الشام رسم بترميم القناطر والجسور وتطهير الترع وكانت جسور النيل قد أهملت من عهد الدولة الفاطمية فكان إذا فاض طغت مياهه فأغرقت وخربت الطرق وأفسدت الزرع فرمم ما فسد منها وأقام السدود ونقل لبنائها كثيراً من حجارة الأهرام الصغيرة التى كانت حول الكبيرة بالجيزة وغيرها من أحجار المعابد والهياكل القديمة المصرية ومهد الطريق من مصر إلى الصعيد الأعلى وأنشأ القلعة بسفح المقطم المعروفة الآن بقلعة الجبل وبنى له فيها قصراً وقد كان إلى هذا الحين يسكن فى دار الخليفة العبيدى ودار الوزير فجعلهما مسكناً لقواد الجيوش وأمراء الدولة من بعده ووكل بالبناء وزيره الأمير بهاء الدين الأسدى الحمصى وكان

جليل القدر مقداماً حسن السياسة والتدبير، فبالغ فى العمل وأكثر من البنائين والعمال والمهندسين ونقر فى القلعة بئراً فى الصخر عميقاً فيه من الماء ما يكفى حاجة الجند والمرابطين بالقلعة وهى باقية إلى يومنا هذا والعامة يقولون إنها البئر التى ترك فيها يوسف إخوته . قال بعض الكتاب: وإنما هذا البئر من عمل المصريين القدماء فانطمس بالرمال ولم تخف معالمه فأعاد بهاء الدين حفره عند بناء القلعة واهتم بهاء الدين ببناء سور حول مصر والقاهرة وقلعة الجبل طوله تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالذراع الهاشمى. وكان قد بدأ بعمارته صلاح الدين يوسف سنة ست وستين وخمسمائة على عهد العاضد العلوى ثم بطل العمل فيه بسبب الفتن والحروب فجد بهاء الدين فى عمارته وهدم فى تخطيطه كثيراً من المساجد والمعابد والقبور والبيوت والوكائل والعمائر الجسيمة فضج الناس من ذلك وكبر عليهم هذا الأمر وحسبوه جوراً وظلماً من بهاء الدين فأبغضوه وسموه قراقوش وكانوا يلقون الرقاع فى طريقه وكلها سب ولعن له ولأصحابه وكان إذا مر بالأسواق صاح العامة فى وجهه وقالوا: ما تحل لك هذه الفعال يا ظالم وهو لايلتفت إليهم ولا يؤاخذهم بشىء من ذلك وقد ألف الأسعد بن مماتى كتاباً سماه الفاشوش فى أحكام قراقوش ذكر فيه من أفاعيل الجور والعسف وأنواع المظالم شيئاً كثيراً وحفر بهاء الدين خندقاً يمتد من باب الفتوح إلى المقس وهو الخطة التى بها جامع أولاد عنان اليوم ومن الجهة الشرقية خارج باب النصر إلى باب البرقية وما بعده وجعل خارج هذا الخندق سوراً آخر بأبراج مبنيا بالحجارة العظيمة وابتنى الأشوان العظيمة بمصر لحفظ الغلال التى ترد فى كل سنة من الأعمال من الإقليمين القبلى والبحرى وهى إلى الآن تعرف بمخازن يوسف والناس يظنون أنها مخازن فرعون يوسف التى بناها بعد تعبير رؤياه. قال أصحاب التاريخ: وقد بنى سور القاهرة ثلاث مرات بناه فى المرة الأولى جوهر القائد وفى الثانية أمير الجيوش بدر الجمالى وفى الثالثة بهاء الدين وزير صلاح الدين يوسف فزاد فيه بهاء الدين القدر الذى يبتدئ من باب القنطرة إلى باب الشعرية ومن باب الشعرية إلى باب البحر وابتنى مع ذلك قلعة المقس جعلها على النيل بجانب جامع المقس المعروف الآن بجامع أولاد عنان وزاد فيه أيضاً قطعة مما يلى باب النصر ممتدة إلى باب البرقية وإلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير حتى يتصل بسور قلعة الجبل.

وبينما كان صلاح الدين يشيد العمائر ويمهد الطرق ويقيم الجسور ويصلح الترع ويسهل العقبات بالديار المصرية جاء الخبر بوفاة الملك الصالح بن نور الدين صاحب

حلب والشام مات فى رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة هجرية وعمره نحو تسع عشرة سنة وكان على صغر سنة كثير التأمل واسع الفكر كبير المعرفة وكان يخشى من صلاح الدين يوسف ويعلم أنه سيأخذ عنه يوماً ما بقى له من بلاد الشام ولذلك كان كثير الاحتياط بعيد الحساب فلما مرض وأيس من نفسه أحضر الأمراء وسائر الأجناد وأوصاهم بتسليم البلد إلى ابن عمه عمر عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى واستحلفهم على ذلك فقال له بعضهم: إن عماد الدين ابن عمك أيضاً أحق بها وهو زوج أختك وكان والدك نور الدين يحبه ويؤثره وقد تولى تربيته بنفسه فهو أصلح للولاية وليس له غير سنجار فلو أعطيته البلد لكان أوفق وعز الدين له من البلاد من الفرات إلى همذان ولا حاجة به إلى بلدك فقال له: إن هذا لم يغب عنى ولكن قد علمتم أن صلاح الدين يوسف قد تغلب على عامة بلاد الشام سوى ما بيدى الآن ومتى سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها وإن ملكها صلاح الدين لم يبق لأهلنا معه مقام وإن سلمت إلى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسنوا فعاله وعجبوا من جودة فطنته مع شدة مرضه. ولما قضى نحبه أرسل الأمراء إلى أتابك عز الدين يستدعونه إلى حلب فسار هو ومجاهد الدين قايماز إلى الفرات وأرسل إلى الأمراء فحضروا عنده وساروا جميعاً إلى حلب فدخلوها فى العشرين من شعبان وكان صلاح الدين حينئذ بمصر. قال أصحاب التاريخ: ولولا ذلك لزاحمهم عليها وقاتلهم وكان تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين يوسف بمدينة منبج فلما مر بها عز الدين ومن معه إلى حلب خاف تقى الدين وهرب من منبج إلى حماة فثار أهل حماة فأشار الأمراء والقواد بحلب على عز الدين بقصد دمشق وأطمعوه فيها وفى غيرها من البلاد وأعلموه بمحبة أهل الشام له ولأهل بيته فلم يفعل وقال: بيننا يمين فلا نغدر به وأقام بحلب ما شاء ثم سار عنها إلى الرقة فلم يستقر به المقام حتى جاءته رسل أخيه عماد الدين صاحب سنجار ليطلب أن يسلم إليه حلب ويأخذ عوضاً عنها مدينة سنجار فلم يجبه إلى ذلك وألح عماد الدين وترددت الرسل بينهما أياماً كثيرة وكلمه الأمراء فى ذلك أيضاً فسلمها إليه وأخذ بدلها سنجار وعاد إلى الموصل وكان صلاح الدين يوسف لما بلغه خبر دخول عز الدين إلى حلب وتصرفه فيها كبر عليه الأمر جداً وخاف أن يسير منها إلى دمشق وغيرها فيأخذ ما بيد صلاح الدين من البلاد الشامية فانكمش وجعل يراقب الفرص فلما بلغه ملك عماد الدين لها برز من مصر من يومه وسار إلى الشام وكان خروجه فى الخامس من المحرم افتتاح سنة ثمان وسبعين. قال صاحب

الكامل: ومن عجيب ما يحكى من التطير أنه لما برز من القاهرة أقام بخيمته ظاهر القاهرة حتى تجتمع العساكر والناس عنده وأعيان دولته والعلماء وأرباب الآداب وكلهم مودّع له وسائر معه وكان كل واحد يقول شيئاً فى الوداع والفراق وما هم بصدده من السفر وكان ممن حضر هذا المجلس معلم لبعض أولاد صلاح الدين وكان جالساً خلف الجالسين فأخرج رأسه من بينهم وأنشد :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فانقبض صلاح الدين بعد انبساطه وتطير وتنكد المجلس على الحاضرين فلم يعد صلاح الدين إلى مصر إلى أن مات مع طول الوقت ا.هـ.

وسار صلاح الدين عن مصر فتبعه التجار وأهل البلاد ممن كان قصد مصر من الشام فرارا من الغلاء وغيره فجعل طريقه على أيلة فلما سمع الفرنجة بمسيره جمعوا له ليحاربوه ويصدوه عن المسير فسير الضعفاء والأثقال مع أخيه تاج الملوك بورى إلى دمشق وبقى هو فى المقاتلة فشن الغارات على أطراف الكرك والشوبك فلم يخرج إليه منها أحد فسار إلى دمشق فوصلها بمن معه سالماً ولبث بها أياماً حتى أصلح حال جنده ونظم عسكره وسار بهم إلى بلاد الفرنجة فى ربيع الأول فقصد طبرية فنزل بالقرب منها وخيم فى أقحوان من الأردن فتهيأ الفرنجة وجاءوا إليه بجموعهم فنزلوا بطبرية وتأهبوا للقتال فسير صلاح الدين يوسف فرخشاه ابن أخيه إلى بيان فدخلها قهراً وغنم ما فيها وقتل وسبى وعم القتل والسبى وجاءت العرب فأغارت على جفين واللجون وما جاورهما من البلدان حتى قاربوا مرج عكا وسار الفرنجة من طبرية حتى نزلوا تحت جبل كوكب فتقدم صلاح الدين إليهم وأرسل عسكره يرمونهم بالنشاب فلم يتحركوا للقتال فعاد صلاح الدين إلى دمشق ولبث بها أياماً ثم سار منها فعبر الفرات وملك عدة بلاد من ديار الجزيرة وأقطعها للأمراء الذين كانوا فى خدمته ودخل الفرنجة دمشق فقتلوا ونهبوا وسبوا ورحلوا عنها وجاءت الأخبار بذلك إلى صلاح الدين فلم يقدر على الرجوع وقد اطمأن بترك الفرنجة لها ورحيلهم عنها ثم سار إلى الموصل وحاصرها فلم ينل منها وعاد عنها إلى سنجار فقاتلها فخامر معه بعض الأمراء الأكراد وسلم إليه الناحية التى هو بها فطرقه صلاح الدين فلما أحس شرف الدين صاحبها بذلك استكان وخضع وطلب الأمان فأمنه وملك البلد صلاح الدين وسار شرف الدين ومن معه إلى الموصل وقويت عزيمة صلاح الدين بملك سنجار واطمأن على ما بيده من البلاد الشامية إذ صارت سنجار على جميع تلك البلاد كالسور واستناب بها سعد الدين بن معين الدين أنز وهو من

كبار الأمراء وأحسنهم سيرة وبقى صلاح الدين يوسف مشغول البال بملك حلب ونزعها من عماد الدين زنكى بن مودود وهو يراقب الفرص ويتبين انتفاعها فلما كان المحرم افتتاح سنة تسع وسبعين نزل عليها بجيش عظيم وأقام بالميدان الأخضر عدة أيام ثم انتقل منه إلى جبل جوشن فنزل بأعلاه وأظهر أنه إنما يريد أن يبنى مساكن له ولأصحابه وعسكره وأقام عليه أياماً والقتال بين العسكرين كل يوم وعماد الدين زنكى ومن معه من العسكر النورى يجدّون فى القتال ويدفعون عن البلد فلما كان فى بعض الأيام جاء إلى عماد الدين بعض الجنود وطلبوا منه مالاً للنفقة فاعتذر بقلة المال عنده فقال بعضهم: إن من يريد أن يحفظ بلداً مثل حلب لابد له من صرف الأموال ولو باع حلى نسائه فخاف عماد الدين وحسب ما وراء ذلك فمال إلى تسليم حلب إلى صلاح الدين وأخذ العوض عنها وأرسل فى الحال مع الأمير طومان الياروقى وكان ممن يميل إلى صلاح الدين يوسف أن يسلم حلب ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج وجرت اليمين على ذلك. قال أصحاب التاريخ: وباعها عماد الدين بأبخس الأثمان أعطى حصناً مثل حلب وأخذ عوضها قرى ومزارع فنزل عنها ثامن عشر صفر وتسلمها صلاح الدين يوسف فعجب الناس كلهم من ذلك وقبحوا فعل عماد الدين حتى إن بعض عامة حلب أحضر أجانة وماء وناداه أنت لايصلح لك الملك وإنما يصلح لك أن تغسل الثياب وأسمعوه المكروه. واستقر ملك صلاح الدين يوسف وسار عماد الدين إلى البلاد التى أخذها فتسلمها وتقررت القاعدة بينه وبين صلاح الدين على أن عماد الدين يحضر فى خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره إذا استدعاه لا يحتج بحجة وامتدح محيى الدين بن الزكى قاضى دمشق صلاح الدين يوسف بقصيدة منها:

وفتحكم حلبا بالسيف فى صفر   مبشر بفتوح القدس فى رجب

فكان فتح بيت المقدس فى رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كما سيذكر فى محله وهو من غريب الاتفاق. قال صاحب الكامل: وكان فى جملة من قتل على حلب تاج الملوك بورى أخو صلاح الدين الأصغر وكان فارساً شجاعاً كريماً حليماً جامعاً لخصال الخير ومحاسن الأخلاق طعن فى ركبته فانفكت فمات منها بعد أن استقر الصلح بين عماد الدين وصلاح الدين على تسليم حلب قبل أن يدخلها صلاح الدين فلما استقر الصلح حضر صلاح الدين عند أخيه يعوده وقال له هذه حلب قد أخذناها وهى لك فقال ذلك لو كان وأنا حى ووالله لقد أخذتها غالية حيث تفقد مثلى فبكى صلاح الدين وأبكى ولما خرج عماد الدين إلى صلاح الدين

وقد عمل له دعوة احتفل فيها فبينما هم فى سرور إذ جاء إنسان فأسر إلى صلاح الدين بموت أخيه فلم يظهر هلعاً ولا جزعاً وأمر بتجهيزه سراً ولم يعلم عماد الدين ومن معه فى الدعوة واحتمل الحزن وحده لئلا يتنكد ما هم فيه وكان هذا من الصبر الجميل أ هـ.

ووصلت الأخبار إلى صلاح الدين يوسف بوفاة قطب الدين صاحب ماردين وتملك ابنه بعده وهو طفل وأن الحكم إلى شاه أرمن صاحب خلاط وعسكره فيها وشاه أرمن هذا خال قطب الدين فطمعت نفس صلاح الدين فى أخذها فسار إليها فى جيش عظيم من الرجال والفرسان ونازلها فرآها مشحونة بالرجال وبها زوجة قطب الدين المتوفى ومعها بنتان لها منه وهى أخت نور الدين محمد صاحب الحصن فحاصر صلاح الدين البلد وشدد فى حصارها وكان المقدم على عسكرها أمير اسمه برتقش ولقبه أسد الدين وهو من كبار قواد العسكر وأشجعهم وأعلمهم بفنون الحرب واشتد القتال بين الفريقين شدة بالغة فلم يصل صلاح الدين إلى ما يريد فعدل من القوة والحرب إلى إعمال الحيلة والدهاء فراسل زوجة قطب الدين وهى بالبلد يقول لها: إن أسد الدين برتقش قد مال إلينا فى تسليم البلد ونحن نرى حق أخيك نور الدين فيك بعد وفاته ونريد أن يكون لك فى هذا الأمر نصيب وأنا أزوج بناتك بأولادى ويكون ميافارقين وغيرها لك وبحكمك ووضع أيضاً من أرسل إلى برتقش أن الخاتون قد مالت للمقاربة والانقياد إلى السلطان وأن من بخلاط من الجند والعسكر كاتبوه ليسلموا إليه فخذ لنفسك واتفق أن رسولاً وصل من خلاط ليعلن صلاح الدين يوسف بالطاعة ففرح صلاح الدين بقدوم الرسول وأمره بالدخول إلى ميافارقين والاجتماع ببرتقش فدخل واجتمع به وقال له: أنت عمن تقاتل وأنا قد جئت فى تسليم خلاط إلى صلاح الدين فسقط برتقش فى يده وضعفت عزيمته وأرسل إلى صلاح الدين يطلب أن يقطعه بلداً ومالاً وهو يتخلى عن البلد إلى صلاح الدين فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وتسلم البلد فلما دخل إليها وفّى بوعده إلى زوجة قطب الدين وعقد نكاح بعض أولاده على بعض بناتها وأقرّ بيدها قلعة هتاخ لتكون فيها هى وبناتها ورتب الأمور فى ميافارقين وقرر إقطاعاتها وجميع ولاياتها وأحكم قواعدها ثم سار عنها يريد الموصل فإنه كان كثير الرغبة فى أخذها من صاحبها شديد الطمع فى ذلك فسار نحوها وجعل طريقه على نصيبين فوصل إلى كفر زمار والوقت شتاء فنزلها فى عساكره وعزم على المقام بها وقطع المدد من الغلة والأقوات عن الموصل لإضعافها فقد علم أنه لايقدر على محاربتها لمنعتها

وكثرة مـا بها من الجند وآلات الحرب وطال مكث صلاح الدين بعسكره فـخاف عز الدين صاحب الموصل فأرسل رسله إلى صلاح الدين فى الصلح فمال صلاح الدين إلى ذلك فبينما الرسل تتردد بينهما إذ مـرض صلاح الدين وسار من كفر زمار عائداً إلى حوران فلـحقه الرسل بالإجـابة إلى ما طلب فـتقـرر الصلح وحلف على ذلك وكانت القاعدة أن يسلم إليه عز الدين شهـرزور وأعمالها وولاية القرابلى وجميع ما وراء الزاب من الأعـمال ويخطب لـه على منابر بلاده ويضـرب اسمـه على السكة وأرسل رسله إلى عز الدين ليحلف بحضـرتهم على ذلك فحلف وتسلم البلاد التى استقـرت القاعدة على تسليـمها ووصل صلاح الدين إلى حـوران فأقام بها مـريضاً وطال مرضـه فأمنت الدنيا وسكنت الفـتنة. وكان عند صـلاح الدين من أهله أخوه الملك العادل وهو يومـئذ على حلب وولده الملك العزيز عثـمان واشتد مـرضه حتى أيسوا منه فحلف الناس لأولاده بالطاعة وجـمع إليه الأمراء وقواد الجند وجعل لكل من أولاده شيئاً من البـلاد معلوماً وجعل أخاه العادل وصيًـا على الجميع وجاءه ابن عمه ناصر الدين مـحمد بن شيركوه صاحب حمص والرحـبة ليزوره فرأى من شدة مرضـه ما أطمعـه فى أخذ دمـشق إذا هو مات فسـار من عنده إلى حمص واجـتاز بحلب وأحضر جماعة من الدمشقيين وواعدهم على تسليم البلد إليه إذا مات صلاح الدين وأقام بحمص ينتظر مـوته ليسير إلى دمشق فيملكهـا وانتقل صلاح الدين من حوران إلى دمشق فـبلغه ما قاله ناصـر الدين فلم يمض غير قليل حـتى مات ناصر الدين ليلة عيد الأضحى قيل إنه شرب الخمر وأكـثر منه فأصبح ميتاً وقيل إن صلاح الدين وضع إنساناً يقال له الناصح بن العميـد من دمشق فحضر عند ناصر الدين فى تلك الليلة ونادمه وسقاه سماً فلما أصـبحوا من الغد لم يروا الناصح المذكور فسألوا عنه فقيل إنه سار من ليلتـه إلى صلاح الدين فكان هذا مما قوّى الظن ولما مـات ناصر الدين شيركوه أخذ صلاح الدين جمـيع أقطاعه وأعطاها لولده شيركوه وعمره اثنتا عشرة سنة قال بعض الكـتاب: وخلف ناصر الدين من الأموال والخيل والآلات شيئاً كثيرا فحضر صلاح الدين فى حـمص واستعرض تركته وأخذ أكثرها ولم يترك إلا ما لا خير فـيه. قال صاحب الكامل: وبلغنى أن شيركـوه بن ناصر الدين حضر عند صلاح الدين بعـد موت أبيه بسنة فـقال له إلى أين بلغت من القرآن فـقال إلى قـوله تـعـالى ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليـتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا**﴾ قال فعجب صلاح الدين والحاضرون من ذكائه.

ولما كـانت سنة اثنتين وثمـانين وخمـسمـائة أخرج صـلاح الدين يوسف ولده

الأفضل علياً من مصر إلى دمشق وأقطعها له وأخذ حلب من أخيه العادل وسيره مع ولده العزيز عثمان إلى مصر وجعله نائباً عنه واستدعى تقى الدين منها وسبب ذلك أنه كان استناب تقى الدين بمصر وجعل معه ولده الأكبر الأفضل عليا فأرسل تقى الدين يشكو من الأفضل ويقول إنه قد عجز عن جباية الأموال معه لأنه كان حليماً كريم الطبع إذا أراد تقى الدين مطالبة أحد أو معاقبته منعه فأحضر صلاح الدين ولده الأفضل وكتب إلى تقى الدين. يقول ليس لك بعد أخذ الأفضل حجة فى الخراج أو غيره وتغير عليه بسبب ذلك وظن أنه إنما يريد إخراج الأفضل عن مصر لينفرد بها حتى يملكها إذا مات صلاح الدين وقوى هذا الخاطر عنده فأحضر أخاه العادل من حلب وسيره إلى مصر ومعه ولده العزيز عثمان واستدعى تقى الدين إلى الشام فامتنع من الحضور وجمع العساكر والأجناد ليسير إلى المغرب إلى مملوكه قراقوش وكان قد استولى على جبال نقوسة وبرقة وغيرها وكتب إليه يرغبه فى تلك البلاد فتهيأ للسفر إليه واستصحب معه الجند والعساكر وآلات الحرب فلما سمع ذلك صلاح الدين يوسف ساءه وعلم أنه إن أرسل إليه يمنعه لم يجبه فأرسل إليه يقول أريد أن تحضر عندى لأودعك وأوصيك بما تفعله فلما حضر عنده منعه وزاد فى إقطاعه حماة ومنبج والمعرة وكفر طاب وميافارقين وجبل جور بجميع أعمالها. قال صاحب الكامل: بلغنى من خبير بأحوال صلاح الدين أنه إنما حمله على أخذ حلب من العادل وإعادة تقى الدين إلى الشام أن صلاح الدين لما مرض بحران أرجف بمصر أنه قد مات فجرى من تقى الدين حركات من يريد أن يستبد بالملك فلما عوفى صلاح الدين بلغه ذلك فأرسل الفقيه عيسى الهكارى وكان كبير القدر عنده مطاعاً فى الجند إلى مصر وأمره بإخراج تقى الدين والمقام بمصر فسار مجداً فلم يشعر تقى الدين إلا وقد دخل الفقيه عيسى إلى داره بالقاهرة وأرسل إليه يأمره بالخروج منها فطلب أن يمهله إلى أن يتجهز فلم يفعل وقال: تقيم خارج المدينة وتتجهز فخرج وأظهر أنه يريد الدخول إلى الغرب فقال له اذهب حيث شئت فلما سمع صلاح الدين الخبر أرسل إليه يطلبه فسار إلى الشام فأحسن إليه ولم يظهر له شيئاً مما كان لأنه كان حليماً كريماً صبوراً رحمه الله أهـ.

ولما دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كتب صلاح الدين إلى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وإربل وغيرها من بلاد الشرق وإلى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم إلى الجهاد ويحثهم عليه ويأمرهم بالتجهز ثم خرج من دمشق فى عسكرها فسار إلى رأس الماء وتلاصقت به العساكر الشامية فلما

اجتمعوا جعل عليهم ولده الملك الأفضل علياً ثم ساروا جميعاً إلى الكرك وبث سراياه من هناك على ولاية الكرك والشوبك وغيرهما فنهبوا وخربوا وأحرقوا ثم سار منها إلى طبرية فملكها وأمن صاحبتها فرحلت عنها فرتب أمورها وأحكم نظامها وسار عنها إلى عكا فاستسلمت إليه ونزح الكثير من أهلها بما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا ما بقى ودخل المسلمون إليها وسلم البلد بعد ذلك إلى ولده الأفضل وأعطى جميع ما فيه من أقطاع وجناح وغير ذلك إلى الفقيه عيسى وكان فيها من السلاح والأموال والمتاع وغير ذلك شيء لايكاد يدخل تحت الحصر وأقام صلاح الدين بعكا بعد ذلك عدة أيام حتى أتم تقرير جميع أمورها على قواعد مرتبة ثم ملك بيروت وجبيلي وغيرهما وأجرى فيها أحكامه وأقام العمال بها على نظامه وترتيبه المألوف عنده فلما دانت له الأمور فى جميع بلاد الشام إلا ما كان منها بيد الفرنجة كان أمر عسقلان وبيت المقدس عنده أهم فكان كثير التحدث بحوادثهما كبير التولع بمعرفة أخبارهما وكان يقول أما عسقلان فإنها على طريق مصر وأحب الأشياء عندى أن تتصل الولايات لى فلا يصعب عليَّ خروج العسكر منها ودخولهم إليها وأما فتح بيت المقدس ففيه من الذكر الجميل والصيت العظيم ما يبقى على مر الأيام وفى أخذ البلدين فائدة للإسلام والمسلمين وعظمت رغبته وقويت نفسه بأخذ بيروت فسار منها نحو عسقلان واجتمع بأخيه العادل ومن معه من العسكر المصرى ونازلوها يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة وجد فى قتالها ونصب المنجنيقات ورمى بالأحجار ليلاً ونهاراً وسدّ عليها جميع المسالك فانقطع المدد وقلت الأقوات وطال القتال أياماً كثيرة فلم ير من بالمدينة من الفرنجة بُدا من التسليم فراسلوا صلاح الدين فى ذلك واشترطوا شروطاً فأجابهم صلاح الدين إليها فسلموها ونزح منهم من أراد الخروج بماله وعياله ووفى لهم صلاح الدين بالأمان ثم مال صلاح الدين بعسكره على ما جاور عسقلان من البلدان فأخذها وأنفذ فى جميعها أحكامه فذاع صيته واتسعت كلمته وهابه الملوك لما رأوه من انتصاره فى غزواته وفتوحاته * ولما فرغ من أمر عسقلان وما جاورها من البلدان وقد استتب له الأمر فيها أرسل إلى مصر فأخرج الأسطول الذى بها فى جمع من المقاتلة ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب فأقاموا فى البحر يقطعون الطريق على الفرنجة كلما رأوا لهم مركباً عاكسوه أو أخذوه بما فيه من غلة أو متاع ومازال على هذا الحال حتى وصل فسار صلاح الدين عن عسقلان إلى بيت المقدس وكان به جمع كبير من المقاتلة والفرسان الأشداء وقد حصنوه تحصيناً ونصبوا عليه المنجنيقات وتأهبوا للذب والدفاع فلما قرب صلاح

الدين منه تقدم أمير من أمراء جند صلاح الدين فى جماعة من أصحابه فلقيه جمع من الفرنجة قد خرجوا من البلد ليناوشوهم القتال فقاتلوه ومن معه وقاتلهم فقتلوه وقتلوا جميع من معه فأهم المسلمين قتله وساروا حتى نزلوا على بيت المقدس فرأوا على سوره من الرجال ما هالهم وسمعوا لأهله من الجلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع، وبقى صلاح الدين يوسف خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتلها لأنها كانت فى غاية المنعة فلم يجد عليها موضع قتال إلا من جهة الشمال نحو باب عمور أو كنيسة صهيون فانتقل إلى هذه الناحية ونزلها ونصب فى ليلة وصوله المنجنيقات فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها ورمى الفرنجة بمنجنيقاتهم وقاتلوا أشد قتال فلم يره أحد من الناس وكان فرسان الفرنجة يخرجون فى كل يوم إلى ظاهر البلد فيقاتلون ويبارزون فقتل من الفريقين خلق ومات من المسلمين الأمير عز الدين عيسى بن مالك وهو من أكبر الأمراء فى جيش صلاح الدين وكان أبوه صاحب قلعة جعبر وكان يصطلى القتال بنفسه حتى قتل ومازالوا على جد وشدة فى القتال حتى وصل المسلمون إلى الخندق وجاوزوه والتصقوا بالسور ينقبونه والرماة يحمونهم والمنجنيقات توالى الرمى لتكشف الفرنجة عن الأسوار حتى يتمكن المسلمون من النقب حتى نقبوه فلما رأى الفرنجة ذلك أرسلوا إلى صلاح الدين فى طلب الأمان وخرج صاحب الرملة واجتمع بصلاح الدين يوسف وكلمه فى الكف عن القتال وتقرير قاعدة لتسليم البلد وقال له: أيها السلطان اعلم أننا فى هذه المدينة فى خلق كثير جداً لا يعلمه إلا الله وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظناً منهم أنك تجيبهم إليه فإذا رأينا أن لا مناص من الموت فوالله لنقتلن أولادنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تأخذون منها ديناراً ولا درهماً ولا تسبون ولا تأسرون رجلاً ولا امرأة وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه ثم خرجنا إليكم كلنا وقاتلناكم قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل منا حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء أو نظفر كراماً فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى ما يطلبون وأن لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لايدرون عاقبة الأمر فيه عن أى شىء ينجلى، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى ما طلبه صاحب الرملة واستقر أن يأخذ من الرجل عشرة دنانير يستوى فيها الغنى والفقير ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين وتزن المرأة خمسة دنانير فمن أدى ذلك إلى أربعين يوما

فقد نجا ومن انقضت الأربعون يوما عنه ولم يؤدها فقد صار مملوكاً فبذل صاحب الرملة عن الفقراء ثلاثين ألف دينار فأجيب إلى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ورتب صلاح الدين على كل باب من البلد أميراً من الأمراء ليأخذوا من أهلها ما استقر عليهم فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة واقتسم أولئك الأمراء الأموال وتفرقت أيدى سبأ • قال صاحب الكامل وغيره: وكان على رأس قبة الصخرة بالبيت المقدس صليب كبير مذهب فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة المذكور تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة ليقلعوا الصليب فحين صعدوا صاح الناس كلهم صيحة واحدة من البلد ومن ظاهرها من المسلمين والنصارى فسمع الناس ضجة عظيمة كادت الأرض أن تميد بهم لعظمها وشدتها فكان هذا الحادث من العجائب وتحدث الناس به كثيراً ، ثم أمر صلاح الدين بإعادة ما تخرب من الأبنية إلى ما كان عليه ولما كانت الجمعة الأخيرة رابع شعبان صلى المسلمون فى المسجد الأقصى صلاة الجمعة ومعهم صلاح الدين يوسف وصلى أيضاً فى قبة الصخرة وكان الخطيب والإمام محيى الدين بن الزكى قاضى دمشق ثم رتب صلاح الدين فيه خطيباً وإماماً برسم الصلوات الخمس وشرع من قام من الفرنجة فى بيت المقدس فى بيع ما لا يمكنه حمله من أمتعة وذخائر وأموال وأخذ ما يطيق حمله فكان ما بيع شيئاً كثيراً من الأسرة والصناديق والبتيات وغير ذلك فاشتراه تجار المسلمين وتركوا أيضاً من الرخام الذى لامثيل له من الأساطين والألواح والفصوص وغيره شيئاً كثيراً ثم ساروا ورحلوا متفرقين. قال أصحاب التاريخ: وهذه المكرمة من فتح بيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه غير صلاح الدين يوسف رحمه الله وكفاه ذلك فخراً وشرفاً.

ولما شاع خبر أخذ صلاح الدين يوسف بيت المقدس وشحنه بالعساكر والأجناد والمهاجرين من المسلمين وأنه قد ولى عليه الظهير أخا الفقية عيسى وفوض إليه تدبيره هاج النصارى وماجوا ووصل بعض المستنفرين من أهل بيت المقدس إلى قسطنطينية وغيرها من البلاد الألمانية وأخبروا بما جرى ووردت كتب بابا رومية إلى إمبراطور الألمان وغيره من ملوك أوروبا فى هذا المعنى فهموا بإعداد المقاتلين وأكثروا من جمع الأسلحة ومعدات الحرب وبالغوا فى التجهيز للقتال. قال بعض الكتاب وسار بطرك بيت المقدس إلى رومية فى جمع من القسوس يستنفرون الناس إلى الجهاد واستخلاص بيت المقدس من يد صلاح الدين يوسف ورسموا صورة المسيح فى زى رجل عارى البدن حاسر الرأس وبجانبه آخر فى زى أعرابى وقد طعنه وأسال

دمه وطافوا بهذه الصورة فى الطرق والشـوارع وهم يضجون ويبكون ويحثون الناس فهاج الناس ومـاجوا وكبر عليهم الأمـر جداً وزادت حميتـهم وتبعوهم وهم ينادون باللثأر يـاللثأر . وبينما كانت خواطر النصـارى فى اضطراب وإمبراطور الألمان يجهز المقاتلة للخـروج للقتال كـان صلاح الدين يوسف أيضـاً يجيش الجيـوش ويكثر من الكراع ومعدات الحـرب وهو على عزم أن يفتح ما بقى من بـلاد الساحل وسار إلى جبلة ففـتحها بإغـراء قاضيهـا وفتح ما حولهـا مثل انطنطوس ومرقيـة وأخذ حصن بكسرائيل بين جبلة ومدينة حماة وبعد أن قرر أحـوال جبلة وجعل فيها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية صـاحب شيزر سار عنها إلى اللاذقية وكان الـفرنجة قد ساروا عنها وأخلوها وصعـدوا إلى حصنين لها على الجبل فـامتنعوا بهمـا فدخل المسلمون المدينة وحصـروا القلعتين وقـاتلوهما وقد دخل إلى الفرنجـة بالقلعتين قـاضى جبلة ومازال بهم حـتى استأمنوا لصلاح الديـن وخرب عسكر صلاح الدين مـا فى مدينة اللاذقية من الأبنية العظيمة والعمائر الجـسيمة المزخرفة المملوءة بالرخام الملون ونقلوا رخامها وشعثوا كثيراً من كنائسـها التى قد غرم عليها الأموال الجليلة المقدار وبعد أن قرر أحوالها سلمها إلى ابن أخيه تقى الدين عمر وسار صلاح الدين من اللاذقية إلى قلعة صهـيون فقاتل من بهـا ومازال يقاتلهم حتى سلـموا إليه على قطيعـة ، فتسلم الحصن وسلمـه إلى الأمير ناصـر الدين منكورس صاحب قلعة أبى قـبيس، ثم بث صلاح الدين سراياه حول صهيون، فملكوا حصن بلاطنوس وحصن العيدو وحصن الجماهرتين وكان جماعـة الفرنجة قد تركوها ورحلوا عنها. قال أصحـاب التاريخ : فاتسعت الـمملكة الإسلامية بتلك الناحـية إلا أنه كان دون الوصول إليـها من البلاد الإسلامـية على عقبـة بكسرائيل أهوال لأن الطريق السهلة كـانت غير مسلوكـة فإن بعضها كان بيد الإسـماعيلية وبعضها بيد الفرنجة. فلمـا استسلمت الحصون المذكورة استسلمـت أيضاً قلعة الثغـر ووجدوا قلعة بكاس خاليـة ليس فيها أحد مـن الفرنجة فـأخذوها وسـيـر صلاح الدين ولده الظاهـر غازى صـاحب حلب إلى سـرمينيـة فحاصرها وضيق عليها ومازال بأهلهـا حتى استنزلهم على قطيعة قررها عليهم فلما أنزلهم وأخذ منهم المقاطعة هدم الحصن وكان فيه وفى بقية تلك الحصون من أسارى المسلمين الجم الغفيـر فأطلقوا، وكانت جميع هذه الحصون إلى سـرمينية من أعمال أنطاكية فلم يبق لها سوى القصير وبغراس ودرب ساك كما ذكره أصحاب التاريخ ثم سار صلاح الدين يوسف إلى حصن برزية ونزل عليه وفتحه بعد قتال شديد دام أياماً وأمّن صاحب الحصن هو وعـائلته ووفى له بالعهد وسيره إلى أنطاكـية ولبث ببرزية

يومين ثم رحل عنها وأتى جسر الحديد على نهر العاجى بالقرب من أنطاكية فأقام عليه حتى وافاه من تخلف من الجند والقواد وسار عنه إلى قلعة درب ساك فنزل عليها ونصب المنجنيقات وتابع الرمى عليها بالحجارة ومازال يجدّ فى قتالها ويزحف على الأسوار بجنده المرة بعد المرة حتى ظهر ضعف من بها من الفرنجة وعجزهم عن القتال وطلبوا من صلاح الدين الأمان فأجابهم إلى ما طلبوه فخرجوا وساروا إلى أنطاكية ولم يأخذوا من أموالهم ومتاعهم شيئاً وكذلك فعل بقلعة بغراس. ولما تم له فتح بغراس عرض عسكره ليسير بمن بقى منهم إلى فتح أنطاكية فرأى من ضعفهم ومللهم وانقباض نفوسهم ما خافه وأشفق منه فلبث أياماً لا يأمرهم بالمسير واتفق أن صاحب أنطاكية أرسل إلى صلاح الدين يطلب الهدنة وأطلق كل أسير عنده من المسلمين، ففرح صلاح الدين بذلك واستشار من عنده فأشاروا بإجابته إلى ما طلب ليعود الناس فيستريحوا ويجددوا ما يحتاجون إليه فأرسل صلاح الدين إلى صاحب أنطاكية بالقبول واصطلحوا مدة على ثمانية أشهر واستحلفه على حفظ الزمام، فحلف له وأطلق من عنده من الأسرى فرحل صلاح الدين بعسكره عن أنطاكية إلى حلب ثالث شعبان من السنة أى سنة أربع وثمانين وخمسمائة فدخلها وسار منها إلى دمشق وفرق العساكر الذين مع زنكى بن مودود وعسكر الموصل وغيرها وكانوا قد أشاروا عليه بذلك ففعل وهو يخشى العاقبة وكان صلاح الدين قبل المهادنة مع صاحب أنطاكية قد جعل على الكرك عسكراً يحصره وكان به الأمير رينودى شاتيلون أحد ملوك الصليبيين فلازموا حصاره مدة طويلة حتى فنيت أزواد من به من الفرنجة وذخائرهم والملك العادل أخو صلاح الدين يشدد فى الحصار ويضيق على من به، فأرسلوا إليه يطلبون الأمان ويبذلون تسليم القلعة فأجابهم إلى ذلك، وتسلم القلعة منهم ونزلوا وتسلم أيضاً ما يقاربها من الحصون كالشوبك وهرمز والوعيرة والسلع فاطمأنت قلوب المسلمين بأخذ ذلك الصقع وفرح صلاح الدين بفتحه فرحاً عظيماً وهو مع ذلك كان يقول: إن العمر قصير والأجل غير مأمون وكيف أطاول الفرنجة وبيدهم إلى الآن كوكب وصفد وغيرهما، وأقام بدمشق إلى منتصف رمضان حتى وافته الجنود والعساكر المشرقية وغيرهم ثم سار عن دمشق إلى قلعة صفد فحصرها وضيق عليها ونصب المنجنيقات ووالى الرمى عليها بالحجارة وكان من بها من عسكر الفرنجة قد مضى عليهم أيام كثيرة وهم يدافعون عنها ولم يأتهم شىء من المؤنة فقلت أزوادهم وضاقت نفوسهم فأرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم وتسلمها منهم فخرجوا عنها وساروا إلى مدينة صور،ووفى لهم صلاح الدين بالعهد ثم سار عن

صفد إلى كوكب فحاصرها وأرسل بها من الإفرنج يبذل لهم الأمان إن سلموا ويتهدّدهم بالقتل والسبى والنهب إن امتنعوا فأبوا إلا القتال فقاتلهم وجدّ فى قتالهم ونصب المنجنيقات وتابع الرمى بالحجارة فلم يتمكن منها وطال مقامه عليها. ثم حملوا على سورها حملة رجل حتى التصقوا به ونقبوه فلما رأى الفرنجة ذلك مالوا إلى التسليم وأرسلوا إلى صلاح الدين فى ذلك فأجابهم واستلم منهم الحصن فى ذى القعدة وسيرهم إلى صور فانضموا إلى من بها من المقاتلين وأصلحوا حالهم ورتبوا أمورهم فاشتدت شوكتهم وجاءهم المدد تباعاً من صقلية وغيرها فصاروا جيشاً عظيماً، فندم صلاح الدين على تفريطه حيث لم ينفعه ذلك واجتمع للمسلمين بفتح كوكب وصفد من حد أيلة إلى أقصى أعمال بيروت فكان لا يفصل بينها غير مدينة صور وقد صارت فى غاية القوة والامتناع بما وفد عليها من جموع الفرنجة والأمداد المتتابعة واجتمع لهم أيضاً جميع أعمال أنطاكية سوى القصير.

ولما تم لصلاح الدين أخذ صفد سار إلى بيت المقدس فعيد فيه عيد الأضحى، ثم سار منه إلى عكا فأقام بها حتى انسلخت السنة. فلما كان ربيع الأول من سنة خمس وثمانين سار إلى شقيف ارنوم وهو من أمنع الحصون ليحصره فنزل بمرج عيون وأقام بها يدبر أمر جيوشه، فجرت بينه وبين صاحب الحصن وهو صاحب مدينة صيدا أيضاً مخابرات فى معنى القتال وفى المطاولة وترددت الرسل بينهما وكل منهما راض عما يسأل الآخر فتقررت القاعدة بينهما على تسليم الحصن فى جمادى الآخرة من تلك السنة ولبث صلاح الدين بمرج عيون ينتظر الأجل المضروب بينهما ولكنه كان قلقاً مضطرب البال مفكراً فى قرب انقضاء الهدنة بينه وبين صاحب أنطاكية، تقى الدين ابن أخيه فيمن معه من عسكره ومن يأتى من بلاد المشرق وأمره بالنزول مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الإسلام عند انقضاء الهدنة وكانت الأخبار عن صور تأتى إليه فى كل يوم أشكالاً وكلها تدل على اجتماع الفرنجة بها وما يتصل بهم من الأمداد فى البحر وتزايد جموعهم يوماً عن يوم، فكان منزعج الخاطر كثير الهم شديد الخوف وكان يخشى من ترك الشقيف وراء ظهره والتقدم إلى صور وفيها الجموع المتكاثفة فتنقطع الميرة عنه وكان صاحب الشقيف فى هذه الهدنة يشترى الأقوات من سوق العسكر والسلاح وغير ذلك مما يقوى به حصنه وصلاح الدين لا يسيء الظن به، وما دخلت سنة ست وثمانين حتى تم تجهيز جموع الفرنجة وكثر عددهم وعُدَدهم تحت راية امبراطور الألمان فسار بهم وهم لا يحصون كثرة يريد بيت المقدس وجعل طريقه على القسطنطينية فلم يمدّهم صاحبها بشيء من

الذخيرة ولا الأزواد وخشى منهم على بلاده وكادت تقع الحرب بينهما على ذلك ثم عبروا خليج القسطنطينية واتصلوا ببلاد الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن قتلش بن سلجق فلم يطئوا حدودها حتى ثارت بهم قبائل التركمان فناوشتهم القتال فلم تنل منهم فجعلوا يسايرونهم ويسرقون ما قدروا عليه ومازالوا سائرين حتى قاربوا مدينة قونية فخرج إليهم الملك قطب الدين ملك شاه بن قلج أرسلان يريد منعهم فلم يكن له بهم قوة فعاد مسرعاً مدحوراً إلى قونية ،فأسرعوا فى السير فى أثره ونازلوا قونية وجدوا فى قتالها وشددوا فأرسل إليهم قطب الدين يسألهم الجلاء عن المدينة ولهم ما يطلبون فأجابه الامبراطور إلى ذلك بشرط أن يسلم إليهم جميع ما يحتاجون إليه من قوت وغيره فأتاهم بما يريدون فتزودوا وطلب منه رهائن وتسيير الكتب إلى جميع بلاده بملازمة السكون والطاعة والقيام بكل ما يطلب منهم فسلم إلى الامبراطور نيفاً وعشرين أميراً كان يكرههم رهناً وسير الكتب إلى الآفاق بإمداد جيوشهم بالميرة والزاد وجميع ما يحتاجون إليه وسار امبراطور الألمان فى جموعه حتى أتى بلاد الأرمن فخرج إليه صاحبها لافونة بن اصطفان بن ليون فى جماعة من كبار قومه وأحسن وفادته وقدم له من الأقوات شيئاً كثيراً وكذلك العلوفات وحكم الامبراطور فى بلاده وأظهر له الطاعة، فلبث أياماً ثم نادى فى جموعه بالرحيل فساروا يريدون أنطاكية ونزلوا على نهر فى طريقهم ولبثوا أياماً واتفق أن الامبراطور نزل يوماً فى النهر ليغتسل فغرق فى مكانه ،فعظم ذلك على أصحابه وأحزنهم جداً وكان معه ولده فاجتمع على البيعة له جميع الأمراء وكبار الجند والأحزاب وسار بهم يريد أنطاكية فرأى من تحصينها وامتناعها ما لاتحتاج معه إلى المدد فساروا عنها يريدون عكا فمروا بجبلة ولاذقية وقد ملكهما المسلمون فقاتلوهما قتالاً عنيفاً حتى أخذوهما ثم ساروا إلى عكا فخرج عليهم أهل حلب وغيرهم فلم ينالوا منهم ما أرادوا فكانوا يتخطفون من خلفهم وبلغوا طرابلس وأقاموا بها أياماً فرتبوا أمورهم وأحكموا نظامهم وتزودوا وركبوا السفن وأقلعوا إلى عكا، فلما وصلوا إليها صعد إلى المترسين أمامها من جموع الفرنجة من صعد ممن يفضلون الجهاد على العود إلى الأوطان، وأقلع من أقلع عائداً إلى أهله وولده صحبة امبراطور الألمان وكان صلاح الدين وأصحابه فى قلق وخوف ما عليه مزيد وهم يتوقعون جلاءهم عن جميع أرض الشام فى كل يوم إن هم خسروا عكا وكانوا كلما علموا بقرب جموع الألمان منهم ترفعوا عنهم وأخلوا لهم المسالك وبالغوا فى التحرز والالتفات، فلما سافر ملك الألمان بمن سافر معه من جموعه وقد تقوت

نفوس من بالمتاريس أمام عكا من الفرنجة بمن جاءهم من المقاتلين والمتطوعة رتبوا أمورهم وخرجوا فى عدتهم وسلاحهم لقتال المسلمين، وقصدوا معسكر مصر ومقدمهم الملك العادل أبو بكر بن أيوب فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم المصريون وتقهقروا، فتبعهم الفرنجة وأعملوا فيهم القتل ودخلوا خيامهم ونهبوا جميع أموالهم وكانت عساكر الموصل قريبة من العساكر المصرية فلما رأوا ما حل بالمصريين حملوا على الفرنجة ومقدمهم علاء الدين حزم شاه بن عز الدين مسعود صاحب الموصل وجدوا فى قتالهم وبالغوا فنالوا منهم ثم افترقوا والقتلى لا تكاد تدخل تحت الحصر، فلما كان بعد يومين رأى صلاح الدين وأصحابه من تكاثر ورود المدد فى السفن والبطس الكبيرة إلى من بعكا ما أذهلهم وأخافهم وأوقعهم فى حيرة ثم وصل الأمير هنرى ابن أخى ملك الفرنسيس لأمه وابن أخى ملك إنجلترا لأمه ووصل معه من الأموال والذخيرة وآلات الحرب شيء كثير للغاية فلم يستقر به المقام حتى حشد وجند وبذل الأموال ورتب الأمور وأحكم نظام المقاتلين من كل صنف ثم أظهر أنه يريد الخروج إلى لقاء المسلمين وقتالهم فانتقل صلاح الدين بعسكره من مكانه إلى الخروبة فعكف الأمير هنرى بمن معه على المتاريس ونصبوا خلفها المنجنيقات ورموا بالحجارة على البلد وتابعوا الرمى ليلاً ونهاراً وقويت نفوسهم واشتدت عزائمهم وجاءتهم رسائل بابا رومة بالحث والاستنهاض والمثابرة على الجهاد والجد فى القتال وأنه سير إلى الآفاق يستنهض ملوك المسيحيين إلى استخلاص بيت المقدس من يد صلاح الدين يوسف وأن المدد قائم عليهم برا وبحراً، فلما كان حادى عشر شوال من السنة - أى سنة ست - وثمانين - خرجوا فى عدد عظيم فهال منظرهم صلاح الدين وأصحابه وانقبضت له نفوسهم فنادى صلاح الدين بنقل الأثقال إلى بلدة ميمون فنقلوها وأرسل يستسرع حضور العساكر إليه من الأطراف فحضروا فأحكم نظامهم وجعل أولاده الأفضل عليا والظاهر غازى والظافر مما يلى القلب وأخاه العادل أبا بكر فى الميمنة مع العساكر المصرية ومن انضم إليه وجعل فى الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقى الدين صاحب حماة ومعز الدين سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمرائه ونصب صلاح الدين خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر ونزل فيها ينظر إليهم لمرض أصابه يومئذ فاقتتلوا قتالاً خفيفاً ثم عادوا إلى مراكزهم، وقد عرف الأمير هنرى مواقف عسكر المسلمين وما لديهم من الأسلحة والكراع وغير ذلك فجعل يطاولهم ولا ينكف عن الرمى على من بعكا منهم بالحجارة تارة وبالسهام أخرى واشتد الغلاء فى عسكر صلاح الدين وقل الوارد

من المؤنة لتعذر نقلها بسبب الشتاء ووقوف جـماعة الفرنجة فبلغت غرارة الحنطة أكثر من مائة دينـار صورى فصبروا على هذا ومع ذلك فكانت تأتيـهم المؤنة من البلدان القـريبة على الصـعب والذلول وأرسل من بعكا إلى صـلاح الدين يشكون الضجـر والملالة والسآمة وكان بها الأمير حسام الدين أبو الـهيجاء السمين مقدما على جندها فرسم صلاح الدين بإقامة البدل وإنفاذه إليها وإخراج من بها وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فانتقل إلى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشوانى وشحنهـا بما تيسر من الجنود والعـساكر وكانت مـراكب الفرنجة قد لجـأت إلى صور والجزائر فـرارا من عواصف الشتـاء فانفتح الطريق إلى عكا وتمكنت مـراكب صلاح الدين من دخول المينـا وتنزيل المقاتلة فدخل عكا عـشرون أميـرا وخرج منها سـتون أميرا لاستـيلاء الضجر والملل على جميع العسـاكر وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وإنفاذهم وقلت النفقة على المقاتلين فتفرق بهذا السبب أيضاً خلق كثير. قال أصـحاب التـاريخ: وانضـاف إلى ذلك توانى صلاح الديـن ووثوقه بنوابه وإهمـال النواب فانحسر الشتاء والأمر كذلك وعادت مراكب الفرنجة الى عكا وانقطع الطريق وعاد الرمى بالمنجنيـقات على البلد ليلاً ونهاراً وكـان ممن دخل من الأمراء إلى عكا سيف الدين على بن أحمد المشطوب وعز الدين أرسل مـقدم الأسدية وكان دخولهم إلى عكا فى أوائل سنة سبع وثمانين فجـد الفرنجة فى القـتال وشددوا فى الحـصار وسدوا الطرق برا وبحـراً وعظم الأمر على صـلاح الدين وأصحابه. قـال صاحب الكامل: فكان حال المسلمين كـما قال الله عز وجل ﴿**إذ جاءوكـم من فـوقكم ومن أسـفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجـر وتظنون بـالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا**﴾ ، ووقع فى عسكر صلاح الدين بعض الموت فمـات يوسف بن زين الدين على صاحـب أربل وكان قد حـضر فى عـسكره نجدة لصلاح الدين فى جملة من حـضر من الأطراف والقتال من الفرنجـة قائم على ساق فى البر والبـحر ووصل إلى عكا فى الثـانى عشـر من ربيع الأول الملك فليب ملك الفرنسيس فى سفن كثيرة ومعه كثير من المقاتلة والمتطوعة فنزلت طائفة منهم إلى البر ونزل الملك فليب فقابله الأمـير هنرى وضربت لقدومه البشـائر وعلم من فى جميع البلاد الـتى بيد الفـرنجة بخبـر قدومـه ففـرحوا به ولم يلبث أن قـاتل من بعكا من المسلمين وألح فى قتـالهم وشدد فى التضييق عليـهم، وكان صلاح الدين نازلاً بمن معه على شفرعم ،فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنجة ليشغلهم بالقتال عن الزحف إلى البلد فلم يكن ليقدر على ذلك، واشتد الكرب على من بالبلد وتولاهم الضجر

والملل وكبر خوف صلاح الدين وكاد يتولاه القنوط عندما جاءته الأخبار أيضاً بقرب وصول الملك ريشارد الملقب بقلب الأسد ملك الإنجليز إلى عكا فى كثير من العساكر والمقاتلين على ظهور البطس العظيمة ومراكب الحرب، وكان ريشارد قد أنذر بالجهاد فسار فى عسكر عظيـ ـن إنجلترا يريد عكا ومر بجزيرة قبرص فنزل عليها ليملكها لأمور بينه وبين صـ ـبها لا تتعلق بما نحن بصدده ووصلت بعض سفنه إلى عكا ونزل من بها من المقاتلين والمتطوعين وقاتلوا المسلمين مع من يقاتلون من المسيحيين، وألحوا فى القتال وأمر الملك فليب فنصبوا سبع منجنيقات وتابعوا الرمى بها على عكا ليلاً ونهاراً فعظم الأمر على صلاح الدين وقدم ريشارد ملك الإنجليز ثالث عشر جمادى الأولى فى جموعه وقد استولى فى طريقه على جزيرة قبرص وأخذها من الروم ووصل إلى مينا عكا فى خمس وعشرين قطعة كبارا مملوءة رجالاً وأموالاً فلما عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين أرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه حالهم فلم يفدهم شيئاً فخرج الأمير سيف الدين على بن أحمد الهكارى المعروف بالمشطوب من البلد واجتمع بالملك فليب ملك الفرنسيس وبذل له تسليم البلد بما فيه على أن يطلق من به من المسلمين ويمكنهم من اللحوق بسلطانهم فلم يجبه إلى ذلك وأبى إلا التسليم بغير شرط، فرجع المشطوب وأخبر بقية الأمراء بما جرى فلما كان الليل اجتمع منهم عز الدين أرسل الأسدى وابن عز الدين جاولى وسنقر الوشاقى وغيرهم، واتفقوا على الهرب فخرجوا سرا من أصحابهم ولحقوا بصلاح الدين فلما أصبح الناس ورأوا ذلك انفشلوا وازدادوا وهنا على وهنهم وضعفاً على ضعفهم وأيقنوا بالعطب وأرسل صلاح الدين إلى فليب فى معنى التسليم بشرط أن يطلق من أسرى النصارى بعدد ما فى عكا من المسلمين ليطلقوا هم من بعكا وأن يسلم إليهم صليب الصلبوت، فلم يقنع بما بذل وأمر بتشديد القتال فشدّدوا وزحفوا على البلد بحدهم وحديدهم، فلما صارت على وشك السقوط ظهر من بها من المسلمين على السور يحركون أعلامهم ليراها أصحاب صلاح الدين وكانت هى العلامة إذا اخترمهم أمر فضجوا بالبكاء والعويل ولكنهم لم يقدروا على نفع ولم يدفعوا عن البلد ضرا. قال بعض الكتاب: فخرج المشطوب إلى ملوك الفرنجة وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه وبذل لهم على ذلك مائتى ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين وإعادة صليب الصلبوت مع أربعة عشر ألف دينار إلى صاحب صور فأجابوه إلى ذلك فسلم البلد إليهم ودخلوه فلما ملكوه غدروا وأحاطوا بمن فيه من المسلمين وأموالهم وحبوسهم وأظهروا أنهم يفعلون ذلك ليصل إليهم ما بذل لهم

وقال آخرون: بل فتحوا البلد عنوة وأعملوا فيه السيف وأخذوا ما به من الأموال والمتاع وأرسلوا إلى صلاح الدين فى إرسال المال والأسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم من المسلمين فطاولهم صلاح الدين فأعملوا السيف فيمن بقى من المسلمين ولم يستبقوا إلا بعض الأمراء والمقدمين ثم أخذوا يصلحون حال البلد ويرممون ما تهدم منها حتى عادت إلى ما كانت عليه من الامتناع وأقاموا إلى شعبان من السنة لايحركون ساكناً ولا يشتغلون بغير تحصين البلد وترتيب أمورهم، ثم برزوا منها وساروا يريدون حيفا وكان الملك الأفضل بن صلاح الدين يوسف فى طائفة من العسكر والمتطوعين يراقبون حركات الفرنجة ومعهم جماعة من الأمراء وهم سيف الدين ايازكوش وعز الدين جورديك وعدّة من كبار الجند فلما أحسوا بخروج الفرنجة وعلموا أنهم يقصدون حيفا كتب الملك الأفضل إلى أبيه صلاح الدين يعلمه بالحال ويستمدّه فنادى صلاح الدين فيمن معه بالمسير إليه فامتنعوا فعاودهم فامتنعوا وقد تولاهم الفشل واختلط الحال على صلاح الدين، فلما أبطأ المدد على الملك الأفضل وعجز عن الوقوف فى طريق الفرنجة جعل يتخطف ساقتهم فعاد ريشارد ملك إنجلترا على ساقة الفرنجة فحماها وجمعهم وساروا وهم على أحسن نظام وأجمل هيئة حتى أتوا حيفا فنزلوا بها ونزل المسلمون بقرية قيمون على مقربة من حيفا فأقام الفرنجة بحيفا أياماً ثم ساروا منها إلى قيسارية والمسلمون يسايرونهم، فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقاتلوهم فلم ينالوا منهم ونزل الفرنجة بها ثم قاموا من قيسارية وقد أصلحوا حالهم وساروا يريدون ارسوف وكان المسلمون قد سبقوهم إليها وتبعهم السوقة والباعة وغيرهم ممن يتبعون العساكر فى الحروب ،فلما اقترب الفرنجة من البلد خرج عليهم المسلمون وحملوا عليهم حملة منكرة، فحملت فرسان الفرنجة على المسلمين حملة رجل واحد فولى المسلمون منهزمين لا يلوى أحد على أحد واختلطوا بالسوقة فعلا الضجيج والصياح ووقع السيف على الأعناق وكثر القتل والتجأ من بقى من المنهزمين إلى قلب الجيش وفيه صلاح الدين يوسف فاختل نظامه وولوا جميعاً منهزمين ودخلوا شعرة كثيرة الشجر قريبة من موقفهم فظنها الفرنجة أنها مكيدة فلم يتبعوهم . قال أصحاب التاريخ: فلو علم الفرنجة أنها هزيمة لتبعوهم، واشتهرت الهزيمة وهلك المسلمون عن آخرهم وعاد الفرنجة فدخلوا أرسوف وأقاموا بها أياماً ثم برزوا منها وقد رتبوا أمورهم وساروا إلى يافا، فنزلوها وملكوها وبثوا سراياهم فى الأطراف فعاثوا وقتلوا وتخطفوا من المسلمين خلقاً كثيراً فعم الخوف وضاقت نفوس المسلمين وتفرق عن ملوك الأطراف أصحابهم

والمجاهدون معهم وعظم الأمر جدا على صلاح الدين يوسف ولازمه الحزن والكدر وتولاه القنوط واليأس فسار مجدا فى نفر قليل إلى الرملة ولحق بأثقاله فيها، وجمع إليه الأمراء واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بتدمير عسقلان وقالوا له: قد رأيت ما كان منا ومنهم بالأمس وإذا جاءوا إلى عسقلان ووقفنا فى وجوههم نصدهم عنها فلا شك أنهم يظفرون بنا وينزلون عليها فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا ويعظم الأمر علينا لأن العدو قوى ونحن قد ضعفنا وتولانا اليأس ولازمنا الملل فلم تسمح نفس يوسف بتدميرها ونادى فيمن عنده من العساكر والمتطوّعة بالدخول إليها والذب عنها فلم يجبه أحد إلى ذلك وقالوا: إن أردت الذب عنها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار وإلا فما يدخلها منا أحد ونحن إلى الآن ما ننسى ما أصاب أهل عكا، فلما أيس من حفظها سار نحوها وأمر بتخريبها فخربت وألقيت أحجارها بالبحر وهلك فيها من الأموال والذخائر شيء كثير للغاية وعفى أثرها ثم رحل صلاح الدين عن عسقلان بعد تخريبها إلى الرملة، فخرب حصنها وهدم الكنيسة الكبرى التى بها وأتلف جميع ما كان بها من الذخيرة، وأما الفرنجة فإنهم أطالوا المقام بيافا وشرعوا فى عمارتها وتحصينها وأكثروا فيها من الأسلحة والكراع والمدد يتواصل بينها وبين بقية القلاع والحصون التى بأيديهم ،فلما طال مكثهم بها عظم الأمر على صلاح الدين وأصحابه وقلت عندهم الأقوات واشتد بهم الضجر، فترددت الرسل بين الملك العادل أبى بكر بن أيوب أخى صلاح الدين وبين ريشارد ملك الإنكليز فى معنى الصلح أو المهادنة واجتمع الملك العادل بملك الإنكليز مراراً كثيرة وتكلموا فى المعنى وشاع يومئذ بين العسكرين أن ستقرر القاعدة على أن ملك الإنكليز يزوج ابنة عمه الأميرة جوليا من العادل ويكون القدس وما بأيدى المسلمين من بلاد الساحل للعادل وتكون عكا وما بيد الفرنجة من البلاد لابنة عم ريشارد الملك ثم لم تلبث أن بطلت هذه الإشاعة ولم يتم بينهما صلح ولهذه المصالحة والمصاهرة أسباب تكلم الكتاب من الإنكليز عنها كثيراً فأضربنا عن إيرادها هنا خوف الإطالة. قالوا: وكان ريشارد ملك الإنكليز يفعل ذلك مع الملك العادل خديعة ومكراً وأظهر ريشارد العزم على قصد بيت المقدس فاضطرب صلاح الدين من ذلك وسار إلى الرملة جريدة وترك الأثقال بالبترون ثم عاد إلى البترون وقد برز الفرنجة من يافا يريدون الرملة فى ثالث ذى القعدة على عزم قصد بيت المقدس فاقتربوا من المسلمين وتخطفوهم وأكثروا القتل واشتد البلاء على أصحاب صلاح الدين وعظم الخطب فكان كل ساعة يقع الصوت فى العسكر بلقاء الفرنجة، فلقوا

من ذلك شدة بالغة للغاية وأقبل الشتاء وتوالت الأمطار واشتد البرد والناس فى ضنك، وحرج من حمل السلام والسهر الدائم تحرزاً من الفرنجة، ورأى صلاح الدين من ملل الجند وعجزهم ما أخافه فسرحهم إلى أوطانهم فلم يبق معه إلا العسكر المصرى ومقدمهم يومئذ أبو الهيجاء السمين فسار بهم صلاح الدين إلى بيت المقدس، فنزلوا جميعاً داخل البلد ونزل صلاح الدين بدار الأقصى بجوار بيعة قمامة ورسم بعمارة سور البلد وتجديد ما رث منه فأحكموا بنيانه وعملوا خندقاً عظيماً خارج السور ورتبوا الأبراج وتسلم كل برج منها أمير وحصن البلد حتى صارت فى غاية الامتناع. أما الفرنجة فإنهم وصلوا إلى الرملة وملكوها وأقاموا بها أياماً، ثم ساروا منها إلى البترون ثالث ذى الحجة وقاتلوا من بها من أصحاب صلاح الدين ونالوا منهم وجدّوا فى قتالهم حتى ملكوها، ورحل عنها من بقى من أصحاب صلاح الدين فنزل بها الفرنجة وأقاموا أياماً وبث ريشارد ملك الإنجليز عيونه وأرصاده لتأتى له بخبر ما يفعله صلاح الدين بالبيت المقدس ورسم بعمارة عسقلان وأرجائها إلى أحسن ما كانت عليه وتأهب للمسير إلى البيت المقدس وقد رتب المقاتلين على أحسن ترتيب وكان صلاح الدين لما دخل إلى البيت المقدس سير رسلاً إلى سنان مقدم الإسماعيلية يطلب منه أن يرسل من يقتل ملك الإنجليز قبل أن يبرح من البترون ويأتى إلى البيت المقدس، وأن من قتل المركيز منسرات صاحب صور فله عشرة آلاف دينار فأجابه سنان إلى ذلك ثم عدل عن قتل ملك الإنجليز كى لا يخلوا الجوّ لصلاح الدين فتطمع نفسه فى البلاد وتكثر غزواته وعمد إلى قتل المركيز منسرات ،وكان من كبار الملوك معرفة بالحروب وحسن السياسة وبينه وبين ريشارد عداوة ومنافسة بسبب تقدم ريشارد على جميع الملوك الصليبيين واستلامه قيادة الجيش وتصرفه فى جميع الأمور بدون مشورتهم خلافاً للعهد واليمين الذى كان بينهم فأرسل رجلين فى زى الرهبان فاتصلا بصاحبى صيدا والرملة وكانا مع المركيز بصور فأقاما معهما أياماً كثيرة يظهران العبادة فأنس بها المركيز وركن إليهما، فلما كان فى بعض الأيام سار المركيز إلى أسقف البلد ولبث معه برهة ثم خرج يريد مقره فوثب عليه الباطنيان المذكوران فجرحاه جراحاً بليغة وهرب أحدهما فدخل كنيسة يختفى فيها واتفق أنهم حملوا المركيز إلى هذه الكنيسة ليشدوا جراحه فوثب عليه الباطنى المذكور وقتله فقبضوا عليه هو ورفيقه وقتلوهما فى الحال وعظم قتل المركيز على أصحابه جدًا وظنوا أن قتله بوضع من ملك الإنجليز ليخلو وجهه وينفرد بملك السواحل الشامية فولوا بعده الأمير هنرى ابن أخت ملك الفرنسيس من أبيه وهو من

كبار الأمراء وأجودهم رأياً وأحسنهم سياسة وخبرة بالحروب وقد تولى ملك جميع بلاد الساحل الشامى بعد رجوع ريشارد إلى بلاده والفراغ من هذه الحرب الصليبية.

ووصل ريشارد ملك الإنجليز فى عسكره إلى حصن الداروم أوائل جمادى الأولى فخربه وعفى معالمه وسار إلى بيت المقدس وصلاح الدين فيه فوصل بالعسكر إلى بيت نوبة ثم ساروا من هناك إلى قلونية سلخ الشهر وهى على قيد فرسخين من بيت المقدس وبث سراياه فى الأطراف، وطاف هو حول البيت المقدس ليرى من أين يأتيه ويقاتل من به فكبر خوف المسلمين وعظم عليهم الأمر وثابروا على السهر والوقوف على السور ليلاً ونهاراً لا يلقون عنهم السلاح، وعلم الفرنجة بوصول عسكر من مصر ومعهم قفل كبير ومقدم ذلك العسكر أمير اسمه فلك الدين سليمان أخو العادل لأمه ومعه عدة أمراء من المصريين، فأسرى الفرنجة إليهم وأحاطوا بهم جميعاً وأعملوا فيهم السيف بنواحى الخليل فانهزم الجند شر هزيمة وكثر فيهم القتل وغنم الفرنجة خيامهم وآلاتهم وجميع مالهم وهرب من نجا من الأمراء والجند وصعدوا جبل الخليل فلم يتبعهم الفرنجة. قال بعض كتاب الأخبار: ولو اتبعوهم نصف فرسخ لأتوا عليهم جميعاً وعفوا أثرهم، وبقى ملك الإنكليز بعسكره حول البيت أياماً كثيرة وعسكر صلاح الدين لا يغفلون ولا يبارحون الأسوار ثم ترددت الرسل بين ريشارد وصلاح الدين فى أمر الصلح والكف عن القتال وحقن الدماء ورحل ريشارد عن بيت المقدس وسار إلى يافا ثم عنها إلى عكا، فخرج صلاح الدين فى عسكر من البيت المقدس وسار نحو يافا يريد أخذها فقاتل من بها من الفرنجة قتالاً عنيفاً وحاصر القلعة وشدد فى حصارها أياماً. وإذا بريشارد قد أحاط بالبلد وقاتل صلاح الدين وهزمه وانتصر عليه ومزق شمل جموعه. قال أصحاب التاريخ: وبرز ريشارد إلى ظاهر المدينة فى ذلك اليوم واعترض المسلمين وحده وحمل عليهم فلم يتقدم اليه أحد وخافوا منه خوفاً عظيماً فوقف بين الصفين واستدعى طعاماً ونزل عن فرسه وأكل فشق ذلك على صلاح الدين ونادى فى عسكره بالهجوم على الفرنجة والجدّ فى قتالهم فتقدم إليه بعض أمرائه ويعرف بالجناح وهو أخو المشطوب بن علىّ بن أحمد الهكارى فقال له: يا صلاح الدين قل لمماليكك الذين أخذوا أمس الغنائم وضربوا الناس بالجماقات أن يتقدموا ليقاتلوا عند انتشاب نار القتال وتكون الغنائم نصيباً لهم. وكان لما دخل عسكر صلاح الدين إلى يافا بعد فتحها وصار المقاتلون ينهبون ما فيها وقف جماعة من مماليك صلاح الدين على أبواب المدينة وكل من خرج من الجند ومعه شىء من الغنيمة أخذوه منه فإن

امتنع ضربوه وأخذوا ما معه قهراً، فلما سمع صلاح الدين كلام الجناح غضب وقد أنس الغدر من الأمراء إن هو أطال الحرب مع الفرنجة وراسل ملك الإنجليز فى طلب الصلح وطلب التعجيل، وقد عرف صلاح الدين ما عند العسكر من الضجر، والملل وما قد هلك من سلاحهم ودوابهم وما نفد من نفقاتهم وقال: إن لم نعجل بالصلح تأخر ملك الإنجليز ومن معه من الملوك والأمراء الصليبيين عن الرحيل إلى أوطانهم لدخول الشتاء، فنبقى هنا سنة أخرى وحينئذ يعظم الضرر على المسلمين، ومازال بريشارد حتى تقررت القاعدة بينهم فى العشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وعقدوا الصلح وتحالفوا على هذه القاعدة ونادى كل فريق فى عسكره بتقرير قاعدة الصلح فاختلط العسكران وزار بعضهم بعضاً وأباح صلاح الدين لطوائف الفرنجة زيارة بيت المقدس. فزاروه وتفرقوا وبقى ما بيد الفرنجة من السواحل الشامية خاضعة للملك هنرى .قال صاحب الكامل: وكان هنرى هذا خيراً قليل الشر رفيقاً بالمسلمين محبا لهم ، وعاد صلاح الدين بعد ذلك إلى بيت المقدس، فرسم بإحكام سوره وعمل به المدرسة والرباط والبيمارستان وغير ذلك ووقف عليها الوقوف ثم سار عن البيت المقدس نحو دمشق واستناب به الأمير جورديك أحد المماليك النورية فدخل دمشق فى الخامس والعشرين من شوال من السنة، ففرح الناس به لطول غيبته عنهم وكان بها أولاده الصغار والظاهر والأفضل والظافر، فلبث بها فلما كان اليوم الخامس عشر من صفر من السنة أى سنة تسع وثمانين ركب فى طائفة من أصحابه لملاقاة الحاج ثم عاد وقد أصابته حمى شديدة ولازمته ثمانية أيام، ثم مات بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر المذكور فحزن عليه الناس حزناً عظيماً وغشى الملك والقلعة فى ذلك اليوم وحشة، وكان كريماً جوداً حسن الأخلاق متواضعاً صبوراً على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب الناس مات وله من العمر سبع وخمسون سنة فعمل الشعراء فيه المراثى الكثيرة. من ذلك قصيدة للعماد الكاتب مائتان وثلاثون بيتا أولها :

شمل الهوى والملك عم شتاته ... والدهر ساء وأقلعت حسناته
بالله أين الناصر الملك الذى ... لله خالصة صفت نياته
أين الذى مازال سلطانا لنا ... يرجى نداه وتتقى سطواته
أين الذى شرف الزمان بفضله ... وسمت على الفضلاء تشريفاته
أين الذى عنت الفرنج لبأسه ... ذلاً ومنها أدركت ثاراته
أغلال أعناق السورى أسيافه ... أطواق أجياد السورى حسناته

إلى آخر ما قال .

قال ابن السبكي فى الطبقات الكبـرى له يعنى صلاح الدين من الفتوحات التى خلصـها من الفـرنجة قلعـة ايليا وطبـرية وعكا والقدس والخليل والكرك والشـوبك ونابلس وعـسقـلان وبيروت وصـيدا وبيـسان وغـزة ولد وحصـا وخورية والفـولة ومغليسيـسيا والطود والاسكندرية وهفوس وباماس وارسوف وقيـسارية وجبيل ونبل ومملكيـة ومقربـلا واللجون وآسمـه ويافول ومـجدل وبابايل والصـافيـة وبيت نوبا والبيرون والحـيب والكرسة وبيت لحم وريحاقـرا وأحصر الدير وبئر فلفـيلة وصرير الزيت والوعر والهرمس وتغليسا والغارزية وتفـرع ومجدل والحار والشقيف وسيطلة التى يقال لها قبر زكريا وجبيل وكـوكب وانطوطوس واللاذقية ومسكرائيل وصهيون وجبلة وقلعـة العبد وقلعـة الجماهيرية وبلاطنس والشـغر وبكاس وسرمـينية وبرزية ودرب ساك وبغراس وصـفد وله مضافـات يطول شرحها. قال: وكـانت مملكته من المغرب إلى تخوم العراق ومعها اليمن والحجاز وملك ديار مصر بأسرها مع ما انضم إليهـا من بلاد المغرب والشـام بأسرها مع حلب وما والاها وأكـثر بلاد ربيـعة وبكر والحجـاز بأسره واليمن بأسره ونشـر العدل فى الرعيـة وحكم بالقسط وبنى المدارس والخوانق وأجـرى الأرزاق وهو الذى بنى قلعـة الجبل المقطم التى هى دار سـلاطين مصر وولاتهـا ولم يكن لهم قبلها إلا دار الوزارة بالقاهرة .وفـتح من بلاد المسلمين حران وسروجه والرها والرقـة والبيرة وسنجار ونصيبـين وآمد وملك حلبا والمواريخ وشهرزور وحاصر الموصل إلى أن دخل صاحـبها تحت الطاعة وفتح عسكره طرابلس الغرب وبرقة من بلاد المغـرب وكسر عسكر توتس وخطب بهـا لبنى العباس ولو لم يقع الخلف بين عسكره الذين جـهزهم إلى المغرب لملك المغرب بأسـره ولم يختلف عليه مع طول مدته أحد من العسكر وكـان رقيق القلب جدا. هذا كله من كلام ابن السبكي فى الطبـقات. ومن صنائعه أنه أسقط المكوس والضـرائب عن الحجاج بمكة وقد كان يؤخذ منهم شيء كـثير ومن عجز عن أدائه حبس فربما فـاته الوقوف بعرفة وعوّض أمـيرها المدعو ثمـال أقطاعاً بديار مصـر يحمل إليه منه فى كل سنة ثمـانية آلاف أردب غلة عوناً له ولمن بعـده. قال العماد الكاتب وغيـره: مات صلاح الدين ولم يترك فى خزائنه من الذهب سوى دينار واحـد صورى وستة وثلاثين درهما ولـم يترك داراً ولا عقـاراً ولا مزرعة ولا شيئـاً من أنواع الأملاك وترك سبعـة عشر ولداً ذكراً وابنة واحدة وكان متديناً في مأكله ومشربه وملبسه فلا يلبس إلا القطن والكتان والصوف وكان به عرج فقال فيه ابن عينين الشاعر :

سلطاننا أعرج وكاتبه ذو عمش والوزير منحدب

وكان الخليفة المستضئ أرسل إليه فى سنة أربع وستين وخمسمائة خلعاً سنية جداً وزاد فى ألقابه معز أمير المؤمنين، فلما ولى الخليفة الناصر فى سنة ست وسبعين على ماتقدم بيانه أرسل إليه خلعة الاستمرار، ثم أرسل إليه فى سنة اثنتين وثمانين يعاتبه على تلقيبه بالملك الناصر مع أنه لقب أمير المؤمنين فأرسل يعتذر له بأن ذلك كان من أيام الخليفة المستضئ وأنه إن لقبه أمير المؤمنين بلقب فهو لايعدل عنه وتأدب مع الخليفة غاية الأدب .

ولما مات صلاح الدين يوسف بدمشق كان معه بها ولده الأكبر الأفضل كما تقدم القول وكان قد حلف له العساكر جميعهم غير مرة فى حياة أبيه، فلما مات أبوه استقل بملك دمشق والساحل والبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهوين وتبنين وجميع الأعمال إلى الداروم وانحلت جميعها عن ملك مصر وكان بمصر أيضاً ولده العزيز عثمان فاستولى عليها واستقر ملكه بها وكان ولده الظاهر غازى بحلب، فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها مثل حارم وتل باشر واعزاز وبرزية ودرب ساك ومنبج وغير ذلك وكان بحماة محمود بن تقى الدين عمه فأطاعه وصار معه وكان بحمص شيركوه بن محمد بن شيركوه فأطاع الملك الأفضل وكان الملك العادل أخو صلاح الدين قد صار إلى الكرك فى أيام أخيه، فامتنع به ولم يحضر عند أحد من أولاد أخيه وهكذا اقتسموا مملكة صلاح الدين فيما بينهم وتصرف كل واحد منهم بمصلحته وهواه. ولنضرب صفحاً عن جميع من ذكر ونتتبع حوادث صاحب مصر منهم وهو (الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح) فقد كان من أمره بعد أن استقل بحكم البلاد ودانت له الأمور أن سار فى الرعية سيرة حسنة مع العفة فى المال والغيرة حتى أنه ضاق ما بيده ولم يبق فى الخزانة درهم ولادينار فجاء إليه رجل يسعى فى قضاء الصعيد بمال فامتنع وقال: والله لا بعت دماء المسلمين وأموالهم بملك الأرض فأحبته الرعية ومالت إليه القلوب وأخلصت له الطاعة وجعل يتصرف فلما كانت سنة تسعين وخمسمائة تاقت نفسه إلى توسيع سلطانه وتمديد ملكه فعمد إلى الإغارة على سلطنة أخيه الملك الأفضل علىّ فسار إلى دمشق وحصرها وبها أخوه المذكور ونزل بميدان الحصن فكبر الأمر على الأفضل وأرسل إلى عمه الملك العادل أبى بكر بن أيوب وهو يومئذ صاحب الديار الجزرية يستنجده وكان للأفضل غاية الوثوق به والاعتماد عليه فساء الملك العادل ما فعله الملك العزيز وسار من فوره إلى دمشق وصحبته الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب

وناصر الدين محمد بن تقى الدين صاحب حماة وأسد الدين شيركوه صاحب حمص وعسكر الموصل وغيرهم واجتمعوا جميعاً بدمشق واتفقوا على حفظها علماً منهم أن العزيز إن ملكها أخذ بلادهم وأذهب سلطانهم فلما رأى العزيز اجتماعهم علم أنه لا قدرة له على البلد فترددت الرسل حينئذ بينهم فى الصلح فاستقرت القاعدة على أن يكون بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز وتبقى دمشق وطبرية وأعمالها للأفضل على ما كانت عليه وأن يعطى الأفضل أخاه الملك الظاهر جبلة ولاذقية وأن يكون للعادل بمصر أقطاعه الأول واتفقوا على ذلك وعاد العزيز إلى مصر ورجع كل واحد من إخوته إلى بلاده ولكن لم يمض على هذا الاتفاق إلا سنة واحدة غير كاملة حتى نقض العزيز العهد وخرج من مصر فى عسكر عظيم إلى دمشق يريد حصرها ثانية، وكان سبب ذلك أن من كان عنده من مماليك أبيه صلاح الدين المعروفين بالصلاحية مثل فخر الدين جركس وقرا سنقر وقراجا وغيرهم كانوا منحرفين عن الأفضل علىّ لأنه كان أخرج من عنده منهم مثل ميمون القصيرى وسنقر الكبير وأيبك وغيرهم فكانوا يكرهونه لذلك وكانوا يخوفون العزيز من أخيه الأفضل ويحرضونه على الإغارة على بلاده ويقولون إن لم تفعل ذلك مال الأكراد والمماليك الأسدية من عسكر مصر إلى أخيك وانضموا إلى عسكره فيخرجك من البلاد فصدق قولهم وعمل بمشورتهم وخرج فى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة فبلغ خبر تأهبه إلى الأفضل فسار من دمشق إلى عمه الملك العادل فاجتمع به فى قلعة جعبر ودعاه إلى نصرته وسار من عنده من حلب إلى أخيه الملك الظاهر غازى فاستنجده وسار الملك العادل من قلعة جعبر الى دمشق فسبق الملك الأفضل إليها ودخلها وكان الأفضل لثقته به أمر نوابه بإدخاله إلى القلعة ثم عاد الأفضل من حلب إلى دمشق فأرسل مقدم الأسدية وهو سيف الدين ايازكوش وغيره منهم ومن الأكراد أبو الهيجاء السمين وغيره إلى الأفضل والعادل بالانحياز إليهما والكون معهما ويحضهما على الاتفاق على العزيز والخروج من دمشق ليسلموها إليهما. قال أصحاب التاريخ: وكان سبب بغض هؤلاء للعزيز وميلهم إلى الأفضل أن العزيز لما ملك مصر مال إلى طائفة المماليك الناصرية وقدّمهم ووثق بهم ولم يلتفت إلى هؤلاء الأمراء فأنفوا من ذلك ومالوا إلى أخيه وأرسلوا إلى الأفضل والعادل فاتفقا على ذلك أيضاً واستقرت القاعدة بحضور رسل الأمراء أن الأفضل يملك الديار المصرية ويسلم دمشق إلى عمه الملك العادل وخرجا من دمشق على ذلك فانحاز إليهما من ذكرنا فلم يمكن العزيز المقام بل عاد منهزماً يطوى المراحل

خوف الطلب ولا يصدِّق بالنجاة وتساقط أصحابه عنه إلى أن وصل إلى مصر وأما العادل والأفضل فإنهما أرسلا إلى البيت المقدس وفيه نائب العزيز فسلمه إليهما وسار بمن معه من الأسدية والأكراد إلى مصر فرأى العادل من انضمام العسكر إلى الملك الأفضل وميلهم إليه ما أخافه وعلم أنه أى الأفضل إن أخذ مصر ربما لايسلم إليه دمشق فأرسل حينئذ سرا إلى الملك العزيز يأمره بالثبات وأن يجعل بمدينة بلبيس من يحفظها وتكفل بأنه يمنع الأفضل وغيره من مقاتلة من بها فجعل العزيز جماعة الناصرية ومقدمهم فخر الدين جركس بها ومعهم جماعة أخرى، فلما وصل العادل والأفضل إلى بلبيس نازلوا من بها من أصحاب العزيز وعزم الأفضل على مناجزتهم أو تركهم بها والرحيل إلى مصر فمنعه العادل من الأمرين وقال: هذه عساكر الإسلام فإن قتلوا فى الحرب فمن يردّ العدوّ الكافر وما بها حاجة إلى ذلك فإن البلاد لك وبحكمك ومتى قصدت مصر والقاهرة وأخذتهما قهراً زالت هيبة البلاد وطمع فيها الأعداء وليس فيها من يمنعك عنها وسلك معه مثل هذا فطالت الأيام وأرسل إلى العزيز سراً وأمره بإرسال القاضى الفاضل وكان مطاعاً عند البيت الصلاحى لعلو منزلته عند صلاح الدين فحضر عندهما وأجرى ذكر الصلح وزاد القول ونقص وانحلت العزائم واستقر الأمر على أن للأفضل البيت المقدس وجميع البلاد بفلسطين وطبرية والأردن وجميع ما بيده ويكون للعادل أقطاعه التى كانت قديماً ويكون مقيماً بمصر عند العزيز قالوا وإنما اختار ذلك لأن الأسدية والأكراد لايريدون العزيز فهم يجتمعون معه فلا يقدر العزيز على منعه عما يريده فلما استقر الأمر على ذلك وتعاهدوا عاد الأفضل إلى دمشق وبقى العادل بمصر عند العزيز.

ولم يستقر الصلح بينهم على ما وصفنا أكثر من حول واحد حتى عاد العادل أبو بكر فأخذ دمشق من الأفضل ابن أخيه صلاح الدين وذلك فى السابع والعشرين من رجب سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وكان أبلغ الأسباب فى ذلك وثوق الأفضل بالعادل المذكور وقد بلغ من وثوقه به أنه أدخله بلده وهو غائب عنه كما تقدم القول وخالف فيه قول أخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب. وقال بعض كتاب الأخبار غير ذلك، وهو أنه لما أن سار العادل والأفضل إلى مصر وحاصرا بلبيس ثم اصطلحا مع العزيز صاحب مصر أقام العادل مع العزيز بمصر، فلم يلبث حتى استمال العزيز إليه وقرر معه أن يخرجا معاً إلى دمشق ويأخذاها من الأفضل وأن يسلمها إليه فسار معه إلى دمشق وحصروها جميعاً واستمالوا أميراً من أمراء الأفضل يقال له العزيز بن أبى غالب الحمصى وكان الأفضل كثير الإحسان إليه والاعتماد

عليه والوثوق به، فسلم إليه باباً من أبواب دمشق يعرف بالباب الشرقى ليحفظه فمال إلى العزيز والعادل ووعدهما أن يفتح لهما الباب ويدخل العسكر منه إلى البلد غفلة ففتحه فى اليوم السابع والعشرين من رجب وقت العصر وأدخل الملك العادل منه ومعه جماعة من أصحابه ،فلم يشعر الأفضل إلا وعمه معه فى دمشق وركب الملك العزيز ووقف بالميدان الأخضر غربى دمشق، فلما رأى الأفضل أن البلد قد ملك خرج إلى أخيه وقت المغرب واجتمع به ودخلا كلاهما البلد واجتمعا بالعادل وقد نزل فى دار أسد الدين شيركوه وتحادثوا واتفق العادل والعزيز على أنهما يبقيان على الأفضل البلد خوفاً من أنه ربما جمع من عنده من العسكر وثار بهما ومعه العامة فأخرجهما من البلد وعاد الأفضل إلى القلعة، وبات العادل فى دار شيركوه، وخرج العزيز إلى الخيام فبات فيها وخرج العادل من الغد إلى جوسقه فأقام به وعسكره فى البلد وفى كل يوم يخرج الأفضل إليهما ويجتمع بهما فبقوا على هذا الحال أياماً ثم أرسلا إليه وأمراه بمفارقة القلعة وتسليم البلد على قاعدة أن يعطى قلعة صرخد له ويسلم جميع أعمال دمشق، فخرج الأفضل ونزل فى جوسق بظاهر البلد غربى دمشق وتسلم العزيز القلعة ودخلها وأقام بها أياماً فجلس يوماً فى مجلس شرابه فلما أخذت منه الخمر جرى على لسانه أنه على عزم أن يعيد دمشق إلى أخيه الأفضل فنقل ذلك إلى العادل فى الحال فحضر المجلس من ساعته والعزيز سكران فلم يزل به حتى سلم إليه البلد وخرج منه وعاد إلى مصر وسار الأفضل إلى صرخد، واتفق أن خرج العزيز من القاهرة يريد الصيد، فجعل ينتقل من بلد إلى آخر حتى وصل إلى مدينة الفيوم فرأى ذئباً فركض فرسه فى طلبه فعثر الفرس فسقط عنه ولحقته حمى فعاد إلى القاهرة مريضاً واشتد به مرضه، فمات فى العشرين من المحرم افتتاح سنة خمس وتسعين وخمسمائة. قال أصحاب التاريخ: وكان الغالب على أمره مملوك ولده فخر الدين جهاركس، فلما مات العزيز سير فخر الدين المذكور إلى الملك العادل أبى بكر بن أيوب وهو يحاصر ماردين يستدعيه ليملكه البلاد فسار القاصد مجداً فلما بلغ الشام رأى بعض أصحاب الملك الأفضل فقال له :قل لصاحبك إن أخاه العزيز مات وليس فى مصر من يمنعها فليسر إليها على عجل وكان الأفضل محبوباً إلى الناس فلم يلتفت إلى قول ذلك القاصد ولم يتحرك من صرخد حتى جاءته رسل الأمراء من مصر يدعونه إليهم ليملكوه البلاد وكان سبب ذلك أن الأمير سيف الدين يازكج مقدم الأسدية والفرقة الأسدية والأمراء الأكراد يحبونه كثيراً وكانت المماليك الناصرية الذين هم ملك أبيه يكرهونه

فاجتمع سيف الدين مقدم الأسدية المذكور وفخر الدين جهاركس مقدم الناصرية ليتفقوا على من يولونه الملك. فقال فخر الدين: نولى ابن الملك العزيز فقال سيف الدين إنه طفل وهذه البلاد ثغر الإسلام ولابد من قيم بالملك يجمع العساكر ويقاتل بها فأرى أننا إذا جعلنا الملك فى هذا الطفل نجعل معه بعض أولاد صلاح الدين يدبره إلى أن يبلغ أشده فإن العساكر لا تطيع غيرهم ولا تنقاد لأحد غير أهل هذا البيت وجرى بين الفريقين كلام ثم اتفقا على هذا .فقال جهاركس: ومن يتولى القيام بذلك؟ فأشار سيف الدين بغير الأفضل فجرى بينه وبين جهاركس منازعة لئلا يتهم وينفر جهاركس عنه فامتنع من ولايته. قال بعض أصحاب الأخبار: فلم يزل يذكر من أولاد صلاح الدين واحداً بعد آخر إلى أن ذكر آخرهم الأفضل فقال جهاركس: هو بعيد عنا وكان يومئذ بصرخد مقيماً بها من حين أخذت منه دمشق فقال سيف الدين نمضى إلى القاضى الفاضل ونأخذ برأيه فاتفقا على ذلك وأرسل سيف الدين فى الحال القاصد وراءه، فسار عن صرخد لليلتين بقيتا من صفر متنكراً فى تسعة عشر نفراً فلما قارب بيت المقدس، وقد عدل عن الطريق المؤدى إليها لقيه فارسان قد أرسلا إليه من بيت المقدس فأخبراه أن من بالقدس قد صار فى طاعته فجد فى السير فوصل إلى بلبيس خامس ربيع الأول ولقيه إخوته وجماعة الأمراء المصريين وجميع الأعيان، واتفق أن أخاه الملك المؤيد مسعوداً صنع له طعاماً وصنع له فخر الدين مملوك أبيه طعاماً أيضاً فابتدأ بطعام أخيه ليمين حلفها أخوه أن يبدأ به فظن فخر الدين جهاركس أنه فعل هذا انحرافاً عنه وسوء ظن به فاضطرب خاطره وتغيرت نيته وعزم على الهرب فحضر عند الأفضل وقال: إن طائفة من العربان قد اقتتلوا وإن لم نمض إليهم نصلح بينهم لأدى ذلك إلى فساد عظيم فأذن له الأفضل فى المضى إليهم ففارقه وسار مجداً حتى وصل بيت المقدس ودخله وتغلب عليه ولحقه جماعة من الناصرية منهم قراجه الزره كش وسرا سنقر واستقدموا أيضاً ميمونا القصرى صاحب نابلس وهو من المماليك الناصرية فقويت شوكتهم به، واجتمعت كلمتهم على خلاف الأفضل وأرسلوا إلى الملك العادل وهو على ماردين يطلبونه إليهم ليدخلوا معه إلى مصر ليملكوها فلم يسر إليهم لأن أطماعه كانت قد قويت فى أخذ ماردين وقد عجز من بها عن حفظها حتى إذا أخذها جاءهم على الأثر ليدخل معهم مصر.

أما الملك الأفضل فإنه بعد أن استراح من متاعب السفر سار عن بلبيس إلى القاهرة فوصلها سابع ربيع الأوّل وعلم بهرب فخر الدين جهار كس فأهمه ذلك

وترددت الرسل بينه وبين جهاركس ومن معه ليعودوا إليه فلم يزدادوا إلا بعدا ولحق بهم جماعة آخرون من الناصرية أيضا فاستوحش الملك الأفضل ممن بقى من الناصرية فقبض عليهم وهم شقيرة وأيبك فطيس والبكى الفارس وغيرهم وكل من هؤلاء بطل مشهور ومقدم مذكور وسجنهم وجعل الأفضل يتصرف فى الأمور ويقرر القواعد ويصلح الأحوال ويقضى حوائج الخلق والمرجع فى جميع الأمور إلى سيف الدين ياركج فكان معه ابن أخيه الملك العزيز ملكا بالاسم فقط، ولم يمض إلا القليل حتى اجتمعت له الكلمة ومالت إليه القلوب وأحبه ألامراء والرعية ووصل إليه رسول من عند أخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب وأرسل ابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد شيركوه صاحب حمص يحثانه على الخروج إلى دمشق واغتنام الفرصة بغيبة العادل عنها وبذلا له المساعدة بالمال والنفس والرجال فمال إلى رأيهم وبرز من القاهرة فى منتصف جمادى الأولى من سنة خمس وتسعين وخمسمائة على العزم إلى دمشق وأقام بظاهر القاهرة إلى ثلث رجب ثم رحل فيه وتعوق فى مسيره. قال أصحاب التاريخ :ولو بادر وعجل المسير لملك دمشق بغير ممانع ولكنه تأخر فوصل إليها ثالث عشر شعبان فنزل على جسر الخشب على قيد فرسخ ونصف من دمشق، وكان الملك العادل قد أرسل إليه نوابه بدمشق يعرفونه قصد الأفضل لهم ففارق ماردين وخلف ولده الكامل محمدا فى جميع العساكر على حصارها وسار جريدة فجدّ السير فسبق الأفضل فدخل دمشق قبله بيومين وتقدّم الأفضل إلى دمشق فى الغد وهو رابع عشر شعبان ودخل فى ذلك اليوم بعينه طائفة يسيرة من عسقلان إلى دمشق من باب السلام وكان سبب دخولهم أن قوما من أجناده ممن بيوتهم مجاورة لذلك الباب اجتمعوا بأمير اسمه مجد الدين أخى الفقيه عيسى الهكارى وتحدثوا معه فى أن يقصد هو والعساكر باب السلامة ليفتحوه لهم فأراد مجد الدين المذكور أن يختص بفتح الباب وحده فلم يعلم الأفضل ولا أخذ أحدا من العسكر بل سار وحده ومعه نحو خمسين فارسا من أصحابه ففتح له الباب فدخله وهو ومن معه فلما رآهم عامة البلد نادوا بشعار الأفضل فاستسلم من به من العساكر والأجناد ونزلوا عن الأسوار وبلغ الخبر الملك العادل فكاد يستسلم ولكنه تماسك أما الذين دخلوا البلد فإنهم وصلوا إلى باب البريد فما رأى عسكر العادل الذين كانوا بدمشق قلة عددهم وانقطاع مددهم وثبوا عليهم وأخرجوهم منه وكان الأفضل قد نصب خيامه بالميدان الأخضر وقارب عسكره الباب الجديد وهو من أبواب القلعة فقدّر الله أنه أشير على الأفضل الانتقال إلى ميدان الحصن ففعل ذلك

فقويت نفوس من فيه وضعفت نفوس العسكر المصرى ثم إن الأمراء الأكراد منهم تحالفوا فصاروا يدا واحدة يغضبون لغضب أحدهم ويرضون لرضا الآخر فظن الأفضل وباقى الأسدية أنهم فعلوا ذلك لقاعدة بينهم وبين الدمشقيين فرحلوا من موضعهم وتأخروا ووصل أسد الدين شيركوه صاحب حمص إلى الأفضل فى الخامس والعشرين من شعبان ووصل بعده الملك الظاهر صاحب حلب وعزموا على الزحف إلى دمشق فمنعهم الملك الظاهر مكرا بأخيه وحسدا له ولم يشعر أخوه الأفضل بذلك أما الملك العادل فإنه لما رأى كثرة العساكر وتتابع الإمداد إلى الأفضل عظم عليه الأمر فأرسل إلى المماليك الناصرية ببيت المقدس يستدعيهم إليه فساروا سلخ شعبان فوصل خبرهم إلى الأفضل فسير أسد الدين صاحب حمص ومعه جماعة من الأمراء إلى طريقهم فمنعوهم فسلكوا غير طريقهم فجاء هؤلاء ودخلوا ودمشق فقوى العادل بهم قوة عظيمة وزال عنه ماكان يخشاه وأيس الأفضل ومن معه من أخذ دمشق وخرج عسكر دمشق فكبسوا العسكر المصرى فوجدوهم قد حذروهم فعادوا عنهم خاسرين وأقام العسكر على دمشق ما بين قوة وضعف وانتصار وتخاذل حتى أرسل الملك العادل خلف ولده الملك الكامل محمد وكان قد رحل عن ماردين ونزل بمن معه بحوران فاستدعاه إليه بعسكره فسار على طريق البر فدخل إلى دمشق ثانى عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة فعند ذلك رحل العسكر عن دمشق إلى ذيل جبل الكسرة واستقر أن يقيموا بحوران حتى يخرج الشتاء فرحلوا إلى رأس الماء وهو موضع شديد البرد فتغير العزم عن المقام واتفقوا على أن يعود كل إلى بلده فلما وصل الأفضل إلى مدينة بلبيس نزل بها أياما فوصلته الأخبار بأن عمه الملك العادل قد سار من دمشق قاصدا مصر ومعه المماليك الناصرية وقد حلفوا له على أن يكون ولد الملك العزيز هو صاحب البلاد وهو (أى العادل) المدبر للملك إلى أن يكبر فساروا على هذا وكان عسكر الأفضل بمصر قد تفرقوا فسار كل منهم إلى أقطاعه فرام الأفضل جمعهم من أطراف البلاد فأعجله الأمر عن ذلك ولم يجتمع منهم إلا طائفة يسيرة من قرب أقطاعه ووصل العادل فى عسكر عظيم فأشار بعض الناس على الأفضل أن يخرب سور بلبيس ويقيم بالقاهرة وأشار غيرهم بالتقدم إلى أطراف البلاد ففعل ذلك فسار عن بلبيس ونزل موضعا يقال له السايح والتقى هو والعادل سابع ربيع الآخر سنة ست وتسعين واقتتلوا فانهزم الأفضل ودخل القاهرة ليلا واتفق فى تلك الليلة موت القاضى الفاضل عبدالرحيم بن على البيسانى كاتب الإنشاء لصلاح الدين ووزيره فحضر الأفضل

للصلاة عليه وسار العادل حتى نزل على القاهرة بعسكره وحاصرها وضيق عليها فجمع الأفضل من عنده الأمراء واستشارهم فرأى منهم تخاذلا فأرسل إلى عمه فى طلب الصلح وتسليم البلاد إليه وأخذ العوض عنها وطلب دمشق فلم يجبه العادل فنزل عنها إلى حوران والرها فلم يجبه أيضا فنزل إلى ميافارقين وحانى وجبل جوز فأجابه إلى ذلك وتحالفوا عليه وخرج الأفضل من مصر ليلة السبت ثامن عشر ربيع الآخر واجتمع بالعادل وسار إلى صرخد ودخل العادل إلى القاهرة فى اليوم المذكور.

ولما ثبتت قدم الملك العادل بمصر تاقت نفسه إلى الاستبداد بالملك فقطع خطبة الملك المنصور بن الملك العزيز وخطب لنفسه وصادر طوائف الجند فى أقطاعهم واعترضهم فى أصحابهم ومن عليهم من العسكر المقرر فتغيرت لذلك نياتهم وانحرفوا عليه واتفقت على ذلك كلمتهم وبينما هو على هذا الحال إذ وردت الأخبار بتأهب الفرنسيس لأخذ مدينة دمياط فلم يهتم العادل بذلك فلما كانت سنة خمس عشرة وستمائة وصلت مراكبهم إلى دمياط فى صفر فأرسوا على بر الجزيرة بينهم وبين دمياط النيل وبنوا عليهم سورا وجعلوا خندقا يحول بينهم وبين من يقصدهم وشرعوا فى قتال من بدمياط وعملوا آلات ومرساة وأبراجا يزحفون بها فى المراكب إلى برج عظيم كان بدمياط مشحون بالرجال ليقاتلوه ويملكوه وقد نزل الكامل ابن الملك العادل بمنزلة تعرف بالعادلية بالقرب من دمياط والعسكر متصل من عنده إلى دمياط ليمنع الفرنسيس من العبور إلى أرضها وأدام الفرنسيس قتال البرج وتابعوه فلم يظفروا منه بشىء قيل وكسرت مرماتهم وآلاتهم ومع ذلك لازموا قتاله وبقوا على ذلك أربعة أشهر حتى ظفروا وملكوا البرج وكان منيعا مبنيا فى وسط النيل وفيه سلاسل من حديد غلاظ ممدودة من النيل إلى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة من البحر الملح أن تصعد فى النيل إلى ديار مصر، فلما ملكوا البرج قطعوا تلك السلاسل لتدخل مراكبهم إلى النيل ويتمكنوا من البر فأمر الكامل فنصبوا عوض السلاسل جسرا عظيما امتنعوا به من سلوك النيل فقاتلوا عليه أيضا قتالا شديدا حتى قطعوه، فأخذ الكامل عدّة مراكب كبار وملأها رملا وخرقها وغرّقها فى النيل فمنعت سفن الفرنسيس من السلوك فلما رأى الفرنسيس ذلك قصدوا خليجا هناك يعرف بالخليج الأزرق كان النيل يجرى فيه فحفروا ذلك الخليج وعمقوه وأجروا الماء فيه إلى البحر الملح وأصعدوا مراكبهم فيه إلى موضع يقال له بوره على أرض الجزيرة مقابل المنزلة التى فيها الكامل ليقاتلوه من هناك. فلما صاروا فى بورة

حازوه وقاتلوه فى الماء وزحفوا عليه غير مرة فلم يظفروا فلما كان شهر جمادى الآخرة من السنة أى سنة خمس عشرة وستمائة وردت الأخبار من القاهرة بموت الملك العادل، فقام ولده الكامل من المنزلة إلى القاهرة جريدة إذ بلغه أيضا أن أمراء الأكراد اتفقوا مع الأمير عماد الدين أحمد بن على المشطوب على خلعه وتمليك أخيه الملك الفائز ابن الملك العادل ليصير الحكم لهم عليه وعلى البلاد وشاع الخبر بذلك بين الجند فركب كل إنسان منهم هواه ونادى فيهم منادى الفشل فتركوا خيامهم وذخائرهم وأموالهم وسلاحهم ولم يأخذوا منها إلا القليل جدا وتركوا من الميرة والكراع ودواب الحمل ما يجل عن الحصر ولحقوا بالكامل وأصبح الفرنسيس من الغد فلم يروا من المسلمين أحدا على شاطئ النيل وعلموا بالخبر فعبرو النيل إلى دمياط فغنموا ما فى عسكر المسلمين فكان شيئاً عظيما جدا واتفق أن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل وصل إلى أخيه الكامل بعد هذه الحركة بيومين والناس فى أمر مريج جدا وكان قد أرسل إليه يستنجده فقوى به قلبه واشتد أزره وثبت جنانه وعاد إلى أشمون طناح وسير إلى القاهرة من أخرج ابن المشطوب إلى الشام قهرا فاتصل بالملك الأشرف وصار من جنده أما الفرنسيس فإنهم عبروا إلى أرض دمياط شرعوا فى حصارها والتضييق عليها فاجتمعت العرب على اختلاف قبائلها ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وطغوا فى الطريق وأفسدوا وبالغوا فى الإفساد، فكانوا أشد على المسلمين من الإفرنج وأحاط الفرنجة يومئذ بدمياط وقاتلوها برا وبحرا وعملوا عليه خندقا يمنعهم ممن يريدهم وأداموا القتال واشتد الحال على أهلها شدة بالغة وتعذرت عليهم الأقوات وكثر القتل والجرح فيهم ودام الحصار زهاء أربعة شهور فسلموا البلد إلى الفرنسيس فى عشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمائة قهرا وخرج منهم قوم وأقام آخرون فدخل الفرنسيس المدينة وأقاموا بها وبثوا سراياهم فى كل ما جاورها فجلا أهلها عنها وشرعوا فى عمارتها وتحصينها وبالغوا فى ذلك حتى أنها صارت لا ترام إلا بعد عناء شديد أما الكامل فإنه أقام بالقرب من الفرنسيس فى أطراف البلاد لا يأتى عملا وكثر توارد المدد للفرنسيس من كل صوب وحدب، فعظمت هيبتهم فى قلوب المسلمين، وعم الخوف منهم وعاد الملك المعظم صاحب دمشق إلى الشام فخرب بيت المقدس فى ذى القعدة خوفا من وصول الفرنسيس إليه وأخذه وقد خاف الناس كافة وأشرف الإسلام وأهله وبلاده على خطة خسف فى مشرق الأرض ومغربها وصاروا يتوقعون البلاء فى كل يوم وأراد أهل مصر الجلاء عن البلاد إلى الأقطار الحجازية والديار الشامية وغيرها فلم

يتمكنوا من ذلك لوقوف العربان فى الطرق وإفسادهم فى البلاد وفعلهم بالمسلمين ما لم تفعله الفرنسيس من النهب والسلب وهتك الأعراض وسبى النساء والفرنسيس قد أحاطوا بهم من كل جانب وتابع الكامل كتبه إلى أخويه المعظم صاحب دمشق والأشرف موسى بن العادل صاحب الجزيرة وديار أرمينية يستنجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما فإن لم يمكن فليرسلا العسكر إليه وبقى الأمر كذلك مع الفرنسيس إلى سنة ثمان عشرة وستمائة ثم وصل الملك الأشرف إلى مصر وكان الفرنسيس قد ساروا من دمياط وقصدوا الكامل ونزلوا مقابله وبينهما خليج من النيل وهو بحر أشمون وهم يرمون بالمنجنيق والجرخ إلى عسكر المسلمين وقد تيقن الناس جميعا بأنهم يملكون الديار المصرية لا محالة فلما علم الكامل بوصول أخيه الأشرف توجه إليه ولقيه واستبشر هو وكافة المسلمين باجتماعهما أما الملك المعظم صاحب دمشق فإنه قصد دمياط ظنا أن أخويه وعسكريهما قد نزلوا بها واجتمع الأشرف بالكامل فاستقر الأمر بينهما على التقدم إلى خليج من النيل يعرف ببحر المحلة فتقدموا إليه فقاتلوا الفرنسيس وازدادوا قربا وتقدمت شوانى المسلمين من النيل وقاتلوا شوانى الفرنسيس وترددت الرسل بين الفريقين فى تقرير قاعدة الصلح وبذل المسلمون للفرنسيس بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة مع اللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين ماعدا الكرك ليسلموا دمياط فلم يقبلوا وطلبوا ثلثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب بيت المقدس ليعمروه بها فلم يتم بينهم أمر. وبينما هم على هذا الحال من الخلاف عبر طائفة من المسلمين إلى الأرض التى عليها الفرنسيس فقطعوا النيل فركب الماء أكثر تلك الأرض ولم يبق للفرنسيس جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فنصب الكامل حينئذ سورا على النيل عند أشمون وعبرت العساكر عليها فملك الطريق التى يسلكه الفرنسيس إن أرادوا العود إلى دمياط فراسل الفرنسيس عند ذلك الكامل وخابروه فى أمر الصلح وتسليم دمياط بغير عوض وأنفق فى هذه الأثناء وصول الملك المعظم صاحب دمشق ومعه عسكر جرار فاشتدت بحضوره ظهور المسلمين وتمموا الصلح على تسليم دمياط واستقرت القاعدة سابع رجب سنة ثمان عشرة وستمائة وتسلمت فى تاسع رجب المذكور فدخلها المسلمون فلم يجدوا من أهلها إلا القليل فقد كانوا تفرقوا أيدى سبأ ورأوها حصينة لما بذله الفرنسيس فى تحصينها.

ولما رحلت جيوش الفرنسيس عن دمياط جلس الأفضل للعزاء على موت أبيه الملك العادل مع طول المدة فإنه مات فى سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة

وستمائة كما تقدم القول وحمل إلى دمشق ودفن بالتربة التى أعدها لنفسه بها. قال أصحاب التاريخ: وكان العادل عاقلا ذا رأى سديد ومكر شديد وخديعة صبورا حليما متواضعا وكان عمره خمسا وسبعين سنة وشهورا وملك دمشق من الأفضل ابن أخيه وملك مصر منه أيضا. ومن أعجب ما رؤى فى منافاة الطوالع أنه لم يملك الأفضل مملكه إلا وأخذها منه عمه العادل المذكور فأول ذلك أن صلاح الدين أعطى ابنه الأفضل حوران والرها وميافارقين سنة ست وثمانين بعد وفاة تقى الدين فسار إليها، فلما وصل إلى حلب أرسل أبوه الملك العادل بعده فرده من حلب وأخذ هذه البلاد منه ثم ملك الأفضل بعد وفاة أبيه دمشق فأخذها منه ثم ملك مصر بعد وفاة أخيه الملك العزيز فأخذها أيضا منه ثم تملك صرخد فأخذها منه وهذا من غريب الاتفاق وكان العادل قد قسم البلاد فى حياته بين أولاده فجعل بمصر الملك الكامل محمدا وبدمشق والقدس وطبرية والأردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى وجعل بعض ديار الجزيرة وميافارقين وخلاط وأعمالها لابنه الملك الأشرف موسى وأعطى الرها لولده شهاب الدين غازى وأعطى قلعة جعبر لولده الحافظ أرسلان شاه فلما توفى ثبت كل فى المملكة التى أعطاها له أبوه واتفقوا اتفاقا حسنا ولم يجر بينهم من الاختلاف شىء بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يثق بالآخر بحيث يحضر عنده منفردا من عسكره ولايخافه ولا يظن به السوء.

وحدث فى أيام الملك العادل المذكور فناء عظيم بديار مصر أهلك الكثير من الأغنياء والفقراء وحصل عقب ذلك غلاء شديد واشتد الجوع فى جميع البلاد فرحل الكثير من الناس إلى دمشق والمشرق والمغرب وكان الفقراء يأكلون لحوم الكلاب والقطط والحيوانات فلما نفدت أو كادت صاروا ينبشون القبور ويأكلون جيف الأموات وبلغت بهم الشدّة مبلغا عظيما حتى صاروا يخطفون الأطفال فى الأسواق من أمهاتهم فكانوا يذبحونهم ويشوونهم ويأكلونهم جهارا فى الشوارع . قال أصحاب الأخبار: دخلت امرأة يوما على الملك العادل وهى خائفة ترجف فسألها عن حالها فقالت: إنى يا مولاى قابلة وإن قوما استدعونى فى هذا الصباح لأولد امرأة فذهبت معهم ولما كان وقت الفطور قدموا لى طعاما كثير اللحم غير أنه لا يشبه اللحم المعهود فأنكرته ولم تقبله نفسى ثم وجدت بنتا صغيرة هناك فاختليت بها وسألتها عن ذلك اللحم فقالت البنت: إن فلانة السمينة دخلت لتزورنا فذبحها أبى وهاهى معلقة إربا فى هذه الخزانة فاقشعر جسمى من هذا الخبر وجئت فى الحال

إلى تلك الخزانة ففتحتها على حين غفلة فوجدتها مملوءة من لحم تلك المرأة فجئت إليك لأعلمك بذلك وهذه قصتى فتعجب الملك العادل من كلامها وأرسل معها من هجم على تلك الدار وأخذ من فيها وهرب صاحبها وبقى مختفيا حتى أصلح أمره مع حاكم البلد بدفع ثلثمائة دينار فدية عن نفسه، وكان الذين اعتادوا منهم على أكل لحم بنى آدم يصيدون الناس بأصناف الحيل والمخادعة فكانوا يستجلبونهم إلى بيوتهم بأنواع الملاعب فيذبحونهم ويأكلونهم فوقع مرة فى أشراكهم ثلاثة أطباء أحدهم خرج معهم ولم يرجع والثانى أعطته امرأة درهمين على أن يذهب معها إلى مريض فصدق كلامها وسار معها فلما توغلت به فى الأزقة ومضايق الطرق فكر فى نفسه وعلم الحيلة فخاف وامتنع عنها وصاح عليها وشتمها فتركته وهربت .وأما الثالث فإن رجلا استدعاه إلى زيارة مريض وأطمعه فى الأجرة فذهب معه ومازال يسير به من مكان إلى مكان حتى أدخله دارا خربة فارتاب الطبيب منه وتوقف فى وسط الدرج وكان الرجل قد سبق وطرق الباب فخرج إليه رفيقه وهو يقول له: ما هذه العاقة هل حصلت على صيد ينفع؟ فخاف الطبيب عند سماعه هذا الكلام وخفق قلبه وأيقن بالهلاك وكان فى حائط ذلك الدرج شباك صغير يشرف على إصطبل فألقى نفسه من ذلك الشباك فجاء فى وسط الإصطبل فقام إليه صاحب الإصطبل وقال له :من أنت ومن تكون؟ فخاف خوفا عظيما وكتم أمره عنه خوفا منه أيضا فقال له الرجل صاحب الإصطبل: لا بأس عليك قد علمت ما حالك ولا يخفاك أن أهل هذا البيت يذبحون الناس بالاحتيال والخداع والحمد لله على سلامتك ثم أخرجه من ذلك المكان وسار معه حتى أوصله السوق. قال الراوى: ولولا هذا التصادف والاتفاق لهلك الطبيب وانقطع خبره وكان مدة سلطنة الملك العادل سيف الدين تسع عشرة سنة كلها إحن ومحن.

ولما كانت سنة اثنتين وعشرين وستمائة مات الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضىء بنور الله أبى محمد الحسن بن المستنجد بالله مات فى آخر ليلة من رمضان فكانت خلافته ستا وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمانية وعشرين يوما وكان عمره سبعين سنة تقريبا فلم يل الخلافة أطول مدة منه إلا ما قيل عن المستنصر بالله العلوى صاحب مصر فإنه ولى ستين سنة، وكان الخليفة الناصر قد بقى ثلاث سنين عاطلا عن الحركة وقد ذهبت إحدى عينيه والأخرى يبصر بها إبصارا ضعيفا ثم أصابه فى آخر أيامه إسهال شديد استمر عشرين يوما مات بسببه.

قال أصحاب التـاريخ: ولم يطلق فى طول مرضه شيئا مما كـان أحدثه من الرسوم الجائرة وكان قبـيح السيرة فى رعيته ظالما فخـرب بلاد العراق وتفرق أهله فى البلاد وأخذ أملاكهم وأمـوالهم وكان يفعل الشىء وضده فمن ذلك أنه عـمل دور الضيافة فى بغداد ليـفطر الناس عليهـا فى رمضان فـبقيت مدة ثـم قطع ذلك ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبـقيت مدة ثم أبطلها وأطلق بعض المكوس التى جددها فى بغداد خاصة ثم أعادها وقصر همه عـلى رمى البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة فأبطل الفتـوة فى البلاد جميعـها إلا من يلبس سراويل يدعى إليه ولبس كـثير من الملوك منه سراويل الفتوة وكذلك منع الطيور المناسـيب لغيره إلا ما يؤخذ من طيوره ومنع الرمى بالبندق إلا مـن ينتمى إليـه فأجـاب الناس بالعـراق وغيـره إلى ذلك ، قـلـت: فإذا كان هذا غرام الخليفة أيام خلافـته كان من أعجب الأمور بل من أكبر المعايب وكان مـا ينسبه العجم إليه من أنه هو الذى أطمع التـتر فى البلاد وراسلهم فى ذلك صحـيحا فهـو إذا الطامة الكبرى على هامـة الخلافة والداهيـة الدهياء التى يصغر عندها كل ذنب عظيم.

ومات فى أيامه مكاريوس بطرك الاسكندرية وكان يعرف بمكاريوس الثانى وكان تقديمه بدير أبو مقار وكمل بالاسكندرية ثم عاد إلى مصر وأقام بها أياما ثم عاد إلى دير أبو مقـار ثانية فقدس به ثم جـاء إلى مصر فقدس فى كـنيسة المعلقة وأقـام ستا وعشرين سنة وأحدا وأربعين يوما ومات فـخافت مصر من بطرك للمتأصلين سنتين وشهـرين وفى أيامه حـصلت زلزلة عظيـمة بالقـاهرة هدمت فيـها كنيـسة المختار بالروضة. قـال بعض أهل التاريخ: والصـحيح أن الذى هدمهـا هو الأفضل فـإنها كانت فى بسـتانة وكان كـثير الضجـر من وجودها فى بستـانه فلما مات أقـيم بعده غبريال المكنى بأبى العلاء صاعد بن شريك الشماس بكنيسة مرقوريوس بالمعلقة وهو السبعـون من بطاركة الاسكندرية وأصله من كبار الكتـاب بمصر وكمل بالاسكندرية وقدّس بالديـارات بوادى هبيب وأقام أربع عـشرة سنة ومـات فخلا الكـرسى بعده ثمانية أشهر ثم قدم بعده مخائيل بن التقادوسى الراهب بقلاية الدمشيرية وهو حادى سبعيـهم وأصله راهب من دير أبى مقار فأقام سنة وسبـعين يوما ومات ولم يقع فى أيامه من الحوادث شىء يذكر فأقيم بعده يوحنا الخامس المكنى بأبى الفتح بالمعلقة وكمل بالاسكندرية وهـو ثانى سبعيـهم وكان من الحوادث فى أيامـه ما سيـذكر فى محله.

(الفصل الخامس والثلاثون)

(في خلافة الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين اللّه)

ثم قام بالأمر بعد الخليفة الناصر ابنه محمد الظاهر بأمر الله بويع له بالخلافة يوم موت أبيه في الأول من شوال سنة اثنتين وعشرين وستمائة هجرية أى نحو سنة خمس وعشرين ومائتين وألف ميلادية ولم يكن أبوه الملك الناصر يحبه فإنه بعد أن خطب له بولاية العهد على منابر العراق وغيرها من البلاد عاد فخلعه وأرسل إلى الآفاق بقطع الخطبة له. قال أصحاب التاريخ: وإنما فعل ذلك لأنه كان يميل إلى ولده الأصغر عليّ فاتفق أنه مات سنة اثنتى عشرة وستمائة ولم يكن للخليفة ولد خلاف ولى العهد المذكور فاضطر إلى إعادته إلا أنه كان تحت الاحتياط والحجر عليه لا يتصرف فى شيء مّا فلما مات أبوه ولى الخلافة وأحضر الناس لأخذ البيعة وتلقب بالظاهر بأمر الله يعنى بذلك أن أباه وجميع أصحابه أرادوا صرف الأمر عنه فظهر وولى الخلافة بأمر الله لا بسعى أحد. فلما وليها أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العمرين وأعاد الأموال المغصوبة فى أيام أبيه وقبله وكانت شيئا كثيرا جدا وأطلق المكوس فى البلاد جميعها وأمر بإعادة الخراج القديم فى جميع العراق وأن يسقط جميع ما جدده أمير الخراج بأمر أبيه وكان شيئا كثيرا وتقدم إلى القاضى فى أن كل من عرض عليه كتابا صحيحا بملك يعيده إليه من غير إذنه وأقام رجلا صالحا فى ولاية الحشرى وبيت المال وكان هذا الذى أقامه حنبليا فقال إننى من مذهبى أورث ذوى الأرحام فإن أذن أمير المؤمنين أن أفعل ذلك وليت وإلا فلا فقال له: أعط كل ذى حق حقه واتق الله ولا تتق سواه. وكانت العادة ببغداد أن الحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة إلى الخليفة بما تجدد فى دربه من اجتماع بعض الأصدقاء ببعض على نزهة أو سماع أو غير ذلك ويكتب ما سوى ذلك من كل صغيرة وكبيرة فكان الناس من هذا فى حجر عظيم فلما ولى الظاهر أتته المطالعات على العادة فأمر بقطعها وقال: أىّ غرض لنا فى معرفة أحوال الناس فى بيوتهم فلا يكتب أحد إلينا إلا ما يتعلق بمصالح دولتنا فقيل له: إن العامة تفسد بذلك ويعظم شرها فقال نحن ندعو الله أن يصلح أحوالهم. ومحاسن أعماله كثيرة جدا منها أنه أخرج توقيعا إلى الوزير بخطه ليقرأ على أرباب الدولة فلما وصل الرسول قال أمير المؤمنين بقول ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم أو نفذ مثال ثم لا يبين له أثر بل أنتم

إلى إمام فعّال أحوج منه إلى إمام قوّال فقرؤوه فإذا فى أوله بعد البسملة: اعلموا أنه ليس إمهالنا إهمالا ولا إغضاؤنا إغفالاً ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا وقد عفونا لكم ما سلف من تخريب البلاد وتشريد الرعية وتقبيح الشريعة وإظهار الباطل الجلى فى صورة الحق الخفى حيلة ومكيدة وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدرا كالأغراض انتهزتم فرصها مختلسة من براثن ليث باسل وأنياب أسد مهيب تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى وأنتم أمناؤه وثقاته فتستميلون رأيه إلى هواكم وتمزجون باطلكم بحقه فيعطيكم وأنم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا وبفقركم غنى وبباطلكم حقا ورزقكم سلطانا يقيل العثرة ولا يؤاخذ إلا من أصر ولا ينتقم إلا ممن استمر يأمركم بالعدل وهو يريده منكم وينهاكم من الجور وهو يكرهه لكم يخاف الله تعالى فيخوفكم مكره ويرجو الله تعالى ويرغبكم فى طاعته فان سلكتم مسالك نواب خلفاء الله فى أرضه وأمنائه على خلقه وإلا هلكتم والسلام . وكانت أيامه قصيرة إذ مات فى الرابع عشر من رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوما.
قال صاحب الكامل: وكان نعم الخليفة جمع الخشوع من الخضوع لربه والعدل والإحسان إلى رعيته ولما مات وجدوا فى بيت فى داره ألوف رقاع كلها مختومة لم يفتحها فقيل له ليفتحها فقال لا حاجة لنا فيها كلها سعايات. ولقصر مدة خلافته لم يقع فيها من الحوادث شىء يذكر وعمل له العزاء فى البلاد كلها لإحسانه وفضله على الرعية وولى الخلافة بعده ابنه أبو جعفر المنصور.

(الفصل السادس والثلاثون)

(فى خلافة المستنصر بالله أبى جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله)

ثم قام بالأمر بعد الظاهر بأمر الله ابنه الأكبر أبو جعفر المنصور ولقب المستنصر بالله بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه فى الرابع عشر من رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة هجرية أى سنة ست وعشرين ومائتين وألف ميلادية فلما استقرت به الخلافة سلك فى الخير والإحسان إلى الناس سيرة أبيه وأمر فنودى ببغداد بإفاضة العدل وأن من كان له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته فلما كان أول جمعة أتت على خلافته أراد أن يصلى الجمعة فى المقصورة التى كان

يصلى فيـها الخلفاء قيل له أن المطبق الذى يسلك فـيه إليها خـراب لا يمكن سلوكه فركب فـرسا وسار إلى الجامع وهو جـامع القصر ظاهرا يراه الناس بقـميص أبيض وعمامـة بيضاء بسكاكين من حرير ولم يتـرك أحدا يمشى معه من أصـحابه للصلاة بالموضع الذى كان يصلى فيه وسار هو ومعه خـادمان وركا بدار لا غير فصلى وعاد وكذلك الجمعة الثانية حـتى أصلح له المطبق، واهتم بمصالح الرعية وحاجات الخلق فدبر الأمور وأحسن السياسـة وكان محبا للرعية ميالا للعدل كثيـر الحلم كثير العفو ولكنه كان قلـيل الحظ إذ تحرك الفرنجـة فى أيامه ولم ينكفوا عـن شن الغارات على بلاد الإسلام فى البـر والبحر وكانوا يبـالغون جدا فى قـتال المسلمين فهـاله أمرهم وأزعجه وخشى العاقبة وسيّر إلى الملك الكامل صـاحب مصر يستنجده فتجهز الملك الكامل وجـمع عسكرا جـرارا وسار به إلى الشـام فى شوال سنة خـمس وعشـرين وستمـائة وفى نيته التغلب عليـها وأخذها فوصل إلى بيت المقـدس ثم سار عنه إلى مدينة نـابلس وأغار على تلك البـلاد وكانت من أعمـال دمشق وهى تابعـة للملك المعظم فلما علم الملك المعظم بذلك خاف أن يقصـده أيضا ويأخذ دمشق منه فأرسل إلى عمه الملك الأشـرف يخبره بحاله ويستنجـده ويطلبه ليحضر عنده بدمـشق فسار إليه جريدة فدخل دمشق، فلما سمع الملك الكامل بذلك لم يتقدم إليه لأن البلد كان منيعا وقد صار به من يمنعه ويحميـه وأرسل إليه الملك الأشرف يستعطفه ويعرفه أنه ما جاء إلى دمشق إلا طاعة له وموافقة لأغـراضه والاتفاق معه على منع الفرنجة عن بلاد المسلمين فأعاد الكامل الجواب يقول: وأنا ما جئت لهذه البلاد إلا بسبب الفرنجة فإنه لم يكن فى البلاد من يمنعهم عما يريدونه وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا وأنت تعلم أن عمنا السلطان صلاح الدين فـتح بيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الحـسن على مدى الأعصار وممر الأيام فـإن أخذه الفرنجة حـصل لنا من سوء الذكر وقبح الأحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذى ذخره عمنا وأىّ وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعـالى ثم إنهم ما يقنعون حـيتئذ بما أخذوه ويتـعدون إلى غيره وحيث قـد حضرت أنت فأنا أعود إلى مصـر واحفظ أنت البلاد ولست بالذى يقال عنى أنى قاتلت أخى وحاصرته حـاشا لله تعالى. وتأخر عن نابلس يريد الديار المصرية ونـزل تل العجول فـخاف الأشـرف ومن بالشام قـاطبة وعلمـوا أنه إن عاد استولى الفـرنجة على البيت المقدس وغيره مما يجـاوره ولا ممانع دونه فترددت الرسل وسار الأشرف بنفسه إلى الكامل أخيه فحضر عنده فى ليلة عيد الأضحى ومنعه من العود إلى مصر فلبثا بمكانهما وقد تم مـا كان يتوقعه الملك الكامل من عودة الفرنجة

فإنهم وصلوا فى عـدد كثيـر ونزلوا على السواحل الشـامية وأخذوا يفسدون فيـما يجاورهم من البلاد الداخلة تحت حكم الإسلام . قال بعض كتاب الأخبار: ومضى إليـهم وهم بمدينة صور طائفـة من المسلمـين يسكنون الجبـال المجاورة لمدينة صـور وأطاعوهم وصاروا مـعهم على المسلمين واتفق موت الملك المعظـم عيسى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب صاحـب دمشق فقوى طمع الفرنجـة بموته فساروا إلى عكا ونزلوا بها ورتبوا أمورهم وأصلحوا حالهم وتأهبوا للقتال فلما رأى الملك الكامل هو وأخوه الملك الأشرف ما فعله الفرنجة خافـا وبعثا بالرسل إلى ملك الفرنجة دفعات كثيرة وتخابرا معه فى الصلح وطال الأمر بيـن الفريقين ثم استقرت القاعدة على أن يسلموا للفرنجة بيت المقدس ومعـه عدة بلاد أخرى من ملحقاته ويكون باقى البلاد مثل الخليل ونابلس والغـور وطبرية وغير ذلك بيـد المسلمين فتسلمـه الفرنجة ورمموا سوره وحصنوه تحصينا عظيما وذلك سنة سـتة وعشرين وستمائة هجرية، ولما كـان سنة خمس وثلاثين وستـمائة جاءت الأخبار إلى الملك الكامل صـاحب مصر بموت أخيه الملك الأشرف فسار من مصر إلى الشام يريد دمشق ومعه الناصر داود صاحب الكرك وهو لا يشك فى أن الملك الكامل يسلم إليـه دمشق لما كـان قد تقرر بينهـما وكان بدمشق الملك الصالح إسـماعيل فاستعدّ للحصـار وأرسل إليه صاحب حمص نجدة فنازل الملك الكامل دمشق ومازال يقاتلهـا حتى ظفر وأخرج منها الملك الصالح إسماعيل وعوّضـه عنها بعلبك وما حولها مضافا إلى بـصرى وكان قد ورد من قبل الخليفـة المستنصر مـحيى الدين يوسف ابن الشـيخ جمال الدين بن الجـوزى رسولا للتوفـيق بين الكامل ومن معه فتـسلم الملك الكامل دمشق لإحدى عشـرة بقيت من جمـادى الأولى واشتـد حنق الملك الكامل على شيـركوه صـاحب حمص لمعـاونته للصالح إسماعيل فأمر العسكر فبرزوا بقصد حمص وأرسل أيضا إلى صاحب حماة وأمره بالمسير إلى حـمص فاشتد خوف شيركـوه وتخضع للملك الكامل وأرسل إليه نساءه فدخلن عـلى الملك الكامل فلم يلتفت إليهن وصمم على الانتـقام ولكنه لم يتم له قصده إذ اخترمته المنية حـتف أنفه بدمشق وكان سبب موته أنه لما دخل قلعة دمشق أصابه زكام فدخل الحمام وسكب عليـه ماء شديد الحرارة فاندفعت النزلة إلى صدره وتورمت معـدته واشتدت به الحمى فنهاه الأطبـاء عن القىء وخوّفوه منه فلم يقبل وتقايأ فـمات لوقته وعمره نحـو ستين سنة. قال أصحـاب التاريخ: وكان بين موته وموت أخيـه الأشرف نحو ستة أشهر وكانت وفـاته لتسع بقين من رجب سنة خمس وثلاثين وسـتمائة فكانت مدة ملكه على مـصر من حين مات أبـوه عشرين

سنة وكان بها نائبا قبل ذلك قريبا من عشرين سنة فحكم فى مصر نائبا وملكا زهاء أربعين سنة. وكان ملكا جليلا مهيبا حازما حسن التدبير أمنت الطرق فى أيامه وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه واستوزر فى أول ملكه وزير أبيه صفى الدين بن شكر، فلما مات ابن شكر لم يستوزر أحدا بعده وكان يخرج بنفسه فينظر فى أمور الجسور عند زيادة النيل وإصلاحها فعمرت فى أيامه البلاد وزاد خصبها وكثرت غلاتها ودرت أرزاقها فأحبه الرعية ومالت إليه القلوب المتباعدة عن محبة أهل هذا البيت الصالحى واتفق الأمراء الذين كانوا معه بدمشق على تحليف العساكر والأجناد لولده الملك العادل أبى بكر وهو حينئذ نائب أبيه بمصر فحلف له جميع العساكر وأقاموا فى دمشق الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب نائبا عن أبى بكر بن الكامل وتقدمت الأمراء إلى الملك الناصر داود بالرحيل عن دمشق وتهددوه إن هو تأخر فرحل إلى الكرك وتفرقت العساكر فسار أكثرهم إلى مصر وتأخر مع الجواد يونس بعضهم ومقدّمهم عماد الدين ابن الشيخ. ولما بلغ شيركوه صاحب حمص خبر موت الملك الكامل صاحب مصر فرح فرحا عظيما وحصل على ما كان يطمع نفسه فيه وأظهر سرورا ما عليه من مزيد ولعب بالكرة على خلاف العادة وهو فى عشر السبعين وأرسل عسكرا فاسترجع سلمية من نواب الملك المظفر وتغلب عليها وقطع القناة الموصلة منها إلى حماة فيبست بساتينها وعزم على قطع النهر العاصى عن حماة أيضا فسدّ مخرجه من بحيرة قدس التى بظاهر حمص وتجهز وركب متن هواه غير حاسب لما وراء ذلك حسابا. وكانت أعمال الكامل كلها خيرا وإصلاحا. قال الحافظ عبد العظيم المنذرى: أنشأ الملك الكامل دار الحديث بالقاهرة، وعمر القبة على ضريح الشافعى وأجرى الماء من بركة الحبش إلى حوض السبيل والساقية التى على باب القبة المذكورة وأوقف غير ذلك من الوقوف على أنواع البر وله المواقف المشهورة بدمياط مع الفرنجة أهـ.

وقال ابن خلكان: واتسعت المملكة للملك الكامل حتى قال خطيب مكة مرة عند الدعاء له: سلطان مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين، ورب العلامتين، وخادم الحرمين الشريفين، الملك الكامل أبو المعالى ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين أهـ.

ووردت الأخبار إلى الملك الأكبر الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل وهو صاحب حصن كيفا بولاية أخيه العادل أبى بكر واتفاق كلمة الأمراء والقواد على البيعة له فأهمه ذلك وأقلقه وجعل يراقب الفرص إلى أن علم بعجز أخيه عن القيام

بأعباء الملك واختلال أمور المملكة فتجرّد للقتال وسار فى عسكر عظيم يريد مصر ليأخذها من العادل ويتغلب عليها فبرز العادل إلى بلبيس يريد قتال الملك الصالح فلم يكد يصل إليها حتى اختلفت عليه الأمور وخرج عليه الجند وشقوا عصا الطاعة فقبضوا عليه واعتقلوه وأرسلوا إلى الصالح أيوب فوصل إليهم فى قلة فملكوه وبايعوا له وذلك فى صفر سنة سبع وثلاثين وستمائة وسيروا الخبر بذلك إلى الآفاق وأقام الصالح فى الملك وقد دانت له الأمور وثبتت قدماه فأحسن السياسة والتدبير فكانت مدّة ملك العادل سنتين غير كاملتين واتسعت كلمة الملك الصالح وتصرف فى الأمور وقبض على سائر الأمراء والمماليك الذين ساعدوه على خلع أخيه ثم أمر بهم فقتلوا جميعا وخلع الملك الجواد يونس ومنعه من دخول مصر وتوعده بالقتل إن هو عاد إليها فسار الجواد إلى جماعة الفرنجة فى عكا وحبب إليهم قتال الصالح واستخلاص البلاد منه ففرحوا به وأحسنوا وفادته وسيروه إلى صاحب دمشق فى طلب التعاقد على ما فيه المصلحة لهم جميعا فتم لهم الاتفاق مع صاحب دمشق والملك المنصور إبراهيم صاحب حمص وتحالفوا على أن تسير جماعة الفرنجة إلى مصر لقتال الصالح ونزع البلاد منه وأن يكون لهم فى مقابل ذلك أورشليم وطبرية وعسقلان والشقيف والصعيد وبادر الفرنجة من حينئذ فملكوا تلك الأماكن وأخذوا فى ترميم حصون عسقلان وطبرية وجعلوا يعدّون المعدات ويتأهبون للزحف على ديار مصر ووردت الأخبار بذلك إلى الملك الصالح فأقلقته، وكان لما تمكن جنكيز خان من شرقى آسية ودانت له الأمور فيها ولم يطعه الخوارزميون كبر عليه هذا الأمر وأعظمه وطردهم من آسية فجاءوا شرقى الشامات ونزلوا هناك فى طلب الرزق وقد علم الملك الصالح صاحب مصر بمقدمهم ذلك فأنفذ إليهم رسلا فى التحالف على قتال الفرنجة ومن تعاهد معهم على قتاله فأجابوه إلى ذلك وأسرعوا فى الزحف إلى أن بلغوا غزة فحاربوا الفرنجة عند أسوارها ووصلت إليهم النجدة من الملك الصالح فانهزمت الفرنجة فتبعهم الخوارزميون وعسكر مصر حتى أخذوا منهم غزة وبيت المقدس واشتدت عزيمة الملك الصالح بما ناله من الغلبة على الفرنجة فسار فى جيش عظيم إلى دمشق يريد أخذها فحاصرها وألح فى قتالها حتى أخضعها لسلطانه وخرج إلى حمص وحاصرها فلم ينل منها مأربا وعمد إلى التقرب من الخليفة المستنصر بالله العباسى ليعظم بذلك أمره وتعلو كلمته وتنضم إليه القلوب المتباعدة عنه فأرسل إليه هدية نفيسة فلم يكد يصل رسوله بالهدية حتى جاء الخبر بموت الخليفة مات بكرة يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة

هجرية فكانت مدّة خلافته سبع عشرة سنة إلا شهرا. قال أصحاب التاريخ: وكان حسن السيرة عادلا فى الرعية وهو الذى بنى المدرسة فى بغداد المسماة المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقى مما يلى دار الخلافة فلما مات اتفق أرباب الدولة على تقليد الخلافة لولده عبدالله ولقبوه المستعصم وهو سابع ثلاثى الخلفاء العباسيين وآخرهم وكنيته أبو أحمد بن المستنصر بالله منصور.

ومات فى أيام الخليفة المستنصر بالله يوحنا بطرك الاسكندرية بعد أن أقام تسع عشرة سنة وكان اسمه أولا يونس أبو الفتح من دير أبى حنس وكانت أيامه كلها شدائد وإحنا وبلايا ومحنا تكاد أن لا تدخل تحت الحصر وقد أضربنا عن إيرادها هنا وخلا الكرسى بعد موته ثلاثة وأربعين يوما ثم أقاموا بعده مرقس بن زرعة المكنى بأبى الفرج ثالث سبعيهم وهو سريانى المحتد ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى حينه.

(الفصل السابع والثلاثون)

(فى خلافة المعتصم بالله بن المستنصر بالله)

ثم قام بعد المستنصر بالله ولده المعتصم بالله أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبى جعفر بن الظاهر محمد بن الناصر العباسى وهو آخر الخلفاء العراقيين بويع له بالخلافة فى جمادى الأولى سنة أربعين وستمائة هجرية أى سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف ميلادية فلم تستقر به الخلافة حتى أساء التدبير وانهمك على اللعب بالحمام وغير ذلك مما لا يليق بالخلافة. قال أصحاب الأخبار: وكان قليل الرأى ضعيف العزيمة لا حزم له ولا حرمة ولا هيبة فلما جاءت البشائر إلى الملك الصالح بخلافته أرسل إليه يطلب منه تقليدا بمصر والشام فجاءه التشريف الطوق الذهب والمركوب فلبس التشريف الأسود والعمامة والجبة وركب الفرس فى موكب حافل للغاية وأولم لأمراء الدولة وكبار الجند وليمة فاخرة ولم تتم أفراحه هذه حتى ورد عليه كتاب الملك لويز ملك الفرنسيس يقول: أما بعد فإنه لم يخف عليك أنى أمين الأمة العيسوية كما أنه لا يخفى علىّ أنك أمين الامة المحمدية وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال والنساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلى منهم الديار وأنا أرسلت لك ما فيه الكفاية وبذلت لك النصح إلى النهاية فلو حلفت لى بكل

الأيمان وأدخلت عليّ القسس والرهبان وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان لكنت راحلا إليك وقاتلك فى أعز البقاع عليك فإما أن تكون البلاد لى هدية حصلت فى يدى وإما أن تكون البلاد لك والغلبة عليّ فيدك العليا ممتدة إليّ وقد عرفتك وحذرتك من عساكر فى ساحتى تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون إليك بأسياف القضا، فلما وقف الصالح على ما فى الكتاب بكى واسترجع وقال للقاضى بهاء الدين زهير: اكتب الجواب فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين، أما بعد فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فنحن أرباب السيوف وما قتل منا فرد إلا جدّدناه ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه ولو رأت عينك أيها المغرور حدّ سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريبنا ديار الأواخر منكم والأوائل لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ولابد أن تزل بك القدم فى يوم أوله لنا وآخره عليك فهناك تسيء الظنون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون فإذا قرأت كتابى هذا تكون فيه على أول سورة النحل ﴿**أتى أمر الله فلا تستعجلوه**﴾ وتكون فيه على آخر سورة ص ﴿**ولتعلمن نبأه بعد حين**﴾ ونعود إلى قول الله تعالى وهو أصدق القائلين ﴿**كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**﴾ وقول الحكماء إن الباغى له مصرع وبغيك يصرعك وإلى البلاء يقلبك والسلام وجاءته الأخبار بوصول المراكب الفرنساوية مشحونة بالعساكر والأجناد وهذ غزوتهم السابعة الصليبية فأهمه أمرهم وخرج من القاهرة إلى المنصورة ونزل بها وشحن مدينة دمياط بالآلات العظيمة والذخائر الوافرة وجعل فيها بنى كنانة وهم موصوفون بالبسالة والإقدام وأرسل فخر الدين ابن الشيخ فى طائفة عظيمة من الجند ليكونوا قبالة الفرنسيس إذا نزلوا من مراكبهم فتقدم الفرنسيس نحو البر ونزلوا من المراكب وهجموا على المدينة يريدون أخذها وذلك فى أوائل سنة سبع وأربعين وكان مقدم الفرنسيس فى هذه الحملة الملك لويز التاسع ملك الفرنسيس فخاف فخر الدين ابن الشيخ وهاله كثرة جيوش الفرنسيس فعبر من البر الغربى إلى البر الشرقى فى جماعة من المسلمين ووصل الملك لويز بعسكره إلى البر الغربى لتسع بقين من صفر من السنة فلما جرى ذلك هرب أيضا بنو كنانة وأهل دمياط كافة وأخلوها وتركوها مفتحة الأبواب فملكها الفرنسيس بغير قتال واستولوا على ما بها من الذخائر والساح فعظم الأمر جدا على الملك الصالح وأمر بالقبض على من يوجد من بنى كنانة وصلبه فقبضوا عليهم وصلبوا عن آخرهم وكان الملك الصالح

وهو مقيم بالمنصورة يقاسى ألم المرض وهو السل و القرحة والتى كانت به فلم يقدر على الخروج للقاء عساكر الفرنسيس واشتدت به علته شدة بالغة وكان كلما سمع بظفر الفرنسيس قلق واضطرب، فلما كانت ليلة الأحد لأربع عشرة ليلة مضت من شعبان من السنة أى سنة سبع وأربعين وستمائة مات فكانت مدة تملكه للديار المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما وكان عمره نحو أربع وأربعين سنة وقيل أربعين وكان مهيبا عالى الهمة عفيفا طاهر اللسان وقد جمع من المماليك الترك ما لم يجتمع لغيره من أهل بيته حتى كان أكثر أمراء عسكره من مماليكه ورتب جماعة مهم حول دهليزه وسماهم(البحرية) فكان من أمرهم ما سيتلى عليك فى محله، وكان شديد البأس لايجسر أن يخاطبه أحد إلا مجيبا ولا يتكلم أحد بحضرته ابتداء وكانت القصص تضعها بين يديه الخدام فيكتب بيده عليها وتخرج للموقعين وكان لا يستقل أحد من أهل دولته بأمر من الأمور إلا بعد مشاورته وكان يحب العمارة والبناء فبنى قلعة الجزيرة التى هى الروضة واشترى ألف مملوك وأسكنهم بها وسماهم البحرية وبنى بالقاهرة المدارس الأربع بين القصرين وبنى الصالحية وهى بلدة بالشام وبنى له فيه قصورا للصيد وبنى قصرا عظيما بين مصر والقاهرة يسمى بالكبش وكان له ثلاثة أولاد أحدهم فتح الدين عمر مات فى حبس الصالح إسماعيل وكان قد مات ولده الآخر قبله ولم يبق له غير المعظم تورانشاه بحصن كيفا ومات الملك الصالح المذكور ولم يوص بالملك لأحد وكانت له جارية اسمها شجرة الدر فلما مات أخفت خبر موته وبقيت تعلم بعلامته ثم أحضرت فخر الدين ابن الشيخ والطواشى جمال الدين محسنا وهما من كبار الأمراء وعرفتهما بموت السلطان فكتموا ذلك خوفا من الفرنسيس واتفقوا على أن شجرة الدر تجمع الأمراء كافة وتقول لهم إن السلطان يأمركم أن تحلفوا له أولا ثم لولده الملك المعظم تورانشاه المقيم بحصن كيفا من بعده وللأمير فخر الدين ابن الشيخ بأتابكية العسكر فاجتمع الأمراء وحلفوا وكتب إلى حسام الدين بن أبى علىّ وهو يومئذ النائب بمصر بمثل ذلك فحلف وحلفت العساكر والأجناد وجميع الكبراء بمصر والقاهرة على ذلك أيضا فى العشر الأواسط من شعبان من السنة فكانت تخرج الكتب وغيرها وعليها علامة الملك الصالح وكان الذى يكتبها خادم صغير يقال له السهيلى فلا يشك أحد فى أنها بخط السلطان، وأرسل فخر الدين ابن الشيخ قاصدا لإحضار الملك المعظم من حصن كيفا فلما جرى ذلك شاع بين الناس موت السلطان ولكن كان أرباب الدولة لا يجسرون أن يتفوّهوا بذلك وبلغ الخبر الملك لويز ملك الفرنسيس وهو

بدمياط فسار فى طائفة عظيمة من جنوده فى مستهل رمضان يريد المنصورة فلما صار على مقربة منها لاقته عساكر المسلمين فاقتتلوا قتالا عظيما جدا مات فيه جماعة من كبار المسلمين ونزل الفرنسيس بحر مساح ثم اقتربوا من معسكر المسلمين وكبسوهم على المنصورة بكرة الثلاثاء لخمس خلون من ذى القعدة وكان فخر الدين يوسف ابن الشيخ صدر الدين بن حمويه مقدم العساكر الإسلامية فى الحمام بالمنصورة فركب مسرعا فصادفه جماعة من عسكر الفرنسيس فقتلوه فحمل المسلمون والأتراك البحرية على الفرنسيس حتى ردوهم بعد قتال عنيف للغاية أما الملك المعظم تورانشاه فإنه لما وصل إليه القاصد قام من يومه من حصن كيفا ووصل إلى دمشق وعيد بها عيد الفطر ووصل إلى المنصورة يوم الخميس لتسع بقين من ذى القعدة سنة سبع وأربعين وستمائة فلم يستقر به المقام حتى شدد الفرنسيس فى القتال وقامت الحرب بين الفريقين برا وبحرا وحملت مراكب المسلمين على مراكب الفرنسيس فأخذت منهم عدة كثيرة واشتد الأمر على الفرنسيس وقلت عندهم الأقوات وصعب لذلك عليهم المقام قبالة المسلمين فرحلوا ليلة الأربعاء لثلاث بقين من المحرم افتتاح سنة ثمان وأربعين يريدون مدينة دمياط فاقتفى المسلمون أثرهم فانحاز الملك لويز بمن معه من الملوك والأمراء إلى بلد هناك وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشى محسن الصالحى ثم غدر بهم وأحضرهم أسرى إلى المنصورة فقيد الملك الويز وجعله فى دار كان ينزلها كاتب الإنشاء فخر الدين بن لقمان. قلت: وآثارها باقية إلى هذا اليوم وقد تهدم أكثرها، ووكل به الطواشى صبيح المعظمى ففرح المسلمون بذلك فرحا لا يوصف وسار الملك المعظم من المنصورة إلى فارسكور ونزل بها ونصب بها برجا من خشب وقرب إليه أصحابه الذين جاءوا معه من حصن كيفا واعتمد عليهم وسلم إليهم مقاليد الأمور. قال كتاب الأخبار: وكان أولئك الناس من الأراذل واطرح جانب أمراء أبيه ومماليكه وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد مانفر قلبه منه فاتفقوا جميعا على قتله وتحالفوا على ذلك فلم يشعر إلا وقد هجموا عليه بالسيوف ومقدمهم ركن الدين بيبرس وضربه بالسيف فهرب الملك المعظم إلى البرج الخشب الذى نصب له بفارسكور فأطلقوا فى البرج النار فخرج المعظم منه هاربا طالبا البحر ليركب فى حراقته فحالوا بينه وبين الحراقة بالنشاب فطرح نفسه فى البحر فأدركوه وأجهزوا عليه فى نهار الاثنين المذكور فكانت مدة إقامته فى الملك من حين وصوله شهرين وأياما، ولما جرى ذلك اجتمع الأمراء واتفقوا على أن يقيموا شجرة الدر زوجة الملك الصالح فى المملكة وأن يكون عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحى

المعروف بالتركمانى أتابك العسكر وحلفوا على ذلك وخطبوا لشجرة الدر على المنابر وضربت السكة باسمها. قال أصحاب الأخبار: فكان نقش السكة المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل وكانت شجرة الدر قد ولدت من الملك الصالح ولدا ومات صغيرا وكان اسمه خليلا فسميت والدة خليل وكانت علامتها على التوقيع والدة خليل .

ولما استقر لها الملك وقع الحديث مع لويز ملك الفرنسيس فى تسليم مدينة دمياط بالإفراج عنه فتقدم لويز إلى من بها من نوابه فى تسليمها فسلموها وأصعد عليها السلطان يوم الجمعة لثلاث مضين من صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة وأطلق ملك الفرنسيس فركب فى البحر مع جنوده نهار السبت وأقلعوا إلى عكا ثم عادت العساكر ودخلت القاهرة يوم الخميس تاسع صفر وأرسل المصريون رسولا إلى الأمراء الذين بدمشق فى موافقتهم على ما فعلوه من تولية شجرة الدر فلم يجيبوا إليه وطال الأمر بينهم أياما ثم عادوا فاتفقوا على جعل عز الدين أيبك الجاشنكير فى السلطنة لأنهم رأوا أنه إذا استقر أمر المملكة لامرأة على ما هو عليه الحال تفسد الأمور فولوا أيبك وأركبوه بالصناجق السلطانية وحملت الغاشية بين يديه يوم السبت آخر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ولقبوه بالملك المعز، وكان لصلاح الدين يوسف ابن الملك الكامل ولد اسمه الأشرف موسى وله من العمر ثمان سنين فملكوه مع عز الدين أيبك فخطب لهما معا وضربت السكة باسمهما وسموا الأشرف المذكور السلطان وأبطلوا السكة والخطبة التى كانت باسم شجرة الدر فكان مدة ملكها ثلاثة أشهر. قال بعض كتاب الأخبار: إن شجرة الدر هى التى خلعت نفسها من تخت المملكة وتزوجت بالأمير أيبك المذكور وهو أول ملوك الدولة الجركسية بالديار المصرية، فلما استقرت به السلطنة وتصرف فى الأمور شمخت أنوف الأتراك أبناء جنسه وعظم من يومئذ شأنهم ومدوا أيديهم إلى العامة واستوزر الأسعد الفائزى فكان بئس الرجل أكثر من إحداث المغارم والمكوس فأبغضه الناس وكبر بغضهم لأيبك فكان أهل مصر والقاهرة يحقرونه ويسمعونه ما يكره إذا ركب ويقولون: لا نريد إلا سلطانا رئيسا ولد على الفطرة لا عبدا رقا وانحرفت خواطر الجند عليه فجعل يسايرهم ويسترضيهم بالعطايا الجزيلة ومازال حتى دانت له بعد ذلك الأمور واستتبت كلمته وبسط يده على جميع المملكة فرسم بهدم سور مدينة دمياط تخلصا من غارات الفرنسيس فهدموه فى الشعر الأخير من شعبان وبنوا مدينة بالقرب من دمياط فى البر وسموها المنشية، وكانت الأسوار التى هدموها من عمارة المتوكل

الخليفة العباسى، وكبر أمر ولاية الأمير أيبك على الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب دمشق وأعظمه جدا لخروج الملك من بيت أبيه إلى الموالى والعبيد فتحرك يريد أخذ ملك مصر من يد أيبك المذكور استصغارا له واستخفافا بقدره فسار من دمشق وصحبته من ملوك أهل بيته الصالح إسماعيل بن العادل بن أيوب والأشرف موسى صاحب حمص والمعظم تورانشاه ابن السلطان صلاح الدين وأخو المعظم نصرة الدين والأمجد حسن والظاهر شادى ابنا الناصر داود بن الملك المعظم عيسى ابن العادل بن أيوب وتقى الدين بن عباس بن الملك العادل بن أيوب فى جيش عظيم للغاية ومقدم الجيش شمس الدين لؤلؤ الأرمينى وإليه تدبير المملكة وكان خروجهم من دمشق فى يوم الأحد منتصف رمضان من السنة فلما بلغ المصريين خبر قدومهم هالهم أمرهم واهتموا لقتالهم ودفعهم وبرزوا إلى السائح وتركوا الأشرف المسمى بالسلطان بقلعة المقطم وخرج أيبك حينئذ على ولدى الصالح إسماعيل وهما المنصور إبراهيم والملك السعيد عبد الملك وكانا معتقلين من حين استيلاء الملك الصالح أيوب على بعلبك وقطع عليهما ليتوهم الناصر يوسف صاحب دمشق من أبيهما الصالح إسماعيل ويتخوف منه ثم التقى العسكران بالقرب من العباسة بإقليم الشرقية فى الخامس عشر من ذى القعدة فكانت الغلبة أولا على جنود مصر فخامر جماعة من المماليك الترك العزيزية على الملك الناصر صاحب دمشق وثبت المعز أيبك فى جماعة قليلة من البحرية فانضاف جماعة من العزيزية مماليك والد الملك الناصر إلى المعز أيبك فلما انكسر المصريون وتبعهم العسكر الشامى ولم يشكوا فى النصر والغلبة بقى الملك الناصر تحت الصناجق السلطانية مع جماعة يسيرة من المتعممين لا يتحركون من موضعهم فحمل المعز أيبك بمن معه عليه فولى الملك الناصر منهزما طالبا جهة الشام ثم حمل أيبك لطلب شمس الدين لؤلؤ فهزمهم وأخذ شمس الدين أسيرا فضرب عنقه بين يديه وكذلك أسر الأمير ضياء الدين بن أيوب القمبرى فحز رأسه وأسر يومئذ الملك الصالح إسماعيل والأشرف صاحب حمص والمعظم تورانشاه بن صلاح الدين بن أيوب وأخوه نصرة الدين ووصل عسكر الملك الناصر فى أثر المنهزمين إلى العباسة وضربوا بها دهليز الملك الناصر وهم لا يشكون أن الهزيمة تمت على المصريين فلما جاءهم الخبر بفرار الملك الناصر اختلفت آراؤهم وتفرقت كلمتهم فمنهم من أشار بالدخول إلى القاهرة وتملكها. قال بعض كتاب الأخبار: ولو فعلوه لما بقى مع المعز أيبك من يقاتلهم به وكان هرب منهم لترفع المنهزمين إلى الصعيد الأعلى، ومنهم من أشار بالرجوع إلى الشام وكان

معهم تاج الملوك بن المعظم وهو مجروح بجراح ليست خفيفة، ودخل المنهزمون من المصريين إلى القاهرة من غد الواقعة نهار الجمعة فلم يشك أهل مصر والقاهرة فى غلبة الملك الناصر ومكله ديار مصر فخطب له الخطيب فى الجمعة المذكورة بقلعة الجبل وبمصر وأما القاهرة فلم يقم فيها فى ذلك النهار خطبة لأحد ثم وردت إليهم البشرى بانتصار المماليك البحرية ودخل المعز أيبك والبحرية إلى القاهرة يوم السبت ثانى عشرى ذى القعدة ومعه الصالح إسماعيل تحت الاحتياط وغيره من المعتقلين فحبسوا بقلعة الجبل وفى ثالث يوم دخوله أمر بإخراج أمين الدولة وزير الصالح إسماعيل وأستاذ داره المسمى يغمور وكانا معتقلين من حين استيلاء الصالح أيوب على بعلبك فشنقهما على باب قلعة الجبل ووأعز إلى جماعة من أصحابه بقتل الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الملك العادل بن أيوب فلما كانت ليلة الأحد السابع والعشرين من ذى القعدة هجموا عليه وهو يمص قصب السكر وقبضوا عليه وأخرجوه إلى ظاهر قلعة الجبل من جهة القرافة فقتلوه ودفنوه هناك وعمره يقرب من خمسين سنة فعلت كلمة المعز أيبك من حينئذ واتسعت شهرته ومالت إليه القلوب وجعل يتصرف فى أمور المملكة بالاشتراك مع الملك الأشرف لا يقدر على الاستقلال بها ولا الاستبداد بالأحكام لممانعة خوشداشه أقطاى الجمدار له فى ذلك فكان أيبك فى حزن دائم من ذلك ، فلما كانت سنة اثنتين وخمسين وستمائة دبر المعز أيبك أمر قتل أقطاى فأوقف له فى بعض دهاليز الدور التى بقلعة الجبل ثلاثة مماليك أحدهم يسمى قطز والثانى بهادر والثالث سنجر الغتمى فلما مر بهم فارس الدين أقطاى المذكور ضربوه بالسيوف فقتلوه ووصل خبر قتله إلى المماليك البحرية فانزعجوا وفروا من مصر إلى الشام خوفا من المعز أيبك فخلا الجو للمعز واستقل بالسلطنة وخلع الأشرف موسى منها وسيره إلى عمانه فكان الأشرف موسى المذكور آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة فى ديار مصر وكان انقضاء دولتهم فى هذه السنة أى سنة اثنتين وخمسين وستمائة هجرية وسنة خمسين ومائتين وألف ميلادية فكان عدد ملوكهم تسعة أولهم الملك صلاح الدين بن أيوب وآخرهم الأشرف موسى أو الملكة شجرة الدر زوجة الملك الصالح الأيوبى فسبحان من له الملك وحده والسلطان الدائم بلا زوال .

فبادوا جميعا ولا مخبر   وماتوا جميعا وصح الخبر

فلما تمت نعمة المعز أيبك بتملكه على ديار مصر وما يتبعها من الشامات واستقل بحكمها ظهرت على يديه الدولة الشركسية التى هى إحدى فروع الدولة التركية وتمكن سلطانها فتولى حكم البلاد منها سبعة وأربعون ملكا أولهم المعز أيبك

المذكور وآخرهم طومـان باي وهم الملقبون بمماليك الدولة الأيوبية الكردية ليـمتازوا عن المماليـك البحرية وكـان الملك الصالح الأيوبى قـد اصطفاهم لنفـسه وخـصهم بخدمـته فكان لهم التـقدم فى أيامه كـما سبـقت الإشارة إلى ذلك. قال أصـحاب التاريخ: وكـان فيهم فظاظة وخشـونة واستهـتار بالأمور كلها، وأحـسن المعز أيبك التدبير وأقام الـعدل بين الرعية وشدّد على المماليك العـزيزية لتمردهم وتطاول أيدى بعضهم إلى العامة فكرهوه وجعلوا يترقبون الفرص للقبض عليه فعلم نيتهم واستعدّ لهم وبالغ فى الاستعـداد، فلما كانت سنة ثلاث وخمسين همـوا بالقبض عليه فلم يفلحوا فهربوا من مخيـمهم إلى العباسة على حمية فأحاط على وطاقـاتهم جميعها وأخذ ما فيها فهابه الأمراء كافة وحسده الملك الناصر صاحب الشام وخاف أن يأخذ ملكه فسير كمال الدين المعروف بابن العديـم رسولا من قبله إلى الخليفة المستعصم وصحبته تقدمة جليلة وطلب خلعه من الخليفة فعلم المعز أيبك بقصده فأرسل شمس الدين سنجر الأقرع وهو من مماليك المظفر غازى صاحب ميافارقين إلى بغداد بتقدمة جليلة جدا وسعى فى تعطيل خلعة الناصر يوسف صاحب الشام فبقى الخليفة متحيرا أياما ثم إنه أحضـر سكينا من البلسم كبيرة وقال الخليـفة لوزيره: أعط هذه السكين رسول صاحب الشام علامـة منى فى أنه له خلعة عندى فى وقت آخر وأما فى هذا الوقت فلا يمكننى إعطاؤه شيئا فأخـذ رسول صاحب الشام السكين وعاد إلى الملك الناصر يوسف بغير خلعة فكبر عليه هذا الأمر وجعل يراقب الفرص وهو قلق وجل ودس إلى شجرة الدر مـن يعلمها بحاله ، وكـانت شجرة الدر كثيـرة التداخل فى أمور المملكة ولها بعض الغلبـة على أمر المعز أيبك فأحسن المعـز بذلك فكان يضمر لها السـوء ويعمل على التـخلص منها واتفق أنـه سير إلى بدر الدين لـؤلؤ صاحب الموصل من يخطب له ابنتـه ليتزوج بهـا فلما علمت شجـرة الدر بعزمه وكـانت قد آنست منه البغض وأحـست بالشر صارت تتـربص الفرصة للإيقاع به فلمـا كان يوم الثلاثاء الثـالث والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وخـمسين وستـمائة خرج إلى لعب الكرة ثم عـاد ودخل الحمـام فأوعـزت فى الحـال إلى سنجر الجـوهرى مملوك الطواشى محسن وبعض الخدم بأن يقتلوه فـدخلوا عليه وقتـلوه وأرسلت شجرة الدر فى تلك الليلة إصبع المعز أيبك وخاتمه إلى الأمير عز الدين الحلبى الكبير وطلبت منه أن يقوم بالأمر فلم يـجسر على ذلك وظهر الخبـر فثارت مماليك المعز لقـتل شجرة الدر فمـانع عنها طوائف المماليك الصالحـية واجتمع كـافة الأمراء وكبـار الجند ليولوا ملك البلاد لمن يصلح فـاتفقت كلمتهم جـميعا على إقامـة نور الدين على بن المعز

أبيك ولقبوه بالملك المنصور وعمره يومئذ خمس عشرة سنة ونقلت شجرة الدر من دار السلطنة إلى البرج الأحمر ثم قبضوا على الخدام الذين وافقوها على قتل الملك فصلبوهم وهرب سنجرالجوهرى ولكنهم ظفروا به بعد ذلك وصلبوه واحتيط بالصاحب بهاء الدين علىّ بن خبا الذى كان وزير شجرة الدر وأخذ خطة بستين ألف دينار، ولما تولى الملك نور الدين على المنصور واستقرت به السلطنة قبض على شجرة الدر ودخل بها على أمه فأمرت بإعدامها فقتلها الجوارى بالقباقيب ورماها بالخندق وهى عريانة على باب القلعة وبقيت أياما ثم دفنت بالتربة التى كانت قد أعدتها لنفسها. قال كتاب الأخبار: وقد جوزيت من جنس عملها لأنها كانت سعت فى قتل الملك المعظم فمات غريقا كما تقدَّم بيانه فى محله وترك ثلاثة أيام على شاطئ النيل فكذلك فعل بها.

ودخلت سنة ست وخمسين وستمائة هجرية بكثير من الحوادث المهمة فقصد فى أولها هولاكو ملك التتار دار السلام وحاصرها وضيق عليها وشدّد حتى ملكها فى العشرين من المحرم وقبض على الخليفة المستعصم بالله* قال أهل التاريخ: وكان سبب ذلك أن مؤيد الدين بن العلقمى وزير الخليفة كان رافضيا وكان أهل الكرخ أيضا روافض فجرت فتنة بين السنية والشيعة ببغداد على جارى عادتهم فأمر أبو بكر بن الخليفة وركن الدين الدوادار العسكر فنهبوا الكرخ وقتلوا النساء وركبوا بهن الفواحش فعظم فعلهم على الوزير ابن العلقمى وعزم على الانتقام فكاتب التتار وأطمعهم فى ملك دار السلام وكان عسكر بغداد قد بلغ يومئذ مائة ألف فارس فقطعهم المستعصم ليحمل إلى التتار متحصل إقطاعاتهم فأصبح عسكر بغداد بعد ذلك أقل من عشرين ألف فارس ثم أرسل ابن العلقمى إلى التتار أخاه يستدعيهم فساروا قاصدين بغداد فى جمع عظيم للغاية فلما علم الخليفة بخبر قدومهم أخرج عسكره لقتالهم ومقدّمهم ركن الدين بن الدوادار فالتقوا على مرحلتين من دار السلام واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم عسكر الخليفة ودخل بعضهم بغداد وسار بعضهم إلى جهة الشام ونزل هولاكو على بغداد من الجانب الشرقى ونزل باجو من أكبر مقدّميه إلى الجانب الغربى على قرية قبالة دار الخلافة وخرج مؤيد الدين بن العلقمى الوزير إلى هولاكو فاستوثق لنفسه وعاد إلى الخليفة المستعصم وقال: إن هولاكو يبقيك فى الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبى بكر وحسن له الخروج إلى هولاكو فخرج إليه المستعصم فى جمع من أكابر أصحابه فأنزله فى خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل فاجتمع هناك جميع سادات

بغداد والمدرسون وكان منهم محيى الدين بن الجوزى وأولاده وكذلك صار يخرج إلي التتار طائفة بعد طائفة حتى تكاملوا فأمر هولاكو فقتلهم التتار عن آخرهم ثم مدوا الجسر وعدى باجو ومن معه وبذلوا السيف فى بغداد وهجموا على دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الأشراف ولم يسلم إلا من كان صغيرا فأخذ أسيرا ودام القتل والنهب فى بغداد نحو أربعين يوما ثم نودى بالأمان قال الراوى: وأما الخليفة فإنهم قتلوه ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله فقيل خنق وقيل وضع فى عدل ورفسوه حتى مات وقيل غرق فى دجلة وقيل غير ذلك وكان هذا المستعصم وهو عبد الله أبو أحمد بن المستنصر أبى جعفر منصور بن محمد الظاهر ابن الإمام الناصر أحمد ضعيف الرأى كما تقدّم وقد غلب عليه أمراء دولته لسوء تدبيره وانهماكه فى اللذات وعدم اهتمامه بمقام الخلافة ومسند الإمامة فكانت خلافته نحو ست عشرة سنة وبموته زالت الخلافة من العباسيين وانقرضت دولتهم وامحت اثارها فلم تكن شيئا مذكورا. قال أصحاب التاريخ: كان ابتداء دولة الخلفاء العباسيين فى سنة اثنتين ومائة هجرية وهى السنة التى بويع فيها السفاح بالخلافة وقتل فيها مروان الحمار آخر خلفاء بنى أمية وكانت مدة ملكهم خمسمائة سنة وأربعا وعشرين سنة على التقريب وعدّة خلفائهم سبع وثلاثون خليفة. حكى القاضى جمال الدين بن واصل قال: لقد أخبرنى من أثق به أنه وقف على كتاب عتيق فيه ما صورته، أن علىّ بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بلغ بعض الخلفاء من بنى أمية عنه أنه قال: إن الخلافة تصير إلى ولده فأمر الأموى بعلىّ بن عبد الله فحمل على جمل وطيف وبه وضرب وكان يقال عند ضربه هذا جزاء من يفترى ويقول إن الخلافة تكون فى ولده فكان علىّ بن عبد الله المذكور رحمه الله يقول :إي والله لتكونن الخلافة فى ولدى ولا تزال فيهم حتى يأتهيم العلج من خراسان فينزعها منهم فوقع مصداق ذلك بورود هولاكو وإزالة ملك بنى العباس على يديه فأقامت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصف سنة وذلك من يوم الأربعاء رابع عشر صفر سنة ست وخمسين وستمائة وهو يوم قتل الخليفة المستعصم إلى سنة تسع وخمسين وستمائة فسبحان من له الدوام والبقاء .

وكما كانت دار السلام فى قلق واضطراب بسبب دخول هولاكو إليها بعسكره ظافرا منصورا وقتله للخليفة المستعصم وجميع رجال الدولة وكبار البلد كانت مصر كذلك بسبب الإرهاصات الداخلية والفتن المتوالية وتحزب بعض الأمراء ضد البعض الآخر وتغلب بعضهم على أمر الملك المنصور لا سيما سيف الدين قطز أحد مماليك المعز أيبك فقد كان شديد البأس واسع الكلمة كبير الهيبة وكان يراقب الفرص لخلع

الملك المنصور ليتولى الملك مكانه ومازال على هذا الحال إلى أن أتفق فى أوائل ذى الحجة سنة تسع وخمسين وستمائة خروج علم الدين المغنمى وسيف الدين بهادر وجمع من كبار المعزية إلى الرمى بالبندق وكان لهما كلمة نافذة وشهرة كبيرة فانتهز سيف الدين قطز المذكور فرصة غيابهما وقبض على ولده أستاذه الملك المنصور نور الدين على بن المعز أيبك وخلعه من السلطنة فلما قدم المغنمى وبهادر المذكوران لم يمهلهما حتى قبض عليهما واعتقلهما فخافه بقية الأمراء ودانوا له وبالغوا فى الخضوع إليه فتولى الملك وقبض على زمام السلطنة وتلقب بالملك المظفر ووردت عليه رسائل التهانى من كل صوب وحدب، وكان الملك الناصر يوسف صاحب الشام قد أرسل إلى الملك المنصور علىّ قبل خلعه كمال الدين بن العديم مستنجدا على التتار واتفق خلع الملك المنصور وولاية قطز بحضرة كمال الدين بن العديم المذكور فلما استقر قطز بمنصب السلطنة كلمه كمال الدين فيما جاء بصدده فأعاد جواب الملك الناصر يوسف بأن ينجده ولا يقعد عن نصرته فعاد ابن العديم بهذا الجواب ثم أخذ الملك المظفر حينئذ فى جمع الجيوش وإعداد معدات الحرب وفرق فى جيوشه الأموال فكانت زهاء ستمائة ألف دينار جمعها مما فرضه على أهل البلاد مما سماه تصقيع الأملاك وزكاتها وما ناله من ثلث التركات مما قيمته ستة آلاف دينار فى سنة وخرج يريد قتال التتار ومعه الملك المنصور محمد صاحب حماة وأخوه الملك الأفضل علىّ فى أوائل رمضان من السنة فلما علم كتبغا وهو نائب هولاكو على الشام ومقدم التتار بسير العساكر الإسلامية إليه صحبة الملك المظفر قطز جمع من بالشام من التتار وسار إلى لقاء المسلمين وكان الملك السعيد صاحب الصبيبة ابن الملك العزيز ابن الملك العادل بن أيوب صحبة كتبغا فتقارب الجمعان واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم التتار شرّ هزيمة وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب وكثر فيهم القتل وقتل كتبغا وأسر ابنه وترفع من سلم من التتار إلى رؤوس الجبال وتبعهم المسلمون فأخذوهم وهرب من سلم منهم إلى المشرق فجرد الملك المظفر قطز ركن الدين بيبرس البندقدارى فى أثرهم وهو من مقدمى الأمراء المصرية وكبار العسكر وكان ممن صحب التتار أيضا فى هذه الوقعة الملك الأشرف موسى صاحب حمص فلما رأى ما حل بهم من الفشل والقتل فارقهم وتقدم إلى الملك المظفر قطز فى طلب الأمان فأمنه وأقره على ما بيده من البلاد وأما الملك السعيد صاحب الصبيبة فإنه أمسك أسيرا وأحضر بين يدى الملك المظفر قطز فأمر به فضرب عنقه بين يديه ثم دخل الملك المظفر دمشق ظافرا منصورا ففرح به أهل دمشق فرحا لا يوصف

فجعل ينظر فى الأمور ويأمر وينهى ويصلح ما أفسده التتار ولبث على هذا الحال أياما معظم شأنه واتسعت شهرته وطار صيته فحسده أصحابه وكرهوه وخافوا أن تطول مدته فاتفق منهم بيبرس البندقدارى الصالحى مع آخر اسمه آنصور مملوك نجم الدين الرومى الصالحى والهارونى وعلم الدين صوغان أوغلى على قتله وتحالفوا على ذلك فلما قام من دمشق وسار يريد الديار المصرية ساروا معه يرتقبون الفرص فلما وصلوا إلى القصر بطريق الرملة وبينه وبين الصالحية مرحلة وقد سبق الدهليز والعسكر إلى الصالحية قامت بين يدى قطز أرنب ففرح بها وساق عليها يريد قنصها فساق هؤلاء المذكورون معه فلما بعدوا تقدم إليه آنصو وأظهر أنه يريد أن يشفع عند الملك المظفر قطز فى إنسان فأجابه إلى ذلك فأهوى ليقبل يده وقبض عليها فحمل عليه بيبرس البندقدارى حينئذ وضربه بالسيف واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ثم قتلوه بالنشاب وكان ذلك فى سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة فكانت مدة ملكه أحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما وساق بيبرس وأولئك المذكورون معه بعد قتله حتى لحقوا بالدهليز بالصالحية فسألهم أقطاى فارس الدين نائب السلطنة عن الملك المظفر قطز. فقالوا له قتلناه فقال من قتله منكم؟ فقال له بيبرس: أنا فقال له أقطاى ياخوند اجلس فى مرتبة السلطنة فجلس فاستدعيت العساكر والأجناد للتحليف له فحلفوا فى اليوم الذى قتل فيه قطز وهو سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة.

واستقرت السلطنة لبيبرس وتلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحى ثم غير لقبه عن الملك القاهر وتلقب بالملك الظاهر لأنه بلغه أن القاهر لقب غير مبارك ما تلقب به أحد فطالت مدته فلما حلف له الجند ورجال الدولة يمين الطاعة سار بهم الملك الظاهر بيبرس المذكور من الصالحية يريد القاهرة ثم تركهم فى الطريق وسار فى جماعة من أصحابه فصعد إلى قلعة الجبل ففتحت له فدخلها واستقرت قدمه فى المملكة وفرح الناس به وزينوا له مصر والقاهرة أياما فجعل يتصرف فى الأمور ويقرر قاعدتها على ما يحب ثم لم يلبث أن سير علاء الدين البندقدارى أستاداره فى عسكر عظيم لقتال عليم الدين سنجر الحلبى المستولى على دمشق من قبل الملك قطز فقاتله بظاهر دمشق فهرب الجلبى إلى بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحمل إلى مصر فاعتقل ثم أطلق واستقرت دمشق فى ملك الظاهر بيبرس وأقيمت له الخطبة بها وبغيرها من الشامات مثل حماة وحلب وحمص وغيرها وأقام أيدكين البندقدارى الصالحى فى دمشق لتدبير الأمور فعظمت شوكة الملك الظاهر وظهرت كلمته ودانت له الأمور كما يشاء وهابه الملوك وتزلفوا إليه وسيروا إليه الهدايا الجليلة والتحف النفيسة حتى كان من أمره بعيد ذلك ما سيذكر فى محله.

(المقالة السادسة)

(فى كيفية ظهور الخلافة العباسية بالقاهرة بعد موت الخليفة المستعصم بالله)

(وفيها فصول)

لما كان الملك الظاهر بيبرس المذكور شديد الرغبة فى الغزو والفتوحات ومنازعة هولاكو ومن حذا حذوه من ملوك الخوارج وكان يخشى إنه إذا تقدم إلى ذلك فشل أمره وتفرق الناس عنه وزالت سلطنته إذا لم تفرض له الأمور بالفرض الشرعى وقد كانت الدنيا إلى هذا الحين بغير خليفة بعد موت الخليفة المستعصم على ما مر بك بيانه عمد إلى البحث عمن بقى من سلالة الخلفاء العباسيين وأظهر الاهتمام بأمرهم وأجزل العطاء لجماعة من العربان ليأتوه بالخبر فلما كانت سنة تسع وخمسين وستمائة قدم إلى القاهرة فى مستهل رجب جماعة من العربان ومعهم رجل أسود اسمه أحمد أبو القاسم زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله محمد ابن الإمام الناصر العباسى قالوا: وكان معتقلا ببغداد ثم أطلق وكان عدة أولئك العربان عشرة منهم الأمير ناصر الدين مهنا فلما علم الملك الظاهر بقدومهم أظهر الفرح وخرج للقائهم ومعه القاضى تاج الدين والوزير والعلماء والأمراء والشهود والمؤذنون فتلقوه فدخل من باب النصر فى أبهة عظيمة وكبكبة زائدة وأنزلهم الملك الظاهر بيبرس مكانا رحبا وبالغ فى الحفاوة بهم فلما كان يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة تسع وخمسين جلس الملك الظاهر بيبرس وأبو القاسم الأسود المذكور فى الديوان بقلعة الجبل وجلس القاضى والوزير والأمراء على طبقاتهم وأثبت أبو القاسم المذكور نسبه لدى القاضى تاج الدين بالوجه الشرعى فلما ثبت ذلك وقف قاضى القضاة قائما وأشهد على نفسه ثبوت النسب ثم قام عز الدين بن عبد السلام شيخ الإسلام يومئذ فبايعه بالخلافة أولا ثم السلطان الملك الظاهر ثم القاضى تاج الدين ثم الأمراء ورجال الدولة واحدا فواحدا وركب من يومه فى دست الخلافة بمصر والأمراء بين

يديه والناس حوله وشق القاهرة ولقب المستنصر بالله بلقب أخيه وطيروا الأخبار بذلك إلى الآفاق فكان الناس فى خلافته على طرفى نقيض ولكل فريق حجة والله سبحانه أعلم بالحقائق .

أقول: ولما لم يكن من رأينا الانتقال إلى البحث فى كنه هذه الخلافة ولا فى كيفية صيرورتها إلى أبى القاسم الأسود المذكور كى لا يتطرف بنا القلم إلى الخوض فى مجال قد تسابق فيه فحول الكتاب وكبار أهل النقد على غير جدوى لاختلاف الأقوال فيه وتعدد المذاهب وتباين الأهواء وقد جاء فى حديث صاحب الشريعة الإسلامية فى الأمر بطاعة الخليفة ما لفظه: «اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة» وكان الغرض من هذا المؤلف إنما وذكر الحوادث على ترتيب سنى خلافة كل خليفة ممن سبق إلى هذه الفترة التى بات فيها الإسلام بغير خليفة قد التزمنا هذه الخطة بعينها فى تقييد حوادث وأنباء المدة من ظهور أبى القاسم هذا على ترتيب سنى خلافته وخلافة من يأتى بعده ممن يكون لله فى الأرض خليفة كما جاء به حديث صاحب الشريعة عسى أن لا يشكل الأمر على القارئ ولا تفوته الفائدة من سرد الحوادث والأخبار متتابعة كتتابع سنى الخلافة واتصال أدوارها بعضها ببعض، كما كانت دار السلام وغيرها مقر للخلافة العباسية والإمامة الإسلامية إلى هذا الحين فقد أصبحت مدينة القاهرة مقرا لها أيضا بظهور أبى القاسم هذا والبيعة له ولكن على آخر رمق من حياة الخلافة بعد ذلك الحول والطول والقوة والسودد فسبحان من قسم الحظوظ.

(الفصل الأول)

(فى خلافة المستنصر بالله أحمد بن الخليفة الظاهر بالله)

وقام بالأمر بعد قتل الخليفة المستعصم على ما مر بك بيانه فى حينه عمه أحمد ابن الخليفة الظاهر بالله بن محمد بن الناصر العباسى. قال أصحاب التاريخ: وهو أخو المستنصر بويع له بالخلافة بمدينة القاهرة فى يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة تسع وخمسين وستمائة أى سنة ستين ومائتين وألف ميلادية وذلك بعد قتل المستعصم بثلاث سنين ونصف سنة وأيام ولقب المستنصر بالله بلقب أخيه وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه وكتبت الكتب ببيعته إلى الآفاق وأنزل بقلعة الجبل

هو وخدمه وحشمه فلما كان يوم الجمعة سابع عشر رجب ركب فى أبهة السواد وجاء إلى الجامع بالقلعة فصعد المنبر وخطب خطبة ذكر فيها شرف بني العباس ودعا للسلطان ثم نزل فصلى بالناس وفى يوم الاثنين رابع شعبان ركب أيضاً وركب معه السلطان والقاضى والوزراء والأمراء وأهل الحل والعقد إلى خيمة عظيمة قد ضربت له بظاهر القاهرة فألبس السلطان بيده خلعة سوداء وعمامة سوداء وطوقاً من ذهب فى عنقه وقيداً من ذهب فى رجله وفوض إليه الأمور فى البلاد الإسلامية كافة وما سيفتحه من البلاد الأخرى ولقبه بقسيم أمير المؤمنين ثم صعد بعد ذلك فخر الدين ابن لقمان رئيس الكتاب منبراً فقرأ عليه تقليد السلطان وركب السلطان بهذه الأبهة والقيد فى رجليه والطوق فى عنقه والوزير بين يديه ورجال الدولة مشاة سوى القاضى والوزير فشق من القاهرة وقد زينت له فكان يوماً مشهوداً ثم بعد قليل طلب الخليفة من السلطان أن يجهزه إلى بغداد لقتال هولاكو واستخلاص دار السلام منه فأجابه إلى ذلك ورتب له جنداً وجيش له عسكراً وأقام له كل ما يحتاج إليه ودفع إليه ألف ألف دينار وسار السلطان بصحبته إلى دمشق فدخلوها فى يوم الاثنين سابع ذى القعدة وصليا فيها الجمعة ثم سار الخليفة من دمشق بعسكره وركب الملك الظاهر وودّعه وأوصاه بالتأنى فى الأمور ثم عاد إلى الديار المصرية فدخلها سابع عشر ذى الحجة فلم يلبث إلا قليلاً حتى وصلت إليه كتب الخليفة بمصر أنه قد استولى على عانة والحديثة وولى عليهما وأن كتب أهل العراق وصلت إليه يستحثونه على الوصول إليهم ففرح الملك الظاهر بذلك وترامت آماله إلى المرمى البعيد. وبينما كان الخليفة يجدّ السير بعسكره إلى بغداد وصل إليه التتار فى جمع كثير وأحاطوا بعسكره واقتتلوا قتالاً يسيراً فظفر التتار بعسكر الخليفة وقتلوا الخليفة وجماعة كثيرة من أصحابه ونهبوا ما كان معه من الأسلحة والكراع وشدّدوا على من بقى من العسكر فتفرقوا أيدى سبأ ووصلت الأخبار إلى السلطان الملك الظاهر بما وقع فشق عليه الأمر واستعظمه. قال أصحاب التاريخ: وقد كان يودّ نصرته وفتحه للبلاد رجاء أن تكبر دولة الملك الظاهر على يديه فلم يوفق إلى ذلك وقتل الخليفة فى ثالث المحرم سنة ستين وستمائة فكانت خلافته دون الستة أشهر.

وكان ممن شهد الوقعة مع الخليفة وهرب مع من نجا أبو العباس أحمد ابن الأمير أبى علىّ الحسن القتبي ابن الأمير على ابن الأمير أبى بكر أمير المؤمنين المسترشد بالله فقصد الرحبة وجاء إلى عيسى بن مهنا فكاتب فيه الملك الظاهر فطلبه فقدم إلى

القاهرة ومعه ولده وجماعة فدخلها فى سابع عشر ربيع الآخر فتلقاه السلطان وأظهر السرور به وأنزله بقلعة الجبل وأغدق عليه واستمر بقية العام بلا مبايعة والسكة تضرب باسم المستنصر المقتول فلما كان المحرم افتتاح سنة إحدى وستين تمت له البيعة وتقلد الخلافة بعد ثبوت نسبه على ما سيذكر.

(الفصل الثانى)

(فى خلافة الحاكم بأمر الله بن المستظهر بالله العباسى)

ثم تولى الخلافة أبو العباس أحمد ابن الأمير أبى بكر علىّ بن أبى بكر بن المسترشد بالله بن المستظهر بالله العباسى بويع له بالخلافة فى يوم الخميس ثامن المحرم افتتاح سنة إحدى وستين وستمائة هجرية أى سنة اثنتين وستين ومائتين وألف ميلادية وذلك أنه لما كان يوم الخميس المذكور جلس السلطان الملك الظاهر بيبرس مجلساً عاماً وجاء أبو العباس المذكور راكباً إلى الإيوان الكبير وجلس مع السلطان بعد ثبوت نسبه فقرئ نسبه على الناس ثم أقبل عليه السلطان وبايعه بإمرة المؤمنين ثم أقبل هو على السلطان فقلده الأمور ثم بايعه الناس على طبقاتهم ولقب الحاكم بأمر الله فلما كان من الغد يوم الجمعة خطب الخليفة بالناس فقال فى خطبته: الحمد لله الذى أقام لآل العباس ركناً وظهيراً ، وجعل لهم من لدنه سلطاناً نصيراً، أحمده على السراء والضراء، وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء، وأستنصره على الأعداء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء، وأئمة الاقتداء، الأربعة الخلفاء، وعلى العباس عمه، وكاشف غمه، وعلى السادة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعلى بقية الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أيها الناس اعلموا أن الأمانة فرض من فروض الإسلام، والجهاد محتوم على جميع الأنام، ولايقوم علم الجهاد، إلا باجتماع كلمة العباد، ولا سبيت الحرم إلا بانتهاك المحارم، ولاسفكت الدماء إلا بارتكاب المآثم، فلو شاهدتم أهل الإسلام، حين دخلوا دار السلام، واستباحوا الدماء والأموال، وقتلوا الرجال والأطفال، وهتكوا حرم الخلافة والحريم، وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم، فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل، وعلت الضجات من هول ذلك اليوم الطويل، فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه، وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه، فشمروا عن ساق الاجتهاد، فى إحياء فرض

الجهـاد، فاتقوا الله ما استطعتم واسمعـوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفـسه فـأولئك هم المفلحـون، فلم تبق معـذرة فى القعـود عن أعداء الدين، والمحـاماة عن المسلمـين، وهذا السلطان الملك الظاهر السـيد الأجل العـالم العادل المجاهد المؤيد ركن الدنيـا والدين قد قام بنصر الإمامـة عند قلة الأنصار، وشـــرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار، فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود، والدولة العبـاسية مـتكاثرة الجنود فبادروا عـباد الله إلى شكر هذه النعمـة وأخلصوا نياتكـم تنصروا، وقاتلوا أولياء الشـيطان تظفروا، ولا يرد عنكم ماجـرى فالحرب سجال والعاقبة للمتقين، والدهر يومان والآخرة للمؤمنين، جمع الله على التقوى أمـركم، وأعز بالإيمـان نصركم، وأستغفـر الله العظيم لى ولكم ولسائر المسلمين فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، ثم خطب الثانية ونزل فصلى بالناس وكتب ببيعته إلى الآفاق ليخطب له وتكتب السكة باسمه .

قال أبو شامة فـخطب له بجامع دمشق وسائر الجوامع يوم الجمعـة سادس عشر المحـرم من هذه السنة، وقال ابن فضل الله: ونقش اسمـه على السكة وضرب بها الدينار والدرهم قال: ثم خاف الظـاهر عاقبة أمره فأسكنه عـنده بقلعة الجبل وعنده حريمـه وخدمه وغلمـانه موسعـاً عليه فى النفقـات والكساوى يتردد عليـه العلماء والقراء على أكمل ما يكون من أنواع الإكرام وملازمته جانب الإجلال والمهابة ممنوعاً من اجتـماع أحد من أهل الدولة ثم أسـقط اسمه من سكة النقـود وأبقاه على المنابر فقط .

وجعل الظاهر ببيبرس منذ مبايعة هذا الخليفة الحاكم بأمر الله يتأهب لغزو التتار والأخذ بالثأر فبنى دار العدل القديمة تحت سور قلعة الجبل وصار يجلس بها لعرض العسـاكـر فى كل اثنين وخميس ومازال حتى جـيش جيشاً ضخـماً وسار به فى سنة ست وستين إلى الشام وقـاتل من بيافا حتى ملكها واستولى على الشـقيف وأنطاكية وبغراس وطبرية والقرين وارصـوف وصافيتا وايباس ومرقـية وعرج على دار السلام فحاصرها وضيق فى حصارها وما زال بها حتى دخلها وأباحها أياماً ثم رتب أمورها وأحكم نظامها ثم سار منها وصحبته ولده الأمير بركة خان إلى مصر يريد الحج فمر بمدينة حلب وكانت فى أيدي التتار فقاتلهم وأجلاهم عنها ثم عرج إلى بيت المقدس وعاد قافلاً إلى مصر ولبث بها إلى ميـعاد خروج ركب الحاج فخرج من القاهرة فى كبكبة عظيمة وسـار برا إلى السويس يريد مكة وخرج معه جماعة كـثيرة وقد كانت الطريق من مصر إلى مكة إلى ذلك الحين من صحراء عـيذاب فكان الحجاج يركبون

السفن بالنيل من ساحل الفسطاط إلى مدينة قوص بالصعيد الأعلى ثم يركبون الإبل منها فيقطعون صحراء عيذاب إلى ساحل البحر الأحمر ويركبون السفن بالبحر الأحمر إلى جدة التى هى ميناء مكة وكذلك كانت تأتى على هذه الطريق جميع قوافل التجار من الحبشة والهند واليمن وجميع جزيرة العرب فكانت لذلك الصحراء المذكورة آهلة عامرة آمنة فلما سار الظاهر بيبرس إلى مكة براً تبعه الناس فى ذلك واقتدوا به وتحولوا عن طريق صحراء عيذاب وكذلك تحولت قوافل التجار بعد سنة ستين وسبعمائة هجرية فزالت بهجة مدينة قوص وقلت أهميتها وتقهقرت تقهقراً سريعاً حتى أصبحت بالحالة التى هى عليها الآن أو أهم بقليل. ولما رجع من الحج اهتم بأمور الرعية وبالغ فى ترتيب أحوال المملكة وعمل على تأمين السبل وقطع شأفة أهل الفساد، وبينما هو على هذا الحال إذ جاءته الأخبار تترى بزحف طوائف التتار إلى أرض الشام ومحاصرتهم بيرة فجيش عسكراً عظيماً وسار بهم إلى قتال التتار وصحبته الأمير قلاوون الألفى فالتقى الجمعان عند بيرة واقتتلوا قتالاً عنيفاً فانتصر المسلمون على التتار نصرة مؤزرة واستولوا على بيرة وساروا منها إلى أرمينية ففتحوها عنوة وأباحها بيبرس أياماً فغنموا وسبوا وقتلوا وأراقوا فيها الدماء الكثيرة ولبث بها حتى رتب أمورها وقرر أحوالها وسار عنها يريد القاهرة فلما صار على قيد فرسخ منها خرج الأمراء والكبراء والعلماء والفقهاء وعامة الناس للقائه وضربت البشائر لقدومه فدخل من باب النصر وقد فرشوا له الطريق بالبسط والطنافس الفاخرة إجلالاً وتعظيماً فشق من وسط المدينة وصعد إلى قلعة الجبل ثم أولم وأعطى الناس وكان قد ترك الأمير قلاوون بالشام فلم يمض إلا القليل على وصوله حتى جاءه الخبر بزحف بغا خان بن هولاكو ملك التتار على أرض الشام وحصره بيرة ثانية فأنفذ إلى الأمير قلاوون بقتالهم وإجلائهم عن البلاد فسار إليهم الأمير قلاوون فى قلة من العساكر المصرية وضربهم ضربة أرجعتهم على أعقابهم فسر الملك الظاهر بذلك سروراً عظيماً ومال إلى الأمير قلاوون وأحبه واعتمد فى كثير من الأمور عليه.

وتاقت نفس الملك الظاهر بيبرس إلى فتح بلاد النوبة والصعيد الأعلى فأنفذ فى سنة أربع وسبعين الأمير آق سنقر فى جيش عظيم فسار من ساحل الفسطاط إلى أسوان فقاتلها وما زال بها حتى استولى عليها وترفع إلى الصعيد الأعلى يغزو ويفتح ويحرق ويخرب ويسفك الدماء حتى ملك جميع مصر العليا وأخضعها لحكم الملك الظاهر وقرر أمورها على ماشاء وقفل راجعاً مثقلاً بالغنائم من الذهب والفضة وسن

الفيل والريش والعبيد والإماء والخصيان والخيل والدواب ووحوش البر ففرح الملك الظاهر بقدومه وسر باتساع ملكه وطمع فى فتح برقة وإخضاعها لحكمه فسار لقتال من بها وعاد ظافراً منصوراً فلما كانت سنة خمس وسبعين عاد بغا خان بن هولاكو إلى الزحف على أرض الشام ليأخذها من عامل الظاهر فأهم الظاهر ذلك واستعظمه وجيش جيشاً عظيماً وخرج به من القاهرة فى يوم الخميس لعشرين مضت من رمضان من السنة وسار يريد قطع شأفة التتار ومحو أثرهم فوصل إلى حلب ومنها إلى النهر الأزرق ثم إلى ابلستين فوصل إليها فى ذى القعدة فسير بغا للقائه عسكراً عظيماً مقدمهم وكبير اسمه تناون وهو من كبار المقدمين فالتقى الفريقان فى أرض إبلستين يوم الجمعة عاشر ذى القعدة واقتتلوا فانهزم التتار وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم تناون وغلب كبراءهم وأسر منهم جماعة كثيرة وكان ممن أسر فى هذه الموقعة سيف الدين قبجق وسيف الدين أرسلان فلما تم الظفر للملك الظاهر بيبرس سار إلى قيسارية واستولى عليها وكان الحاكم بالروم يومئذ معين الدولة سليمان البرواناه فكان يكاتب الملك الظاهر فى الباطن والملك الظاهر يظن أنه إن وصل قيسارية يصل إلى البرواناه على ما كان قد اتفق معه فى الباطن فلم يحضر إليه وأقام الملك الظاهر على قيسارية سبعة أيام فى انتظاره وخطب له على منابرها ثم رحل عن قيسارية وقد نفدت منه الأقوات فحصل للعسكر شدة بالغة جداً وفنى العلف فماتت دواب الحمل والخيل ووصلوا إلى عمق حارم وهم فى أسوء حال فلبثوا بها شهراً فلما بلغ بغا بن هولاكو ما حل بقومه التتار ساق فى جمع المغل حتى جاء الانبستين وشاهد عسكره صرعى جيفاً وأشلالاً ولم يشاهد أحدًا من عسكر الروم مقتولاً فالتهب قلبه بنار الغيظ وأمر بنهب الروم وقتل من مر به من المسلمين ونهب وخرب وفعل ما لا خير فيه ثم سار إلى الأردن وصحبته معين الدين البرواناه فلما استقر بالأردن أمر بالبرواناه فقتل وقتل معه نيفاً وثلاثين نفساً من مماليكه وخواصه.

أما الملك الظاهر بيبرس فإنه بعد أن أقام بعمق حارم شهراً يصلح حال عسكره رحل عنها فى أواخر سنة خمس وسبعين ونزل بالقصر الأبلق ثم سار منها لغزو الروم وعاد فلما كان المحرم افتتاح سنة ست وسبعين وستمائة مرض مرضاً شديداً ومات فى يوم الخميس السابع والعشرين منه وكانت وفاته وقت الزوال وقد اختلف فى سبب موته. قال بعض كتاب الأخبار: انكسف القمر كسوفاً كلياً وشاع بين الناس أن ذلك سبب موت رجل جليل القدر فأراد الملك الظاهر أن يصرف التأويل إلى غيره فاستدعى بشخص من أولاد الملوك الأيوبية يقال له الملك القاهر من ولد

الملك الناصر داود ابن المعظم عيسى وأحضر خمراً مسموماً وأمر الساقى فسقى الملك الظاهر ثم شرب الملك الظاهر ناسياً بذلك الكأس التى شرب منها القاهر على أثر شربه فمات القاهر عقب ذلك وحصلت للملك الظاهر حمى محرقة ومات بها فى التاريخ المذكور وقال آخرون غير ذلك فكتم نائبه ومملوكه بدر الدين بيلبك المعروف بالخزندار خبر موته وحنطه وكفنه وتركه فى قلعة دمشق إلى أن تمت تربته بدمشق بقرب الجامع فدفن بها وهى مشهورة معروفة وارتحل بعد ذلك بيلبك بالعساكر ومعهم المحفة مظهراً أن الملك الظاهر فيها وأنه مريض وسار إلى مصر وكان الملك الظاهر قد حلف العساكر لولده بركةخان ولقبه الملك السعيد وجعله ولى عهده فوصل بيلبك الخزندار بالخزائن والعسكر إلى الملك السعيد بركة وهو بقلعة الجبل وأصبحوا وقد أظهروا موت الملك الظاهر وجلس ابنه الملك السعيد للعزاء ثم جددوا له البيعة واستقرت له السلطنة فكانت مدة ملك الملك الظاهر بيبرس سبع عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام على التحقيق لأنه ملك فى سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة ومات فى السابع والعشرين من المحرم افتتاح سنة ست وسبعين وستمائة وكان ملكاً شجاعاً عاقلاً مهيباً ملك مصر والشام واستولى على النوبة وفتح الفتوحات الجليلة فكان ما فتحه مما بأيدى الصليبيين يافا وطبرية وصفد والشقيف وارسوف وقيسارية وأنطاكية وحصن الأكراد والقصير وبغراس وحصن عكا والقرين ومرقية وصافيتا وحلب. قال أصحاب التاريخ: وناصفهم فى طرسوس وأدنة والمرقب والمصيصة وبانياس وغيرها وتملك مما كان بيد المسلمين على عجلون وبعلبك ودمشق وحمص وصرخد والصلت وتل ناشر والرحبة وتدمر والرصافة والخوانى والقدموس والعليقة وقلعة الكهف وصهيون وبلاطيس والرصافة ومصياف والقليعة والشوبك والكرك.

وعمر الحرم النبوى وقبة الصخرة ببيت المقدس وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة وسور الاسكندرية وردم فم بحر دمياط ووعر طريقه وبنى منارة رشيد وأنشأ الشوانى وعمر عدة قلاع بالديار الشامية والأناضول وعمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة والجامع الكبير خارج باب الحسينية وحفر خليج الاسكندرية القديم وبنى فى طريقه قرية سماها الظاهرية وحفر بحر أشمون طناح وجدد الجامع الأزهر بالقاهرة وأعاد إليه الخطبة بعد انقطاعها حيناً من الدهر وأنشأ قناطر السباع. وأصله مملوك قبجانى الجنس وكان أسمر أزرق العينين جهورى الصوت حضر هو ومملوك آخر مع تاجر إلى حماة فاستحضرهما الملك المنصور محمد ليشتريهما فلم يعجبه واحد منهما وكان

ايدكين البندقدار الصالحى مملوك الملك الصالح أيوب صاحب مصر قد غضب عليه الملك الصالح وكان قد توجه ايدكين إلى ناحية حماة فأرسل الملك الصالح المذكور وقبض على ايدكين واعتقله بقلعة حماة فتركه الملك المنصور صاحب حماه فى جامع قلعةحماة واتفق ذلك عند حضور الملك الظاهر بيبرس مع التاجر فلما قلبه الملك المنصور ولم يشتره أرسل ايدكين البندقدار وهو معتقل فاشتراه وبقى عنده ثم أفرج الملك الصالح عن البندقدار فسار من حماة وصحبته الملك الظاهر وبقى مع أستاذه البندقدار مدة ثم أخذه الملك الصالح من البندقدار فانتسب إلى الملك الصالح دون البندقدار وكان يخطب له وينقش على الدراهم والدنانير بيبرس الصالحى فسبحان المعطى بغير حساب.

واستقر الملك للسلطان الملك السعيد بركة بن الملك الظاهر بيبرس فى مصر والشام فى أوائل ربيع الأول من السنة أى سنة ست وسبعين واستقر بدر الدين بيلبك الخزندار فى نيابة السلطنة على ما كان عليه مع أبيه الملك الظاهر واستمرت الأمور على أحسن حال وأتم نظام فلم تطل أيام بيلبك الخزندار بعد ذلك ومات على ما يقال حتف أنفه وقيل إنه مات مسموماً والله سبحانه وتعالى أعلم بالحقائق فتولى نيابة السلطنة بعده شمس الدين العزبانى. قال أصحاب التاريخ: ولكنه لم يتمكن من التغلب على الملك السعيد فحبط لذلك الملك السعيد وخلط وقدم الأصاغر على الأكابر وأبعد عنه أكثر الأمراء وقبض على سنقر الأشقر والبيسرى وبقى الأمر كذلك حتى خرجت هذه السنة ودخلت سنة سبع وسبعين وستمائة فتجهز السلطان الملك السعيد يريد الديار الشامية ثم خرج فى عسكر عظيم ووصل إلى دمشق ثم جرد منها عسكرا مع الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى وجرد أيضاً صاحب حماة فساروا جميعاً ودخلوا إلى بلاطيس وشنوا الغارة عليها وغنموا ثم عادوا إلى جهة دمشق واتفقوا على أن يشقوا عصى الطاعة على الملك السعيد بركة ويخلعوه من السلطنة لسوء تدبيره وبغضهم لأفعاله ومروا بدمشق ولم يدخلوها فأرسل إليهم الملك السعيد واستعطفهم وأدخل عليهم والدته فلم يلتفتوا إلى ذلك وداوموا السير فركب الملك السعيد وساق وسبقهم إلى مصر وصعد إلى قلعة الجبل وسار العسكر فى أثره فلما كانت سنة ثمان وسبعين وصل العساكر إلى مصر فى أثر الملك السعيد وذلك فى ربيع الأول وحصروه بقلعة الجبل فخامر عليه أكثر من كان معه من الأمراء فصاروا يهربون واحداً بعد واحد من القلعة وينضمون إلى العسكر المحارب فلما رأى الملك السعيد منهم ذلك أجاب إلى الانخلاع من السلطنة وأن يعطى الكرك فأجابوه إلى

ذلك وأنزلوه من القلعة وخلعوه فى ربيع الأول من السنة أى سنة ثمان وسبعين وسيروه فى الحال إلى الكرك صحبة بيدغان الركنى وجماعة معه فوصل إليها وتسلمها بما فيها من الأموال والخزائن وكان شيئاً كثيراً. قال كتاب الأخبار: وبعد أن جرى ذلك وتم على ما أراده الأمراء اجتمعوا وهم بدر الدين البيسرى الشمسى وايتمش السعدى وبكتاش الفخرى أمير سلاح وغيرهم على إقامة بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس فى السلطنة ولقبوه بالملك العادل وذلك فى شهر ربيع الأول المذكور وعمره يومئذ سبع سنين وشهور ثم خطب له وضربت السكة باسمه وصار الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى أتابك العسكر فلما استقر الحال على ما ذكر أرسل الأمير سيف الدين قلاوون الأمير شمس الدين سنقر إلى دمشق وجعله نائب السلطنة بالشام وكان العسكر لما خالفوا الملك السعيد بركة على ما تقدم بيانه قبضوا على عز الدين أيدمر نائب السلطنة بدمشق وسجنوه وتولى تدبير دمشق بعده أقوش الشمسى نائب السلطنة بحلب فسار الأمير شمس الدين وتولاها واستمر الحال على ذلك مدة يسيرة.

ولم تكن مدة الملك العادل سلامش المذكور لتطول سوى بضع أشهر وقام الأمير سيف الدين قلاوون أتابك العسكر وخلعه من السلطنة وجلس هو على تخت الملك يوم الأحد الثانى والعشرين من رجب سنة ثمان وسبعين ولقب نفسه بالملك المنصور فلما استقرت به السلطنة وثبتت قدماه فيها قام سنقر الأشقر متولى دمشق وخرج عن طاعته وادعى السلطنة واستحلف العساكر والأجناد فحلفوا له وتلقب بالملك الكامل شمس الدين سنقر وكان ذلك لأربع وعشرين خلت من ذى القعدة وجاءت الأخبار بذلك إلى الملك المنصور قلاوون فأهمه الأمر جداً وجهز عسكراً عظيماً للغاية مع علم الدين سنجر الجلبى وهو من مقدمى العساكر المصرية وكذلك بدر الدين بكتاش وبدر الدين الأيدمرى وعزالدين الأخرم فساروا جميعاً إلى الشام وبرز سنقر بجيوش الشام إلى ظاهر دمشق والتقى الفريقان فى تاسع عشر صفر واشتبك القتال، فلم يكن بأسرع من أن ولى الشاميون وسنقر منهزمين فلعبت فيهم سيوف المصريين ونهبت أثقالهم وكان السلطان الملك المنصور قلاوون قد جعل مملوكه حسام الدين لاجين السلحدار نائباً بقلعة دمشق فاعتقله سنقر بها فلما انهزم سنقر أفرج عن حسام الدين وعن آخرين لم يخالفوا مع سنقر ولم يحلفوا له وكتب الجلبى إلى السلطان الملك المنصور بالنصر، فرسم بتعيين الأمير لاجين المنصورى نائباً للسلطان بالشام أما سنقر الأشقر فإنه هرب إلى الرحبة وكاتب أيبغا بن هولاكو ملك التتار وأطمعه فى

البلاد وكان عيسى بن مهنا أمير العربان مع من حلف لسنقر وقاتل معه وكتب بذلك إلى أيبغا أيضاً موافقة له، ثم سار سنقر من الرحبة إلى صهيون فى جمادى الأولى واستولى عليها وعلى برزية وبلاطس والثغر وغيرها بعد حروب كثيرة، وطمع أيبغا ابن هولاكو ملك التتار فى ملك الشام فسير جيشين عين أحدهما مقدمه أباكه خان والثانى مقدمه منجو تيمور بن هولاكو عدته ثمانون ألف فارس فالتقوا بالمصريين واقتتلوا قتالاً عنيفاً فصبر المصريون وقاتلوا قتال الأسود حتى فازوا بالتتار وانتصروا عليهم نصرة مؤزرة وقتل منجو تيمور تحت سنابك الخيل وفر أباكه خان إلى حمدان فقبض عليه أخوه نبكودارا وغلان وسقاه السم فمات لحينه وتولى نبكودارا المذكور الملك بعده وراسل الملك المنصور قلاوون فى أمر الصلح أو الهدنة وأظهر الإسلام وسمى نفسه أحمد خان فتقررت قاعدة الصلح بين الفريقين وتعهد أحمد خان بالطاعة والولاء فعاد الملك المنصور ظافراً مؤيداً ولبث الحال فى سكون والأمور على مايرام حتى قامت الفتنة فى جوف البلاد وخرج على الملك المنصور كبار الأمراء والمماليك ونبذوا طاعته وعملوا على خلعه فتأهب لإذلالهم وتجرد لقطع شأفتهم وأعمل فيهم السيف ثلاثة أيام كاملة ولم يرحم صغيراً لصغره ولا شيخاً لشيخوخته، واشتد القتال حتى امتلأت الأسواق بجثثهم بين رجال ونساء وأولاد فاشتد الهول على الناس وعظم الخطب وارتفعت أصوات النساء بالبكاء واستغاثوا فاجتمع العلماء ودخلوا على السلطان وشكوا إليه ما يلاقيه الناس من هول هذا الأمر وتلطفوا فى القول وبالغوا فى الاستشفاع فأجابهم إلى ما يسألون، وأمر فنادوا بالكف عن القتل وحقن الدماء إلا أنه ضيق على من بقى منهم وأبطل كثيراً من عاداتهم بعد أن كانوا يلبسون الألبسة المطرزة بطراز الذهب والفضة ويضعون العمائم من الحرير والوشى ويرخون ضفائر الشعر على ظهورهم مغطاة بالحرير وغير ذلك من أنواع الزينة والترفه فزالت بعد ذلك هيبتهم وانكسرت سوكتهم وأمن الناس من شرهم وزال عنهم بأسهم.

ولما كانت سنة أربع وثمانين وستمائة هجرية تحرك الأمير سلامش متولى الكرك يريد الاستقلال والخروج عن تابعية السلطان الملك المنصور قلاوون فاستعظم الملك المنصور هذا الأمر وسار من مصر فى جيش عظيم إلى الكرك فلاقاه سلامش فى جمع عظيم واقتتلوا فدارت عليه وعلى جيشه الدائرة وسقط سلامش فى قبضة الملك المنصور فأحضره إلى القاهرة مكبلاً بالحديد وسجنه فلبث مسجوناً إلى ما بعد وفاة الملك المنصور، ورسم بعد ذلك الملك المنصور لولده الملك الصالح علاء الدين بولاية

العهـد بعده وسلطنتـه وأركبه بـشعار السلطنة وشـق فى وسط المدينة بأبهة وكـبكبة عظيمة ولـكنه لم يلبث أن أدركته المنية وهو فى شـرخ الشباب وزهوة العمـر أصابته حمى خبيثة فمات فى سنة سبع وثمانين وستمائة فحزن عليه السلطان الملك المنصور حزناً عظيماً وبكاه بكاءً مرا وجلس للعزاء أياماً كثيرة وفرق الصدقات الكثيرة وخرج من مصـر فى جيش فـراراً مما يلاقيه من ألـم الحزن على فقـد ولده فسـار يريد فتح طرابلس وقد كانت إلى ذلك الحين فى أيدى الصليبيين لا ينازعهم عليها منازع من نحو المائة وثمانين سنة، فلما وصل إليها حاصرها وضيق عليها وشدد ووالى الرمى عليها ليلاً ونهـاراً حتى ظفر بها وفتحـها فأباحها أياماً كثـيرة وهدم أسوارها وخرب بناءها حتى أوشكت أن تصبح أثراً بعد عين ثم أمر فـرمموا ما بقى منها وأعادوا إليها بعض رونقها وولى عليهـا أميراً من المصريين ورتب له جماعة من العـساكر يقومون بحراسة أبراجها ويدفعون عنها عند الحاجة، قال أهل التاريخ: ولم يجسر أحد إلى هذا الحين ممن سبقـه من الملوك مثل صلاح الدين أيوب وغـيره على التعرض إلى طرابلس لحصانتها وكـثرة عساكرها ثم سار لغزو عكا ففتحهـا أيضاً وبرز إلى مسجد التبرز ومعه العساكر والأجناد المتوافرة فلـما أقام به أياماً ابتدأ مرضه وكان فى العشر الأواخر من شوال وهو بالدهليـز بالمكان المذكور وأخذ مرضه يتـزايد حتى مات يوم السبت سادس ذى القعدة سنة تسع وثمانيـن وستمائة وكان جلوسه على تخت الملك فى اليوم الثانى والعـشرين من رجب سنة ثمان وسبعين وستـمائة فكانت مدة ملكه نحـوا من إحدى عـشرة سنة وثلاثة أشـهر وأيامـا وترك ولدين هما الملـك الأشرف صلاح الدين خليل والسلطان الأعظم الملك الناصر محمد، وكان ملكاً مهيباً حليماً جليل القدر كثيـر العفو شجاعاً غير سفـاك للدماء محباً للرعية ميـالاً إلى فعل الخير كثير الإحسـان وافر الحرمة فلما مات اجتمع الأمراء من الخـاصكية وغيرهم وتكلموا فيـمن يتولى السـلطنة بعده فـاتفقت كلمـتهم على تولية ولده الملك الأشـرف صلاح الدين خليل.

فلما كـان اليوم الثانى من مـوت الملك المنصور أجلسوا الأشـرف صلاح الدين خليل المذكور على تخت السلطنة وبايعوه الـبيعة العامة بعد أن بايعـه الخليفة الحاكم بأمر الله ابن المستظهر بالله فى السابع من ذى القـعدة سنة تـسع وثمانين وستمائة ولم تستقر بـه السلطنة حتى قبض على حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة يـومئذ قبض عليه فى يوم الجمعة ثانى عشـر ذى القعدة وقتله وفوض نيابة السلطنة إلى بدر الدين بيدر وقلد الوزارة إلى شمس الدين محمد بن السلعوس، ولما رتب أمور الدولة على

ما شاء سار إلى أرمينيا وحاصر آرودوم وضيق عليها وشدد فى الحصار حتى فتحها وأقام بها أياماً فذاع صيته وكبرت هيبته وهابه الملوك المجاورون لملكه وتزلفوا إليه وعاد إلى القاهرة وأقام بها أياماً ثم خرج منها على الهجن يريد الكرك وسارت عساكره على الطريق إلى دمشق وسار السلطان ودخل دمشق ثم سار منها إلى البرية متصيداً ووصل إلى العزقلس وهو جفار فى طرف بلاد حمص من الشرق ونزل عليه وأرسل إلى مهنا بن عيسى أمير العرب وأخويه محمد وفضل وولده موسى بن مهنا وكان قد أضمر لهم السوء لأمر نقمه على عيسى المذكور فحضروا إليه فى قلة من قومهم وهم لا يعلمون بسوء نيته فقبض عليهم فى الحال وسيرهم إلى مصر فحبسوا فى قلعة الجبل وعاد السلطان خلفهم فوصلها فى رجب من السنة وجعل يتصرف فى الأمور فظهرت عليه علامات الخيلاء وتبدلت أحواله وتغيرت طباعه وأساء معاملة رجال الدولة وكافة الناس وتخوف لأقل سبب فانحرفت الخواطر عنه وأبغضه الأمراء وتمنوا هلاكه، وكانت طائفة الكتاب من القبط إلى سلطته فى صدر الدولة ولهم الكلمة النافذة والرأى المسموع وقد أحبهم الأمراء الخاصكية كثيراً ومالوا إليهم جداً وكان منهم كاتب عند خاصكى يعرف بعين الغزال فوجد يوماً فى طريقه بمصر سمساراً بشونة مخدومه فلما رآه السمسار نزل عن دابته وسلم عليه فسأله الكاتب عن مال تأخر عليه من ثمن غلة الأمير وأمر غلامه فنزل وأمسك السمسار وسار به نحو دار الأمير فصاح السمسار فتجمع الناس وكثرت العامة وعلت بينهم الضوضاء حتى صار إلى صليبة جامع ابن طولون والناس يكثرون وكان قد قرب الكاتب من بيت أستاذه فأحاط العامة بالكاتب وألقوه عن دابته وخلصوا السمسار من غلامه فسبق الغلام إلى بيت الأمير ليستنجده فجاءت طائفة من غلمان الأمير فخلصوا الكاتب من العامة وشرعوا فى القبض عليهم فصاحوا هذا ما يحل ومروا مسرعين إلى أن وقفوا تحت قلعة الجبل وصاحوا نصر الله السلطان وأكثروا من الضجيج والصياح، فأرسل من يكشف الخبر فعرفوه ما كان من أمر الكاتب والسمسار وما وقع منهما فغضب السلطان وطلب الكاتب ورسم للعامة بإحضار النصارى إليه وطلب الأمير بدر الدين بيدر النائب والأمير سنجر الشجاعى ورسم لهما بإحضار جميع النصارى بين يديه ليقتلهم فما زالا به حتى استقر الحال على أن ينادى فى القاهرة ومصر بأن لايخدم أحد من النصارى أو اليهود عند أمير، وأمر الأمراء كافة بأن يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصارى الإسلام فمن امتنع ضربت عنقه ومن أسلم استخدموه عندهم، ورسم للنائب بأن يعرض على جميع مباشرى الديوان

السلطانى ويفعل بهم كذلك فنزل الطلب لهم، فصارت العامة والحرافيش تسبق إلى بيوتهم وتنهبها حتى عم النهب بيوت جميع النصارى واليهود وأخرجوا نساءهم سبايا وقتلوا جماعة منهم بأيديهم فقام الأمير بيدر مع السلطان لرد العامة وركب والى القاهرة ونادى من نهب بيت نصرانى حل دمه وقبض على طائفة من العامة وشهرهم بعد ما ضربهم فانكفوا عن النهب بعد ما نهبوا كنيسة المعلقة بمصر وقتلوا جماعة بها ثم جمع النائب جماعة من كتاب السلطان والأمراء وأوقفهم بين يدى السلطان، فرسم للشجاعى والأمير جاندار أن يأخذا عدة معهما وينزلوا إلى سوق الخيل تحت قلعة الجبل ويحفروا حفراً كبيرة ويلقوا فيها الكتاب الحاضرين ويضرموا عليهم الحطب ناراً فتقدم الأمير بيدر وشفع فأبى أن يقبل شفاعته وقال: ما أريد فى دولتى ديواناً نصرانيا فلم يزل به حتى سمح بأن من أسلم منهم يستقر فى خدمته ومن امتنع ضربت عنقه فأخرجهم إلى دار النيابة وقال لهم: يا جماعة هذا ما وصلت قدرتى إليه مع السلطان فى أمركم وقد قبل شفاعتى على شرط وهو أن من اختار منكم دينه قتل ومن اختار الإسلام خلع عليه وباشر أمر خدمته فابتدره المكين بن السقاعى أحد المستوفين وقال: ياخوند وأى شىء تختارونه منا الآن قولوا لنا ما تختارونه ونحن نتبع قولكم، فغلب الأمير بيدر الضحك وقال: ويحك يا مكين أنختار غير دين الإسلام؟ ثم أمر فأحضروا العدول واستسلمهم جميعاً وكتب بذلك شهادات عليهم ودخل بها على السلطان ثم خرجوا إلى مجلس الوزير الصاحب شمس الدين محمد ابن السلعوس فبدأ بعض الحاضرين بالمكين الصقاعى وناوله ورقة ليكتب عليها وقال: يامولانا القاضى اكتب على هذه الورقة فأجابه على الفور: يابنى والله ما كان لنا هذا القضاء فى خلد فأعجب القوم بفصاحته وسرعة خاطره فى هذا الوقت الضيق وتوجعوا لحالهم جدا وراجع الأمراء السلطان فى أمرهم وألحوا عليه فأجابهم إلى ما يطلبون فكانت حالة من أشد الأحوال وأنكاها مات فيها من الأطفال والشيوخ والرجال عدد كثير، وبلغت فعال العامة بأصحاب البيوتات من النساء مبلغاً عظيماً للغاية، فكن يخرجن حاسرات مكشوفات الوجوه هائمات فى الطرق والحارات لايعرفن للسلامة سبيلاً وكان الأمير بيدرا يرق لحالهن ويتوجع لمصابهن فأخجل ذلك السلطان وندم على ما بدا منه وتوجع كثيراً وقد كثر خلطه وخبطه وأخذه للناس بالشبهات وتخوفه من مماليكه وأمراء دولته حتى من أقرب الناس إليه وأخصهم به فشدد وهدد وبالغ فى التحرز فكرهه مماليكه وتفرقوا عنه وجعل الأمير بيدرا يراقب الفرص للإيقاع به والتخلص من شره، فلما كان أول المحرم افتتاح سنة

ثلاث وتسعين وستمائة خرج من قلعة الجبل يريد الصيد وسار فى طائفة من الجند إلى أن وصل تروجة بالجيزة ونصب دهليزه وركب فى نفر قليل من خواصه، وخرج للصيد فقصده مماليك والده وهم بيدرا نائب السلطنة ولاجين الذى كان متولياً نيابة السلطنة بالشام وكان قد اعتقله السلطان مرة بعد أخرى وقرا سنقر الذى كان خلعه عن نيابة السلطنة بحلب وبهادر رأس النوبة وجماعة من الأمراء فلما قاربوا السلطان خاف منهم وأرسل إليهم أميرا يقال له كرت أميراخور ليكشف خبرهم وسبب مجيئهم فى هذا الحين، فلما وصل إليه أمسكوه على الفور وقاربوا السلطان وكان بينهم وبينه خور فخاضوه ووصلوا إليه وتقدم بيدرا نحوه وعاجله بضربة بسيفه، ثم فعل به كذلك لاجين حتى مات وتركوه ملقى على الأرض فحمله أيدمر الفخرى والى تروجة إلى القاهرة فدفن فى تربته التى أنشأها بجوار مشهد السيدة نفيسة وذلك فى الثالث عشر من المحرم المذكور فكانت مملكته ثلاث سنين وشهرين ليس إلا، وفرح الناس بموته فرحاً عظيماً فكانوا لايذكرونه إلا باللعنات.

واتفق الجماعة الذين قتلوه على سلطنة بيدرا الذى هو مملوكه وأن يلقبوه بالملك القاهر، فساروا على هذا العزم نحو قلعة الجبل فاجتمعت عند ذلك مماليك السلطان الملك الأشرف وانضموا إلى زين الدين كتبغا المنصورى وساروا فى أثر بيدرا ومن معه فلحقوهم عند الطرانة فى خامس عشر المحرم فاقتتلوا فانهزم بيدرا وأصحابه وتفرقوا فى الأقطار فتبعوا بيدرا حتى لحقوه واحتزوا رأسه ورفعوه على رمح واختفى لاجين وقراسنقر ولم يطلع لهما على خبر ووصل زين الدين كتبغا وجماعة المماليك السلطانية بعد قتل بيدرا إلى قلعة الجبل، وبها علم الدين سنجر الشجاعى نائباً واتفقوا على تولية السلطان الملك الناصر ابن السلطان الملك المنصور فأجلسوه على تخت السلطنة فى العشر الأواسط من المحرم وعمره يومئذ تسع سنين وتقرر أن يكون الأمير زين الدين كتبغا المنصورى نائب السلطنة وعلم الدين سنجر الشجاعى وزيراً وركن الدين بيبرس البرجى الجاشنكير أستاذ الدار، وتتبعوا الأمراء الذين اتفقوا مع بيدرا على قتل الملك الأشرف فظفروا أولاً ببهادر رأس النوبة وأقوش الموصلى الحاجب فضربت أعناقهما وأحرقت جثتيهما ثم ظفروا بطرنطاى الساقى وايتاق ونفيه وأروس السلحدارية ومحمد خواجا والطنبغا الجمدار وآق سنقر الحسامى فاعتقلوا بخزانة البنود أياماً ثم قطعت أيديهم وأرجلهم وصلبوا على الجمال وطيف بهم وأيديهم معلقة فى أعناقهم وقبض بعد أيام أيضاً على مختار الساقى فشنق، وتوافق زين الدين كتبغا والشجاعى على القبض على شمس الدين محمد بن السلعوس وزير السلطان الملك الأشرف فقبضا عليه وتولى الشجاعى معاقبته والتصرف فى ماله

وقتله وكان ابن السلعوس قد بلغ عند السلطان منزلة عظيمة وتمكن فى الدولة وصارت الأمور كلها له وكان لابن السلعوس المذكور أقارب وأهل بدمشق فلما صار إلى هذه الحالة أرسل فأحضرهم بمصر فحضروا جميعاً إلا شخصاً منهم فإنه استمر مقيماً وكتب إلى ابن السلعوس يقول :

تنبــه يا وزير الأرض واعلم   بأنك قد وطئت على الأفاعى
وكن بالله معتصماً فإنى   أخاف عليك من نهش الشجاعى

ولم تمض مدة طويلة حتى وقعت الوحشة بين الأمير زين الدين كتبغا وعلم الدين سنجر الشجاعى المذكور فصار مع كل منهما جماعة من الأمراء واشتد الأمر بينهما واستفحل الخلاف فنزل كتبغا ومن معه من قلعة الجبل وبقى سنجر وأصحابه بها لا يبرحون فحصره كتبغا ومازال حتى غلب عليه وقتله واحتز رأسه وطيف به فى البلد وذلك فى صفر من السنة أى سنة ثلاث وتسعين وستمائة، فلما شاع خبر موته ظهر حسام الدين لاجين وشمس الدين قرا سنقر من الاستتار بعد الغيبة فأخذ لـ. زين الدين كتبغا الأمان من السلطان وقرر لهما الأقطاعات الجليلة وأعز جانبهما وأخذ زين الدين المذكور من هذا الحين يعمل على اختلاس الملك من أستاذه الملك المنصور، فلما كان يوم الأربعاء تاسع المحرم افتتاح سنة أربع وتسعين وستمائة أزال من طريق مقاصده ما كان يحول دون الوصل إليها وخلع السلطان الملك المنصور من تخت السلطنة وجلس هو على سرير الملك ولقب نفسه الملك العادل زين الدين كتبغا واستحلف الناس على ذلك فحلفوا وخطب له على منابر مصر والشام ونقشت السكة باسمه، ثم قبض على السلطان الملك الناصر ووضعه فى قاعة بقلعة الجبل وحجبه عن الناس فصار لا يراه أحد ولا يسمع بخبره فكانت مدة ملك السلطان الملك الناصر المذكور سنة إلا أياماً.

ولما استتب الأمر لزين الدين كتبغا جعل نائبه فى السلطنة حسام الدين لاجين الذى كان مستترا بسبب قتل السلطان الملك الأشرف وأفرج عن الأمير مهنا أمير العربان وإخوته وابنه عيسى وزودّهم وسيرهم إلى بلادهم وخرج فى شوال من السنة يريد الشام فوصل دمشق وأقام بها أياما وقد نقم على عز الدين أيبك الحموى نائب السلطنة بالشام أمورا فخلعه وولى مكانه سيف الدين أحد مماليكه وقام من دمشق فى أوائل المحرم افتتاح سنة سبع وتسعين وستمائة بالعسكر متوجها إلى مصر فلما وصل إلى نهر العرجا واستقر بدهليزه وتفرقت مماليكه وغيرهم إلى خيامهم ركب حسام الدين لاجين المنصورى نائب السلطنة بسنجقه ونقاره وانضم إليه بدر

الدين البيسرى وقرا سنقر المنصورى وسيف الدين قلجاق المنصورى وبهادر الظاهرى وغيرهم من كبار الأمراء وكانوا قد اتفقوا مع لاجين نائب السلطنة على الغدر بالسلطان كتبغا المذكور لبغضه لهم وإعراضه عنهم إلى بعض خواصه وباغتوه عند الظهر فى دهليزه بالمنزلة المذكورة فلم يتمكن من جمع أصحابه وركب فى نفر قليل فحمل عليه نائبة لاجين فقتل يكنوت الأزرق ونجاص وكانا أكبر مماليك العادل فولى العادل هاربا راجعا إلى دمشق حيث كان بها مملوكه عزلو ووصل إليها فركب مملوكه عزلو المذكور والتقى به ودخل إلى قلعة دمشق واهتم بجمع العساكر والتأهب للقتال مع لاجين فلم يوافقه عسكر دمشق على ذلك ورأى مهم التخاذل فخلع نفسه عن السلطنة ولبث بقلعة دمشق وأرسل إلى حسام الدين لاجين يطلب منه الأمان وموضعا يأوى إليه فأعطاه صرخد فسار كتبغا إلى صرخد واستقر بها إلى أن كان من أمره ما سيذكر فى حينه، وأما حسام الدين لاجين فإنه لما هزم العادل كتبغا على ما ذكر نزل بدهليزه عند نهر العرجاء واجتمع مع الأمراء الذين وافقوه على مابدا وشرطوا عليه شروطا فالتزمها فكان من تلك الشروط أن لا ينفرد عنهم برأى ولا يغرى مماليكه بهم كما فعل كتبغا فأجابهم إلى ذلك وحلف لهم واستحلفهم على الطاعة فحلفوا وبايعوه بالسلطنة ولقبوه بالملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورى وذلك فى المحرم افتتاح سنة ست وتسعين وستمائة فكانت مدة ملك السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى سنتين تقريبا إلى أن خلع.

ولما بايع الأمراء الملك المنصور حسام الدين لاجين رحل من فوره بالعسكر إلى مصر ووصل إليها فدخلها فى أبهة زائدة وصعد إلى قلعة الجبل واستقر بها وجعل يتصرف فى الأمور ويرتب الأحوال على ما يريد ثم سير الأمير سيف الدين منجق إلى دمشق وجعله نائب السلطنة بالديار الشامية وأخرج السلطان الملك الناصر من معقله بقلعة دمشق وسيره إلى الكرك صحبة سلار فأوصله إليها وتركه بها وعاد سلار إلى مصر وأفرج كذلك عن بيبرس الجاشنكير وعن عدة أمراء كان العادل كتبغا قد قبض عليهم واعتقلهم فى أيامه، وتاقت نفسه إلى التشبه بكبار الملوك ممن سلفه فى الغزو والفتوحات فجيش جيشا عظيما وسار إلى بلاد الروم فلم يفتح الله عليه بشىء منها إلا القليل جدا فى جانب ما فقده من المال والرجال وذلك لانحراف قلوب الأمراء عنه وتسليم أموره الخصوصية إلى الأحداث من المماليك الذين اصطفاهم لنفسه وعينهم لخدمته وكان القائم عليهم شخص اسمه سيف الدين طغجى. قال أصحاب التاريخ: وكان سبب بغض الأمراء له ما فعله بهم من أخذ

جانب من إقطاعاتهم وإخراجه من دواوينهم وجعله لهم ولجميع العساكر والأجناد أحد عشر قيراطا بدل عشرين وقد كانت القاعدة إلى سلطنة الملك المنصور لاجين أنهم اعتبروا أرض مصر أربعة وعشرين قيراطا فخصوا السلطان منها بأربعة والعساكر والأجناد بعشرة وسائر الأمراء بعشرة ولما كان الأمراء هم المتولين إدارة شئون جميع العساكر فى السلم والحرب كانوا لا يعطون للعسكر من أقطاعهم إلا بقدر الحاجة وربما أقل بكثير أو لا يعطونهم ويضمون ما يستغل منها إلى دواوينهم الخصوصية فكثرت لذلك أقطاعات الأمراء وأوى إليها أهل الشقاوة الفساد فعاثوا فيما جاورها من البلاد والقرى والمزارع وقطعوا الطرق على المارة وأبناء السبيل وعجز الولاة عن ردعهم خوفا من إغضاب الأمراء وكانت الحقوق الديوانية تمنع من هذه الأقطاعات فكانت طعمة لأعوان الأمراء فلما تولى السلطنة الملك المنصور لاجين راك جميع البلاد ورد تلك الأقطاعات على أربابها وأخرجها جميعها من دواوين الأمراء ورتب للأمراء وجميع الأجناد أحد عشر قيراطا وأفرد تسعة لحاجة العسكر عند الاقتضاء وحرر أوراقا بما يكفى الأمراء والأجناد، فلما أيس الأمراء من رجوع الأحوال إلى ما كانت عليه قبل سلطنة لاجين وقد أحسوا بعزم السلطان على الإيقاع بهم عمدوا إلى قتله واختاروا لذلك جماعة من مماليكه فلما كانت ليلة الجمعة حادى عشر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين فى أوائل الليل دخل عليه جماعة من أولئك المماليك وهو يلعب بالشطرنج وتقدم أحدهم نحوه واسمه سيف الدين كرجى وضربه بسيفه وتلاه الباقون بسيوفهم حتى قتلوه وطلبوا مملوكه ونائبه منكوتمر فهرب واستجار بسيف الدين طغجى الأشرفى مقدم المماليك فأجاره وبعث به إلى الجب فحبسه هناك ثم بعد استقراره فى الجب توجه إليه كرجى الذى قتل السلطان ومعه جماعة وأخرجوه وذبحوه على رأس الجب وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جلس طغجى مقدم المماليك فى موضع النيابة وأمر ونهى. قال كتاب الأخبار: وكان هنالك جماعة من كبار الأمراء المتقدمين مثل حسام الدين أستاذ الدار وبيبرس الجاشنكير وغيرهم فأخذهم آخذ الغيظ مما فعله طغجى فاتفقوا على الوقيعة به وإعادة الملك إلى السلطان الملك المقيم بالكرك الذى تقدم الكلام عنه واتفق فى هذه الأثناء أن حضر بعض العسكر الذين كانوا فى حلب ومعهم أمير السلاح وغيره من الأمراء فأشار الأمراء المتآمرون على طغجى المذكور بالركوب للقاء أمير السلاح فامتنع فعاودوه فأجاب وركب من قلعة الجبل وجعل نائبه بها كرجى قاتل السلطان الملك المنصور لاجين فلما اجتمع الأمراء بأمير السلاح تحدثوا فيما فعله أولئك الصبيان من قتل السلطان وبالغوا فى الأمر واتهموا طغجى المذكور بفعله وكان طغجى جالسا بينهم

فأنكرَ ذلك وبالغ فى الإنكار فقام عليه الأمراء بالسيوف فهرب منهم فأدركوه وقتلوه وقصدوا كرجى بقلعة الجبل فهرب فاتبعوه وقتلوه أيضا وذلك فى ربيع الآخر من السنة فكان مدة ملك حسام الدين لاجين الملقب بالملك المنصور سنتين وثلاثة أشهر وقيل سبعة وأربعين يوما لم يأت فيها بعمل يذكر ولا بمعروف يشكر.

ولما قتل الملك المنصور وطغجى على الوجه المذكور اتفق الأمراء كافة على إعادة الملك الناصر محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدين بن قلاوون إلى مملكته فبعثوا إليه سيف الدين آل ملك وعلم الدين الجاولى إلى الكرك فأحضراه إلى مصر وصعد إلى قلعة الجبل فى أبهة وكبكبة عظيمة فلما كان يوم السبت رابع عشر جمادى الأولى من السنة أى سنة ثمان وتسعين وستمائة أجلسوه على سرير الملك وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق وضربت السكة باسمه فكانت هذه ولايته الثانية واتفق معه الأمراء على أن يكون سيف الدين سلار نائب السلطنة وبيبرس الجاشنيكر أستاذ الدار وبكتمر الجوكندر أمير جاندار ففعل وفوض نيابة السلطنة بالشام إلى جمال الدين أقوش الأفرم وأفرج عن شمس الدين قراسنقر من الاعتقال وكانت له فيه نحو سنة وشهرين ثم سيره إلى الصبيبة وقد كانت البلاد بغير ملك مدّة أحد وأربعين يوما إلى أن حضر السلطان الناصر محمد بن قلاوون المذكور .

وعاود التتار الكرة فى أيام الملك الناصر على بلاد الشام فعبروا الفرات فى شهر ربيع الآخر سنة سبعمائة فجفلت منهم المسلمون ودخلت بلاد حلب وسارقرا سنقر بعسكر حلب إلى حماة وبرز زين الدين كتبغا وعسكر حماة إلى ظاهر البلد ووصل العساكر من دمشق أيضا واجتمعوا بحماة ونزل التتار على سرين والمعرة وتيبزين والعمق وغيرها ينهبون ويقتلون فكبر الأمر على السلطان واستعظمه جدا وسار فى عسكره ووصل إلى العرجاء وكان الوقت شتاء فاتفق أن هطلت الأمطار بشدة زائدة فاشتدت الأوحال حتى انقطعت الطرقات وانقطعت الأقوات وعجز السلطان والعسكر عن القيام على تلك الحال فرحلوا وعادوا إلى مصر وبقيت التتار تعيث وتفسد وتفعل بالبلاد ما لا خير فيه نحو ثلاثة أشهر ثم رحلوا إلى بلادهم فرجع عسكر حلب ولم يستقر بالسلطان المقام بعد رجوعه حتى تغيرت عليه قلوب الأمراء وقامت الفتنة بسبب تولى بعضهم المناصب دون البعض الآخر وتحزبوا وتفرقت كلمتهم وكاد يتعذر على السلطان تلافى الأمر وبينما هم على هذا الحال من الاضطراب والاختباط إذ مات الخليفة أبو العباس الحاكم بأمر الله فى ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة فأرسل نائب السلطنة خلف جميع من فى البلاد من الأمراء والقضاة والعلماء والصوفية ومشايخ الزوايا والرباطات

وغيرهم ليحضروا للصلاة على الخليفة فكان المجتمعون خلقا كثيرا جدا وبعد الصلاة عليه دفنوه بجوار السيدة نفيسة فى قبة بنيت له فكان الخليفة المذكور أوّل خليفة مات بمصر من بنى العباس وكانت خلافته أربعين سنة وأشهرا ولم يكن له من الأمر شيء سوى الإمامة والخطبة فى صلاة الجمعة .

قال أبو شامة: ولاحظه الملك الأشرف خليل بن قلاوون أتم ملاحظة ممن سبقه ورعى لوده نعمة الخلافة فيه حقها من جميل المحافظة. وقال غيره: خطب الخليفة الحاكم بأمر الله بالقلعة مرة ثانية يوم الجمعة رابع شوال سنة تسعين وستمائة بسؤال الملك الأشرف له ذلك وذكر فى خطبته تولية السلطنة للأشرف ثم خطب مرة ثالثة بالمنصورة بحضرة السلطان والقضاة وحض على غزو التتار واستنقاذ بلاد العراق من أيديهم وذلك سنة تسعين وستمائة فى ذى القعدة ثم خطب مرة رابعة فى التاسع والعشرين من ربيع الأوّل سنة إحدى تسعين وحث على الجهاد والنفير وصلى بالناس الجمعة وجهر بالبسلمة، وقال الذهبى فى العبر: آخر خليفة خطب يوم الجمعة الراضى بالله ولم يخطب بعده خليفة إلا الحاكم العباسى هذا فإنه خطب فى خلافته، وقال ابن فضل الله: لما ملك المنصور لاجين زاد فى إكرامه أى فى إكرام الخليفة الحاكم بأمر الله وصرّفه فى الركوب والنزول فبرز إلى قصر الكبش وسكن به ثم إنه حج فى سنة سبع وتسعين وستمائة فأعطاه المنصور لاجين ستمائة ألف درهم ورجع من الحج فأقام بمنزله إلى أن مات ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة ودفن بجوار السيدة نفيسة أهـ.

ومات فى أيام الخليفة الحاكم بأمر الله مرقس بطرك الاسكندرية فكانت مدّته اثنتين وعشرين سنة وستة أشهر وخمسة وعشرين يوما وفى أيام مرقس هذا انتقل مرقس بن قنبر وجماعة من القنابرة إلى رأى الملكية وبالغوا فى نصرة الملكيين أياما كثيرة فاستعظم المتأصلون هذا الأمر وكثر بين الفريقين الأخذ والرد إلى أن عاد القنابرة إلى المتأصلين فقبلوا فلم يلبثوا إلا القليل حتى ارتدوا إلى الملكية ثم رجعوا فلم يقبلوا وكان مرقس البطرك المذكور ذا همة ومروءة عاقلا رزينا حازما يحسن السياسة والتدبير وكان جليلا مهيبا مقبول الكلمة واحترقت فى أيامه كنيسة أبو مرقوره وخلا بعد موته الكرسى سبعة وعشرين يوما ثم أقيم يوحنا بن أبى غالب وهو رابع سبعيهم من أهالى مصر وكمل بالاسكندرية وكان من طائفة التجار يتردد إلى اليمن فى البحر حتى كثر ماله وكان معه مال لأولاد الخباب فاتفق أنه غرق فى البحر الأحمر وذهب جميع ماله ونجا بنفسه إلى القاهرة وقد أيس أولاد الخباب من مالهم فلما بلغهم خبر حضوره قابلوه فأعلمهم أن مالهم قد سلم لأنه كان قد حمله

فى نقائر خشب مسمرة فى المركب فصار لهم به من هذ الحين عناية كبرى فلما مات مرقس البطرك سعى يوحنا المذكور للقس أبى باسر ليوليه بطركا قيل فقال له أولاد الحباب خذ أنت البطركية ونحن نزكيك فوافقهم يوحنا على ذلك فسعوا له وأقاموه بطركا فشق الأمر على أبى باسر وهجره بعد صحبة طويلة وكان معه لما استقر فى البطركية سبعة عشر ألف دينار مصرية أنفقها على الفقراء وأبطل الديارية ومنع الشرطونية ولم يأكل لأحد خبزا ولم يقبل من أحد هدية حتى مات رحمه الله تعالى.

ولما مات الخليفة الحاكم بأمر الله قام بالخلافة بعده ولده أبو الربيع سليمان ولقب بالمستكفى بالله وكان أبوه قد عهد إليه بالأمر قبل وفاته فبويع بغير خلاف ولا جدال.

(الفصل الثالث)

(فى خلافة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله)

ثم قام بالأمر بعد الحاكم بأمر الله ولده المستكفى بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله بويع له فى العشرة الأواخر من جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة هجرية أى سنة إحدى وثلثمائة وألف ميلادية وخطب له على المنابر بالديار المصرية والشامية وسارت البشائر بذلك إلى جميع الأقطار والممالك الإسلامية. قال ابن كثير: قدم البريد من القاهرة سادس عشر جمادى الآخرة فأخبر بوفاة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ومبايعة المستكفى وأنه حضر جنازته الناس كلهم مشاة فخطب يوم الجمعة تاسع جمادى الآخرة للخليفة المستكفى بجامع دمشق وكتب له تقليد بالخلافة وقرئ بحضرة السلطان والدولة يوم الأحد العشرين من ذى الحجة ولم يكن السلطان أمضى له عهد والده حتى سأل الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد وهو قاضى القضاة يومئذ هل يصلح للخلافة أم لا فقال الشيخ تقى الدين نعم يصلح قال وإنما احتيج إلى ذلك لأنه كان صغير السن لم يبلغ عشرين سنة فإن مولده كان فى أربع وثلاثين وستمائة وكان له ابن أخ أسن نه فكان ينازعه الأمر فلما أشار الشيخ باستخلافه أمضى عهد والده فكان العهد هكذا:

الحمد لله الذى رفع المستكفى به لما انتصب بشريف همته للمعل الأسمى، ومنح الأمة به بربيع خفض العيش وحزم أمرهم على الصلاح والتوفيق حزما، وآدام الأئمة من قريش ونظم لآلئ حكم أحكامهم فى جيد الزمان نظما، وجعل الناس تبعا لهم فى هذا الأمر فغيرهم بالخلافة العظمى لايدعى ولا يسمى، فالحاكم الحسين المسترشد المستظهر بذخيرة الدين القائم بأمره الله القادر المقتدر الموفق المتوكل المعتصم الرشيد المهدى الكامل من اقتفى لسنن سنتهم رسما، استودع الخلافة فى بنى العباس الذى كان لنبيه الكريم عما وفرج عنه ليلة العقبة بمبايعة الأنصار كربا وغما، فبشره بأن الخلافة فى عقبة فعمه بالسرور عما، فلما انتهى ذلك السر فى العوالم إلى الحاكم قيل وقد نكبت هيئة الخلافة عن معرفته حقوقها العظيم من كل عظيم ففهمناها سليمان وكلا أتينا حكما وعلما أحمده حمد من لم يثن عن طاعته وطاعة رسوله وأولى الأمر عزما، والله يؤتيها من يشاء من خلقه اختيارا ورغما، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى دعا إلى مودة أولى القربى وهم أفضل قرابة زكاة وأقرب رحماً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وخلفائه وعترته الذين هم أعدل البرية حكما وبعد فإن الملك السلام منذ أسجد لآدم وملائكته الكرام فى سالف الأزمان قدما جعل طاعة خلفائه فى بلاده على سائر عبادة حقا كيف لا وبهم يعمر الوجود وتقام الحدود وتهدم أركان الجور هدما، فبحياتهم تأمن البلاد وربما تصادف قرب وفاتهم أن لبس القمر ليلة التم حلة السواد وأخفى جرما، ولما كان سنة من تقدم من الأئمة الخلفاء إذا خاف أن يهجم عليه الحمام هجما ولا تهدى إليه الأيام ألما وسقما تفويض الأمر بولاية العهد إلى الخلق لخير ذريته وبنيه نجدة وحزما أشهد على نفسه الشريفة مولانا الإمام الحاكم الحاكم عليه تقواه ، المراقب لله فى سره ونجواه، الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين ابن عم سيد المرسلين وارث الخلفاء الراشدين أبو العباس أحمد ابن الأمير الحسن ابن أمير المؤمنين المسترشد بالله أبى منصور الفضل ابن أمير المؤمين المستظهر بالله أبى العباس أحمد ابن أمير المؤمنين أبى القاسم عبدالله ابن المرحوم الذخيرة للدين ولى عهد المسلمين محمد ابن الإمام القائم بأمر الله أبى عبدالله محمد ابن القادر بالله أبى العباس أحمد ابن أمير المؤمنين أبى الفضل جعفر المقتدر بالله ابن أمير المؤمنين المعتضد بالله أبى العباس ابن الأمير محمد الموفق بالله أبى طلحة ولى عهد المسلمين ابن أمير المؤمنين جعفر المتوكل ابن أمير المؤمنين أبى إسحق محمد المعتصم ابن هارون الرشيد ابن أمير المؤمنين محمد ابن أمير المؤمنين عبدالله حبر الأمة ابن عباس بن عبدالمطلب عم النبى ﷺ أعز الله به الدين، وأمتع

ببقاء نسله الشريف الإسلام المسلمين وهو فى حالة يسوغ معها الإشهاد عليه، ويرجع فى الأمور المنوطة للخلافة الشريفة إليه أنه عهد إلى ولده لصلبه الإمام المستكفى بالله أبى الربيع سليمان شيد الله به أركان الإيمان، ونصر ببركة سلفه العصابة المحمدية على أهل الكفر والطغيان وجعله ولى عهد واستخلفه من بعده لما يعلمه من أهليته، وعدالته وكفالته وصلاحه لذلك وكفايته، وأشخصه لشهود هذا المكتوب الشريف، ونبه على استحقاقه لذلك ومحله العالى المنيف، عهدا صحيحا شرعيا، معتبرا تاما مرعيا، وفوض إليه أمر الخلافة العظيمة تفويضا شرعيا صريحا وعقد له عقد ولاية العهد على الأمة عقدا صحيحا، وقبل ذلك منه القبول الشرعى المعتبر المرضى فالله تعالى يجمع به كلمة الإسلام ويصحبه فى خلافته الشريفة رأيا موفقا ويقمع ببركة سلفه الكرام أهل الطغيان، ويهيئ له من أمره مرفقا بمنه وكرمه آمين والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيد المرسلين، نبيه وآله وصحبه أجمعين، وبه شهد فى اليوم المبارك التاسع عشر من جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة أحسن الله العقبى فى ختامها، وأجرى الخيرات فيما بقى من شهورها وأيامها أهـ.

ولما بايعه السلطان والقضاة والأعيان ألبس جبة سوداء وطرحة سوداء وخلع السلطان على أولاد أخيه خلع الأمراء وأشهد عليه أنه ولى الملك الناصر جميع ماولاه والده وفوض إليه جميع الأمور ثم نزل فى داره بالكبش ونقش اسمه على سكة الدينار والدرهم ثم رسم السلطان بعد ذلك أن ينتقل هو وأولاده وجميع من يلوذ به إلى قلعة الجبل إكراما لهم وتعظيما فانتقلوا فى جمادى الآخرة ونزلوا فى دارين منها وأجرى عليهم الرواتب الكثيرة واستمر هو والسلطان دهرا كالأخوين يلعبان بالأكرة ويخرجان إلى المتنزهات ويسافران معا إلى غزو التتار حتى وشى الواشى بينهما وكان من أمرهما ما سيذكر فى محله إن شاء الله .

ولما دخلت سنة اثنتين وسبعمائة نزل بديار مصر نازلة لم يسبق لها مثيل فقد زلزلت الأرض زلزالا عظيما فانشقت الصخور وهدم كثير من المبانى والدور بمصر والقاهرة والأسكندرية وغيرها ومات خلق كثير تحت الردم ودمرت من أسوار مدينة الاسكندرية ستا وأربعين بدنة وكانت القتلى تئن وتستغيث تحت الردم والناس فى دهشة لا يلتفتون إليهم بل كل مشغول بنفسه. قال كتاب الأخبار: فكانت ساعة يالها من ساعة تشيب من هولها الولدان وبقيت الخرائب دهرا فكانوا إذا أرادوا حمل ما انهال من ترابها ظهرت جثث النساء والرجال والأطفال على هيئات مختلفة تنفطر

من رؤيتهـا القلوب واستـمروا على هذا أيامـا كثـيرة وعم الخوف الـناس وأخذ من قلوبهم وتطيروا من سـلطنة الملك الناصر محـمد بن قلاوون فانـحرفت قلوبهم عنه وتطاولت أيدى بعض الأمـراء إلى العـبث بأمور المملكة وظـهر سـلار نائب المملكة وبيبـرس الجاشنكير أسـتاذ الدار واستبدا بالأمـر وتجاوزا الحد فى الانفـراد بالأموال والأمر والنهى ولم يتركا للسلطان غير الاسم وحصراه فى قلعة الجبل أيامـا كثيرة حتى قبل جميع ما طلباه صاغرا وكان كلما هم بالخلاص صادفه من الشدة ما يقعده وطال عليه الحال فلما كان شهر رمضان سنة ثمان وسبعمائة أظهر الرغبة فى الخروج إلى الحج وأخذ فى التأهب والاسـتعداد وخرج فى الخامس والعشـرين منه فسار فى خدمـته جماعـة من الأمراء هم عز الدين أيدمر الخطيـرى والأمير حسـام الدين قرا لاجين والأمير سيف الدين آل ملك وغيرهم فسار إلى الكرك ووصل إليها فى عاشر شوال وكان النائب بها جمال الدين أقـوش الأشرفى فعمل الولائم واحتفل بالسلطان احتفالا عظيما فعبـر السلطان إلى المدينة ثم إلى القلعة. قال بعض الكتاب: ولما عبر على الجسـر إلى القلعة والأمراء تمشى بين يديه والممـاليك حوله وخلفه سقط جـسر القلعة وقد أصيبت يد فرس السلطان وهو راكب داخل عتبة الباب فلما أحس الفرس بسقوط الجسر أسرع حـتى كاد أن يدوس الأمراء الماشين بين يديه وسقط فى الخندق من الممـاليك وأهل الكرك عـدد كـثيـر ونزل فى الوقت السلطان عنـد الباب وأمـر فأحضروا الجنبات والحبال ورفـعوا الذين سقطوا فى الخندق جمعيا، ولما اسـتقـر به المقام أمر من كـان معه من الأمراء بالرجـوع إلى مصر وكاشفـهم على أنه إنما أظهر السفر إلى الأقطار الحجازية وسيلة إلى المقـام بالكرك وعدم العود إلى مصر تخلصا من فعل سلار وبيبرس الجاشنكير فراجعه الأمراء فى ذلك فلم يقبل وأصر على البقاء بالكرك فعاد الأمـراء إلى مصر وأعلموا من بها بالخـبر وتشاوروا فيمـا بينهم واتفقوا على أن يولوا السلطنة بيبرس الجـاشنكير وأن يكون سلار مستـمرا على نيابة المملكة كما كان عليها وحلفوا جميعا على ذلك .

فلما كان يوم السبت الثالث والعشرين من شوال سنة ثمان وسبعمائة خرج بيبرس من داره راكبـا فى شعار السلطنة وحـوله الأمراء والممـاليك على اختلاف طبـقاتهم وأمامـه الجنائب السلطانية وسار إلى الديوان الكبـير بقلعة الجـبل وجلس على سرير الملك ولقب بالملك المظفر ركن الدين بيبرس المنصورى وطير الخبر إلى نواب السلطنة بالشام فحلفوا له وكتب تقليـدا إلى السلطان بالكرك ودستورا بما عينه له من الأقطاع وأرسلهما إليه. قال كتاب الأخبار: واستقر الحال على ذلك بلا منازع حتى خرجت

هذه السنة فكانت مملكة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية نحو العشرين سنة، ولما استقر بيبرس المنصب استبدّ بالأمر وأساء التدبير وأظهر الشدة والجفاء للكثير من الأمراء فانحرفت خواطرهم وابتعدوا عنه وظهرت بينهم دلائل الوحشة والنفور ونزح عن مصر منهم جمال الدين أقوش الموصلى المعروف بقتال السبعة وهو من مماليك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وكذلك لاجين الجاشنكير المعروف بالزبرتاج ومعهما زهاء ألفى فارس من عسكر مصر وبعض من عسكر حماة قاصدين حلب فدخلوها وكان نائب السلطنة فيها يومئذ قرا سنقر المنصورى واتفق أن حضر أيضا جماعة من عسكر دمشق مع الحاج بهادر الظاهرى فسر قرا سنقر بقدومهم وعمدا إلى تمهيد السبل لإرجاع السلطان الملك الناصرمحمد بن قلاوون إلى كرسى السلطنة فجعل يستميل الناس إلى طاعة السلطان ويستنجدهم لنصرته وخرج أيضا جماعة من المماليك على حمية وغيظ مفارقين طاعة بيبرس المذكور وساروا إلى السلطان بالكرك وأعلموه بما عليه الناس من طاعته ومحبته وبغضهم لبيبرس فتقوّت عند ذلك آمال السلطان وأعاد خطبته بالكرك ووردت إليه مكاتبات عسكر دمشق يستدعونه وأنهم باقون على طاعته وكذلك وردت إليه المكاتبات من حلب فسار بمن معه من الكرك فى جمادى الآخرة إلى قرية عمان وهى قريب من رأس الماء ونزل بها فجاءه أحد مماليك قرا سنقر نائب السلطنة بحماة برسالة مكذوبة على قرا سنقر إلى السلطان بعدم تعويله على ما وردت به كتب أولئك الطائعين وسرعة رجوعه إلى الكرك فصدق السلطان هذا الخبر وظنه حقا وعاد مسرعا إلى الكرك فيمن معه من العساكر واستمرت العساكر مع ذلك على طاعته واستدعائه وانحلت فى هذه الفترة حكومة بيبرس أو كادت وجاهره الناس بالعداوة وأظهروا الخلاف وانعكست الأمور عليه وخرج أغلب الجند عن الطاعة فرحل من كان بحماة من الجند والعساكر بغير دستور ولا مرسوم ولم يبق بحماة إلا بعض العسكر المصرى، ولما تحقق الملك الناصر صدق طاعة العسكر له وخروجهم عن طاعة بيبرس وبقاء العسكر الشامى جميعه على الإخلاص والولاء عاود المسير إلى دمشق وخرج من الكرك وخرجت عساكر دمشق إلى لقائه وكان نائب السلطنة بدمشق أقوش الأفرم وهو من الطائعين فلما لم يقدر على منع العسكر من الخروج هرب من دمشق فدخلها السلطان فى يوم الثلاثاء عشر شعبان من السنة وهيئت له قلعة دمشق فلم ينزل بها ونزل بالقصر الأبلق فأرسل الأفرم إليه يطلب الأمان فأمنه فقدم إلى طاعته وتتابع وصول العسكر لنجدة السلطان من حماة والساحل ووردت عساكر الشام جميعا فلما تكاملوا رسم لهم السلطان بالتأهب للمسير إلى ديار مصر وأرسل إلى الكرك فأحضر ما كان بها من

الحواصل وأنفق فى العسكر ثم سار بهم من دمشق فى يوم الثلاثاء تاسع رمضان سنة ثمان وسبعمائة، فلما بلغ بيبرس الجاشنكير ونائبه بمصر ما فعله السلطان خافا جدا وجرد بيبرس عسكرا عظيما مع الأمير برلغى وغيره من المقدمين فساروا إلى الصالحية وأقاموا بها [illegible]ن برلغى المذكور من أكبر أصحاب الجاشنكير وأعزهم إليه وسار السلطان بجيشه حتى وصل غزة فى يوم الجمعة تاسع عشرى رمضان فلم يشعر عسكر مصر بوصول السلطان إلى غزة حتى أخذوا يتقدمون له بالطاعة فريقا بعد فريق وكان ممن قدم له الطاعة أيضا برلغى قائد الجيوش وغيره من المقدمين وكثير من العساكر ثم تتابعت الطلاب وكان السلطان يلقى فى كل يوم وهو سائر طلبا بعد طلب من الأمراء والمماليك والأجناد يقبلون الأرض ويسيرون بين يديه قاصدين الديار المصرية ووردت الأخبار بذلك إلى بيبرس فأسرع فى خلع نفسه وسير ركن الدين بيبرس الدوادار ومعه بها درآص إلى السلطان فى طلب الأمان وأن يتصدق عليه ويعطيه إما الكرك وإما حماة أو صهيون وأن يكون معه ثلثمائة مملوك من مماليكه فأجابه السلطان إلى مائة منهم وأن يعطيه صهيون وأسرع مع ذلك فى المسير إلى مصر فهرب الجاشنكير من قلعة الجبل إلى الصعيد وخرج سلار إلى طاعة السلطان والتقاه يوم الاثنين الثامن والعشرين من رمضان قاطع بركة الحاج وتقدم نحوه ثم ضرب للسلطان الدهليز بالبركة فلم ينزل به ورحل فى نهاره ومعه العسكران الشامى والمصرى فوصل إلى قلعة الجبل من يومه وصعد إليها وجلس على سرير الملك بعد العصر فى نهار الأربعاء مستهل شوال سنة تسع وسبعمائة فكانت هذه أيضا سلطنته الثالثة.

وفى يوم الجمعة ثالث شوال وهو اليوم الثالث من دخول السلطان القاهرة سار سلار من قلعة الجبل إلى الشوبك بحكم من السلطان حيث أنعم بها عليه وأعطى سيف الدين قبجق حلبا واسترجع منه حماة فقام إليها وقام معه عسكر حماة ورسم للأمير أقوش الأفرم بصرخد فسار إليها وقرّر نيابة السلطنة بالشام لشمس الدين قرا سنقر وقرر حماة للحاج بهادر الظاهرى ثم استرجعها منه وقرره على نيابة السلطنة بالحصون والفتوحات بعد عزل استدمر عنها وقرر الأمير سيف الدين بكتمر الجوكاندار فى نيابة السلطنة بمصر ورتب جميع الأمور على ما أراد ودانت له الأحوال فجعل يتصرف فيها، أما بيبرس الجاشنكير فإنه لما هرب إلى الصعيد وكان قد أخذ معه شيئا كثيرا من الأحمال والأموال أرسل السلطان فاسترجع منه ما أخذ وضيق عليه فقصد المسير إلى صهيون حسبما كان طلب فسار من أطفيح إلى

السويس ومنها إلى الصالحية ثم سار منها إلى أن وصل إلى موضع بأطراف غزة يسمى العنصر قرب الداروم وكان قرا سنقر متوجها إلى دمشق نائبا بها على ما استقر عليه الحال فوصل إليه مرسوم السلطان بالقبض على بيبرس المذكور فركب قرا سنقر فى الحال وكبس عليه بالمكان المذكور وقبض عليه وسار به إلى مصر حتى وصل إلى الخطارة فبعث إليه السلطان باستدمر الكرجى وتسلم منه بيبرس وأخذه إلى قلعة الجبل واعتقله فيها وذلك فى يوم الخميس رابع عشر ذى القعدة سنة تسع وسبعمائة فكان آخر العهد به وكانت مدة سلطنته أحد عشر شهرا لا غير. قال كتاب الأخبار: وبيبرس هذا هو الذى بنى البيبرسية بالدرب الأصفر ودفن بها وجدّد جامع الحاكم بعد الزلزلة التى سبق الكلام عنها فى حينها، وانتظمت للملك الناصر الأمور واستقرت له الأحوال فتصرف واستبد بالأمر وأنشأ العمارات العظيمة فى سنة عشرين وسبعمائة منها الميدان المعروف بميدان الهاوى المجاور لقناطر السباع وعمد إلى بناء زريبة فى التل الأعظم بجوار الجامع الطيبرسى فرسم بنقل كوم تراب كان هناك وحفر ما تحته من الطين لأجل بناء الزريبة وأجرى الماء إلى مكان الحفر فصار يعرف بالبركة الناصرية وكان الشروع فى حفر البركة المذكورة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة قال أصحاب التاريخ: فلما انتهى الحفر إلى جانب كنيسة الزهرى (كانت هناك كنيسة تسمى كنيسة الزهرى بقرب من قناطر السباع فى بر الخليج الغربى بباب اللوق وكان بها كثير من النصارى لا يزالون فيها وبجانبها عدّة كنائس فى الموضع الذى يعرف بحكر اتبغا ما بين السبع سقايات وبين قنطرة السد خارج مدينة الفسطاط) أخذ الفعلة فى الحفر حول كنيسة الزهرى حيث بقيت قائمة فى وسط الموضع الذى عينه السلطان للحفر وزاد الحفر حتى تعلقت الكنيسة ومع ذلك لم تسقط وصار العامة من غلمان الأمراء العاملين فى الحفر وغيرهم فى كل وقت يصرخون فى طلب هدمها إلى أن كان يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر وقت اشتغال الناس بصلاة الجمعة وترك أعمال الحفر فتجمع عدّة من غوغاء العامة بغير مرسوم من السلطان وصاحوا بصوت مرتفع الله أكبر ووضعوا أيديهم بالمساحى ونحوها فى الكنيسة المذكورة وهدموها حيث بقيت كوما وقتلوا من كان فيها من النصارى وأخذوا جميع ما كان بها من أوانى الذهب والفضة والحلى وغيره من الأشياء الثمينة، ثم تطاولت أيديهم إلى الكنائس الأخرى فهدموا كنيسة بومينا التى كانت بالحمراء وكانت معظمة جدا من قديم الزمان وبها كثير من المسيحيين قد انقطعوا فيها وكان يحمل إليهم بها من مصر سائر ما يحتاج إليه ويبعث إليها بالنذور الجليلة والصدقات الكثيرة

فوجد فيها مـال كثير من نقود ومصوغات وتسلق العامة إلى أعـلاها وفتحوا أبوابها وأخذوا منها مالا وقماشا وغيره فكان أمرا مهولا للغاية ثم مضوا من كنيسة الحمراء بعد ما هدمـوها إلى كنيستين أخريين بجـوار السبع سقايات تعرف إحداهمـا بكنيسة البنات وكـان بها كـثير من الـراهبات المتعـبدات وعـدةً من الرهبان فكـسروا أبواب الكنيستين وسبوا البنات سبيا وكن زيادة عـن ستين بنتا وأخذوا ما عليهن من الثياب ونهبوا سـائر ماظفروا به وأحـرقوا وهدموا تلك الكنائس كلها. قـال: المقريزى هذا والناس فى صلاة الجمعة فعندما خرج الناس من الجوامع شاهدوا هولا كبيرا من كثرة الغبار ودخان الحريق وهرج الناس وشدّة حركتهـم ومعهم ما نهبوه من الأمتعة فكان ذلك اليوم أشبه بيوم الـقيامة وانتشر الخبر وطار إلى الرميلة تحت قـلعة الجبل فسمع السلطان ضجة عظيمة أفزعته فبـعث ليكشف الخبر فلما بلغه ما وقع انزعج انزعاجا عظيما وغضب من تجرى العامة وإقدامـهم على ذلك بغير أمره وأمر الأمير أيدغمش أميـراخور أن يركب بجمـاعة الأوشاقيـة ويتدارك هذا الخلل ويقـبض على من فعله فأخـذ أيدغمش يتهيـأ للركوب وإذا بخبـر وقد ورد من القاهرة أن العـامة ثارت فى القاهرة وخربت كنيسـة بحارة الروم وكنيسة بحارة زويلة وجاء الخبـر من مدينة مصر أيضا بأن العامة قامـت بمصر فى جمع كثير جدا و زحفت إلى كنيسـة المعلقة بقصر الشمع فقـفلها الموكلون بها وهم مـحصورون بها وهى على وشك أن تؤخـذ فتزايد غضب السلطان وهم أن يركب بنفسه ويبطش بالعامة فراجـعه الأمير أيدغمش فتأخر ونزل من القلعـة فى أربعة من الأمـراء إلى مصـر وركب الأميـر بيبـرس الحاجب والأمير ألماس الحاجب إلى موضع الحفر وركب الأمير طينال إلى القاهرة وكل منهم فى عدّة وافرة، وقد أمر السلطان بقتل كل من قـدروا عليه من العامة بحيث لا يبقوا على أحد فقامت القاهرة ومصـر على ساق وفرّت النهابة فلم يظفر الأمراء منهم إلا بمن عجز عن الحركة بما غلبه من السكر بالخمر الذى نهبوه من الكنائس ولحق الأمير أيدغمش بمصر وقـد ركب الوالى إلى المعلقة قبل وصول أيدغمش ليـخرج من زقاق المعلقـة من حضر للنهـب فأخذه الرجم حـتى فر منهم ولم يبـق إلا أن يحرق باب الكنيسـة فجرد أيدغمش ومن مـعه السيوف يريدون الفـتك بالعامة فوجـدوا عالما لا يحصر وخاف سوء العـاقبة فأمسك عن القتل وأمر أصحـابه بإرجاف الناس من غير إهراق دم ونادى مناديه: من وقف حل دمه ففر سائر من اجـتمع من العامة وتفرقوا وصار أيدغمش واقفا إلى أن أذن العصر خـوفا من عود العامة ثم مضى وألزم والى مصر أن يبيت بأعوانه هنالك وترك معه خمسين من الأوشاقية. أما الأمير ألماس فإنه

وصل إلى كنائس الحمراء وكنائس الزهرى ليتداركها فـإذا بها صارت كيمانا ليس بها جدار قـائم فعاد وعـاد الأمراء فردوا الخبـر على السلطان وهو لا يزداد الاحنقا فـما زالوا به حـتى سكن غـضبـه قـال الرواى: وكـان الأمر فى هـدم هذه الكنائـس من أعجب العجب وهو أن الناس لما كـانوا فى صلاة الجمعة من هذا اليـوم بجامع قلعة الجبل فعندمـا فرغوا من الصلاة قام رجل موله وهو يصيح فى وسط الجامع اهدموا الكنيسة التى فى القلعـة اهدموها وأكثر من الصياح المزعج حـتى خرج عن الحد ثم اضطرب فـتعـجب السلطان والأمـراء من قـوله ورسم لنقيب الجـيوش والحـاجب بالفحص عن ذلك فمـضيا من الجامع إلى خرائب التـتار من القلعة فإذا فيهـا كنيسة بنيت. فهدموها قـال: ولم يفرغوا من هدمها حتى وصل الخبر بوقـعة كنائس الحمراء والقاهرة فكثر تعجب السلطان من شأن ذلك الفـقير وطلبه فلم يوقف له على خبر. أهـ

و لما شاع خبر الكنيسة التى كانت بخرائب التتار بقلعة الجبل وماجرى عليها بأمر السلطان ثار العـامة وهدمـوا كنائس الزهرى وكنائس الحـمـراء وغيـرها من كنائس القاهرة وحرقوا وقتلوا وسبوا ونهـبوا وفعلوا من الفظائع ما لا يقع تحت حصر وكان الذى هدم فى ذلك اليوم من الكنائس بالقاهرة كنيسة بحارة الروم وكنيسة بالبندقانيين وكنيسـتين بحـارة زويلة ثم جاءت الأخـبار أيضا مـن مدينة الأسكندرية بأن العـامة هدمت بها أربع كنائس وكنيستين بمدينة دمنهور وست كنائس بمدينة قوص وما حولها من العمائر وتواترت الأخبار من الأقاليم القـبلية والبحرية بكثرة ما هدم من الكنائس والديارات فى جميع أعمال مصر مـا بين قوص والاسكندرية ودمياط وغيرها فكانت شدة عظيمة للغاية .

ولم تكن لتسكن خـواطر الناس حتى ظهر الحـريق فى القاهرة ومصـر فى عدة مواضع فوقع الحريق فى ربع بخط الشوّائين من القاهرة فى يوم السبت عاشر جمادى الأولى وسرت النار إلى ما حوله واستمرت إلى آخر يوم الأحد فتلف فى هذا الحريق شيء كثير وعند ما أطفئ وقع الحريق بحارة الديلم فى زقاق العريسة بالقرب من دار كريم الدين ناظر الخـاص فى خامس عشـر جمادى الأولى وكان يومـاً شديد الريح فسـرت النار من كل ناحيـة حتى وصلت إلى بيت كـريم الدين وبلغ ذلك السلطان فانزعج لما كـان هنالك من الحواصل السلطانيـة وسير طـائفة من الأمراء لإطفـائها فجـمعـوا الناس لذلك وتكاثروا عليـها وقد عظم الخطـب من ليلة الاثنين إلى ليلة الثلاثاء فـتزايد اشتعـال النار وعجز الأمراء والنـاس عن إطفائها لكثرة انـتشارها فى

الأماكن وقوة الريح التى قلعت باسقات النخل وغرقت المراكب فلم يشك الناس فى حريق القاهرة كلها وصعدوا المآذن وبرز الفقـراء وأهل الخير وضجوا وعجوا وجأروا وكثر صـراخ الناس وبكاؤهم وصعد السلطان إلى أعلى القصر فلم يتـمالك الوقوف من شدّة الريح واستمر الحريق والحث يرد على المكلفـين بالإطفاء من السلطان إلى يوم الثلاثاء فنزل نـائب السلطان ومعه جـميع الأمراء وسـائر السقائين ونزل الأمـير بكتمرَ الساقى فكان يوما عظيما لم ير الناس أعظم ولا أشد هولا منه ووكلوا بأبواب القاهرة من يردّ السـقائين إذا خرجوا من القاهرة لأجل إطفـاء النار فلم يبق أحد من سقائى الأمراء وسقائى البلد إلا وعـمل وصاروا ينقلون الماء من المدارس والحمامات وأخذ جميع النجارين وسائر البنائين لهدم الدور فهدم فى هذه النوبة ما شاء الله من الدور العظيـمة والرباع الكبـيرة وعمل فى هذا الحـريق أربعة وعـشرون مـأمورا من الأمراء المـقدمـين سوى أمـراء الطبلخانات والعـشروات والممـاليك وعمـل الأمراء بأنفسـهم فيه وصار الماء من باب زويلة إلـى حارة الديلم فى الشارع بحرا من كـثرة الرجال و الجـمال التى تحمل الماء ووقف بكتـمر الساقى والأميـر أرغون النائب على نقل الحواصل السلطانية من بيت كريم الدين إلى بيت ولده بدرب الرصاصى وخربوا ستـة عشر دارا من جوار الدار ومـا قابلها حـتى تمكنوا من نقل الحواصل فمـا كمل أطفـاء الحريق ونقل الحـواصل حتى وقع الحـريق فى ربع الظاهر خـارج باب زويلة وكان يشتمل على مائة وعشرين بيتا وتحتـه قيسارية تعرف بقيسارية الفقراء وهبت مع الحريق ريح قوية فركب الحاجب والوالى لإطفـائها وهدموا عدة دور من حول الربع حتى انطفأت ووقع فى ثانى يوم حريق بدار الأميـر سلار فى خط بين القصرين ابتدأ من الباذهنج وكان ارتفاعه عن الأرض مائة ذراع فوقع الاجتهاد فيه حتى أطفئ فأمر السلطان الأمـير علم الدين سنجـر الخازن والى القـاهرة والأميـر ركن الدن بيـبرس الحاجب بالاحتراز واليقظة ونودى بأن يعمل عند كل حانوت دن فيه ماء أو زير مملوء بالماء وأن يقـام مثل ذلـك فى جميع الحارات والأزقـة والدروب فـبلغ ثمن كل دن خمـسة دراهم بعد ردرهم وثمن الزير ثمـانية دراهم ووقع حريق أيضـا بحارة الروم وعدة مـواضع حتى وجـدوا هذا الحريق من نفط قـد لف عليـه خرق مبـتلة بزيت وقطران . قال راوى هذا الخـبر : فلما كانت ليلة الجـمعة النصف من جمـادى قبض على راهبين خرجا مـن المدرسة الهكارية بعد العشاء الأخيرة وقـد اشتعلت النار فى المدرسة ورائحـة الكبريت فى أيديـهما فـحمـلا إلى الأمير علم الـدين الخازن والى القاهرة فـأعلم السلطان بذلك فأمر بعـقوبتهـما قال وبينمـا هو نازل من القلعة وإذا

بالعامة قد أسكوا نصرانيا وجد فى جامع الظاهر ومعه خرق فى هيئة الكعك فى داخلها قطران ونفط وقد ألقى منها واحدة بجانب المنبر وما زال واقفا إلى أن خرج الدخان ومشى يريد الخروج من الجامع وكان قد فطن به شخص وتأمله من حيث لا يشعر وقبض عليه فتكاثر الناس فجروه إلى بيت الوالى وهو بهيئة المسلمين فعوقب عند الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب فاعترف بأن جماعة من النصارى قد اجتمعوا على عمل نفط وتفريقه مع جماعة من أتباعهم وأنه ممن أعطى ذلك وأمر بوضعه عند منبر جامع الظاهر ثم أمر بالراهبين فعوقبا فاعترفا أنهما من سكان دير البغل وأنهما اللذان أحرقا المواضع التى تقدّم ذكرها بالقاهرة غيرة وحنقا من المسلمين لما كان من هدمهم الكنائس وأن طائفة النصارى تجمعوا وأخرجوا من بينهم مالا جزيلا لعمل هذا النفط واتفق وصول كريم الدين ناظر الخاص من الأسكندرية فعرفه السلطان ما وقع من القبض على النصارى فقال النصارى لهم بطرك يرجعون إليه ويعرف أحوالهم فرسم السلطان بطلب البطرك عند كريم الدين ليتحدث معه فى أمر الحريق وما ذكره النصارى من قيامهم فى ذلك فجاء مع والى القاهرة فلما أن دخل بيت كريم الدين بحارة الديلم وأحضروا إليه الثلاثة النصارى من عند الوالى قالوا لكريم الدين بحضرة البطرك والوالى جميع ما اعترفوا به قبل ذلك فبكى البطرك كثيرا عند سماعه هذا الكلام وقال هؤلاء سفهاء النصارى قصدوا مقابلة سفهاء المسلمين على تخريب الكنائس وانصرف من عند كريم الدين مبجلا مكرما فوجد كريم الدين قد أقام له بغلة على بابه ليركبها فركبها وسار وأصبح كريم الدين يريد الركوب إلى القلعة على العادة فلما خرج إلى الشارع صاح به العامة ما يحل لك يا قاضى تحامى للنصارى وقد أحرقوا بيوت المسلمين وتركبهم بعد هذا البغال فشق عليه ما سمع وعظمت نكايته واجتمع بالسلطان فأخذ يهوّن عليه أمر النصارى المسوكين ويذكر أنهم سفهاء وجهال فرسم السلطان للوالى بتشديد عقوبتهم فنزل وعاقبهم عقوبة شديدة للغاية قال الراوى: فاعترفوا بأن أربعة عشر راهبا بدير البغل قد تحالفوا على إحراق ديار المسلمين كلها وفيهم راهب يصنع النفط وأنهم اقتسموا القاهرة ومصر فجعلوا للقاهرة ثمانمائة ولمصر ستمائة فكبس دير البغل وقبض على مرتكبيه وأحرق منهم جماعة منهم أربعة بشارع صليبة ابن طولون فى يوم الجمعة فاجتمع لمشاهدتهم عالم كثير فاجترأ من ذلك اليوم جمهور الناس على النصارى وفتكوا بهم وصاروا يسلبون ما عليهم من الثياب حتى فحش الأمر وتجاوزوا فيهم المقدار فغضب السلطان من ذلك وهم أن يوقع بالعامة واتفق أنه ركب من القلعة

يريد الميدان الكبير فى يوم السبت فرأى من الناس أمما عظيمة قد ملأت الطرقات وهم يضجون نصر الله الإسلام انصر دين محمد بن عبدالله فجزع من ذلك وعند ما نزل الميدان أحضر إليه الخازن نصرانيين قد قبض عليهما وهما يحرقان الدور فأمر بإحراقهما فأخرجا وأحرقا بمرأى من الناس وبينما هم فى إحراق النصرانيين إذا بديوانى الأمير بكتمر الساقى قد مر يريد بيت الأمير وكان نصرانيا فعندما عاينه العامة ألقوه عن دابته إلى الأرض وجردوه من جميع ما عليه من الثياب وحملوه ليلقوه فى النار ثم تركوه واتفق مع هذا مرور كريم الدين وقد لبس التشريف من الميدان فرجمه من هناك رجما متتابعا وصاحوا كم تحامى للنصارى وتشدّ معهم ولعنوه وسبوه فلم يجد بدا من العودة إلى السلطان وهو بالميدان وقد اشتد ضجيج العامة وصياحهم حتى سمعهم السلطان فلما دخل عليه وأعلمه الخبر امتلأ غضبا واستشار الأمراء وكان بحضرته منهم الأمير جمال الدين نائب الكرك والأمير سيف الدين الأبوبكرى والخطيرى وبكتمر الحاجب فى عدة أخرى فقال الأبوبكرى العامة عمى والمصلحة أن يخرج إليهم الحاجب ويسألهم عن اختيارهم حتى يعلم فكره السلطان منه ذلك وأعرض عنه فقال نائب الكرك كل هذا من أجل الكتاب النصارى فإن الناس أبغضوهم والرأى أن السلطان لا يعمل فى العامة شيئا وإنما يعزل النصارى من الديوان فلم يعجبه هذا الرأى أيضا والتفت إلى الأمير ألماس الحاجب وقال له: امض ومعك أربعة من الأمراء وضع السيف من باب زويلة إلى باب النصر بحيث لا ترفع السيف عن أحد ألبتة وقال لوالى القاهرة اركب إلى باب اللوق وإلى باب البحر ولا تدع أحدا حتى تقبض عليه وتطلع به إلى القلعة ومتى لم تحضر الذين رجموا وكيلى يعنى كريم الدين وإلا وحياة رأسى شنقتك عوضا عنهم وعين معهم عدة من المماليك السلطانية فخرج الأمراء بعد ما تلكئوا فى المسير حتى اشتهر الخبر فلم يجدوا أحدا من الناس حتى ولا غلمان الأمراء ولا حواشيهم ووقع القول بذلك فى القاهرة فقفلت الأسواق وتفرق الناس واختفوا وسار الأمراء فلم يجدوا فى طول طريقهم أحدا إلى أن بلغوا باب النصر وقبض الوالى من باب اللوق وناحية بولاق على كثير من الكلابزية والنوتية وأسقاط الناس فاشتد الخوف وعدّى كثير من الناس إلى البر الغربى بالجيزة وخرج السلطان من الميدان فلم يجد فى طريقه إلى أن صعد قلعة الجبل أحدا من العامة فلما استقر بالقلعة سير إلى الوالى يستعجل حضوره فما غربت الشمس حتى أحضر من أمسك من العامة نحو مائتى رجل فعزل منهم طائفة أمر بشنقهم وجماعة رسم بتوسيطهم وجماعة رسم بقطع أيديهم. فصاحوا جمعياً:

ياخوند ما يحل لك ما نحن الذين رجمنا قبل فبكى الأمير بكتمر الساقى ومن حضر من الأمراء رحمة لهم ومازالوا بالسلطان إلى أن قالو للوالى اعزل منهم جماعة وانصب الخشب من باب زويلة إلى تحت القلعة بسوق الخيل وعلق هؤلاء بأيديهم فلما أصبح يوم الأحد علق الجميع من باب زويلة إلى سوق الخيل وكان فيهم من له بزة وهيئة ولم يفتح أحد من أرباب الحوانيت بالقاهرة ومصر فى هذا اليوم حانوتا، وجلس السلطان فى الشباك وقد أحضر بين يديه جماعة ممن قبض عليهم الوالى فقطع أيدى وأرجل ثلاثة منهم والأمراء لا يقدرون على الكلام معه فى أمرهم لشدة حنقه فتقدم كريم الدين وكشف رأسه وقبل الأرض وهو يسأل العفو فقبل سؤاله وأمر بهم أن يعملوا فى حفير الجيزة فأخرجوا وقد مات من قطع أيديهم اثنان وأنزل المعلقون من على الخشب وعندما قام السلطان من الشباك وقع الصوت بالحريق فى جهة جامع ابن طولون وفى قلعة الجبل وفى بيت الأمير ركن الدين الأحمدى بحارة بهاء الدين وبالفندق خارج باب البحر من المقس وما فوقه من الأربع واستمر الحريق فى الأماكن إلى يوم السبت فلما ركب السلطان إلى الميدان على عادته وجد خلقا كثيرا جدا من العامة قد صبغوا خرقا من القماش بلون أزرق وعملوا فيها صلبانا بيضا وعندما رأوا السلطان صاحوا بصوت عال واحد لادين إلا دين محمد بن عبد الله يا ملك الناصر يا سلطان الإسلام انصرنا على أهل الكفر ولا تنصر النصارى فتعجب السلطان من فعالهم وسار حتى نزل بالميدان وصراخ العامة لا يبطل ولم يستقر به المقام حتى أمر الحاجب أن يخرج وينادى بين يديه من وجد نصرانيا فله ماله ودمه فخرج ونادى بذلك صاحت العامة وصرخت نصرك الله وضجوا بالدعاء وكان النصارى يلبسون العمائم البيض فنودى فى القاهرة من وجد نصرانيا بعمامة بيضاء حل له دمه وماله ومن وجد نصرانيا راكبا حل له دمه وماله وخرج مرسوم بلبس النصارى العمامة الزرقاء وأن لا يركب أحد منهم فرسا ولا بغلا ومن ركب حمارا فليركبه بلا إكفاف عرضا ولايدخل نصرانى إلى الحمام إلا وفى عنقه جرس ولا يتزيا أحد منهم بزى المسلمين ومنع الأمراء من استخدام المسيحيين وأخرجوا من ديوان السلطان وكتب لسائر الأعمال بصرف جميع المباشرين من المسيحيين وكثر إيقاع المسلمين بهم حتى تركوا السعى فى الطرقات ولبث الحال هكذا أياما ثم نودى فى الناس بعد ذلك بالأمان وأنهم يتفرجون على عادتهم عند ركوب السلطان إلى الميدان وذلك أنهم كانوا قد تخوفوا على أنفسهم لكثرة ما أوقعو بالمسيحيين وزادوا فى الخروج عن الحد فاطمأنوا وخرجوا على العادة إلى جهة الميدان ودعوا للسلطان

وصاروا يقـولون نصرك الله يا سلطان الأرض اصطلحنا اصطلحنا فأعجب السلطان منهم ذلك وتبسم من قولهم وقد سكنت الخواطر وعـادت الأمور إلى سابق مجراها وكانت هذه الحواث من أشنع مـا حل بمصر خرب فيها من الكنائس كنيـسة بخرائب التتر بقلعة الجبل وكنيسة الزهرى فى الموضع الذى فيه البركة الناصرية وكنيسة الحمراء بجوار السبع سقايات تعرف بكنيسة البنات وكنيسة أبى مينا وكنيسة الفهادين بالقاهرة وكنيسة بحارة الروم وكنيسة بالبندقانيين وكـنيستان بحارة زويلة وكنيسة بخزانة البنود وكنيسة بالخندق وأربع كنائس بثغر الإسكندرية وكنيستان بمدينة دمنهور الوحش وأربع كنائس بالغـربية وثلاثة بالشـرقية وست بالـبهنساوية وبـاسيوط ومنفلوط ومـينة ابن خصيب ثمان كنائس وبقوص وأسوان إحدى عشرة كنيسة وبالأطفيحية كنيسة وبسوق وردان من مدينة الفسطاط وبالمصـاصة وقصر الشمع من مصـر ثمان كنائس و خرب من الديارات شيء كثير، قال بعض أهل التـاريخ: وأقام دير البغل ودير شهران مدة لا يأوى بهما أحـد واحترق بالقاهرة ربع فـى سوق الشوائين وزقاق العـريسة بحارة الديلم وستة عشـر بيتا بجوار بيت كريم الدين وعدة أماكن بحارة الروم ودار بهادر بجوار المشهـد الحسينى وأماكن بإسطبل الطارمـة وبدرب العسل وقصر أمـير سلاح وقصر سـلار بخط بين القصرين وقـصر بيسرى وخـان الحجر والجملون وقـيسارية الأدم ودار بيبرس بحارة الصالحيـة ودار ابن المغربى بحارة زويلة، وعدة أماكن بخط بئـر الوطاويط وبالحكر وفى قلعة الجـبل وغيـر ذلك بالأماكن بمصـر والقاهـرة قال وكانت هذه الخـطوب العظيمة فى مـدة يسيـرة للغاية فلمـا وقع مثلهـا فى الأزمان المتطاولة هلك فـيها من الخلق وتلف من الأمـوال وخرب من الأمـاكن ما لا يمكن وصفه لكثرته ولله عاقبة الأمور.

وبينمـا كانت هذه الخطوب تتـعاقب والناس فى خـوف ما عليـه من مزيـد كان الواشون وأصـحاب السعاية يوقـعون بين الخليفة المستكفى بالله وبين السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ومازالوا يوغرون الصدور حتى أبغض الناصر الخليفة ومال عليه وأخذ يراقب أموره يتـقد أعماله فاشتدت الوحشـة بينهما وخرجت سنة ثلاثين وسبـعمائة علـى هذا الحال فأمـره السلطان أن ينتقل من القلعـة إلى مناظر الكبش حيث كان أبوه ساكنا ثم أمره أن يخرج إلى بلدة قوص بصعـيد مصر فيقيم بها إلى ما شاء الله فخرج فى ثامن عشر ذى الحجة من سنة سبع وثلاثين هو وأولاده وأهله فكانوا زهاء المائة نفس ورتب لهم مـا كان مرتبـا لهم بمصر من الكسـاوى والمأكول فتوجع الناس لخروجه كثيـرا، قال الحافظ ابن حجر وكان طول مدته يخطب له على

المنابر حتى فى مدة إقامته بقوص واستمر بها إلى أن مات فى شعبان سنة أربعين وسبعمائة ودفن بها، وكان قد عهد بالخلافة قبل موته إلى ابنه أحمد وأشهد عليه أربعين عدلا وأثبت ذلك على يد قاضى مدينة قوص فلما بلغ ذلك الملك الناصر لم يلتفت إلى العهد المذكور وطلب ابن أخى المستكفى إبراهيم ابن ولى العهد المستمسك بالله أبى عبدالله محمد ابن الحاكم بأمر الله أبى العباس وكان جده الحاكم قد عهد إلى ابنه محمد ولقب المستمسك بالله فمات فى حياته فعهد إلى ابنه إبراهيم هذا ظنا منه أنه يصلح للخلافة فرآه غير صالح لما هو فيه من الانهماك فى اللعب ومعاشرة الأرذال فنزل عنه وعهد إلى ولده المستكفى وهو عم إبراهيم وكان إبراهيم المذكور قد نازعه لما مات الحاكم فلم يلتفت إلى منازعته اعمادا على قول الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد كما تقدم بيان ذلك فى محله فأقام على ضغينة حتى كان هو السبب فى الوقيعة بين عمه وبين الملك الناصر وجرى ماجرى من تبعيده إلى مدينة قوص فلم يمض الملك الناصر عهد المستكفى لولده وبايع إبراهيم هذا يوم الاثنين ثالث رمضان كما سيذكر فى محله ولقب الواثق بالله وراجع الناس السلطان فى أمره ووسموه بسوء السيرة خصوصا قاضى القضاة عزالدين بن جماعة فإنه جهد كل الجهد فى صرف السلطان عنه فلم يفعل ومازال بهم حتى بايعوه كرها قال صاحب حسن المحاضرة: ثم إن الله فجع الملك الناصر بموت أعز أولاده الأمير أنوك فكان ذلك أول عقوباته ولم يمتع بالملك بعد وفاة المستكفى فأقام بعده سنة وأياما وأهلكه الله وقد قيل إن وفاة المستكفى كانت سنة إحدى وأربعين فعلى هذا لم يتم الحول على الناصر حتى مات بعد ثلاثة أشهر سُنة الله فيمن مس من الخلفاء أحدا بسوء فإن الله يقصمه عاجلا وما يدخره له فى الآخرة من العذاب أشد قال: ثم إن الله انتقم من الناصر فى أولاده فسلط عليهم الخلع والحبس والتشريد فى البلاد والقتل فجميع من تولى الملك من ذريته إما أن يخلع عاجلا وإما أن يقتل فأول ولد تولى بعده عوجل بخلعه ونفيه إلى قوص حيث كان قد سير الخليفة ثم قتل بها وغالب من تولى من ذريته لم تطل مدته أهـ.

ومات الخليفة المستكفى وهو ابن بضع وخمسين سنة بمدينة قوص فكانت خلافته تسعا وثلاثين سنة وكان موته فى شعبان سنة أربعين وسبعمائة كما ذكر .

ومات فى أيامه بطرك الاسكندرية وكان من الحوادث فى أيامه ما وصفنا من تخريب الكنائس والديارات وقتل الرجال والأطفال وسبى النساء وغير ذلك من الخطوب التى لم يسبق لها مثال فى الأيام الغابرة وقد أقام بطركا ستا وعشرين سنة

فلما مات قام أبو الفتوح بن العياط مع السلطان الملك الناصر فى ولاية القس داود بن يوحنا بن لقلق الفيومى فإنه كان خصيصا به فأجابه السلطان إلى ذلك وكتب توقيعه فشق ذلك على المسيحيين وقام منهم الأسعد بن صدقة كاتب دار التفاح بمصر ومعه جماعة وتوجعوا سحرا ومعهم الشموع إلى تحت قلعة الجبل حيث كان يسكن السلطان واستغاثوا وأوقعوا فى القس داود وقالوا: إنه لا يصلح وفى شريعتنا أنه لا يقوم البطرك إلى هذا المسند إلا باتفاق الجمهور عليه فبعث السلطان يطيب خواطرهم وكان القس المحكى عنه قد ركب بكرة ومعه لفيف الأساقفة وخلق كثير من المسيحيين ليقدموه بكنيسة المعلقة بمصر وذلك يوم الأحد فركب السلطان من قلعة الجبل وأوقف ولاية القس المذكور وبعث فى طلب الأساقفة لتحقيق الأمر فوافتهم الرسل مع القس فى الطريق فأخذوهم فدخل القس عندئذ فى كنيسة فى الطريق وبطلت رسامته يومئذ فأقام المتأصلون بغير بطرك تسع عشرة سنة ومائة وستين يوما وكان بعد ذلك من أمرهم ما سيذكر فى محله .

(الفصل الرابع)

(فى خلافة إبراهيم الواثق بالله ابن ولى العهد المستمسك بالله)

لما مات الخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله طلب السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ابن أخى المستكفى إبراهيم ابن ولى العهد المستمسك بالله أبى عبدالله محمد بن الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد وبايعه بالخلافة فى يوم الاثنين ثالث رمضان سنة ست وأربعين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وأربعين وثلثمائة ميلادية رغما عما بدا من قاضى القضاه عز الدين بن جماعة من صرف السلطان عنه ومازال السلطان بالناس حتى بايعوه فى السنة المذكورة واستقرت له الخلافة فبالغ السلطان فى تعظيمه وقربه إليه واختص به ورتب له الرواتب الكثيرة نكاية فى ولد المستكفى والمتحزبين له ومازال على هذا الحال والناس فى خلافته على قسمين حتى مرض السلطان الملك الناصر ومات فى يوم الأربعاء سابع عشرى ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ولاختلاف الأمراء وتباين أغراضهم لم يتفقوا على الذى يولونه السلطنة من بعده فاشتغلوا بذلك وتركوا السلطان المتوفى ليلة فى قلعة الجبل بغير دفن حتى تم الأمر لابنه أبى بكر المنصور

فى يوم الخميس ثم أخـذوا فى تجهيز السلطان المتـوفى فوضع فى محفة بعـد العشاء الأخيرة وحـمل على بغلين وأنزل من قعلة الجبـل إلى الإسطبل السلطانى وسار به الأميـر ركن الدين بيبـرس الأحمـدى أمير جنـدار والأمير نجم الدين والـى القاهرة وقطلوبغا الذهبى وعلمدار خوطا بهار الدوادار وعبروا به إلى القاهرة من باب النصر وقد أقفلت الحـوانيت كلها ومنع الناس من الوقوف للنظر إليـه وقدام المحفة شـمعة واحدة فى يد علمدار وعبروا به المدرسة المنصورية بين القصرين ليدفن عند أبيه اللك المنصور قلاوون وكان الأمير علم الدين سنجر الجاولى ناظر المارستان قد جلس ومعه القضاة الأربعة وشيخ الشيوخ ركن الدين شـيخ خانقاه سرياقوس والشيخ ركن الدين عمر بن الشـيخ إبراهيم الجعبرى فحطت المحـفة وأخرج منها ووضع تجاه الفسـقية التى بالقبـة وأمر ابن أبى المظاهر مغسل الأمـوات بتغسيله فـغسله وكفن فى نصـيفة وعملت له أخرى طـراحة ومخدة ووضع فى تابوت من خشب وصلـى عليه قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن محمد بـن جماعة الشافعى بمن حضر وأنزل إلى قبر أبيه فى سحلية من خشب وقد ربطت بحبل ونزل معه إلى القبر الغاسل الأمير سنجر الجاولى. قال: فسبحان من لا يحـول ولايزول انظر كيف ملك كثيرا من المعمور من الأرض ومات غريبا وغسل طريحا ودفن وحيـدا إن فى ذلك لعبرة لقوم يتبصرون.

قال بعض كتاب الأخبار: ومات الملك الناصر وليس له نائب بديار مصير ولاحاجب متـصرف وكان أبيض اللون قـد وخطه الشيب وفى عـينيه حول وبرجلـه اليمنى أثر شوكة تنغص عليه أحيانا وتؤلمه وكـان لايكاد يمس بها الأرض ولا يمشى إلا متكئا على أحد أو متوكئا على شىء ولا يصل إلى الأرض إلا أطراف أصابعه وكان شديد البأس يتولى الأمور بنفسه مهيبا عند أهل دولته إذا وقف الأمراء فى خدمته لا يجسر أحد أن يـتكلم مع آخر كلمـة ولا يلتفت بـعضـهم إلى بعض خوفـا منه ولا يمكن أحدهم أن يذهب إلى بيت أحد ألبتة لا فى وليمة ولاغيرها فإن فعل أحد منهم شيئا من ذلك قبض عليه وأخرجه من يومه منفيا وكـان عارفا بأمور رعيته وأحوال مملكته وأبطل نيابة السلطنة من ديار مـصر فى سنة سبع وعشرين وسبـعمائة وأبطل الوزارة وصار يتحدّث بنفـسه فى الجليل من الأمور والحقير فعظمت حاشـية المملكة وكثرت أتباع السلطنة وتخولوا فى النعم الجزيلة حتى الخولة منه والكلابزية وكان كثير الأخذ بالشبهات فقتل فى أيامه خلقا كثـيرا من الأمراء وكان إذا كبر أحد من أمرائه وظهر قبض عـليه وسلب نعـمته وأقـام بدله من صغـار مماليكه إلى أن يكبر ويعـظم أمره فيقبض عليـه ويقيم بدله ليأمن بذلك شرهم وكان كثير التـخيل والحذر حتى أنه إذا تخيل من ولده قتله، وفى آخر أيامه عظم شرهه فى جمع الأموال فصادر الكثير من

الدواوين القبط والولاة وغـيرهم ورمى البضـائع على التجار حـتى خاف كل من له مال وانكمش وكان مخادعا كثير التحيل لا يقف عنـد قول ولا يفي بعهد ولا يبر فى يمين وكان محبا للعمارة فعمر عـدة أماكن منها جامع القلعة وقد هدمه مرتين وعمر القصر الأبلق بالقلعة ومعظم الأماكن التى بالقلعة وعمر المجرى الذى ينقل الماء عليه من النيل إلى قلعـة الجبل على السور وعـمل الميدان تحت القلعة ومناظر سـرياقوس والخانقاه بسرياقوس و حفر الخليج الناصرى بظاهر القاهرة وعمر الجامع الجديد على شاطئ النيل بظاهر مـصر وجدد جـامع الفيلة الذى بالمرصد والمدرسـة الناصرية بين القصـرين من القاهرة وغـير ذلك ومازال يعـمر منذ عـاد فى ولايته الثـالثة إلى أن مات.

قال بعض كتاب الأخبار: وبلغ مصروف العمارة فى كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة عنها ثلثـمائة وخمسون دينارا سوى من يسخر من المقـيدين وغيرهم فى عمل مـا يعمره وحفـر عدة من الخلجان والترع وأقـام الجسور بالبلاد حـتى أنه كان يصرف من الأخبـاز على ذلك ربع مـتحصـل الأقطاعات وحفـر خليج الاسكندرية وبحر المحلة مرتين وبحر اللبينى بالجيزة وعمل جسـر شيبين وجسر أجاش بالشرقية والقليوبية مدة ثلاث سنين مـتوالية فلم ينجح فأنشأه بنيانا بالطوب والجـير وأنفق فيه أموالا عظيمـة وراك فى أيامه ديار مصر والشام وغـزا عدة غزوات فتح فيـها جزيرة أرواد فى سنة اثنتين وسـبعمائة وفـتح مطلبية فى سنة خمس عـشرة وأناش فى ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وخربها ثم عمرها الأرمن فسيـر لها جيشا عظيما فأخذها وأخذ مـعهـا عدة بلاد من بلاد الأرمن وذلك سنة سـبع وثلاثين وأقام بهـا نائبا من أمراء حلب وعمـر قلعة جعبـر بعد خرابها واندثارها وضرب السكـة باسمه فى سنة إحـدى وأربعين فى شـوال وخطب له فى ارتنـا إحدى بلاد الروم وضـربت السكة باسمه أيضا وكذلك ببلاد القرمان وبلاد الكرد وكثير من بلاد الشرق وكان من الذكاء المفرط على جانب عظيم يعرف مماليك أبيه ومماليك الأمـراء باسمهم ووقائعهم وكان علىّ الهمة كبير السياسـة واسع المعرفة بمهادنة الملوك يبذل فى ذلك من الأموال ما لا يوصف كثـرة فكان كتابه ينفـذ أمره فى سائر أقطـار الأرض وهو مع ذلك مؤيد فى جميع أموره مظفر فى كل أحواله مسعود فى سائر حركاته، وكانت مدة سلطنته فى المرة الثالثة أربعا وأربعين سنة وخمسة عـشر ويوما خارجا عما بين ذلك. قال بعض الكتاب: ولما احتضر ندم على مافـعل من مبايعة إبراهيم الواثق بالله ابن ولى العهد المستمسك فأوصى الأمراء برد العهـد إلى ولى عهد المستكفى بالله وخلع بيعة الواثق

فلما استقرت السلطنة بولده أبى بكر المنصور عقد مجلسا يوم الخميس حادى عشرى ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وطلب الواثق إبراهيم وولى العهد أحمد بن المستكفى المتوفى بمدينة قوص وسـأل القضاة قائلا: من يستحق الخلافـة شرعا؟ فقال ابن جماعة أن الخليفة المستكفى المتـوفى أوصى بالخلافة من بعده لولده أحمد وأشهد عليـه أربعين عـدلا بمدينة قوص وثبت ذلك عندى بـعد ثبـوته على يد نائبى بمدينة قوص فعند ذلك قام السلطان وخلع الواثق إبراهيم وبايع أحـمد وبايعه القضاة كلهم قال الحافظ بن حجر: ولقب أولا المستنصر ثم لقب الحاكم بأمر الله لقب جده وكتب له ابن فضل الله صورة المبايعة وقد أضربنا هنا عن إيرادها فكانت مدة خلافة الواثق إبراهيم المذكور ثلاثة أشهر وتسعة أيام.

قلت: ولم يعتبر جماعة المؤرخين خلافة الواثق المذكور مدة صحيحة ولذلك لم يذكرها أحد منهم فى مددهم سوى الذهبى فى آخر ذيله على العبر وقد قال الحسينى فى ذيله على العبر أيضا أن الذى قام بالخلافة بعد المستكفى ابنه أحمد الملقب بالحاكم بأمر الله وكان ولى عهد أبيه أهـ.

(الفصل الخامس)

(فى خلافة الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفى بالله)

ثم قام بالأمر بعد المستكفى بالله ابنه الحاكم بأمر الله أحمد وكان ولى عهد أبيه كما سبقت الإشارة إلى ذلك بويع له بالخلافة يوم الخميس حادى عشرى ذى الحجة سنة ست وأربعين وسبعمائة هجرية أى سنـة خمس وأربعين وثلثمائة وألف للميلاد بمشورة ابن جـماعـة بايعه السلطان المنصـور أبوبكر بن الملك الناصر قـلاوون وبايعه القضـاة والأمراء بعد خلع الواثق إبراهيـم فى اليوم المذكور ولقب بالحـاكم بأمر الله لقب جده واستقرت له الخلافة وأمده السلطان بالرواتب الكثيرة والعطاء الوافر، فلما كان ثانى يوم المحرم افتتـاح سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة حضـر الخليفة الحاكم بأمر الله المذكور والسلطان الملك المنصور أبو بكر والقضاة بدار العدل فجلس الخليفة على الدرجة العليـا وعليه خلعة خـضراء وفوق عـمامته طرحـة سوداء مرقـومة بالذهب وجلس السلطان دون مقـام الخليفة وخطب خطبة فـتحها بقوله إن الله يـأمر بالعدل الآية وبقـوله وأوفوا بعهـد الله إذا عاهدتم الآية ثم أوصى الأمـراء بالرفق بالرعـية وإقامة الحق وتعظيم شعائر الإسلام ونصرة الدين ثم قال فمن نكث فإنما ينكث على

نفسه وقرأ الآية، وجلس ثم جيء بخلعة سوداء ألبسها الخليفة السلطان بيده ثم قلده سيفا عربيا ثم أخذ علاء الدين بن فضل الله كاتب السر فى قراءة عهد الخليفة للسلطان حتى فرغ منه ثم قدمه إلى الخليفة فكتب عليه ثم كتب بعده القضاة الأربعة بالشهادة عليه ولكن لم تطل مدة السلطان الملك المنصور بعد ذلك فإنه سلم الأمير قوصون زمام الملك وصرّفه فى جميع الأمور بلا استثناء فخانه وعمل لنفسه وكان من أمره ما سيتلى عليك، قال بعض كتاب الأخبار: وقوصون هذا هو سيف الدين حضر من بلاد بركة إلى ديار مصر صحبة خوند ابنة أزبك امرأة الملك الناصر محمد ابن قلاوون فى ثالث عشرى ربيع الآخر سنة عشرين وسبعمائة ومعه قليل من العصى وطسما ونحو ذلك مما قيمته خمسمائة درهم ليتجر فيها فطاف بذلك فى الأسواق بالقاهرة وتحت قلعة الجبل وفى داخل القلعة فاتفق أنه فى بعض الأيام دخل الإسطبل السلطانى ليبيع ما معه فأحبه بعض الأوشاقية وكان صبيا جميلا طويل القامة له من العمر ما يقارب الثمان عشرة سنة فصار يتردد إلى الأوشاقى إلى أن رآه السلطان فوقعا منه موقعا فسأل عنه فعرف بأنه يحضر ليبيع ما معه وأن بعض الأوشاقية تولع به فأمر بإحضاره إليه وابتاع منه نفسه ليصير من جملة مماليكه السلطانية فنزله من جملة السقاة وشغف به وأحبه حبا كثيرا فأسلمه للأمير بكتمر الساقى وجعله أمير عشرة ثم أعطاه إمرة طبلخاناه ثم جعله أمير مائة مقدم ألف ورقاه حتى بلغ أعلى المراتب فلما كبر وظهر أمره أرسل إلى بلاده وأحضر إخوته سوسون وغيره من أقاربه وأمر الجميع واختص به السلطان بحيث لم ينل أحد عنده ما ناله وزوجه بابنته وتزوج السلطان أخته فلما احتضر السلطان جعله وصيا على أولاده وعهد لابنه أبى بكر فأقيم فى الملك من بعده وأخذ قوصون المذكور فى تدبير المملكة وتصرف فى جميع الأمور وحجر على أبى بكر وضيق عليه ثم تاقت نفسه إلى الملك فأخذ فى أسباب السلطنة وأخرج أبا بكر المنصور بعد شهرين من ولايته إلى مدينة قوص بصعيد مصر فى يوم الأحد لعشرين من صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة هو وإخوته فتهتكت يومئذ نساء أبيه الناصر وكثر البكاء والعويل بالقاهرة يوم خروجه ولم يستقر به المقام بقوص حتى سير إليه من قتله وخاف قوصون أن يعجل بارتقاء كرسى السلطنة فأقام بعد الملك المنصور أخاه أبا بكر وعلاء الدين كجك ابن الناصر محمد بن قلاوون ولقب بالأشرف ولم يكمل له من العمر ثمان سنين وقيل ست وقيل خمس وتقلد قوصون نيابة السلطنة بديار مصر فأمر حاشيته وأقاربه ستين أميرا وأكثر من العطاء وبذل الأموال والأنعام فصار أمر الدولة كله بيده

هذا وأحمد ابن السلطان الملك الناصر بمدينة الكرك مقيم يراقب الفرص ويستطلع الأخبار فخاف قوصون منه وأخذ فى التدبير عليه فلم يتم له ما أراد من ذلك وحرك ساكنا فى نفس أحمد فتجرد أحمد بعد ذلك لطلب الملك وخاطب الأمراء وكاتب بعض النوّاب بالديار الشامية والسرية فأذعنوا إليه وكان بمصر من الأمراء الأمير أيدغمش والأمير آل ملك وقمارى والماردانى وغيرهم فارتاب قوصون منهم وأخذ فى التدبير عليهم فأحسوا بذلك وخافوا فوات الوقت فركبوا لقتاله وحصروه بقلعة الجبل ومازالوا حتى قبضوا عليه فى ليلة الأربعاء آخر رجب سنة اثنتين وأربعين ونهبت داره وسائر دور حواشيه وأسبابه وسير إلى الإسكندرية صحبة الأمير قلاى فقتل بها واعتقلوا السلطان الملك الأشرف بقلعة الجبل فى أوائل شعبان وبقى معتقلا إلى أن مات فى سنة ست وأربعين قال صاحب السكردان: والله أعلم كيف كان موته فكانت سلطنته خمسة أشهر وعشرة أيام .

وقام الأمير أيدغمش بأمر الدولة وتدبير المملكة وسير إلى شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون يستدعيه من الكرك ليوليه سلطنة مصر فقام على البريد فى عشرة من أهل الكرك ليلة الخميس ثامن عشرى رمضان وعبر الدور من قلعة الجبل بمن كان معه واحتجب عن الأمراء ولم يخرج لصلاة العيد ولا حضر السماط على العادة إلى أن لبس شعار السلطنة وعقد له المبايعة بينه وبين الخليفة الشيخ تقى الدين ابن السبكى وكان قد حضر يومئذ من الشام ولقب بالملك الناصر شهاب الدين وجلس على سرير الملك فى يوم الاثنين عاشر شوال من السنة فلما استقرت به السلطنة وتصرّف فى الأمور أعرض عن الأمراء وتباعد عنهم ولم يراع لهم حرمةولا اعتبارا ومازال حتى ساءت سيرته وخبثت سريرته واشتدت الوحشة بينهم وبينه فخشى شر العاقبة وأظهر السفر إلى الكرك لترويح النفس والتخلى عن أشغال السلطنة حينا وخرج فى يوم الأربعاء ثانى ذى القعدة واستخلف الأمير آق سنقر نائب الغيبة فلما وصل قبة النصر بظاهر القاهرة نزل عن فرسه ولبس ثياب العرب ومضى مع خواصه من أهل الكرك على البريد وترك الاطلاب فسارت حتى وافته بالكرك فرد العسكر إلى بلاد الخليل وأقام بقلعة الكرك ففرح الأمراء بخروجه وخلعوه فى يوم الأربعاء حادى عشر المحرم افتتاح سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة فكانت سلطنته ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوما أو أربعين يوما ثم قتل فى أوائل سنة أربع وأربعين كما سيذكر فى محله .

ولما خلع الملك الناصر شهاب الدين المذكور أقاموا بعده أخاه عماد الدين إسماعيل ولقب بالملك الصالح وبايعوه فى يوم الخميس ثانى عشرى المحرم المذكور وقام الأمير أرغون زوج أمه بتدبير المملكة ومعه عدة من الأمراء فلما استقرت به السلطنة سير إلى الكرك جماعة من الأمراء وكثيرا من العساكر والأجناد لقتال الناصر محمد وكانت قد وردت إليه الأخبار بتأهب الناصر محمد لرد الملك لنفسه والاستعداد للبطش بجميع الأمراء المصريين فالتقى الجمعان واقتتل الجنود قتالا شديدا فكانت الحرب بينهم سجالا وطالت أياما كثيرة فلما كان فى أحد الأيام اشتبك القتال بين الفريقين واشتد فثبتت العساكر المصرية وقاتلت قتال الأبطال ومازالت حتى أخذت الناصر محمدا من وسط قومه فانقض عليه سيف الدين منجق اليوسفى وكان من أجناد السلحدارية واحتز رأسه فانفشل أصحابه وتمزق جمعهم وولوا مدبرين وتمت عليهم الهزيمة وعاد اليوسفى إلى مصر ومعه رأس الناصر محمد فى غلق وعاد الأمراء ومن بقى من العساكر ووصل الخبر بما جرى إلى السلطان الملك الصالح عماد الدين ففرح بالنصر وأجاز اليوسفى بالإمرة على ديار مصر فظهر نبله وصار من هذا الحين يتنقل فى مراتب الدولة حتى عظم شأنه واتسعت كلمته وكان من أمره بعيد ذلك ما سيذكر فى حينه، ولما أحضرت رأس الناصر محمد أمام السلطان الملك الصالح ووقع بصره عليها فزع وأخذه الخوف فمرض واشتد به المرض ومازال يتنابه حتى مات فى ليلة الخميس رابع عشر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة وقيل رابع ربيع الآخر وعمره نحو عشرين سنة فكانت سلطنته ثلاث سنين وشهرين وأحد عشر يوما وكان حسن السيرة لين العريكة بعيد الغضب محجورا عليه فى جميع أموره ليس له من الملك سوى الاسم فقط والأمر بيد الأمير أرغون ومن كان معه من الأمراء المصريين فقام بالأمر بعده أخوه زين الدين شعبان بعهد من أخيه ولقب الملك الكامل وجلس على تخت السلطنة من غده فلما استقرت به السلطنة تاقت نفسه إلى الاستبداد بالملك وعمل على تبعيد الأمير أرغون ومن معه من الأمراء واستمال إليه جماعة من المماليك فأحس الأمراء بفعاله ووقعت الوحشة بينه وبينهم وطال الأمر وكرهوا ما هو عليه وكبر خوفهم فركبوا عليه وتجردوا لقتاله وركب هو كذلك فى طائفة من المماليك الذين اصطفاهم لنفسه والتقى الجمعان واقتتلا فلم يثبت أصحابه عند احتدام الوطيس وخذلوه فعاد إلى قلعة الجبل منهزما فأتبعه الأمراء وساقوا خلفه وحصروه بالقلعة فى يوم الأثنين مستهل جمادى الآخرة سنة سبع

وأربعين ثم خلعوه فى اليوم المذكور فكانت سلطنته سنة واحدة وثمانية وخمسين يوما واجتمع جميع الأمراء وتشاوروا فيمن يصلح للولاية بعده فاتفقوا على تولية أخيه زين الدين حاجى فبايعوه بالملك من يومه ولقبوه بالملك المظفر، فلما تمت له البيعة واستقرت به السلطنة عبث بالأمور وأساء السيرة وخبثت منه السريرة وانهمك فى الملاذ والملاهى واللعب واستبد بالأمر وعمل على تذليل الأمراء وإبعادهم عن خدمة الدولة واختص بطائفة من الأحداث وسير الأمير سيف الدين منجك اليوسفى إلى دمشق وولاه الحجابة بها مكان ابن طوفل الحاجب فاتسعت كلمته بالشام وكبرت حرمته وعظم أمره فاستعظم الأمراء بمصر ذلك جدا وخافوا من الملك المظفر وهو يخادعهم ويظهر لهم خلاف ما يبطن ويعمل على الإيقاع بهم فلما أيسوا من الصلح تحالفوا على قتاله وركبوا جميعا عليه فركب هو كذلك فى طائفة من أصحابه واقتتلوا فكانت الحرب بينهم سجالا ومازالوا يقاتلونه حتى خذله من كان معه من المماليك وتركوه فهرب فتبعه الأمراء حتى قبضوا عليه واعتقلوه أياما ثم ذبحوه فى يوم الأحد ثانى عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة فكانت مدة سلطنته سنة وثلاثة أشهر واثنى عشر يوما لم يعمل فيها عملا يذكر، وعاد الأمراء وتشاوروا فيمن يصلح للسلطنة فاتحدت كلمتهم على توليه أخيه بدر الدين أبى المعالى حسن بن محمد فبايعوه بالملك من يومه ولقبوه بالملك الناصر وذلك يوم الثلاثاء رابع عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وله من العمر يومئذ إحدى عشرة سنة وأركب من يومه من باب الستارة بقلعة الجبل وعليه شعار السلطنة وفى ركابه جميع الأمراء إلى أن نزل بالإيوان السلطانى ومديرو الدولة يومئذ الأمير يلبغاروس والأمير الجيفا المظفرى والأمير شيخو والأمير طاز وأحمد شاد الشرابخناه وأرغون الإسماعيلى فخلع على يلبغاروس واستقر فى نيابة السلطنة بديار مصر مكان ارقطاى وقرر ارقطاى فى نيابة السلطنة بحلب وخلع على الأمير سيف الدين منجك اليوسفى واستقر فى الوزارة مع الاستدارية وقرر الأمير أرغون شاه فى نيابة السلطنة بدمشق الشام وجعل يتصرف فى الأمور على ما يشاء ولما كانت سنة تسع وأربعين وسبعمائة هجرية كثر انكشاف الأراضى من ماء النيل بالبر الشرقى فيما يلى بولاق إلى الفسطاط فاهتم رجال الدولة بسد البحر مما يلى الجيزة وفوض ذلك إلى الأمير منجك فجمع لذلك من الأهالى والأمراء من الأموال شيئا كثيرا جدا وبالغ فى العمل وطال الأمر أياما كثيرة فلم يجد نفعا وساء الحال وانقطعت الآمال من رى تلك الأراضى وتطير الناس وخافوا شر

تلك السنة فقبض السلطان على منجك المذكور فى ربيع الأول من السنة واعتقله واشتد بأسباب ذلك الغلاء وقل الوارد من الغلال وغيرها، قال بعض كتاب الأخبار: وظهر بعد ذلك الوباء واشتد وكثر الموت فى الناس كثرة بالغة فكان الفقراء يموتون في الأزقة والحارات وعلى أبواب المساجد ولا يجدون من يحملهم وامتلأت كذلك البيوت بالموتى وبقوا أياما بغير دفن فكانت الكلاب تدخل البيوت وتأكل الأحياء من الأطفال وتشبع من جثث الأموات فكان أمرا مهولا للغاية وبقى أياما كثيرة حتى ارتفع وزال وقد تشاءم الناس من أيام السلطان الملك الناصر بدر الدين وتطيروا من حكمه فانحرفت عنه القلوب وتغيرت عليه الخواطر وقد زادهم بغضا له وحقدا عليه سوء تصرفه وعدم اكتراثه بالأمور وكراهته للأمراء فإنه لما رشد وأثبت رشده فى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة هجرية استبد بالأمر وجعل يتصرف بما فى نفسه وقبض على الأمير منجك الوزير وسجنه ورسم بالقبض على الأمير يلبغاروس نائب السلطنة بديار-مصر وهو مسافر إلى الحجاز فقبضوا عليه وألقوه فى السجن وعمل على الوقيعة بالأمير شيخو العمرى ولكنه كان يخشى العاقبة لما لشيخو المذكور من الصولة والكلمة المسموعة فاتفق أن شيخو خرج متصيدا إلى ناحية طنان بالغربية فلما كان يوم السبت أربع عشرى شوال سنة إحدى وخمسين استدعى إليه السلطان جميع الأمراء واستحلفهم لنفسه فحلفوا بالطاعة والوفاء فكتب عند ذلك تقليدا للأمير شيخو بنيابة طرابلس وجهزه إليها مع الأمير سيف الدين طينال الجاشنكير فسار إليه وأخذه من طينال ولم يمكنه من العود إلى القاهرة فوصل إلى دمشق ليلة الثلاثاء رابع ذى القعدة ولم يستقر به المقام حتى ظهر مرسوم السلطان ببقاء شيخو بدمشق على أقطاع الأمير بيلبك السالمى وتجهيزه إلى القاهرة فخرج بيلبك من دمشق وأقام شيخو على إقطاعه فما وصل بيلبك إلى القاهرة إلا وقد وصل دمشق مرسوم السلطان بإمساك شيخو وتجهيزه إلى السلطان مقيدا وتقييد مماليكه واعتقالهم بقلعة دمشق فقبض عليه وسير إلى القاهرة مكبلا بالقيود، ولما وصل إلى قطيا ساروا به منها إلى الإسكندرية فلم يزل معتقلا بها إلى أن خلع السلطان الملك الناصر حسن وتولى أخوه الملك الصالح فأفرج عنه وعن منجك الوزير وعدّة من الأمراء فوصلوا إلى القاهرة فى رابع رجب سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة وكان من أمره بعد ذلك ما سيذكر فى محله إن شاء الله قال أصحاب التاريخ: وشيخو هذا هو الأمير الكبير سيف الدين أحمد أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون حظى عند الملك المظفر

حاجي بن محمد بن قلاوون وزادت وجاهته حتى شفع في الأمراء وأخرجهم من سجن الأسكندرية ثم إنه استقر في أول دولة الملك للناصر حسن أحد أمراء المشورة ثم ترفع إلى أن صارت القصص تقرأ عليه بحضرة السلطان في أيام الخدمة وصار زمام الدولة بيده فساسها أحسن سياسة بسكون وعدم شره وكان نافذ الكلمة مسموع الرأى صائب الفكر ميالا إلى الدعة والسكون والتأليف بين الأحزاب فأحبه الأمراء ومالوا إليه وأخذوا بقوله فلم يخالفوا له كلمة، واشتدّ السلطان الملك الناصر على بقية الأمراء والعمال بالجهات وضيق عليهم وقبض على الأمير المجاهد صاحب اليمن وأتى به إلى القاهرة مقيدا بالحديد وألقاه في السجن أياما ثم أطلقه ثم عاد فقبض عليه وسيره إلى قلعة الكرك وسجنه بها فامتلأت قلوب الأمراء كافة حقدا عليه واجتمعوا وتحالفوا على قتاله فلما كان يوم الأحد سابع عشرى جمادى الآخرة ركبوا لقتاله وهم طاز وإخوته ويلبغا الشمسى وبيغوا ووقفوا تحت القلعة وصعد الأمير طاز وهو متقلد سلاحه إلى قلعة الجبل فى عدة وافرة من الجند وقبضوا على السلطان فى الحال وسجنوه بالدور الأسفل من القلعة فكانت مدة ولايته ثلاث سنين وتسعة أشهر.

ثم أقاموا بعده أخاه صلاح الدين صالح وبايعوه فى يوم الأثنين ثامن عشر جمادى الآخرة وطيروا الأخبار بذلك إلى الآفاق وبقى السلطان الملك الناصر أبو المعالى حسن معتقلا مؤثرا الاشتغال بالعلم، قال بعض الكتاب: وكتب بخطه نسخة من كتاب دلائل النبوة للبيهقى فكانت حسنة وكان لا يتحرش فى الظاهر لشيء من أمور الدولة ولا لشيء من أحوالها وكان يظهر غاية الرضا عن الحالة التى هو عليها. أما السلطان الملك الصالح صلاح الدين فإنه لم يستقر به الملك حتى كثر لهوه وخرج عن الحد فى التبذل والعبث بمصلحة الدولة وأمور المملكة وكان هو الثامن ممن تولى الملك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون ثم جعل يبطل ما أمضاه أخوه فرسم بالإفراج عن الأمير شيخو والأمير منجك من معتقلهما بمدينة الإسكندرية فحضرا إلى القاهرة فى رجب سنة أثنتين وخمسين وسبعمائة ونزل الأمير منجك بالإشرفية من قلعة الجبل وكان السلطان الملك الناصر قد صادره وأخذ جميع أمواله وفرق أملاكه على بعض المماليك السلطانية فلما استقر بالأشرفية بعث إليه الأمير شيخو خمس رؤوس خيل وألفى دينار وبعث إليه أيضا جميع الأمراء بالتقدمات والهدايا وأقام لا يعمل عملا ولا رجع إلى خدمة الدولة فكان يجلس

على حصير فوق ثوب سرج عتيق وكلما أتاه أحد من الأمراء يبكى ويتوجع ويقول انظروا كيف أخذوا جميع مالى حتى صرت على ما ترونى ثم كتب فتوى تتضمن أن رجلا مسجونا فى قيد هدد بالقتل إن لم يبع أملاكه، وأنه خشى على نفسه القتل فتوكل فى بيعها فأفتاه الفقهاء بأنه لا يصح بيع المكره فتقدم الأمراء إلى السلطان فى أمره وفى رد أملاكه عليه فعارضهم فى ذلك الأمير صرغتمش ثم قبل السلطان أن يرد عليه من أملاكه ما أنعم به السلطان على مماليكه فاسترد عدة أملاك وأقام إلى أن قام يلبغاروس بحلب وخرج عن طاعة السلطان فاختفى منجك بعد ذلك وحسب السلطان ماوراء اختفائه فطلبه فلم يجده فأمر بإطلاق النداء عليه بالقاهرة ومصر وفتش عليه وهدّد من أخفاه وألزم عربان العايد باقتفاء أثره فلم يوقف له على خبر وكبسوا عليه عدة أماكن بالقاهرة ومصر وفتش عليه حتى فى داخل الصهاريج التى بالجامع الذى بناه فأعياهم أمره وأدرك السلطان السفر لحرب يلبغاروس بحلب لخروجه فأخذ يتأهب لذلك إلى يوم الخميس رابع شعبان فخرج الأمير طاز وعرض الأمير شيخو والأمير صرغتمش أطلابهما وقد وصل الأمير طاز إلى مدينة بلبيس فحضر إليه من أخبره أنه رأى بعض أصحاب منجك فسير إليه وأحضره وفتشه فوجد معه كتاب منجك إلى أخيه يلبغاروس بحلب وفيه أنه مختف عند الحسام الصفدى استاداره فبعث الكتاب إلى الأمير شيخو فوافاه والأطلاب خارجة فاستدعى بالحسام وسأله فأنكر فعاقبه الأميرصرغتمش فلم يعترف فركب إلى بيت الحسام بجوار الجامع الأزهر وهجمه وإذا منجك ومعه مملوك فشدّ وثاقه وسار به مشهرا بين الناس وقد هرعوا من كل مكان إلى قلعة الجبل فسجن بالإسكندرية ثانية إلى أن شفع فيه الأمير شيخو فأفرج عنه فى ربيع الأول سنة خمس وخمسين ورسم له أن يسيرا إلى صفد فسار إليها من غير أن يعبر إلى القاهرة ولم يتم خروج السلطان لقتال يلبغاروس حتى دخلت سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وظهر الطاعون بمصر واشتد شدة بالغة فكثر الموت فى الناس وعم فتأخر السلطان الملك الصالح عن المسير لقتال يلبغاروس بحلب وتعطلت أعمال الدولة بسبب اشتداد الطاعون وكثرة الموت وأصاب الطاعون الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله فمات ولم يعهد لأحد بالخلافة بعده فجمع الأمير شيخو جميع الأمراء والقضاة وأهل الحل والعقد وكان قد رجع إلى خدمة الدولة بعد الاعتقال وتولى مسند الحل والعقد وطلب جماعة من بنى العباس ليرى من هو أصلح للإمامة وتولى منصب الخلافة فوقع الاختيار على أخيه أبى بكر بن

المستكفى فكانت خلافة الحاكم بأمر الله نحو اثنتى عشرة سنة وكانت أحواله كلها شدة وعيشته فى ضيق لعدم كفاية المرتبات المعينة لمنصب الخلافة.

(الفصل السادس)

(فى خلافة المعتضد بالله أبى الفتح بن أبى بكر المستكفى بالله)

ثم قام بالخلافة بعد الحاكم بأمر الله أخوه المعتضد بالله أبو الفتح بويع بغير عهد وقيل بعهد من أخيه الحاكم بأمر الله وهو أبو الفتح بن أبى بكر المستكفى بالله أبى الربيع سليمان ابن الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد بن أبى علىّ بن المسترشد بالله العباسى ولقب بالمعتضد وكنى أبا الفتح وذلك سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة هجرية أى نحو سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة وألف ميلادية فلما استقرت به الخلافة ضم إليه نظر المشهد النفيسى ليستعين بما يرد إلى ضريح السيدة نفيسة من نذر العامة على تقويم أوده. قال كتاب الأخبار: لأن مرتب الخلفاء كان إلى هذا الحين على مكس الصاغة لا غير وحسبه أن يقوم بما لابد منه من قوتهم فكانوا أبداً فى عيش ضيق فحسنت نوعاً حالة الخليفة المعتضد بما كان يبيعه من الشمع المحمول إلى المشهد ونحوه وصار فى رغد من العيش وكان إلى ما بعد تولية المعتضد الخلافة بأيام قد ارتفع الطاعون وزال من جميع البلاد فجعل السلطان الملك الصالح يتأهب لقتال يلبغاروس بحلب وأمر فنادوا فى الجند بالخروج إلى ظاهر القاهرة فصاروا يخرجون أطلابا والسلطان يستحث الأمراء ويشدد عليهم وهم يتلكئون ويظهرون غير ما يبطنون وطالت أيام النداء فى العسكر بالخروج وعظم بغضهم لنصرة السلطان الملك الصالح على يلبغاروس وكره الأمراء السلطان وظهر بغضهم له فأهمل لذلك التجريدة وبطلت أو كادت وتشاغل السلطان عنها باستمالة العامة واسترضائهم ليكونوا له عوناً على الأمراء إذا ركبوا عليه وخرجوا عن طاعته فعرف العامة منه ذلك وأخذت منهم الخيلاء فجعلوا يطلبون من السلطان المطاليب الكثيرة وتقدم إليه جماعة منهم فى طلب أخذ جميع الأملاك الموقوفة على الديارات والكنائس بمصر وأعمالها وألحوا فى الطلب فمال السلطان إلى قولهم وأحال الأمر على ديوان الأحباس فوجد أن للنصارى أوقافاً تبلغ زهاء الخمسة وعشرين ألف فدان كلها موقوفة على الكنائس والديارات فلما عرضوا ذلك على الأمير شيخو والأمير طاز

والأمير صرغتمش وهم القائمون بالأمر يؤمئذ قرروا بأن تضاف جميع هذه الأطيان إلى أقطاعات الأمراء وتنزع من أيدى النصارى فانتزعوها واشتد الحال على النصارى بعد ذلك شدة عظيمة وعاد العامة إلى تخريب الكنائس وهدم الديارات كما فعلوا فى أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فهدموا عدة كنائس بمصر والقاهرة وخربوا عدة أخرى وخرج الحاجب والأمير علاء الدين على بن الكورانى والى القاهرة إلى ناحية شبرى الخيام من ضواحى مصر فهدموا كنيسة بها وأخذوا منها أصبع الشهيد وأحضروه إلى الملك الصالح فرسم بإحراقه فأحرق بين يديه وذرى رماده فى البحر. قال بعض كتاب الأخبار: فبطل عيد الشهيد من يومئذ واشتد العامة على النصارى شدة بالغة وتطاولت أيديهم إلى السلب والنهب وغير ذلك والسلطان لا يرد للعامة كلمة ولا يوقفهم عند حدّ إرضاء لهم والأمراء فى شاغل بما يدبرونه للسلطان وظل الحال هكذا أياماً ثم سكنت الفتنة وعادت الأمور إلى ما كانت عليه وعاد السلطان إلى الاهتمام بتجريد العسكر لقتال يلبغاروس بحلب وهم بتولية موفق الدين مسند الوزارة وهو قبطى مرتد فعارضه الأمراء فى ذلك وطلبوا تولية علم الدين وهو قبطى مرتد كذلك فامتنع السلطان من قبوله وعارض فشدد الأمراء فى الطلب وانضم بعضهم إلى بعض واتحدوا على إكراه السلطان على تولية علم الدين المذكور وإلا خلعوا السلطان وترددت الرسل بين الفريقين واشتد الخلاف وطال الحال أياماً فبطل الاهتمام بأمر التجريدة ثانية وتحرز السلطان من الأمراء وجمع إليه مماليكه الذين اصطفاهم لنفسه فلما كان يوم الاثنين ثانى شوال سنة خمس وخمسين ثار عليه الأميران شيخو وطاز وقبضا عليه وسجناه بقلعة الجبل فكانت سلطنته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام وهذا عجيب فى الاتفاق ثم اتحدت كلمة الأمراء على إرجاع السلطان الملك الناصر حسن فأخرجوه من معتقله وأجلسوه على تخت السلطنة فى يوم الاثنين المذكور فكانت مدة سجنه بقلعة الجبل ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً فلما استقر به المنصب وتصرف فى الأمور رسم بالقبض على الأمير طاز فأمسك وأخرج إلى الديار الشامية ثم جعل يأمر وينهى ويتصرف فى الملك مستبداً فهابه الأمراء واتسعت كلمته وكبرت شهرته وضرب الفلوس الجدد فعمل كل فلس زنة مثقال وكان كثير البغض للأمراء شديد الرغبة فى الإيقاع بهم والتخلص من شرهم فكان لا ينكف عن تذليلهم والنكاية بهم وتفريقهم عن بعض فاشتد بغضهم له وجعلوا يدبرون على قتله والتخلص منه، وما دخلت سنة اثنتين وستين وسبعمائة حتى ظهر الطاعون بمصر والقاهرة واشتد وفشا فكثر

الموت فى الناس والدواب أيضاً وعظم أمـره ومات خلق كثير للغـاية فخرج السلطان فى طائفة من مماليكـه وعدى إلى بر الجيزة وأقـام بناحية كوم برا فـراراً من الطاعون وخرج معـه الأمير يلبغا فى طائفـة من عسكره وخيم على مقـربة من خيام السلطان لحراسته فراسله الأمراء فى قتله فأجابهم إلى ذلك وجعل يخالف أمر السلطان ويقبح فعالـه فاستعظم السلطان منه ذلك وكـبر عليه الأمر ومـازالا يتنازعان والأمير يلـبغا يراقب الفـرص ليغـتالـه إلى ليلة الأربعاء تاسع جـمـادى الأولى ركب السلطان فى جماعة من أصـحابه ليكبس على الأمير يلبغـا فى خيمته ويقتله فـأحس يلبغا بذلك فخرج عن الخيـام وكمن بمكان وهو لابس آلة حربه فى جماعة من قـومه فلم يظفر السلطان به ورجع فثار به يلبغا وهجم عليه بمن مـعه فانكسر السلطان وفر يريد قلعة الجبل فتبعـه يلبغا وقد انضم إليه جماعة من الأمراء وغـيرهم ممن لا يحبون السلطان فدخل السلطان إلـى القلعة وصار يقـاتل مع طائفة من مماليكه أيامـاً وراء السور ثم أحس بالكسـرة وأنه على وشك أن يؤخذ فنزل مـتخـفياً ومع أيدمـر الدوادار يريد الخروج إلى الـشام وسارا إلى بـيت الأمير شـرف الدين موسـى بن الأزكشى أمـير حاجب يريدان الاختفـاء به حتى يتيسر لهما الخروج فـبعث شرف الدين المذكور إلى الأميـر يلبغا يعلمـه بمجىء السلطان إليه فـبعث يلبغـا فى الحال من قـبض عليه هو والأمير أيدمـر ومن ذلك الوقت لم يوقف له على أثر ألبتة مـع كثرة تفتيـش أتباعه وحولشيـه على قبره ومـا آل إليه أمره فكانت مدة ولايتـه الثانية ست سنين وسـبعة أشهر وأياماً، قال أصـحاب الأخبار: واشتد فى أيامه على القبط بمصـر ورشيد بغير سبب فضيق عليهم وأبعدهم عن خـدمة الدولة فلاطفه كبارهم لعله يرتدع فلم يقلع عما هو عليه فعاكسوه وأتعبـوه وبالغوا فى تسفيهه والازدراء به فهمّ بالإيقاع بهم فلم يظفر لبغض الأمراء له وكـراهة طوائف المماليك له فعاد إلى ملاطفتهم واسـتمالتهم فلم يفلح لتفاقم الخطب واشتداد النفرة منه وما زال كذلك حتى قبض عليه وقتل.

وبنى فى أيامه جامعه المشهور وهو تحت قلعة الجـبل فيما بين القلعة وبركة الفيل وكان موضعه بيت الأمير يلبغا. قال صاحب الخطط: وابتدأ السلطان عمارته فى سنة سبع وخمسين وسـبعمائة وأوسع دوره وعمله فى أكبر قالب وأحـسن هيئة وأضخم شكل ولا يعرف فى بلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذا الجامع أقامت العمـارة فيـه مدة ثلاث سنين لاتبطل يومـاً واحداً وأرصد مـصروفـها فى كل يوم عشرين ألف درهم عنها نحـو ألف مثقال ذهبا. قال: ولقد أخبـرنى الطواشى مقبل الشامى أنه سمع السلطان حسناً يقول أنـفق على القالب الذى بنى عليه عقد الإيوان

الكبيـر مائة ألف درهم نقـرة وهذا القالب مما رمى على الـكيمان بعـد فراغ العـقد المذكور. قال: وسمعت السلطان المذكور يقول لولا أن يقال ملك عجز عن إتمام بناء بناه لتركت بـناء هذا الجامع من كثـرة ما صرف عليـه وفى هذا الجامع عـجائب من البنيان منها أن ذرع إيوانه الـكبير خمسة وسـتون ذراعاً فى مثلها ويقـال إنه أكبر من إيوان كسرى الذى بالمدائن من العراق بخمســة أذرع ومنها القبة العظيمة التى لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها ومنها المنبر الرخام الذى لا نظير له ومنها البوابة العظيمة ومنها المدارس الأربع التى بدور قاعة الجامع إلى غير ذلك وكان السلطان قد عزم على أن يبنى أربع منائر يؤذن عليهـا فتمت ثلاث منائر إلى أن كان يوم السبت سادس شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وسـتين وسبعمائة فسقطت المنارة التى على الباب فـهلك تحتهـا نحو ثلثمـائة نفس من الأيتام الذين كانوا قـد رتبوا بمكتب السبيل الذى هناك ومن غير الأيتام وسلم من الأيـتام ستة أطفال فأبطل السلطان بناء هذه المنارة وبناء نظيرتها وبقى هناك منارتان قـائمتان إلى اليوم. ولما سـقطت المنارة المذكورة لهجت العـامة بمصر والقاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة فقـال الشيخ بهاء الدين أبو حامد أحمد بن على بن محمد السبكى فى سقوطها هذه الأبيات :

أبشر فـسعـدك يا سلـطان مـصر أتى ... بشـــيـره بمـقـال ســار كـالمـثل

إن الـمـنـارة لـم تسـقط لمنــقـصـة ... لكن لسر خـفىّ قــد تبـــين لى

من تحتـها قـرئ القرآن فاستمـعت ... فـالوجـد فى الحـال أداها إلى الميل

لـو أنــزل الله قــرآنــا على جـــبل ... تصدعّت رأسه من شدة الوجـــل

تلك الحجـارة لم تنقض بل هبـطت ... من خشية الله لا للضعف والخـلل

وغاب سلطانها فاستوحشت ورمت ... بنفسها لجـوى فى القلب مشتـعل

فـالحــمـد لله حـظ العـــين زال بما ... قد كان قــدّره الرحمن فى الأزل

لا يعترى البؤس بـعـد اليوم مدرسة ... شـيدت بنيانـها بالعـلم والعـــمل

ودمت حتى ترى الـدنيا بها امتلأت ... علما فليس بمصر غيـر مشتـــغل

قال فاتفق قتل السلطان بعد سـقوط المنارة بثلاثة وثلاثين يوما، ومـات السلطان قبل أن يـتم رخام هذا الجـامع فأتمه بعـده الطواشى بشيـر الجمـدار وكان قد جـعل السلطان لهذا الجامع أوقافـاً عظيمة فلم يترك منها إلا شىء يسيـر وأقطع أكثر البلاد التى وقفت عليه بديار مصر والشام لجماعة من الأمراء وغيرهم وصار هذا الجامع فى

مقابلة قلعة الجبل لأنه قلما تكون فتنة بين أهل الدولة إلا ويصعد عدة من الأمراء وغيرهم إلى أعلاه ويصير الرمى منه على القلعة، فلما كان فى سلطنة الملك الظاهر برقوق لم يحتمل ذلك وأمر فهدمت الدرج التى كان يصعد منها إلى المنارتين والبيوت التى كان يسكنها الفقهاء ويتوصل من هذه الدرج إلى السطح الذى كان يرمى منه على القلعة وهدمت البسطة العظيمة والدرج التى كانت بجانبى هذه البسطة التى كانت أمام باب الجامع حتى لايمكن التسور إلى الجامع وسدّ من وراء الباب النحاس الذى لم يعمل فيما عهد باب مثله وفتح شباك من شبابيك إحدى مدارس هذا الجامع ليتوصل منه إلى داخل الجامع عوضاً عن الباب المسدود فصار هذا الجامع تجاه باب القلعة المعروف بباب السلسلة وامتنع صعود المؤذنين إلى المنارتين وبقى الأذان على درج هذا الباب، قال المقريزى: وكان ابتداء هدم ما ذكر فى يوم الاحد ثامن صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ولما شرع السلطان الملك المؤيد شيخ فى عمارة الجامع بجوار باب زويلة اشترى هذا الباب النحاس والتنور النحاس الذى كان معلقاً فى الجامع المذكور بخمسمائة دينار ونقلا فى يوم الخميس سابع عشرى شوال سنة تسع عشرة وثمانمائة فركب الباب على البوابة وعلق التنور تجاه المحراب. فلما كان يوم الخميس تاسع شهر رمضان سنة خمس وعشرين وثمانمائة أعيد الأذان فى المئذنتين كما كان وأعيد بناء الدرج والبسطة وركب باب بدل الباب الذى أخذه المؤيد واستمر الأمر على ذلك.

ولما مات السلطان الملك الناصر حسن المذكور اجتمع الأمراء وتشاوروا فيمن يولونه السلطنة بعده فوقع اختيارهم على ابن أخيه السلطان الملك المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون وعمره يومئذ أربع عشرة سنة فبايعوه فى يوم الأربعاء تاسع جمادى الأولى سنة اثنتين وستين وسبعمائة ولقب بالملك المنصور وركب من يومه فى دست السلطنة وصعد إلى قلعة الجبل فى كبكبة عظيمة للغاية، ولما استقر به المنصب قام بالأمر يلبغا وأخذ فى تدبير الملك والتصرف فى الأمور فأمر ونهى واستبد فاتسعت كلمته وعظمت سطوته وهابه الأمراء جميعاً وتمكن من الملك كل تمكن ودانت له الأمور فلما بلغ السلطان الملك المنصور أشده لم يطق الصبر على فعال يلبغا وتاقت نفسه إلى الاستبداد بالملك فجعل يستعمل الحيلة فى نزعه من يد يلبغا ويستميل إليه الأمراء وطوائف المماليك ويعمل على تقرب العامة منه فلم يفلح وكان من أمره ما سيذكر فى محله .

ولما دخلت سنة ثلاث وستين وسبعمائة مرض الخليفة المعتضد بالله أبو بكر بن

المستكفى بالله وطال مرضه واشتدت علته إلى ليلة الأربعاء ثامن عشر جمادى الأولى مات فى داره بالكبش فكانت خلافته نحو عشر سنين. قال بدر الدين فى ترجمة الخليفة المذكور هو أمير المؤمنين، وقائد المذعنين وإمام الأئمة وقدوة المتكلمين فى براءة الذمة علت أركانه، وبسطت أغصانه وتجملت به ديار مصره، وصغت إلى رأيه ملوك عصره رأس وساد ومنح وأفاد، ورفل فى حلل النعيم، وهدى إلى سلوك الطريق المستقيم، واعتضد بالله فى أموره ولم يخف عن الناس بحجبه ولا ستوره واستمر سائراً فى منهاج عزه وبقائه إلى أن لحق بعد عشرة أعوام بالخلفاء الكرام من آبائه، وكان الخليفة المعتضد المذكور يقنع بالكفاف حسن السيرة حج مرتين إحداهما سنة أربع وخمسين والثانية سنة ستين وكانت أمور عيشه متيسرة وفى خلافته سعى المتأصلون فى إقامة بطرك لهم بعد تلك العطلة التى وقعت بسبب القس داود بن لقلق التى تقدم بيان حوادثها واتحدت كلمتهم فى هذه المرة على إقامة القس داود المذكور فعمل كبارهم على تقليده المنصب وألحوا وأكثروا الطلب حتى تم له الأمر فكان خامس سبعى بطاركة الاسكندرية وهو من مدينة الفيوم، فلما استقر به المنصب أحسن السياسة وقام بواجب الرياسة وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل السابع)

(فى خلافة المتوكل على الله أبى عبد الله محمد)

ثم قام بالأمر بعد الخليفة المعتضد ابنه أبو عبد الله محمد بعهد من أبيه فى يوم الخميس ثانى عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وسبعمائة هجرية أى نحو سنة إحدى وستين وثلثمائة وألف ميلادية ولقب بالمتوكل على الله وخلع عليه من يومه بين يدى السلطان الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر حاجى وفوض إليه نظر المشهد النفيسى على ما كان عليه أبوه من قبل وفوض هو إلى السلطان الملك المنصور التصرف فى أمور المملكة ومهام الدولة وأشهد على نفسه بذلك فزادت رغبة السلطان من حينئذ فى الاستبداد بالأمر والتخلص من يلبغا وعظم عليه ما هو فيه من الحجر والتقييد وتجرد لمعاداة يلبغا وإيقافه عند حده وجعل يستميل بعض الأمراء وأصحاب الكلمة وأجزل العطاء إلى طوائف المماليك ليكونوا له عوناً على يلبغا كل هذا ويلبغا لا يلتفت إليه ولا يهتم به حتى ظن السلطان أنه بلغ المنشود وتم له المقصود، فلما

كان يوم الاثنين رابع عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة ركب الأمير يلبغا فى نفر من أصحابه وصعد إلى قلعة الجبل وقبض على السلطان الملك المنصور ففر من كان حوله من الأجناد والمماليك وتركوه فخلعه يلبغا فى الحال وسجنه بالقلعة من يومه فكانت سلطنته سنتين وأشهراً وبقى مسجوناً إلى أن مات لسنة إحدى وثمانين وسبعمائة هجرية، وفى اليوم الثانى من خلع السلطان الملك المنصور اجتمع يلبغا مع الأمراء وتشاوروا فيمن يصلح للسلطنة فاتفقت كلمتهم على تولية ابن عمه زين الدين أبى المعالى شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون ولقب بالملك الأشرف وعمره يومئذ عشر سنين قال أصحاب التاريخ: ولم يل من بنى قلاوون من أبوه لم يتسلطن سواه وقام الأمير يلبغا بتدبير الملك والتصرف فى جميع الأمور على ما كان عليه أيام الملك المنصور وزيادة ولبث على هذا الحال زهاء الأربع سنين وقد عظم شأنه وكبر عدم اكتراثه بالأمور وزاد احتقاره لكبار الدولة واستخفافه برجال السلطنة وكثرت مماليكه المعروفة بالخاصكية وساروا بسيرته فعاثوا وجاروا وظلموا الرعية وتطاولت أيديهم إلى أموال الناس واستحلوا ما لا يحل، وظهر القحط فى هذه الأيام بمصر وعم جميع المدن والقرى فأكل الناس الكلاب والقطط والميتة وجذور الأشجار واشتد الحال شدة بالغة واتصل بالديار الشامية وتفشى فيها فضج الناس وعجوا وأكثر أهل مصر من الاستغاثة والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى وذهب جماعة إلى دار الأمير يلبغا ورجموه بالطوب وصاحوا ما يحل لك أن تطلق المماليك يعيثون فى الأرض وقد ابتلانا الله بسبب فعالهم بالقحط فعظم الأمر على يلبغا وتطير من ذلك ولبث الحال على هذه الشدة أياماً كثيرة حتى أكل بعض الناس أولادهم وفشا هذا الأمر بينهم فلم يبق منكورا ثم ارتفع القحط فعمد الأمير يلبغا إلى إيقاف مماليكه عند حدهم وكف أذاهم عن الرعية وشدد فى ذلك وبالغ فى العقوبة فانحرفت خواطرهم عنه وتوغرت صدورهم منه وزالت عنهم هيبته فاتفقوا على قتله وجعلوا يراقبون الفرص فلما كان فى بعض الأيام كبسوه بداره التى فى الكبش وهم فى عدة عظيمة وقتلوه ونهبوا ما فى داره من حلى وملبوس ففرح السلطان الملك الأشرف بموته وظن كمال استقلاله بالملك فقام الأمير استدمر الناصرى أحد مماليك يلبغا المذكور وضم هؤلاء المماليك إليه تولى الإمارة عليهم ونادى السلطان الملك الأشرف بالشر وكاشف أولئك المماليك بما فى سره فقويت قلوبهم واشتدت عزيمتهم وتجردوا إلى نزع الملك من آل قلاوون ثم لم يلبثوا أن ركبوا جميعاً لقتال الأشرف وركب الأشرف لقتالهم ومعه المماليك السلطانية واقتتل الفريقان وطالت الحرب بينهم أياماً ومازالوا حتى انهزم استدمر وجميع الخاصكية وانتصر

الأشرف عليهم نصرة مؤزرة وقبض على كثير منهم فقتل طائفة وأغرق طائفة وأبعد طائفة وبقى منهم بمصر جماعة التجئوا إلى بعض الأمراء. قال بعض كتلب الأخبار: وكان هؤلاء المماليك مختلفى الأجناس غلاظ الطباع أشقياء لا دين لهم ومنهم الأمير صرغتمش واستدمر والجاولى اليوسفى ولم يزل من بقى منهم فى اختلاف ومقت وهياج وحقد للدولة إلى أن تحيلوا وعادوا إلى خدمة الدولة واتفقوا على أن طائفة منهم تسكن بالطباق وأن يدخلوا فى سلك مماليك الأسياد يعنى أولاد السلطان ففعلوا ومنهم من بقى أمير عشرة ومنهم من انضم إلى المماليك السلطانية ومماليك الأمراء وظهروا بعد الانكماش فكانوا أرذل مذكور فى الديار المصرية وعادوا إلى العمل على الإيقاع بالسلطان ونزع الملك من ذلك البيت.

فلما كانت سنة ثلاث وستين وسبعمائة عزم السلطان الملك الأشرف على الحج وأخذ فى الأسباب فانتهز عند ذلك أولئك المماليك الفرصة وكتموا أمرهم وتواعدوا مع أصحابهم الذين تأهبوا للخروج وفى خدمة السلطان على أنهم يثيرون الفتنة مع السلطان فى العقبة وكذلك المقيمون بمصر يخرجون فينقضون نظام الدولة ويحدثون الفوضى ويزيلون السلطان وجميع الأمراء ويستبدون هم بالملك فيفعلون ما يستحسنون وخرج السلطان من مصر يريد الحجاز وهو فى أبهة عظيمة للغاية وتجمل زائد فى عدة وافرة من الأطناب وقد رتب قبل خروجه الأمور واستخلف بمصر والثغور من يثق بهم فى خدمته وأخذ معه من أولئك المماليك من لا يظن فيه الخيانة وكان بينهم جملة من المماليك الأخر فلم يبعد عن مصر إلا قليلاً حتى قام من كان بها منهم وأثاروا الفتنة واستمالوا إليهم جماعة من المماليك السلطانية ونادوا بموت السلطان الملك الأشرف وأقاموا ابنه بدلاً منه ولبثوا منتظرين فعل أصحابهم الذين هم فى خدمة السلطان أما هؤلاء فإنهم لما وصلوا إلى العقبة ثاروا على السلطان فقاتلهم واشتد القتال بين الفريقين أياماً فكانت الحرب بينهم سجالاً ثم انهزم السلطان بعد أمور طويلة وطلب العود إلى مصر وصحبته كبار الأمراء وبعض مماليكه الذين اصطفاهم فنهب الخاصكية الخزينة السلطانية وما فيها ونهبوا جميع ركاب الحج وأخذ بعضهم ما سلبه وسار إلى الشام والبعض إلى الحجاز والبعض إلى مصر وعاد نساء السلطان إلى مصر فى أسوء حال وأشد ضيق وقد ذبح الكثير من الأمراء فى هذه الوقعة وتتبعوا السلطان فلحقوه عند قلعة الجبل فانتشب القتال بينه وبينهم واشتد وقاتل السلطان قتال الأبطال وطال الحال أياماً اختل فيها نظام الدولة وعاث أهل الفساد وكثرت العربدة بمصر والقاهرة والقرى القريبة وارتفع الأمن وعم الخطف فانكف الناس عن الخروج إلى الأسواق وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وقاتل

أهل الأطراف العامة من فوق أسطحة البيوت ومازال الحال هكذا حتى قبض الخاصكية على السلطان وقد تفرق عنه من بقى من أصحابه وسجنوه أياماً قلائل ثم خنقوه ونهبوا جميع بيوت الأموال وذخائر السلطان واقتسموا محاظيه وكذلك فعلوا بأموال وذخائر ومحاظى جميع الأمراء وأزالوا عن الدولة القلاوونية عزها ورونقها وأذهبوا بهجتها وكان قتل السلطان الملك الأشرف فى يوم الثلاثاء سادس ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة فكانت مدة ملكه أربع عشرة سنة وشهرين وخمسة عشر يوماً وأنشأ فى أيامه قصره المعروف بالأشرفية تحت قلعة الجبل سنة اثنتين وتسعين وستمائة ولما فرغ منه صنع فيه أفراحاً عظيمة للغاية لم يعمل مثلها فى الدولة التركية وختن أخاه الملك الناصر محمد بن قلاوون وابن أخيه الأمير موسى بن الصالح علىّ ابن قلاوون وجمع سائر أرباب الملاهى وجميع الأمراء ونثر عليهم الذهب وخلع عليهم الخلع السنية.

ولما مات السلطان الملك الأشرف اجتمع أصحاب الكلمة من الأمراء وهم قرطاى وأيتبك وغيرهما وكتبوا إلى الخليفة المتوكل بالله العباسى يطلبون منه أن يبايع من يشاء بالملك فكتب يقول اختاروا من بينكم من تشاؤون وأنا أبايعه فوقع اختيارهم على ابن الملك الأشرف علاء الدين وعمره يومئذ سبع سنين فبايعوه ولقب بالملك المنصور وكان الأمير طشتمر رأس الفتنة وزعيم الخاصكية الذين ثاروا على السلطان الملك الأشرف بالعقبة قد تأخر بسبب ركب الحاج فلما وصل إلى القاهرة أرسل إليه قرطاى إنك قد استقرّيت فى نيابة دمشق فسر إلى الشام فرأى العجز فتوجه إلى دمشق كارها وجعل قرطاى يتصرف فى الدولة ويستبد بالملك حتى علت كلمته ودانت له الأمور وعظمت شوكته فأبغضه الأمراء وحقدوا عليه وأخذوا يراقبون الفرص ليفتكوا به، فلما كان فى أحد الأيام قام أيتبك فى نفر من أصحابه وأمسك قرطاى المذكور وغدر به واستقل بالحكم وتصرف فى الأمور وطير الخبر بذلك إلى الآفاق فلما علم بالخبر الأمير طشتمر نائب دمشق شق عليه وكاتب نائب حلب وبقية نواب الشام واستنجدهم على قتال أيتبك فأجابوه إلى ذلك وركب إليه اشغتمر نائب حلب ومعه العساكر الحلبية واجتمع الكل بدمشق قاصدين الديار المصرية وجاءت الأخبار بذلك إلى أيتبك فسير عسكراً لقتالهم وخرج هو كذلك ومعه السلطان وبعض الأمراء وكان بين أيتبك وبين الأمير برقوق والأمير بركة شقاق وهما يراقبان الفرص للغدر به فلما وصل ايتبك إلى أول منزلة ركب عليه المذكوران فى نفر من خواصهما يريدان البط به فهرب نحو القاهرة وانفشل العسكر ورجع السلطان والأمراء وكتب برقوق وبركة إلى طشتمر إنك تحضر أميراً كبيراً للقاهرة فأجاب إلى

ذلك وتفرقت العسكر من دمشق وسار طشتمر إلى مصر فلاقاه برقوق وبركة ودخل القاهرة فى موكب حافل واستقر أميراً كبيراً بمصر وأخذ يتصرف فى أمور الدولة فلما رأى برقوق من اتساع كلمة طشتمر وإقبال الدنيا عليه بحذافيرها حسده وندم على تسليمه مقاليد المملكة وتاقت نفسه إلى الملك وكان غاية فى المكر والدهاء صبوراً حازماً مدبراً مولعاً بالاستقلال فجعل يدبر لنفسه ويستميل كبار القوم حتى جاء عيد الأضحى من سنة تسع وسبعين وسبعمائة فركب فى طائفة من أصحابه على طشتمر وأمسكوه واستقر برقوق يحكم البلاد وتصرف فى أمور الدولة فعلت كلمته وكبرت شهرته وطار صيته وهابه الأمراء ومازال على هذا الحال من الشهرة والمجد حتى مات السلطان الملك المنصور فى سلخ ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة هجرية بعد أن حكم أربع سنين وأربعة أشهر فجمع برقوق الأمراء كافة وتشاوروا فيمن يصلح للسلطنة فاتفقت كلمتهم على تولية زين الدين حاجى أخى الملك المنصور وله من العمر يومئذ ست سنين فبايعوه من يومه ولقبوه بالملك الصالح وأركبوه فى دست السلطنة فلم يكن له منها سوى الاسم والكلمة للأمير برقوق ولبث الأمير برقوق بعد ولاية السلطان الملك الصالح زين الدين سنة ونصف سنة يعمل على إعلاء كلمته وتوسيع شهرته وأخذ الملك لنفسه فلما تم له الأمر قام فى التاسع عشر من رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة على الملك الصالح وخلعه ونفاه واستلم مقاليد الملك فكانت مدة سلطنة الملك الصالح سنة ونصف سنة وبضع أيام وكان هو آخر من حكم ديار مصر من دولة المماليك سلالة قلاوون المعروفين عند أهل التاريخ بالمماليك البحرية وبموته انقرضت دولتهم وعفت آثارهم بعد أن حكموا نحوا من مائة وثلاثين سنة وقد مر بك بيان أخبار هذه المدة وما وقع فيها من الحوادث فقامت بعدها دولة المماليك الثانية وظهرت بظهور برقوق المذكور وهو رأسها ومؤسسها فسبحان من له الملك والملكوت وهو على كل شيء قدير.

(وصل)

(فى أصل الجراكسة وفى طباعهم وأديانهم)

وفى

(منشأ دولتهم الثانية بديار مصر)

قال أصحاب التاريخ: قد سمى الكتاب هذه الدولة بدولة المماليك الشراكسة نسبة إلى منشأ سلاطينها فإنهم كانوا من الشعب الشركسى وقد اختلفوا فى محل

ظهورهم فمنهم من قال إنهم ظـهروا بآسية العليا ومنهم من قال إنهم نشئـوا بسيبريا ناحية بحيرة بيكال فى نحو القرن السادس للميلاد المسيحى. والثانى أشهر، ثم نزحوا إلى بحر قزبين فاستـوطنوا غربية وأنشئوا لهم مساكن على شبه الخـيام فسميت تلك الأصقاع من ذلك الوقت باسم شركاسـيا وتناسلوا ونموا نمواً عظيماً فكانوا بعد ذلك يحملون إلى أقطار العالم للاتجـار بهم كالسلع سواء بسواء وكانوا كغـيرهـم من بقية الأمم فى الأزمان الغابرة عاكفين على عبادة الأوثان والتقرب إليها بالقرابين والذبائح وتقديم التقـادم من الأسلحة والحلى .قال بعضهم: وكان فى أحـد الجبال الواقعة ما بين صخوم وصـوغوجق التى يقال لها غوية شـجرة عظيمة عجيـبة المنظر تعادل فى كبرها الـسنيديان وهى مكونة من عدة أشجـار مختلفة الأجناس قـد نبتت فى مكان واحد وتسمى عندهم يعنى عند طوائف الشـراكسة باسم «قودوش» فكان يأتى إليـها فى يوم معلوم من كل سنة طيـر كبير اسمــه بيوغه زعمـوا أنه يسند رأسه على تلك الشجرة ليـسلم نفسه للذبح قرباناً لهـا ولايمانع من يأتى ليذبحه فـإذا فعل ذلك قام أحد الجماعة الحاضرين هناك فى ذلك اليوم فـيذبحه فى الحال ثم يصبون على رأسه وعينيـه شيئاً من الخـمر أو البوزة ثم يكشفـون رؤوسهم ويأخذون طقـياتهم بأيديهم ويضجون ويقولون: يا إلهنا العظيم إن عنايتك بعبـيدك ليس لها حساب ولا حد ثم يسجدون ويتـضرعون لهذه الشجرة وهم مكشـوفو الرؤس وبعد ذلك يقسمـون فيما بينهم لحم ذلك الطير وجلده ويحمدون معبـودهم وينصرفون وإذا سار جماعة منهم إلى السرقـة والنهب بحراً فى القارب المعـروف عندهم باسم خجابا أو خـرجوا إلى السلب فى الطرق والجبال ينذرون لتـلك الشجرة شيئاً من سـلاحهم وآلة حربهم إن هم فازوا وظفروا بفريستهم فـيقول الواحد منهم إن غلبت فى نوبتى هذه فإننى أنذر لشجـرة قودوش أحـسن بارودة أو أحسن درع أو أحسن شىء لا تفـنيه الأمطار ولا تعمل فيه العواصف فإذا تم له ما أراد أتى بما نذره فـيعلقه على أغصان تلك الشجرة ولذلك كان يرى على أغصان قودوش المذكورة شىء كثير من تلك النذور باقية معلقة محتـرمة لايستطيع أحد أن يـمسها بيده لأنهم يـزعمون أن من سرق شيـئا من تلك الأشياء مات لساعته وكان لمعبودتهم قودوش هذه نواب يعرفون باسم طغالك وهؤلاء النواب يخـتـارهم الناس يعنـى إذا رأى أحـد من الناس شـجـرة فى جـوار داره واستحسنها واستـعظم حجمها اتخذها نائبة عن قودوش فيستـر ساقها بسياج لطيف ويربط أطرافها من أعلى بالحبال والحشيش اليابس على هيـئة عمامة ثم يسميها باسم طغالك وينسبون إليها نماء زرعهم وحـفظه من الصيال فإذا هاف الزرع مثلاً ونقصت

غلة الأرض فى سنته تقدموا إلى تلك الشجرة وجعلوا يتضرعون إليها ويقولون وهم حاسرو الرؤوس نرجو كرما منك أيها المعبود العظيم أن تبارك فى غلات أرضنا وتكثرها فى عامنا هذا فقد كانت فى العام الماضى غير كافية لنا ولضيوفنا ثم يسجدون تحتها لجهة "الشرق ويذبحون رأسًا من الضأن أو المعز قربانا ويصبون على رأسة شيئاً من الخمر او البوزة ويكررون هذه الضراعة والابتهال كل قليل إلى زمن الحصاد فإذا أخصبت أرضهم وكثرت غلاتها فى عامهم ذلك فرحوا وخروا سجداً لمعبودتهم وبالغوا فى تعظيمها وإلا حنقوا وصاحوا عليها لماذا لا تسمعين نداءنا ثم يغضبون فينزعون عنها أوراقها ويقطعون أغصانها ثم ينزعونها من أصلها ويحرقونها ويتخذون لهم معبودة أخرى مكانها ثم يتقدمون إليها بالتبجيل والتعظيم ويقولون لها يا معبودنا الجديد إن الطغالك الذى كان لنا فعبدناه من قبلك حيناً قد أساء إلينا فألقيناه فى النار والنور وجعلناك لنا طغالك جديدة وسنقوم بعبادتك خير قيام فإن أنت لم تصغى إلى ندائنا قلعناك وألقيناك فى النار. قال الراوى: وكان هذا التنبيه من عاداتهم القديمة. وكانت عادة السلاطين الجانكيزيين أنهم يعطون أولادهم إلى أمراء الجراكسة لإرضاعهم وتربيتهم على حالة البداوة فإذا أتموا مدة الرضاع والتربية ردوهم إلى آبائهم فكانوا لذلك يغدون ويروحون إلى بلاد القرم ولاختلاطهم بمن اعتنق الدين الإسلامى من التتار مال بعضهم إلى التدين به فخلطوه ببعض عاداتهم فكانوا يصومون شهراً فى السنة وبعد أربعة أشهر من هذا الشهر يطبخون حبوب عاشوراء ثم بعد ذلك بشهر أيضاً يدعون لقراءة المولد النبوى شيخاً عارفاً برطانهم فيقرأ عليهم شيئاً تقليداً للإسلام وكانوا يعملون فى كل سنة ضيافة على اسم سلطان الأبطال الإمام علىّ بن أبى طالب ويتظاهرون مثل العلويين وظلوا على هذا الحال حيناً من الدهر وهم لا يعرفون من الإسلام غير الاسم فقط لأن العبادة التى نقلوها عن التتار لم يقصدوا بها عرض العبودية لجانب الحق سبحانه وتعالى وتعظيم نبيه ورسوله بل كانت لحصول الفيض والبركة. قال بعض الكتاب: وكانوا أيضاً يعملون عيد فصح لروح أبى جهل ويسمون هذا الفصح باسم صاوصورروق ا.هـ.

وقد دخلت النصرانية فى عدة جهات من بلاد الجراكسة بسبب الجنويزيين الذين استوطنوا ساحل البحر الأسود فى القرون المتوسطة فمال إلى التدين بها الكثير منهم وكادت تعم جميع القبائل فلما تغلبت الدولة العثمانية على بلادهم واستقر أمرها ظهر الدين الإسلامى وزال الدين المسيحى أو كاد.

وكانت لهم حكايات وروايات غريبة للغاية يروونها بالسند إلى معبوداتهم ودينهم

قـبل الإسـلام، منها أنهم كانوا يروون أن رجـلاً محبوساً فى مغارة فـى جهة قلعة الحجاج الكائنة فى جبل البرز يقال له (ضـحاك مارى) فاتفق أن رجلاً من أهل قرية كانت تقرب من ذلك الجبل كان يتجول فى الجـبل للصيد فرأى المغارة المذكورة ففكر فى نفسه وقـال ليتها تصلح مأوى للغنم ثـم دخلها فلم ينته إلى جوفهـا حتى سمع صوتاً مريعاً أوقـفه عن المسير فجعل يفرك عينيـه بيديه لعله يرى ما فى داخل المغارة وإذا به يرى شيئـاً هائلاً على شكل الإنسان مربوطة رجلاه إلى عنقه ويداه مـقيدتان بقيـد محكم وفى وسطه سلـسلة من حديد فوقـف الرجل قليلاً حتـى سكن روعه واطمأن جأشـه وعلم أنه محبوس وبينمـا هو يفكر فى أمر ذلك المحبـوس إذ خاطبه المحبـوس قائلاً: مر يا أخى لا تخف واقـترب منى فإنى مـرهون هنا ومنتظر للوقت المعهود فـإن أنت أحسنت لى العمل فأتنى بعـصى طويلة تشبه القصـبة الطويلة التى يعلق بهـا حبل الغسـيل فإن فعلـت وقدرت على أن أنزل هذا السيف المـعلق أمامى فـإننى أتخلص من هذا القـيد وهـذه السلسلة التى أنا مـربوط بها فـأجـازيك على إحسانك بخير الإحسان وأحفظ لك هذا الجميل على الأزمان قالوا: فحن إليه الرجل وأتاه بعصا فتناولها ويداه مربوطتان ومدها نـحو السيف واجتهد جهده فى تنزيله فلم يقدر فالتفت إلى الرجل وقال له: بورك فيك لم يأت وقت نجاتى ولا ساعة خلاصى من هذا الأسر وكسر العصا قطعاً فجعلها جذاذاً كقطع السواك فتركه الرجل وانصرف وعاد إلى القرية فأخـبر زوجته وأولاده بما رآه وحدثهم بما سمـعه من ذلك المحبوس ولبث أربعة أيام ومات وشاع خـبر موته وبما أخبر به أولاده من خـبر ذلك المحبوس فاجـتمع أهل القرية وقالوا: كـيف يموت وقد عـاش جده وأبوه أكثر من مـائة عام وهما لم يشاهدا ذلك المحبوس ولا المغارة ولو لم يره هو ما مات وهو فى هذا العمر واستولى الخـوف من الموت على جميع أهل القرية فتـعاهدوا على أن لا يذهب أحد منهم إلى تلك المغارة وشاع خبر ما وقع بين القرى المجاورة فاجتمعوا وتعاهدوا على أن لا يقتربوا من تلك المغارة ولا يراها أحـد منهم وعملوا لذلك حدوداً لا يتخطوها فأوت إلى تلك الحدود الوحوش من الثعالب والسـمور والفهد وكلب الماء وكثير من الطيور كالرهو والليل والرخم والغـرنوق ودجاج الأرض والدراج وصيدها جمـيعها ممنوع فيما بينهم ولم تزل هذه الحيوانات مع كثرتها تشاهد للمارين وهى آمنة مطمئنة لا خـوف عليهـا، ومن عادة الأمهات عندهم أنه إذا بكـى الطفل وأسكتته أمه ولم يسكت خوفته بصـاحب تلك المغارة فتقول له مه وإلا أتيتك بصاحب المـغارة فيفعل بك كذا وكـذا ويروون عن هذا المحبوس غيـر ذلك أيضاً ولهم عادات فى عـباداتهم كثيرة غير ما ذكرناه قد أضربنا عن إيرادها هنا.

(لاحقة)

(فى أخلاق الجراكسة وعاداتهم)

جاء فى تاريخ العلامة جودت باشا ما تعريبه: جبت أرض قبائل الجراكسة والأباظة طولاً وعرضاً فوجدتها نظيفة طاهرة من جميع الأدران ووجدتهم قوماً عقلاء قابلين للحضارة والمدنية ذوى شجاعة وجسارة صادقين فى أقوالهم ثابتين فيها لا يتكلمون بالكذب أصلاً ولا يحلفون أيماناً كاذبة فإذا اتخذت لك منهم خادماً فمهما كان عنيداً فظاً عاصياً فاستحلفه على الأمانة والولاء فإذا حلف لا يخونك أبداً ولا يحنث فى يمينه ولا يعمل على خلاف ما أقسم به ولكن يجب استحلافه على كل أمر بحرفه فتقول له: احلف أنك لا تخوننى فى كذا وفى كذا وفى كذا فإذا ارتكب الخيانة فى أمر وعاتبته عليه وكان غير داخل فى عداد من استحلف عليه قال قد حنثت فى هذا الأمر لأننى لم أحلف على عدم الخيانة فيه. قال: وهم قوم فى غاية السخاء والكرم يقرون الضيف حتى لو كان صاحب البيت من أشرافهم والمضيف من صعاليكهم أو من أحد العامة فإنه لا يقعد فى حضوره بل يخدمه واقفا على قدميه ولا ينام بل يقضى ليله مسلحاً بسلاحه لحفظه وحراسته، ومن عادتهم أن صاحب البيت لا يأكل مع الضيف ولا من الطعام الذى صنع للضيف ولا ينزعون عن الدجاج الذى يطبخونه للضيف رؤوسها عن أبدانها بل يضعونها أمام الضيف كذلك إشارة إلى أن رؤوسهم وأجسامهم فداء له وألبستهم تكاد تكون جميعها من لون واحد فلا فرق بين الغنى والفقير فى الملبس وفقراؤهم لا يصيرون أغنياء وأغنياؤهم لا يصيرون فقراء وجميعهم يعتقدون أنهم أخوة بعضهم لبعض فإذا لزم لأحدهم شيء وطلبه من الآخر أعطاه إياها بلا معاوضة ولا يجيبه بكلمة، لا ومن عاداتهم أن لا يقتل أحدهم الآخر ولا يشتمه ولا يسبه ولا يضربه ويستخدمون أسراهم بالرفق واللين من غير أن يضربوهم أو يؤذوهم ولا يقتّرون عليهم فى المأكل والمشرب وليس من الأمور المعيبة عندهم النهب والسلب أو التخريب بل يعتبرون ذلك من البسالة والإقدام، ومن عاداتهم احترام الشباب للشيوخ فلا يقصر الشاب فى خدمة الشيخ بل يقوم بخدمته قيام العبد لخدمة مولاه ويصح لصاحب الحسب والنسب والقدر الرفيع من قبائل الجراكسة أن يتزوج ببنت آحاد الناس ليكسبها قدراً وشرفاً ولكن لايصح أن الأصاغر من الناس يتزوجون ببنات ذوى الحسب الرفيع مطلقاً ولا يسكنون بجوار بعضهم بل بيوتهم متفرقة على رؤوس الجبال فإذا حدث

لأحدهم حادث نادى بما يعبر عنه بلسان التتار أيش حريق فيصل خبر هذا الحادث إلى جميع البيوت في وقت قريب للغاية فيجتمعون ويتكلمون فى أمر ذلك الحادث وإذا قاموا لحرب قدّموا عليهم أحدهم فلا يبقى لأحد منهم كلمة فوق كلمته فعليه تدبير أمرهم فى تلك الحرب وعليهم طاعته فى جميع ما يأمر به فإذا انقضت الحرب عاد كل إلى ما هو عليه من الحرية والاستقلال، ولغتهم متعددة ولا تنطبق على مخارج الحروف المعتادة قال ومع هذا كله فإنهم متوحشون جبليون لا يميزون بين الكفر والإيمان ولا بين الخير والشر ولايقدر غريب أن يطوف بينهم وإذا أراد أحد الناس أن يمر بين مساكن إحدى قبائلهم أخذ معه دليلاً من قوم تلك القبيلة وإلا وقع فى مخالب العطب وهذا الدليل يقال له (شاغرى) وهذا الشاغرى يكون مرعىّ الجانب مسموع الكلمة فإذا شاء أحد من الناس الاختلاط بقبائل أولئك القوم ومعاشرتهم والتطواف بين منازلهم كواحد منهم لزمه أن يتبنى لأحد أصحاب الحسب وطريقة ذلك عندهم أنه يأخذ أولاً ثوبين من القماش الأبيض وجلداً من السختيان وإبرة وخيطاً ومشطاً وكستباناً ثم يطلب له دليلاً فإذا وجده يعطيه أحد الثوبين المذكورين أجرة ليوصله إلى أمير القبيلة التى يختارها فيسير به إلى دار الأمير فيقدم هديته إلى امرأة صاحب الدار وإذا كان صاحب الدار غائباً فى ذلك الوقت لزمه الدخول إلى فناء الدار وطلب زوجة صاحب الدار فإذا جاءته هجم عليها وأخذ بفمه أحد ثدييها وجعل يرضعه وهو يقول قد صرت فى بيت الوالدين وصرت لك ابناً فى الرضاع يفعل هذا ولو كانت امرأة ذلك الرجل بنتاً وكان زفافها إليه تلك الليلة وإذا كان لايعرف رطانهم يبلغهم ما يقول بواسطة ترجمان منهم وقاعدتهم فى هذا الأمر أن المرأة تمسح بيدها على ظهره إشارة لقبول بنوته ثم تأذن له بالإقامة عندهم وعندما يأتى زوجها تخرج إليه وتقول له: انظر إلى هذا فقد اتخذته لى ولداً ثم تشير إلى زوجها بأن يقبل يده فيفعل ويقبله أيضاً ويأخذ من يومه فى تدارك أمر ضيافته فيعدّ لذلك ما طاب من المأكل والمشرب ويدعو قبيلته ومن جاورها من بقية القبائل ويجعل ذلك الوقت عيداً فيأكلون ويشربون ويفرحون يومهم ذلك وفى ختامه يقول صاحب الدار لجميع من حضر: انظروا قد اتخذت هذا لى ولدا فيبشون فى وجهه ويهنئونه ثم ينصرفون ويبقى صاحب الدار وذلك الرجل فى الاتصال كالأب والابن ويظهر منهما للآخر محبته فيغدو الرجل ويروح بلا ممانع فإن كان تاجراً فلا يبقى فى حاجة إلى من يحفظ عليه ماله بل يكون آمنا من جميع المخاوف والمحاذير فإذا صادفه فى طريقه أحد وقصده بسوء من أخذ ماله أو إذهاب روحه فقال أنا متبنى لفلان فإن ينكف عنه

فإذا لم يلتفت إلى قوله وأخـذه ماله أو أخذّ أسيراً واتصل خبر مـا جرى له بأبيه قام لاسترجـاع ما أخذ منه أو استخلاصـه وأخذ أيضاً من الفاعل لذلك تسعة أمـثال ما اغتالـه ويسمون ذلك عندهم (عيـبلق) أى جزاء ما ارتكبه من العـيب وهى عادة من رسمهم القديم وإذا كان الصائل أو المغتال لا قدرة له على دفع هذا الجزاء أخذ أسيراً وبيع. ومن عاداتهم أن من يحكم عليه بالجزاء لا يهرب بل يسلم نفسه وإذا كان له بنات ورضى أب من أخذ مـاله بأخذهن جـاز له بحسب قانونهم أخـذ البنتين منهن بدلاً عن أبيهما فيباعان عوضاً عن أبيهما.

والقتل عندهم من أكبر الجرائم وأشدها عقـاباً ولذلك يتباعدون عنه ما استطاعوا فإذا ضرب أحـدهم آخر ضرباً أفـضى به إلى الموت كان الجزاء بحسب مـرتبة الأهل وهم على ثلاث مراتب وهى مرتبة البكوات، ومرتبة الأوزنيين والطوقاد، فالبكوات هم كبار القـبائل وأصحاب الحسب والنسب والأوزنيـون هم أواسط الناس والمساتير منهم والطوقاد هم العامة فإذا كان المقـتول من أواسط الناس كانت ديته عشرين عدداً حسـب اصطلاحهم خـمسـة منها أسـرى تقاس قـدودهم على قدر مـعلوم بالشـبر والخمسة الثـانية منها عبارة عن خمـسة رؤوس من جياد الخيل كل رأس بقيـمة أسير والخمسة الثالثة منها عبارة عن خمسة دروع كل درع قـيمة أسير والخمسة الباقية يقال لها (شوشقـة) يعطى فيها سيف وبارودة وقوس ولابد من قـيام المحكوم عليه بالدية بجميع ذلك على أى حـال كان ولما لم يكن عندهم نقود ولا سكة كان تقدير قـيمة الأسير عندهم بالشبر ولا يعتبر عندهم ثمن الأسير بحسب جماله أو بشاعته بل ينظر حسابه على حسب الشبر والأسير التـام عندهم ستة أشبار فإذا كان أقل من ذلك عدّ ناقصاً فإذا لزم أحدهم أن يعطى آخر أسيراً تامـاً وأعطاه إياه بقياس أربعة أشبار مثلاً لزمه أن يتمم الـباقى بشىء آخر، ومن عاداتهم أيضـاً أنه إذا زنت امرأة وثبت زناها بيعت هى وجميع أولادها بأبخس الأثمان، وقاعدة ذلك عندهم أن زوج تلك الزانية يذهب إلى أبيها وأمهـا ويخبرهما بما وقع ويقول إن بنتكما بـنت حرام فخذوها عنى وأعطونى ما أخذتموه منى مقدما فى عقد نكاحها فعند ذلك يتبرأ منها والداها ويأذناه بأخذها وبيعها هى وأولادها فيحملها مع أولادها إلى النخاس ويبيعهم ويأخذ ثمنهم فلا يصل إلى داره إلا ويكـون قد فرق جـميع الثمن المقـبوض على إخـوانه وخلانه ويبيت ليلته تلك ويصبح فيسير إلى بيت الزانى ومعه بعض كبار القبيلة ويقول له قد بعت المرأة بكذا من الثمن وأطلب مـنك حقى ثم يتركه وينصـرف، ويرسل إليه فى ثانى يوم من يطالبه بهذا الثمن فلا يسع الزانى إلا أن يقوم بدفع الثمن الذى بيعت به

المرأة وتسعة أمثاله أيضاً جزاء ما ارتكبه من فعل الزنا فإن كان الزانى لا مال عنده ولم يوجد من يعينه على ذلك فيقوم عليه والداه ويقيدانه ويسلمانه إلى زوج المرأة ويقولان له هذا حقك فيأخذه بحيث لا يضربه ولا يشتمه ولا يهينه ولا يوبخه ولا يقول له إنك فعلت كذا وكذا لأن الشتم وفحش القول عندهم مكروه ويسير به إلى السوق ويبيعه بأى قيمة أعطيت فيه ثم يلتفت إلى الشخص ويقول له: هذه قيمتك ويفرق ما قبضه من الثمن على الحاضرين ثم إن قبيلة الجانى توفى بقيمة حقه.

وبلاد الجراكسة لطيفة الهواء والماء وفصولها الأربعة جميلة وأراضيها خصبة ذات محاصيل كثيرة وينبت فيها جميع أصناف الخضر ولكن جميع قبائل الجراكسة لا يأكلون الخضر ويعيشون على أكل اللحم فقط وليس لهم غاية فى الفلاحة فهم ذوو كسل وبطالة وطباعهم أشبه شيء بطباع العرب البادية ولكنهم لا يعادون بعضهم ولا توجد بينهم آداب ولا رسوم مدنية ولا ما يوجب الترقى والحشمة والاحتراز من بعضهم وفى بلادهم جميع أنواع النباتات كالسنا والراوند الصينى ونوع من السحلب القوى وجميع أنواع الفاكهة والخضر والزيتون والكستنة والشاى البرى ومن أشهر الأشجار عندهم شجر البقس وهو يصلح للسفن جداً فلذلك إذا أتى أصحاب السفن لأخذ شيء منه لا يتقدمون إلى ذلك إلا إذا وضعوا رهائن منهم عند كبار الجراكسة وأخذوا معهم رهائن منهم أيضاً ليكونوا آمنين من شر أصحاب القرصان المعروفين باسم خجايا ولا يوجد عندهم ملح مطلقاً وهو عزيز للغاية عندهم فلذلك جرت العادة عند أصحاب السفن التى تسير إلى بلاد الجراكسة أن يأخذوا معهم كثيراً من الملح ويتعاملون به معاملة العروض وذلك بأن يضعوا مقداراً من الملح فى إحدى كفتى الميزان ويجعلون فى الكفة الثانية مقداراً من العسل مثلاً أو من شمع العسل أو من جلود الثعالب والسمور، وفى بلادهم أيضاً سائر أنواع الصيد من الطير والوحش ولهم فى القنص أمر غريب ومنه صيد الفهد وهو مخصوص بالنساء وذلك أنهن يعلقن قطعة من اللحم فى شعبتى شجرة ذات شعوب فيأتى الفهد ويثب لأخذ اللحم فتعلق رجله فى شعبة الشجرة فيمسك وفى الحال يسلمنه إلى رجل طويل القامة يسلخ جلده، ومن عاداتهم الغريبة أن الذى يسلخ الفهد يلزم أن يكون مساوياً للفهد فى الطول ولهم عوائد أخر غير ما ذكر قد أضربنا عن إيرادها خوف الإطالة.

وقد جاء بهؤلاء الجراكسة ملوك مصر وأكثروا من شرائهم وتغالوا فى ملبسهم ومركبهم لاسيما السلطان الملك الصالح ابن السلطان الملك الكامل فكانوا مع من بقى من المماليك البحرية الذين اصطفاهم السلطان الملك الصالح لخدمته وسلم إليهم دولته يداً واحدة فكانت لهم حراسة الحصون والقلاع وفى أيديهم سائر الابراج وقد

سكنوها وتسموا بها فكان يقال لهم البرجية كما كان المماليك البحرية يسمون أيضاً فى أيام الملك الصالح بالحلقة إشارة إلى أنهم كانوا لا يفارقونه فى حله وترحاله، ومازالوا على هذا الحال حتى عظم أمرهم واشتد بأسهم وظهرت كلمتهم وهابهم الأمراء لتمكنهم من مناصب الدولة وأمور المملكة وتزلف السلاطين إلى كبارهم وأدنوهم خوفاً من بطشهم وأخذوا برأيهم وعملوا بمشورتهم فسادوا وأمروا وفازوا واشتهروا وظهر من بينهم برقوق اليلبغاوى العمرى الذى تقدم الكلام عنه واشتهر أمره واتسعت كلمته وخضع له كبار الدولة وأمراء المملكة فتصرف فى جميع الأمور تصرف المستبد وركب فى دست السلطنة فى أيام الملك المنصور وفى سلطنة أخيه الملك زين الدين حاجى ومازال على هذا الحال من الرفعة والسودد وعلو الكلمة حتى تمكن ورسخت قدمه وخلع السلطان الملك الصالح زين الدين واستبد بالملك وطلب من الخليفة المتوكل البيعة فبايعه وبايعه القضاة والعلماء والأمراء وكبار الدولة ولقبوه بالملك الظاهر تفاؤلاً بالملك ركن الدين بيبرس البندقدارى، ثم كان من أمره وأمر من جاء بعده من هذه الطائفة ما سيذكر بعد.

(فصل)

(فى الكلام على ما وقع فى أيام هذه الدولة أعنى دولة الجراكسة الثانية إلى انقراضها وزوال ملكها)

لما تمت البيعة للسلطان الملك الظاهر برقوق أحسن السيرة وبالغ فى الاهتمام بشئون البلاد وراحة الرعية ورتب أمور الدولة وأتقن نظام المملكة وحصن الثغور وعمر الأبراج ورمم القلاع وأكثر من العساكر والأجناد وتأهب لقتال تيمورلنك وقد كان تيمورلنك على عزم الزحف على الشام وأخذها والركوب على ديار مصر واستخلاصها من يد السلطان الملك الظاهر فخرج السلطان الملك الظاهر فى أبهة عظيمة وسار من القاهرة فى جيش جرار لقتال تيمورلنك، فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالاً عنيفاً فانهزمت جيوش تيمورلنك شر هزيمة وعادت خاسرة وعاد السلطان الملك الظاهر برقوق بجيوشه إلى القاهرة ظافراً غانماً ودخل من باب النصر فى أبهة وأمامه الأمراء ورؤساء الدولة ففرح الناس برجوعه ودقت البشائر ولم يستقر به المقام بالقاهرة حتى سعى أصحاب السعاية بينه وبين الخليفة المتوكل فأعلموه أن الخليفة واطأ جماعة من أهل الفساد على قتله إذا لعب الأكرة وأنه تعاهد مع آخرين على

نصرته واستبداده بالأمر وأن الخليفة يقول: إنه ما فوض إلى السلطان الملك الظاهر برقوق السلطنة إلا كرهاً وإنه لم يسر فى ملكه بالعدل فاستعظم الملك الظاهر هذا الأمر وبث العيون والأرصاد حول الخليفة المتوكل فكبرت الوحشة بينهما وخاف كل من صاحبه وتحفظ فاستدعى السلطان الملك الظاهر بالقضاة والأئمة والعلماء وخاطبهم فى أمر الخليفة وما بدا منه وأعلمهم بخبر الدعاة الذين انضموا إليه ووافقوه على خلع السلطان فأجمعوا على خلع الخليفة وطال الأخذ والرد بينهم أياماً ثم خلعوه وقبض عليه وسجن بقلعة الجبل فى سنة سبع وثمانين وسبعمائة هجرية وقيل بل امتنعوا من إجابة طلب السلطان وقاموا عنه فخلع هو الخليفة بقوته واعتقله بالقلعة ثم طلب عمر بن إبراهيم بن المستمسك بن الحاكم وبايعه ولقبه الواثق بالله وذلك فى رجب سنة خمس وثمانين وسبعمائة،فلما كان ذو القعدة من السنة المذكورة أخرج المتوكل من سجنه فأقام بداره مكرماً لا خوف عليه، وقد كان الخليفة المتوكل المذكور خلع قبل هذا الحين بقليل وذلك أنه لما مات الأشرف وأقيم ولده المنصور عليّ كان الأمير أيتبك البدرى مدبر دولته فوقع بينه وبين الخليفة المتوكل كلام فحقد إيتبك على المتوكل أموراً فطلب نجم الدين زكريا بن إبراهيم ابن ولى العهد المستمسك ابن الخليفة يوم الاثنين رابع ربيع الأول سنة تسع وسبعين وخلع عليه وأقامه خليفة فاستقر بغير مبايعة ولا إجماع ولقب المعتصم بالله، فلما كان العشرون من الشهر المذكور كلم الأمراء أيتبك فيما فعله مع المتوكل ورغبوه فى إعادته إلى الخلافة فأعاده وخلع زكريا فكانت مدة خلافة زكريا خمسة عشر يوماً ولم يتم الشهر على أيتبك حتى اتفق العسكر على خلافه وقاموا عليه فهرب فتبعوه وظفروا به فى تاسع ربيع الآخر من السنة فقيدوه وسجنوه بالإسكندرية ثم كان آخر العهد به فقال فيه شهاب الدين بن العطار :

من بعد عز أذل أيتبكا وانحط بعد السموّ منفتكا
وراح يبكى الدماء منفردا والناس لا يعرفون أين بكى

واستقر الواثق فى الخلافة إلى أن مات حتف أنفه يوم الأربعاء تاسع عشرى شوال سنة ثمان وثمانين وسبعمائة أو سنة سبع وثمانين وسبعمائة فكلم الناس برقوقاً فى إعادة المتوكل إلى الخلافة فأبى وأحضر أخا عمر زكريا الذى كان أيتبك قد ولاه تلك الأيام اليسيرة فبايعه ولقب بالمستعصم بالله فاستقر إلى يوم الخميس ثانى جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. قال بعض أهل التاريخ: وندم برقوق على ما صنع بالمتوكل فخلع زكريا وأعاد المتوكل إلى الخلافة فركب من يومه فى الدست

وحلف القضاة كلا من الخليفة والسلطان على موالاة الآخر ومناصحته وأقام زكريا بداره إلى أن مات مخلوعاً فى سنة إحدى وثمانمائة هجرية وقرئ تقليد المتوكل فى المشهد النفيسى فى ثامن عشر الشهر بحضرة القضاة والأمراء وقرر له السلطان داراً بقلعة الجبل يسكنها ويركب إلى داره بالمدينة متى شاء، واستمر فى خلافته مهيباً محترماً محبوباً عند الأمراء والوجهاء، وكثرت أولاده كثرة فائقة وأثرى وكثر ماله وهابه الملك الظاهر برقوق لما رأى من طاعة الأمراء له واجتماع رجال الدولة على كلمته والأخذ بمشورته فلم يلبث على مصافاة السلطان الملك الظاهر إلا قليلاً حتى عادت الوحشة بينهما واستحكم النفور واشتد الخلاف فاتحد الخليفة المتوكل مع جماعة من كبار الأمراء وبينهم الأمير يلبغا الناصرى والأمير منطاش على خلع السلطان الملك الظاهر فقاموا عليه وخلعوه من السلطنة وسيروه منفياً إلى قلعة الكرك واستقدموا السلطان الملك الصالح حاجى آخر ملوك دولة المماليك البحرية الذى قد كان خلعه برقوق على ما تقدم بيانه فحضر وبايعوه فى السادس من جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ولقب بالملك المنصور واتسعت كلمة منطاش وكبرت صولته وتاقت نفسه إلى الملك فركب فى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة على بعض الأمراء وقتلهم وأمسك الناصرى مع جماعة من الأمراء وسيرهم إلى الاسكندرية وألقاهم فى السجن وأرسل إلى بزلار نائب دمشق من أمسكه وقتله وأقام بدله فى نيابة دمشق الأمير جنتمر أخا الأمير طاز وسير إلى قلعة الكرك من يقتل السلطان الملكَ الظاهر برقوق وكان المرسل ممقوتاً عن أهل الكرك فلما علموا بخبر مجيئه قاموا عليه وقتلوه وأطلقوا السلطان الملك الظاهر برقوق فسار برقوق إلى دمشق فى نفر من أصحابه فخرج إليه صاحب دمشق بالعساكر الشامية فانتصر عليهم برقوق نصرة عظيمة ونزل بقبة يلبغا وحاصر دمشق وضيق عليها وشدد وتوجه إليه نائب حلب المدعو كمشبغا بعساكر حلب ناصراً له واجتمع إليه أيضاً كل من كان قد تفرق عنه فكبرت جموعه وجاءت الأخبار بذلك إلى منطاش بالقاهرة فخرج إليه منطاش بالسلطان والعساكر المصرية والخليفة والقضاة وقرب من الشام والتقى الجمعان بناحية شقحب فانتصر البعض من الفريقين وانكسر البعض ولم يعلم أحدهما حال الآخر فولى كمشبغا هارباً نحو حلب وولى منطاش نحو دمشق ولم يشعر السلطان الملك الظاهر برقوق بنفسه إلا وهو على مخيم السلطان الملك المنصور حاجى فنزل فى الحال عن فرسه وأمسك الملك المنصور وقيده وجلس هو على كرسى السلطنة وصار كل من يحضر من الفريقين يجده جالساً فى دست السلطنة فلا يسعه إلا النزول

وتقبيل الأرض بين يديه فلما كان اليوم الثانى خرج منطاش فيمن بقى من عسكر مصر والتقى الجمعان وتناوشا قليلاً، ثم رجع كل إلى مقره وسار السلطان الملك الظاهر برقوق من ليلته قاصداً مصر ومعه جماعة من عسكر حلب والعسكر الشامى والمصرى ووصل إليها فوجد مماليكه قد خرجوا جميعاً من الحبوس وأمسكوا أعوان منطاش والعاملين معه ومنطاش بدمشق فدخل السلطان الملك الظاهر برقوق مصر فرحاً مطمئناً وأطلق جميع الأمراء الذين حبسهم منطاش.

وأما منطاش فإنه لما بلغه خبر وصول السلطان الملك الظاهر برقوق إلى مصر وماجرى فيها أرسل أميرا اسمه تمنتمر الموساى إلى حلب نائبا وحاصروا كمشبغا فى قلعتها وجاء الخبر بذلك إلى السلطان برقوق فجهز عسكرا عظيما من مصر ومقدمهم الأمير يلبغا الناصرى وسير معه الأمير الجوبانى نائبا بدمشق وقرادمرداش نائبا بطرابلس فلما أحس منطاش بقدومه هرب من دمشق وبلغ ذلك تمنتمر وهو يقاتل من بحلب فهرب أيضا وخرج الناصرى والجوبانى ومن معهما من العساكر من دمشق فى أثر منطاش وهو منضم إلى نعير بن جبار وعنقا فحصلت بين الفريقين وقعة عظيمة للغاية على مدينة حمص قتل فيها الجوبانى وجماعة من الأمراء وعاد الناصرى إلى دمشق فجاءه تقليد نيابتها وبلغ ذلك كمشبغا نائب حلب فأخذ فى عمارة سورها ولم تكن عمرت من عهد طاذان ووصل منطاش ونعير وعنقا فى جيش جرارونازلوا حلب وحاصروها فى شهر رمضان فلم يتمكنوا منها ورجعوا عنها خاسئين، وأرسل السلطان الملك الظاهر برقوق فى طلب الأمير كمشبغا فحضر إلى مصر فولاه بها أميرا كبيرا واستقر عوضه قراد مرداش بولاية حلب، ولم ينكف منطاش عن شن الغارة كل قليل من الزمن على البلاد الشامية وكثر عبثه وفساده فكبر أمره على السلطان برقوق وخرج فى جيش عظيم يريد الشام وبلغ ذلك منطاش فهرب نحو الشرق وقدم السلطان دمشق واستصحب معه الناصرى وسارا إلى حلب وأقاما بها أياما ثم عاد إلى دمشق وفى ليلة عوده قتل يلبغا الناصرى وجماعة من الأمراء بقلعة الجبل وأخذ معه قرادمرداش وقرر عوضه فى حلب الأمير سيف الدين بطا الدوادار وسار فى عسكره يريد مصر فدخلها فى سنة أربع وتسعين وسبعمائة وفى قلبه غصة لعدم ظفره بمنطاش وإراحة البلاد منه فلم يمض على وصوله إلا القليل حتى جاءه الخبر بمسير منطاش إلى نعير بن جبار ونزوله عليه طنيبا فأرسل السلطان برقوق ووعد نعيرا بإعادة الأميرية إليه ومناه حتى سلم منطاش فسيره السلطان مع جماعة إلى قلعة حلب فقتل به وأحضر رأسه إلى القاهرة وعلق بباب

زويلة وعاد السلطان فنكث وعده لـنعير وأرسل يوبخه ويعيره بأنه خـان ذمة العرب ولم يوله الأميرية فندم نعيـر على ما صنعه بمنطاش وتمكن السلطان الملك الظاهر من السلطنة وثبتت قـدماه في منصبـها فهابه الناس وكـبرت شهرته وتقـرب منه الأمراء والملوك وأهدى له الأمير يوسـف بن قرا محمد أميـر التركمان بالشـرق مدينة تبريز وبعث إليه بمفاتيحها مع بعض كبار قومـه فأرسل إليه برقوق خلعة سنية وفوض إليه الغزو وفتح مـا تمكن من فتحه من المـدن والأمصار ففرح قـرا يوسف بذلك وجيش جيشا عظيما وخرج للغزو وقتال التتار فركب عليه تيمورلنك في عسكر جرار وقاتله فانتصر عليه تيمورلنك نصرة عظيمـة ومزق عساكره كل ممزق فسار قرا يوسف ومعه أحمد بن عـويس وهو ممن كان حالفه على قـتال التتار إلى قـسطنطينية مسـتجيرين بالإمـبراطور منول فـلم ينجدهمـا ولم يسـمح لهـما بالبـقـاء في بلاده خوفـا من تيمورلنك لاسيما وقد كانت الإمبراطورية كلها في ضعف واختلال بأسباب الحوادث المتراكـمة وهجـمات السلطان بايزيـد رابع سلاطين آل عـثمان على مـعظم إيالات المملكة الرومانية الشـرقية وضم الكثير منهـا إلى أملاكه وقربه من مقـر الإمبراطورية لولا قيام تيمورلنك من خلفه في عسكر كبير ومنعه من التقدم إلى القسطنطينية، ولما لم يتمكن قرا يوسف وأحـمد بن عويس من البقاء في جوار منوبـل الإمبراطور جاء إلى مصـر في نحو سنة خمس وتسـعين مسـتجيرين بالسلـطان الملك الظاهر برقوق فأحـسن برقوق وفادتهـما وأنزلهـما منزلا رحبـا ولبثا عنده أيـاما وكان تيـمورلنك والسلطان بايزيد التركي يتمنى كل منهما فتح ديار مصر ونزعها من يد دولة المماليك الثانية فعـمد كل منهما إلى إرسال وفد إلى برقوق فتـقدم وفد بايزيد إلى برقرق في معاهدتهم على السلم وإلى الخليفة المتوكل على أن يقرهم على ما بيدهم من سلطنة الأناضول فأجـابهم إلى ذلك أما سفـراء تيمورلنك فإنهم أغلظوا في القـول وسألوه تسليم قرا يوسف وأحمد بن عويس فطيب برقوق خاطرهم ولاطفهم فلم يزدادوا إلا عتوًا فأمر بهم فـقتلوا جميعا فشق ذلك على تيمورلنك واسـتعظمه وسار في جيش عظيم إلى مصـر آخذًا بالثأر فـمر بالرها ففتـحها وأعمل الـسيف في أهلها تشفـيا وانتقاما فأهلك منها خلقا كثيرا ثم جاء إلى حلب فأنكى فيها فخشي السلطان برقوق العاقبة وخرج من القاهرة في عسكر عظيم وصـحبته السلطان أحمد بن عويس يريد دفع تيمـورلنك عن البلاد فلما وصل إلى دمـشق خلع على السلطان أحمـد المذكور وجهزه بشعـاره ذلك وسيره إلى بغداد فأخـذها وضرب السكة باسم السلطان برقوق وجعل السلطان برقوق يتأهب لصد تيـمورلنك ويكثر من جمع الأسلحة والكراع إلا

أن المنية أدركته قبل أن يتم له الأرب فمات بداء الصرع فى يوم الجمعة خامس عشر شوال سنة إحدى وثمانمائة هجرية وعمره ستون سنة فحزن عليه الناس حزناً عظيماً لعدله ورفقه بالرعية وقد أبطل فى أيامه المكوس عن الفاكهة والأثمار التى كانت ترد من طريق بولاق وكان كثير الصدقات محبا للعلم والعلماء بنى مدرسة عظيمة وسماها المدرسة الظاهرية وابتنى جامعا لايزال إلى يومنا ظاهرا معروفا بجامع برقوق وكان له ولع باقتناء الأسلحة وجياد الخيل والاستكثار من المماليك الجراكسة وكان كثير العناية بأمور الدولة وتنظيم المملكة .

ولما مات السلطان الملك الظاهر برقوق المذكور بايعوا بالملك ابنه فرج زين الدين الملقب بأبى السعادات وله من العمر يومئذ ست وعشرون سنة ولقبوه بالملك الناصر فلما كانت سنة ثلاث وثمانمائة وردت الأخبار إلى الملك الناصر بتأهب تيمورلنك للزحف على ديار مصر والشام فإنه لما عاد من أخذ بلاد الهند بلغه وفاة السلطان الملك الظاهر برقوق فاستبشر لذلك وأنعم على مخبره بجملة تحف وكان فى نفسه منه لقتله رسله ومن أخذ السلطان بايزيد خان مدينة سيواس عقب موت صاحبها القاضى برهان الدين سنة ثمان وتسعين وسبعمائة مع ملطية وأخذ السلطان أحمد بن عويس بغداد فقصد بلاد الشام ومعه من العساكر ما لا يكاد يحصى. قال أبو الوليد محمد بن الشحنة الحنفى: أخبرنى الحافظ الخوارزمى أن بديوان عساكر تيمورلنك المختصة به ثمانمائة ألف وأنه اجتاز على سيواس وحاصرها وأخذها بعد أن حلف لأهلها أن لا يضع فيهم السيف فلما تمكن منهم حفر لهم حفائر ودفنهم فيها أحياء ثم أحرق البلد وأخربها وتوجه نحو البساتين فوجد أهلها قد أخلوها فأحرقها وخربها ثم توجه إلى ملطية فهرب من كان بها فأخذها وخربها ثم اجتاز بهنى فحصرها ونصب عليها المنجنيق وهدم بعض قلعتها ثم أخذها صلحا. ولما كان يوم الخميس تاسع ربيع الأول وصل إلى حلب ونازلها وكان العامل عليها يومئذ المقر السيفى دمرداش الخاصكى فأرسل يستنجد فجاءته عساكر دمشق مع نائبها سعيد بن سودون خال الملك الناصر وعسكر طرابلس مع نائبها المقر السيفى شيخ الخاصكى وعسكر حماة مع نائبها دقاق وعسكر صفد وغزة فلما اجتمعوا اختلفت كلمتهم فن قائل ادخلوا المدينة وقاتلوا من الأسوار، ومن قائل اخرجوا إلى ظاهر البلد بالخيام وظلوا على هذا الحال أياما فلما رأى الأمير دمرداش نائب حلب اختلافهم خاف شر العاقبة فأذن للناس فى إخلاء المدينة والتوجه حيث شاءوا فلم يوافقوه على ذلك وضربوا خيامهم ظاهر البلد تلقاء العدو وحضر قاصد تيمورلنك وطلب الاجتماع

بنائب دمشق فأذن له فلما دخل عليه أمر بعض غلمانه فقتلوه قبل أن يسمع كلامه فلما لم يرجع القاصد علم تيمورلنك أنه قتل فنادى فى العسكر بالخروج فخرجوا من خيامهم وزحف بهم على المسلمين فى يوم السبت حادى عشر ربيع الأول وأمامهم الفيلة فزعر المسلمون وخافوا وولوا نحو المدينة وازدحموا على الأبواب فمات منهم خلق عظيم والعدو وراءهم يأسر ويقتل بحد السيف وأخذ تيمورلنك البلد عنوة فصعد نواب المملكة وخواص الناس إلى القلعة، وكان أهل حلب قد أودعوا غالب أموالهم بها فحاصر القلعة وشدد عليها وضيق فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الأول، أخذها بالأمان والأيمان مجردة عن الذمة والأيمان فدخلها العسكر ولبثوا بها يومين اثنين ثم غدروا بكل من فيها وأمر فنقلوا جميع ما كان بها من الأموال والأقمشة والأمتعة مما لا يحصى وعاقب أغلب المسلمين بأنواع العقوبات وحبسهم بالقلعة ما بين مقيد ومزنجر ومسجون ومرسم عليه ثم نزل تيمورلنك من القلعة إلى دار النيابة وصنع وليمة على زى المغل فوقف سائر الملوك والنواب فى خدمته وأدار عليهم كؤوس الخمر فشربوا وطربوا فى ذلك اليوم والمسلمون فى عقاب وعذاب وقتل وسبى وجوامعهم ومدارسهم وبيوتهم فى هدم وحرق وتخريب ونبش إلى آخر شهر ربيع الأول فركب تيمورلنك فى عسكره وسار نحو دمشق وقد أقام على حلب نائبا اسمه الأمير موسى فلما جاءت الأخبار إلى الملك الناصر بمسير تيمورلنك إلى دمشق خرج من القاهرة فى عسكر كثير وسار نحو دمشق لقتال تيمورلنك فالتقى الجمعان وانتشبت الحرب بينهما فكانت سجالا ثم وقعت الهزيمة على الملك الناصر ومزقت عساكره كل ممزق فعاد إلى القاهرة ليجمع ما تفرق منهم ويعود لقتال تيمورلنك فبلغه أن تيمورلنك قد اشتغل عنه بقتال السلطان بايزيد ابن السلطان عثمان التركى ففرح بذلك واستبشر، وكان تيمورلنك لما وصل إلى قراباغ بلغه أن بايزيد سار إلى أرزنكان وأخذها فعظم ذلك على تيمورلنك واستكبره وسار فى عسكره إلى بلاد السلطان بايزيد يريد أخذها فخرج عليه السلطان بايزيد والتقى الجمعان بانكورية وحصل بينهما قتال شديد فدارت الدائرة على السلطان بايزيد وسقط أسيرا فى يد تيمورلنك وبقى عنده مأسورا إلى أن مات واستولى تيمورلنك على غالب بلاده وجهز قصاده إلى السلطان الملك الناصر صاحب مصر يطلب منه أميرا من أمرائه اسمه الطنذى كان قد أمسكه من عدة سنين قرا يوسف وجهزه إلى الملك الظاهر برقوق وبقى فى مصر إلى ذلك الحين فخاف السلطان الملك الناصر من ذلك وخشى شر العاقبة وترددت الرسل بين تيمورلنك وبينه فى تقرير قاعدة

للصلح ومازالوا حتى انعقدت بينهما مودة ومهادنة فأرسل السلطان الملك الناصر إلى تيمورلنك زرافة حبشية فأهداه تيمورلنك فيلا وتتابعت رسائل المودة بين الفريقين فظن الناس خضوع السلطان الملك الناصر إلى تيمورلنك واعترافه بالمبايعة إلى دولة التتار فتخوفوا من ذلك وانقبضت نفوسهم وانحرفت خواطرهم على الناصر وأحس هو منهم بذلك فانكمش وتحرز وأبعد عنه كثيرا من الأمراء ومقدمى الأجناد وكبرت الوحشة بينهم وبينه، واتفق أن قصر النيل فى سنة ست وثمانمائة هجرية ثم شرقت البلاد فدهى أهل الصعيد من ذلك بما لا يوصف واشتد القحط وكثر الموت فى الناس والدواب فمات فى مدينة قوص وحدها جوعا زهاء سبعة عشر ألفا ومات فى أسيوط أحد عشر ألفا ومات نحو ذلك وأكثر فى مدن أخرى واشتد الكرب وعم الخطب وطالت الشدة أياما فزاد بغض الناس للملك الناصر واعتقدوا أنه ما وقع لهم ذلك إلا لتقرب الناصر من تيمورلنك وخضوعه لدولة التتار ثم ارتفع الموت عن الناس وكثر الوارد من الحبوب والأقوات ففرحوا بذلك وجاءت الأخبار بموت تيمورلنك فى السابع عشر من شعبان سنة سبع وثمانمائة فزاد فرحهم واطمأن جاش السلطان الملك الناصر وهم باسترجاع ما أخذه تيمورلنك من البلاد الشامية وطمع فى ذلك لما تحقق من وقوع الفتنة بين أولاد تيمورلنك واختلال نظام مملكة أبيهم فأخذ يجيش الجيوش ويكثر من جمع الأسلحة والكراع بدون مشورة الأمراء ومقدمى العساكر فأغضبهم ذلك منه وانضموا إلى أعدائه من بقية الأمراء المبعدين فلما حانت لهم الفرص ركبوا وضيقوا عليه فى قصره وقام معهم العامة والغوغاء وكثر صياحهم حول القصر وبالغوا فى سبه ورميه بالخيانة وعدم الصلاحية للملك وعقد جماعة من الأمراء لواء وساروا به إلى حيث الأمير عز الدين عبد العزيز أخى الناصر وأركبوه وساروا فى ركابه إلى قصر الملك الناصر فحاصروه وضيقوا عليه وذلك فى السادس عشر من ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة فلما رأى الناصر أنه مأخوذ لا محالة تنازل عن السلطنة وخلع نفسه منها فرضوا بذلك وانصرفوا عنه فخرج من قصره واختفى عند بعض خواصه فظن الناس يومئذ أنه قتل بين الغوغاء وأتموا البيعة لأخيه عز الدين عبد العزيز المذكور ولقبوه بالملك المنصور فكانت سلطنة الملك الناصر ست سنين وخمسة أشهر وأحد عشر يوما،ولما استقر المنصب بالسلطان الملك المنصور عبد العزيز جعل يتصرف فى الأمور ويدنى قوما ويقصى آخرين ثم أساء السيرة فأبغضه الناس وندم الأمراء على مافعلوه بأخيه الناصر فاتصل ذلك بالناصر فخرج من مخبئه وشاع خبر ظهوره وتقدم إليه الأمراء فى أن يعود إلى السلطنة فأجابهم إلى ذلك فولوه المنصب فى جمادى الآخرة من السنة فلما قبض على زمام الأمور أمسك أخاه عز

الدين ونفاه إلى الإسكندرية فـقتل بها فى السابع من ربيع الآخـر سنة تسع وثمانمائة وقيل سنة ثمان وثمانمائة فكانت سلطته شهرين غير كاملين.

ولم يكن الخليفـة المتوكل على الله ليـتعرض إلى شىء من أمـور السلطنة فى كل هذه المدّة بعد الذى جـرى له مع السلطان الملك الظاهر برقوق بل كـان منعكفا على أشغاله الخصوصـية مع هيبة ووقار وشهرة، مطاع الأمر، مسـموع الكلمة حتى مات ليلة الثلاثاء عشرى رجب سنة ثمان وثمانمائة هجرية. قال أصحاب التاريخ: وهو أول من أثرى من خلفاء مصر وكـثر ماله ورزق أولادا كثيرة يقـال إنه جاء له مائة ولد ما بين مولود وسقط ومـات عن عدة أولاد ذكور وإناث ولى الخلافة منهم خـمسة ولا نظير لذلك وتولى الخلافـة من إخوته أربعة واتفق للمتوكل هذا أن عـاد إلى الخلافة بعد خلعه مرتين ولم يقع ذلك لأحد فيمـا تقدم إلا للمقتدر فقط، وذكر الحافظ بن حجر فى أنبـاء الغمر أن مولد المتـوكل كان فى سنة نيف وأربعين وسبـعمائة وأنه لما تسلطن برقـوق المرة الأولى حسن له جـماعـة من أهل الدولة وغيـرهم طلب الملك فكاتب الأمراء والعربان مصرا وشاما وعراقا وبث الدعاة فى الآفاق فبلغ ذلك برقوق فخلعـه وسجنه فخرج يلـبغا الناصرى على برقـوق بسبب ذلك فأفـرج عنه برقوق وأعاده إلى الخلافـة وفرح الناس به فرحا عظيـما. قال فلما انتـصر الناصرى وزالت دولة برقـوق قال الناصـرى للخليـفة بمحـضر من الأمـراء: يامـولانا أميـر المؤمنين ماضـربت بسيفى هذا إلا فى نصـرتك وبالغ فى تعظيمه وتبـجيله فتبـرم المتوكل من الدخول فى الملك وأشار بإعادة حـاجى بن شعبان، وكان المتوكل قد عـهد بالخلافة لولده أحمـد ولقبه المعتـمد على الله ثم خلعه وعـهد إلى ابنه أبى الفضل العـباسى فاستقـر فى الخلافة بعده كما سـيذكر فى محله ولقب المستعـين بالله فكانت خلافة المتوكل المذكور نحوا من خمس وأربعين سنة ومات فى أيامه كيرلس بطرك المتأصلين بعد أن أقام سـبع سنين وقد وقعت فى أيامه شـدّة عظيمة قاسى فيـها النصارى من البلايا والمحن ما لا يكاد يدخل تحت الحصر وكـبر الأمر على كيرلس البطرك وعظم الخطب فكان صبـورا وقورا عظيم العناية بالأمة فلمـا مات خلا الكرسى بعـده ثمان سنوات، ثم أقـيم بعـده ابن القس أبو المكارم بن كليل الشـمـاس المصرى وسـمى اثناسيوس وهو سادس سبعيهم فـأقام إحدى عشرة سنة ومات ولم يقع فى أيامه من الحوادث شىء فاختاروا بعده شـماسا اسمه غبريال أصابته القرعـة فنقم عليه جماعة واختاروا آخر اسـمه يوحنا فوقعت لذلك بينهم الشحناء فاشـتد اللدد وطال الخصام وعمل كل فريق على نصرة صاحبه وتقوى أصحاب يوحنا وثبتت قدمهم فتمكنوا من

إقامته بطركا فكان سابع سبعيهم وأقام ست سنين وتسعة أشهر كلها منافسة ومعاكسة وخصام ثم قاموا عليه وخلعوه وسجنوه بإحدى الديارات وولوا غبريال مكانه فأقام سنتين وشهرين كانت الفتنة في خلالهما لا تخمد نارها ولا ينطفئ أوارها وكان المتأصلون لذلك على طرفي نقيض وقد نادى بينهما منادى القلق الدائم والكمد الملازم ثم عاد أصحاب يوحنا فتغلبوا وظفروا وقاموا على غبريال فخلعوه وسجنوه وأخرجوا يوحنا من معقله وأعادوه إلى منصب البطريكية ثانية فعد ثامن سبعيهم. قال بعض كتاب الأخبار: وكان يوحنا هذا رجلا جليل القدر وقورا واسع العلم والمعرفة فلما استقر به المنصب دبر الأمور فأحسن التدبير وعمل على إزالة الوحشة من بين الأحزاب وبالغ فى التلطف مع الحزم ففاز ونجح ومالت إليه القلوب واتحدت على محبته الخواطر فعظمت شهرته واتسعت كلمته وطالت أيامه وكان من الحوادث فيها ما سيذكر فى محله.

(الفصل الثامن)

(فى خلافة أبى الفضل المستعين بالله ابن المتوكل)

ثم قام بالأمر بعد الخليفة المتوكل على الله ابنه أبو الفضل العباسى بويع له به فى ثانى يوم وفاة أبيه سنة ثمان وثمانمائة هجرية أى سنة خمس وأربعمائة وألف ميلادية ولقب بالمستعين بالله فلما استقرت به الخلافة أدنى منه جميع الأمراء وتحبب إلى رجال الدولة واستمال إليه العامة فمالوا إلى محبته ودانت له الأمور واجتمع الناس على طاعته وبقيت الأحوال ساكنة والخواطر مطمئنة إلى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة فوقعت فتنة عظيمة بين السلطان الملك الناصر فرج وبين شيخ المحمودى أحد كبار الأمراء فخرج عليه شيخ وشق عصا طاعته وكان شيخ المذكور أحد مماليك الملك الظاهر برقوق المقربين إليه وكان جليل القدر عالما داهية واسع المعرفة والتدبير شدد فى معاداة الملك الناصر ورماه بالكفر والزندقة والانحلال وتقرب من كبار الأمراء واستمالهم إلى مذهبه فوافقوه عى خلع الناصر وتوليته من يأهل لمنصب السلطنة فكاشف الخليفة المستعين بالله بما فى نفسه وحبب إليه الملك وأعلمه أن الأمراء والناس كافة ميالون إلى مبايعته فمال الخليفة إلى السلطنة وتاقت نفسه إليها وجعل شيخ المحمودى يراقب الفرص للإيقاع بالناصر فاتفق خروج الناصر من مصر إلى الشام ترويحا للنفس فلم يستقر به المقام بدمشق حتى سير إليه الأمير شيخ من

يستـقدمه إلى مـصر ويسأله التنازل عن الملك طوعـا قبل أن يحل به العطب فأكـبر الناصر هذا الأمر وأعظمه وقبض على رسـول الأمير شيخ وسجنه ونادى فى عسكر الشام بالخروج إلى مصر وجاءت الأخبار بذلك إلى الأمير شيخ فاستعدّ للقائه واشتد على الخليفة فى خلعه وقد أثبتـوا عليه الزندقة والكفر وحكم ناصر الدين بن العديم بسفك دمـه، واتفق رأى الأمراء كافة عـلى سلطنة الخليفة المسـتعين بالله واستـقلاله بالأمر فوافقهم الخليفة بعد شـدة وتوثق منهم بالإيمان فبايعوه وحلفوا له على الوفاء فلم يغير لقبه وجلس على سرير الملك وقام الكل بين يديه ووردت بعد ذلك الأخبار بقرب السلطان الملك الناصر إلى حدود الديار المصرية فـخرج الأمير شيخ فى عسكر عظيم ومعه الخليفة المستعين وجماعة من أكابر الأمراء فدخلوا الشام بغير قتال وجعل الخليفة يتـصرف فى الأمور فقرر الأميـر بكتمر جلق على نيابة الشام وقـرقماس فى نيابة حلب وسودون الجلب فـى نيابة طرابلس وجعل الأمير شـيخ والأمير نوروز فى ركابه يدبران الأمر وناى منادى الخليفـة: ألا إن فرج بن برقوق قد خلع من السلطنة ومن حضـر إلى أميـر المؤمنين وابن عم سيـد المرسلين فهـو آمن فتـسلل الناس من الناصر ففـر الناصر إلى [illegible]دينة حلب [illegible]لم به أهلهـا قام أناس منهم على أسواق البلد فنادوا نصر الله أميـر المؤمنين فلم[illegible] الرماة ذلك تخوفـوا على أنفسهم ولم يغيـبوه وقبـضوا على الناصـر وقتلوه بحكم ابن العـديم فى الخامس والعـشرين من المحرم افتتاح سنة خمس عشرة وثمانمائة هجـرية وكتب المستعين إلى القاهرة باجتماع الكلمة إليـه وعزل الجلال البلقينى فـأغضبه وفـعل معه بعد ذلك مـا فعل ثم أرسل المستعين كـتابا ثانيا إلى من القاهرة من الأعيان فأرسـل إلى الجامع الطولونى فقرأه خطيبه ابن النقـاش على المنبر، ثم أرسل إلى الجامع الأزهر فقرأه خطيـبه الحافظ بن حجر على المنبر وصدرت الكتب منه أيضا إلى أمراء التركمان والعربان والعشير فكان مفتتحها، من عبد الله ووليه الإمام المستعين بالله أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين، وابن عم سيد المرسلين، المفـترضة طاعته على الخلق أجمعـين، أعز الله ببقائه الدين إلى فلان ثم سـار بالعسكر المصرى ومن انضم إليـه أيضا من العسـاكر الشامـية إلى القاهرة فدخلوا فى يوم الثلاثاء ثانى ربيـع الآخر من السنة بعد أن تلقاهم الناس إلى قطيا والصالحية وبلبيس وحصل للناس من الفرح بذلك ما لا مزيد عليه وشق الخليفة القاهرة والأمراء بين يديه إلى قلعة الجبل فنزل بهـا ونزل الأمير شيخ الإسطبل بباب السلسلة فلما كان الثامـن عشر من ربيع الآخر صعد الأمير شـيخ والأمراء كافة إلى القصر وحبس الخليـفة على تخت الملك فخلع على الأمير شيخ خـلعة عظيمة بطراز لم يعهد مثلها وفوّض إليه أمـر المملكة بالديار المصرية فى جميع الأمور وكتب له أن

يولى ويعزل من غير مراجعة وأشهد عليه بذلك ولقب نظام الملك فكان الأمراء إذا فرغوا من الخدمة بالقصر نزلوا فى خدمة الأمير شيخ إلى الإسطبل فأعيدت الخدمة إليه ليكون عنده الإبرام والنقض ثم يتوجه دواداره إلى الخليفة المستعين فيعلم على المنشورات والتواقيع وظل الحال على ذلك حينا وقد نودى فى الناس برفع المظالم والمكوس وغير ذلك مما أثقل الرعية فأحب الناس الخليفة المستعين جدا ومالوا إليه بقلوبهم وعمل الحافظ أبو الفضل ابن حجر فى المستعين قصيدته المشهورة التى مطلعها :

الملك أصبح ثابت الأساس بالمستعين العادل العباسى

فلما كان فى شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة أمر الأمير شيخ دواداره أن لا يمكن الخليفة المستعين من كتابة العلامة إلا بعد عرضها عليه ففعل الدوادار ذلك فاستوحش الخليفة وضاق صدره وراجع الأمير شيخ فى ذلك فلم يلتفت إليه وسأله أن يفوّض إليه السلطنة على العادة فأجابه الخليفة بشرط أن ينزل من القلعة إلى بيته فلم يوافقه شيخ على النزول بل استنظره أياما فلم يفوّض إليه السلطنة فقام عليه ونقله من القصر إلى دار من دور القلعة ومعه أهله ووكل به من يمنعه الاجتماع بالناس فكتب المستعين إلى الأمير فيروز سرا يستنجده وكان يومئذ واليا على دمشق من قبل المستعين فأسرع لنجدته فى جيش عظيم للغاية فلما بلغ القاهرة جمع فى سابع ذى القعدة العلماء والقضاة واستفتاهم عما صنعه الأمى رشيخ بالخليفة المستعين فأفتوه بعدم جواز ذلك فأجمع على قتال الأمير شيخ فاستمر الخليفة المستعين بالقلعة إلى ذى الحجة سنة ست عشرة وهو باق على الخلافة وتقررت قاعدة الصلح بينه وبين الأمير شيخ فعاد فيروز بعسكر الشام إلى دمشق وسكنت الفتنة بعد ذلك أياما قلائل، وعزم الأمير شيخ على الشخوص إلى الشام بعد رجوع الأمير فيروز فخاف من المستعين وخشى عائلته فراجع البلقينى فى أمره وكاشفه بما فى نفسه وكان فى نفس البلقينى من الخليفة المستعين شيء لكونه عزله من منصبه كما سبقت الإشارة إليه فأقام له دعوى شرعية وحكم بخلعه من الخلافة فخلع قهرا وسير إلى الإسكندرية فأقام بها مخلوعا إلى أن مات بالطاعون فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة هجرية فكانت خلافته نحوا من أربع سنين وكانت مدة جلوسه على تخت السلطنة سبعة أشهر وخمسة أيام وأقاموا بعده أخاه أبا الفتح داود .

(الفصل التاسع)

(فى خلافة أبى الفتح داود المعتضد)

ثم قام بالأمر بعد المستعين أخوه أبو الفتح داود بويع بالخلافة يوم خلع أخيه سنة ست عشرة وثمانمائة هجرية أى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة وألف ميلادية فلم يكن له فى أمور المملكة كلمة ولا رأى والأمر للأمير شيخ المحمودى فإنه بعد أن عاد من الديار الشامية وقد قرر أمورها على ما شاء قبض على زمام الملك واستبدّ بالمنصب فأحسن السياسة واستمال إليه الرعية وحذوا حذو الخليفة المستعين فى إبطال المكوس والمغارم والرفق بالرعية فأحبه الناس واجتمعت إليه القلوب وأمنت الرعية وسعدت البلاد ودرّت الأرزاق ورخصت الأقوات وكثر الوارد منها وأمنت الطرق واختفى أهل الفساد وأرباب الشقاوة. قال المقريزى: وأنشأ جامعه المشهور بجوار باب زويلة من داخله حيث كانت خزانة شمائل وأول ما ابتدئ به فى أمر هذا الجامع أن رسم فى رابع شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة وثمانمائة بانتقال سكان قيسارية سنقر الأشقر التى كانت تجاه قيسارية الفاضل ثم نزل جماعة من أرباب الدولة فى خامسه من قلعة الجبل وابتدئ فى الهدم فى القيسارية المذكورة وما يجاورها فهدمت الدور التى كانت هناك فى درب الصفيرة وهدمت خزانة شمائل فوجد بها من رمم القتلى ورؤوسهم شيء كثير إلى أن قال: وكان السبب فى اختيار هذا المكان دون غيره أن السلطان يريد المؤيد شيخ المحمودى حبس فى خزانة شمائل هذه أيام تغلب الأمير منطاش وقبضه على المماليك الظاهرية فقاسى فى ليلة من البق والبراغيث شدائد فنذر لله تعالى إن تيسر له ملك مصر أن يجعل هذه البقعة مسجدا لله عزوجل ومدرسة لأهل العلم فاختار لذلك هذه البقعة وفاء بنذره إلى أن قال وفى يوم الخميس سابع عشر شوال نقل باب مدرسة السلطان حسن بن محمد بن قلاوون والتنور النحاس المكفت إلى هذه العمارة وقد اشتراهما السلطان بخمسمائة دينار وهذا الباب هو الذى عمل لهذا الجامع وهذا التنور هو التنور المعلق تجاه المحراب إلى أن قال: وبلغت النفقة على الجامع إلى أخريات شهر رمضان هذا سوى عمارة الأمير فخر الدين زيادة عن سبعين ألف دينار وتردد السلطان إلى النظر فى هذا الجامع غير مرة فلما كان فى أثناء شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين ظهر بالمئذنة التى أنشئت على بدنة باب زويلة التى تلى الجامع اعوجاج إلى جهة دار التفاح فكتب محضر بجماعة المهندسين أنها مستحقة للهدم وعرض على السلطان فرسم بهدمها فوقع

الشروع فى الهدم يوم الثلاثاء رابع عشريه واستمر فى كل يوم فسقط يوم الخميس سادس عشريه منها حجر هدم ملكا تجاه باب زويلة هلك تحته رجل فغلق باب زويلة خوفا على المارة من يوم السبت إلى آخر يوم الجمعة سادس عشرى جمادى الأولى مدة ثلاثين يوما، قال: ولم يعهد وقوع مثل هذا قط منذ بنيت القاهر أهـ.

ومات السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى المذكور فى يوم الاثنين ثامن المحرم افتتاح سنة أربع وعشرين وثمانمائة هجرية فكانت سلطنته ثمان سنين وخمسة أشهر وستة أيام كلها راحة واطمئنان وإسعاد على الرعية فقام بعده ابنه السلطان الملك المظفر شهاب الدين أبو السعادات أحمد وعمره يومئذ سنة ونصف سنة فقام بأمره الأمير ططر فلم يحسن السيرة وأساء التدبير واستبد بالملك وأكثر من السرف والتبذير حتى بذر ما جمعه الملك المؤيد من الأموال وخرج بالمظفر مع حداثته يريد قتال الأمراء بالشام وذلك أنهم لما علموا بموت الملك المؤيد وولاية ابنه المظفر استخفوا به لحداثته وقصدوا الاستبداد بالملك والاستقلال بحكم الديار الشامية فخشى ططر من ذلك وخرج لقتالهم وإرجاعهم إلى الطاعة فسار فى جيش عظيم ومعه السلطان الملك المظفر فلما إلتقى الجمعان اقتتلوا قتالا عنيفا للغاية فظفر بهم الأمير ططر وشردهم وأخضع من بقى منهم وأخذ أموالهم وسبى نساءهم ومازال حتى دانت له الأمور فسار إلى دمشق وفى نفسه ما فيها من حب الاستبداد بالملك فلما استقر به المقام بدمشق قام على الملك المظفر فى شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة فخلعه وارتقى عرش السلطنة فى يوم الجمعة تاسع عشرى شعبان المذكور فكانت سلطنة الملك المظفر شهاب الدين ثمانية أشهر تنقص سبعة أيام، ولبث ططر بالشام أياما كان يدبر فيها الأمر لنفسه وتلقب بالظاهر وكنى بأبى الفتح وهو من مماليك السلطان الملك الظاهر برقوق وسير الأخبار بسلطنته إلى مصر فتعجب الناس من ذلك حيث لم يكونوا ليتوقعوا ولايته على هذه الصورة ثم سار من دمشق وهو متوعك البدن حتى دخل مصر وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل للغاية وأمامه الأمراء وكبار العسكر والجنائب السلطانية فلم يستقر بها حتى ثقل به المرض واشتدّ فمات يوم الأحد رابع عشرى ذى الحجة من السنة فكانت سلطنته ثلاثة أشهر ويومين، فأقيم بعده ولده السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد وعمره نحو عشر سنين فقام بأمره الأمير برسباى الدقماقى وجعل يتصرف فى الأمور فطمعت نفسه فى الملك فقام على الملك ناصر الدين بعد أربعة أشهر وأربعة أيام من ولايته وخلعه وتسلق عرش السلطنة ولقب نفسه بالأشرف سيف الدين وكنى بأبى النصر

وقد كان من مماليك الظاهر برقوق فكان جلوسه على تخت الملك فى يوم الأربعاء ثانى ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة هجرية. قال أصحاب التاريخ: وكان فاضلا عالما نحا نحو الملك المؤيد شيخ فى التزام الحزامة والعدل وعدم التهاون فى قضاء مصالح الخلق فأحبه الناس جميعا ومالوا إلى طاعته واجتمعت له القلوب فسعدت أيامه وأمنت الرعية وزالت الفتن وانقطعت أسبابها واختفى أهل الفساد وزاد النيل فى أيامه فعم الأراضى فأخصبت وكثرت غلتها كثرة عظيمة فرخصت الأسعار وشبع الفقراء وكانت له حروب كثيرة مع الفرنجة ووقائع مشهورة فى عدة أماكن وأخضع جزيرة قبرص وألزم الملك لوسبنيان الثالث بالطاعة والخضوع وضرب عليه الجزية فكان أجدر جميع الملوك الشراكسة بالمدح والشكران فقد كان أرفعهم همة وأكبرهم عزيمة وأشدهم حزامة وأقدرهم على سياسة الجمهور وتدبيرالأمور فطالت لذلك أيامه وعاهد ملوك الفرنجة والسلطان مراد سلطان آل عثمان فكبرت لذلك هيبته واتسعت شهرته وارتفعت كلمته وخافه الملوك والأمراء وتزلفوا إليه وهادوه بالهدايا النفيسة، فلما كانت سنة سبع وعشرين وثمانمائة هجرية خرج عليه بنيق النجاشى عامله على دمشق وشق عصا طاعته فسار إليه فى عسكر عظيم وقاتله حتى هزمه وقبض عليه وعلى دعاته فقتل بعضهم وشرد بعضهم وولى الأمير عبد الرحمن مكانه وكان عبد الرحمن هذا زنجيا أسود. قال أصحاب التاريخ: فلم يقع فى أيام السلطان الملك الأشرف المذكور من الحروب والفتن غير هذه الفتنة ولم تلبث أن تلاشت وعادت إليه الأمور بالديار الشامية كما كانت عليه من قبل واستمر يدبر الملك ويعدل فى الرعية إلى أن مات ثالث عشر ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة هجرية فكانت سلطنته عشر سنين وتسعة أشهر.

فقام بالأمر بعده ولده يوسف ولقب بالملك العزيز وعمره يومئذ نحو خمس عشرة سنة فقام بأمره الأمير حقمق وسمى نظام الدولة وتسلم مقاليد الأمور فاستبد بها وتصرف حسب هواه وضيق على الملك العزيز فلم يبق له من الملك سوى الاسم فاستعظم الملك العزيز هذا الأمر جدا وجمع مماليكه وشاور كبارهم وأصحاب الرأى منهم فى أمر خلع جقمق من منصبه فوافقوه على ذلك وتجردوا لخلعه فأحس جقمق بما عزموا عليه وتحرز منهم وجمع كبار الأمراء وطوائف العسكر وخرج بهم على الملك العزيز فاقتتلوا أياما اختل فيها نظام الدولة وكثر عبث أهل الفساد وتطاولت أيديهم إلى أموال الناس وكادت الفتنة تعم حتى ظفر جقمق بالملك العزيز فقبض عليه وخلعه وارتقى منصب السلطنة فى التاسع عشر من ربيع الأول سنة اثنتين

وأربعين وثمانمائة فكانت سلطنة العزيز يوسف المذكور ثلاثة أشهر لاغير ولقب جقمق نفسه بالملك الظاهر وقبض على زمام الملك وصار يتصرف فى الأمور فعبث وأكثر من تقرير المغارم وضرب المكوس ولم يهتم بمصالح الرعية فأبغضه الناس وتشاءموا من ولايته ونفرت منه القلوب وظهر الطاعون بالقاهرة ومصر عقب ولايته واشتد الموت فى الناس شدة بالغة ثم عم البلاد ففتك بأهلها فتكا ذريعا فكان الناس يموتون بالأزقة والطرقات ولا يوجد من يدفنهم وطالت أيامه ثم ارتفع ولم ترتفع عن الناس المغارم ولا انكفت عنهم جباة المكوس وأعوان السلطان فكان الخليفة المعتضد بالله فى نكد وكمد بأسباب هذه المحن وما نال الرعية من فعال الملك الظاهر المذكور وكان يئن ويتوجع ويراجع الظاهرى ذلك والظاهر لا يلتفت إليه ولا يزداد إلا تشديدا فى الطلب فمرض الخليفة وثقل به مرضه فكان إذا جاءه أحد الأمراء ليعوده شكى إليه من فعال الظاهر بالرعية وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى فلما حضرته الوفاة عهد بالخلافة إلى شقيقه أبى الربيع سليمان ولقب المستكفى بالله وكتب له عهدا بذلك يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أشهد على نفسه الشريفة حرسها الله وحماها، وصانها من الأكدار ورعاها، الشريفة الطاهرة الزكية الإمامية الأعظمية العباسية النبوية المتعضدية، أمير المؤمنين، وابن عم سيد المرسلين، ووارث الخلفاء الراشدين، المعتضد بالله تعالى أبو الفتح داود أعز الله به الدين، وأمتع ببقائه الإسلام والمسلمين، أنه عهد إلى شقيقه المقر العالى المولى الأصيلى، العريقى الحسبى النسبى السليلى، سيدى أبى الربيع سليمان المستكفى بالله عظم الله شأنه بالخلافة المعظمة وجعله خليفته بعده ونصبه إماما على المسلمين عهدا شرعيا معتبرا مرضيا نصيحة للمسلمين، ووفاء بما يجب عليه من مراعاة مصالح الموحدين، واقتداء بسنة الخلفاء الراشدين، والأئمةالمحمديين، وذلك لما علم من دينه وخيره وعدالته وكفالته وأهليته واستحقاقه بحكم أنه اختبر حاله وعلم طويته،وأن الذى يدين الله به أنه اتقى لله ممن رآه وأنه لا يعلم أنه صدر منه ما ينافى استحقاقه لذلك وأنه إن ترك الأمر هملا من غير تفويض المشار إليه أدخل إذ ذاك المشقة على أهل الحل والعقد فى اختيار من ينصبونه للإمامة ويرتضونه لهذا الشأن فبادر إلى هذا العدل شفقة عليهم وقصدا لبراءة ذمته ووصول الأمر إلى من هو أهله لعلمه أن العهد كان غير محوج إلى رضا سائر أهله ووجب على من سمعه وتحمل ذلك منه أن يعلم به ويأمر بطاعته عند الحاجة إليه ويدعو الناس إلى الانقياد له فسجل ذلك على من حضره حسب إذنه الشريف وسطر عن أمره قبل ذلك سيدى المستكفى أبى الربيع سليمان المسمى فيه

عظم الله شأنه قبولا شرعيا، ومات الخليفة المعتضد بعد ذلك فى يوم الأحد رابع ربيع الأول سنة خمس وأربعين وثمانمائة هجرية واستقر المستكفى فكانت خلافة المعتضد نحو ثلاثين سنة هلالية .

ومات فى أيام الخليفة المعتضد المذكور يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام بطركا تسعا وعشرين سنة فخلا الكرسى بعده سنة ولم يقع فى أيامه من الحوادث شيء يذكر فأقاموا بعده ثاوروسيوس وهو تاسع سبعيهم وأصله من منية ابن خصيب من صعيد مصر واسمه عبدالمسيح وكان راهبا فى دير أبو قانة ولم يقع فى أيامه من الحوادث شيء يذكر.

(الفصل العاشر)

(فى خلافة أبى الربيع سليمان المستكفى بالله)

ثم قام بالأمر بعد المعتضد شقيقه أبو الربيع سليمان ولقب المستكفى بالله بعهد منه واستقر بالخلافة فى يوم الأحد رابع ربيع الأول سنة خمس وأربعين وثمانمائة هجرية أى سنة إحدى وأربعين وأربعمائة وألف ميلادية. قال بعض كتاب الأخبار: وكان من صلحاء الخلفاء وعبادهم صالحا دينا عابدا كثير التهجد والتلاوة كثير الصمت حسن السيرة فلما رآه السلطان الملك الظاهر جقمق على هذا الحال اعتقده وعرف له حقه وأجله وعظم قدره وأحبه ولبثا على الصفاء والمودة حينا من الدهر فلم تقع فى أيامه فتن ولم تقم تلك الإحن التى كانت لا تقعد لها قائمة بأسباب بغض الأمراء بعضهم لبعض وتداخلهم فى أمور السلطنة وأحوال الدولة وميل كل منهم إلى الاستبداد بالأمر والاستقلال بأبهة السلطنة وانكف جقمق عن ضرب المكوس والمغارم على الرعية وأبطل بعضها خوفا من الخليفة فاطمأنت القلوب وسكنت خواطر الفقراء وأمنت الطرق واختفى أهل الفساد ودرّت الأرزاق وكثرت غلات البلاد وشبع الفقراء بعد الجوع وأمنوا بعد الخوف ولم تطل مدة خلافة المستكفى بالله إذ مات ليلة الجمعة سلخ ذى الحجة سنة أربع وخمسين وثمانمائة فكانت مدة خلافته نحو ثمان سنين كلها خير وبركة ولم يعهد بالخلافة لأحد فمشى السلطان فى جنازته إلى تربته وحمل نعشه بنفسه وتسابق الأمراء إلى ذلك وخرج الألوف من الناس أمام جنازته وبكوه بكاءمرا وبايع السلطان الملك الظاهرجقمق بعده أخاه أبا البقاء حمزة ولقب بالقائم بأمر الله.

ومات فى أيام الخليفة المستكفى ثاوروسيوس بطرك المتأصلين فكانت مدته ست سنوات أو نحوا منها وكان ورعا تقيا كثير الصدقات مجتهدا متهجداً ولم يقع فى أيامه من الحوادث شيء يذكر فأقيم بعده يوحنا رئيس دير شهران وأصله من منية ابن خصيب فهو الثمانون عددا لبطاركة الإسكندرية ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله .

(الفصل الحادى عشر)

(فى خلافة أبى البقاء حمزة القائم بأمر اللّه)

ثم قام بعد بالأمر الخليفة المستكفى أخوه أبو البقاء حمزة فى سلخ ذى الحجة سنة أربع وخمسين وثمانمائة هجرية أى سنة خمسين وأربعمائة وألف ميلادية ولقب القائم بأمر الله وكان شهما صارما أقام أبهة الخلافة وتعرض لأمور السلطنة واستمال إليه جماعة من كبار الأمراء وطوائف القواد فعظمت صولته وكبرت هيبته وتطاولت يده إلى فعل الدسائس وإفساد الأمور على السلطان الملك الظاهر جقمق فأحس السلطان بذلك فأبغضه ومقته وخشى عاقبة فعله وآثر العزلة والتخلى عن الملك على مناواة الخليفة وكان قد ناهز الثمانين فتنازل عن السلطنة لابنه فخر الدين عثمان وصرّحه فى سائر الأمور وحذره من فعال الخليفة وكان كثير الحزن والاشفاق على ولده فل تطل بعد ذلك حياته ومات بعد قليل فكانت وفاته فى التاسع والعشرين من صفر سنة سبع وخمسين وثمانمائة فبايع الناس ولده فخر الدين المذكور البيعة العامة فى الحادى عشر من المحرم افتتاح سنة ثمان وخمسين ولقب بالملك المنصور وكانت سلطنة الملك الظاهر جقمق أربع عشرة سنة ونحو عشرة أشهر، ولم يستقر بالملك المنصور المنصب حتى عاد الخليفة القائم بأمر الله إلى دس الدسائس وإيقاظ الفتنة طمعا فى الملك فالتم حوله الدعاة واستفحل أمره وظهرت كلمته واشتد الخصام بينه وبين الملك المنصور وعمل كل على تذليل الآخر فتحزبت الأحزاب وانقسم الناس واختلفت الكلمة وعظمت الفتنة ومازال الرؤساء فى نزاع وخصام والأمر فى شدة واحتدام حتى تمكن الخليفة من خلع السلطان الملك المنصور فى سابع ربيع الأول من السنة فلم تكن مدة سلطنته سوى أحد وأربعين يوما أو أحد وثلاثين ولم يتمكن الخليفة من الاستواء على عرش السلطنة بعد خلع الملك المنصور إذ غادره الدعاة

وانصرف عنه الأحزاب واختاروا مملوكا اسمه أبو النصر اينال وهو شيخ مسنّ فولوه الملك وبايعوه بالسلطنة ولقبوه بالملك الأشرف وذلك ثانى يوم خلع الملك المنصور.

ولما استقرت السلطنة بالملك الأشرف المذكور دبر فأحسن التدبير وساس فأحسن السياسة ونظر فى مصالح الخلق نظرة الصادق الأمين واتخذ الأمير بلجيونى وزيرا ولم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحاط بها فخاف الخليفة منه وخشى أمره وانكف عن المشاغبة ولازم السكون ست سنوات وهو يتوقع فى كل سنة منها موت اينال نظرا لشيخوخته فلم يمت ولما طال عليه الحال وعيل صبره والنفس الأمارة تدفع به إلى ركوب ذلك المركب الخشن قام وأثار الفتنة فأحس بها بلجيونى الوزير فما أعلم السلطان حتى خرج الجند على الأشرف وخرج الخليفة معهم فقام عليهم الأشرف فى مماليكه وخواصه وقاتلهم قتالا عنيفا وظفر بهم وشرد الكثير منهم ومزقهم كل ممزق وأرجع من بقى منهم إلى الطاعة وأرسل فى طلب الخليفة فى قلعة الجبل فصعد بعد إقدام وإحجام فلما دخل عليه عاتبه وأغلظ معه القول وزاد فى الغلظة فغضب الخليفة وقال للأشرف، ما بالك قد خلعت نفسى وعزلتك؟ وكان ذلك غلطا منه، فقال قاضى القضاة علم الدين البلقينى: وكان حريصا على جر الخلافة إلى أخى الخليفة يوسف لكونه زوج ابنته قد بدأ بخلع نفسه فانخلع وثنى بخلع السلطان وهو غير خليفة فلم ينفذ ذلك وحكم بصحة خلعه، وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وثمانمائة فرسم السلطان عند ذلك بإخراج الخليفة إلى الاسكندرية فأخرجوه مقهورا مبعدا فأقام بالإسكندرية إلى أن مات سنة ثلاث وستين وثمانمائة هجرية ودفن عند شقيقه المستعين بالله العباسى. قال بعض كتاب الأخبار: ومن غريب الاتفاق أنهما شقيقان كل منهما رام السلطنة وكل منهما خلع وكل منهما سكن الإسكندرية ودفنا معا وحكم بخلعهما قاضيان أخوان ذلك خلعه الجلال البلقينى وهذا أخوه العلم البلقينى وهوعجيب أهـ.

وخلا الجو للأشرف اينال بعد ذلك فاستبد بالملك وعاقب زعماء دعاة الخليفة وخلع من كان يتوسم فيه الشر من الأمراء وكبار العسكر ونظر فى أمور السلطنة بعين ساهرة ووافق علم الدين البلقينى فبايع أبا المحاسن يوسف أخا القائم بالخلافة ولقب المستنجد بالله فكانت خلافة القائم بأمر الله نحوا من أربع سنوات وستة أشهر كلها معاندة ومحاسدة فسبحان من أودع فى كل قلب ما شغله .

(الفصل الثانى عشر)

(فى خلافة أبى المحاسن يوسف المستنجد بالله)

ثم قام بالأمر بعد الخليفة القائم أخوه أبو المحاسن يوسف ولقب بالمستنجد بالله بويع له يوم خلع القائم بأمر الله فى جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وثمانمائة هجرية أى سنة أربع وخمسين وأربعمائة وألف ميلادية فكان حسن السيرة عاقلا رزينا فأحبه الأشرف اينال وأجله ووفاه حقه وأسكنه بدار إخوته الخلفاء بالمدينة وواصله بالعطايا والتحف وكان السلطان الملك الأشرف قد أنهكته متاعب السلطنة وثقل عليه حمل أعباء الدولة فأشرك معه ولده شهاب الدين أبا الفتح أحمد وسلمه مقاليد الأمور فسار فى الرعية سيرة تحمد وسلك مسالك الرفق وأحسن التدبير والسياسة وضرب بعض الدراهم باسمه ووفى السلطنة حق تدبيرها، فلما كان شهر جمادى الأولى سنة خمس وستين وثمانمائة وقد ثقل بالملك الأشرف اينال مرضه خلع نفسه وولى ابنه أبا الفتح المذكور ولقبه بالملك المؤيد فكانت مدة سلطنة اينال ثمان سنين وشهرين فاستقر ولده فى السلطنة واستقل بتدبير الملك وتصرف فى الأمور على أحسن ما يرام فحسده الأمراء واستولت عليهم الغيرة فقاموا عليه وخلعوه فقامت بسبب ذلك فتنة عظيمة وطالت أيامها وبقى الحال على ذلك حتى ولوا بعده فى الثامن عشر من رمضان سنة خمس وستين الأمير سيف الدين خوش قدم ولقبوه بالملك الظاهر فكانت مدة سلطنة المؤيد أربعة أشهر لا غير.

وكان خوش قدم هذا يعرف بالرومى وبالناصرى لأنه كان من مماليك الملك الناصر وكان عاقلا عالما واسع الدراية عظيم التدبير محبا للرعية ساهرا على ما فيه راحتها ميالا إلى الآداب اليونانية القديمة لأنه يونانى الأصل ولم يستوزر إلا كل عالى الهمة كبير الدراية خبيرا بالأمور فعم فى عهده الأمن البلاد وسعد أهلها وجرى أمراؤه على شاكلته فاجتمعت قلوب الأمراء والرعية على طاعته وانصرفوا عن الخليفة فلم يبق للخليفة من الأمور إلا الدين فقط فكان لا يتعرض لأحوال السلطنة ولايزاحم الظاهر عليها ومازال الظاهر مسموع الكلمة ينظر فى مصالح الرعية نظر الأب الشفيق والفتنة راقدة والعدل قائم حتى اخترمته المنية عاشر ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة هجرية فكانت سلطنته نحو ست سنين وستة أشهر فبكاه الناس بكاءً مرا وحزنوا عليه حزنا شديدا .

ولما كان اليوم الثانى من موته اجتمع الأمراء وكبار الجند وتشاوروا فيمن يصلح

للسلطنة فوقع اختيارهم على الأمير أبى سعيد بالباى أحد الأمراء المقدمين فبايعوه فى الحال ولقبوه بالملك الظاهر تفاؤلا فلم يستقر به المنصب حتى أظهر الغلظة فكان فظا مستبدا ظلفا عنيدا وكاد يفسد ما أصلحه السلف فأبغضته الرعية وانحرفت عنه خواطر الأمراء كافة فخاف من الفتنة وأوجس من الخليفة المستنجد فأنزله من داره من قلعة الجبل ووكل به من يراقب أموره فزاد بغض الأمراء له وكرهوا بقاءه فى دست السلطنة وتجردوا لخلعه ثم قاموا عليه قومة رجل واحد وخلعوه فى السابع عشر من جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين وقيل فى سابع جمادى الأولى فكانت مدة سلطنته نحو ست وخمسين يوما وقيل ست وستين، ثم ولوا بعده الأمير تمربغا بايعوا له بالسلطنة فى ثانى يوم خلع الظاهر بالباى ولقبوه بالملك الظاهر أيضا فلم يكد يستقر به المنصب حتى ظهر إفساده وكثر عبثه وأطاع النفس الأمارة فقاموا عليه وخلعوه أيضا ففرحت بخلعه الرعية وكان خلعه فى العشر الأول من رجب من السنة فكانت سلطنته نحو تسعة وخمسين يوما .

وثم ولوا بعده الأمير قايتباى أحد مماليك جقمق وبايعوه فى ثامن عشر رجب المذكور ولقبوه بالملك الأشرف قايتباى فلما استقر به المنصب أخذ فى تدبير الأمور على ما فيه المصلحة وإصلاح ما أفسده السلف، وكان شهما جليل القدر مسموع الكلمة مهيبا واسع المعرفة بأحوال الرعية فأمنت البلاد على يديه واطمأنت خواطر أهلها، وكان بين ملك فارس ومصر معاهدة وعلاقة ودية قد مضى عليها حين وكان بين ملوك آل عثمان وملك فارس عداوة وخلاف كانت الحرب بسببهما لا تنتطفى لها نار ولا يسكن لها إوار وظل الفريقان على قدم الحرب والجلاد حينا حتى ظفر السلطان محمد الغازى العثمانى بملك فارس وهزمه شر هزيمة ومزق شمل جنوده فلما جاءت الأخبار بذلك إلى الأشرف قايتباى خاف من السلطان محمد وأوجس شرا وخشى أن يهاجم الديار الشامية يوما فيسلخها عن ملك مصر ويضمها إلى أملاكه التى كانت بلغت يومئذ مبلغا عظميا فجيش الأشرف جيشا ضخما وسيره إلى الحدود ليدفع عنها غارات الجيوش العثمانية فعلم السلطان محمد بقصده ولم يلتفت إليه وخرج فى جيش عظيم يريد قتال الروم وأخذ بعض مدنهم فزاد قلق الأشرف قايتباى وهم بخلع نفسه من السلطنة وترك الأمور لمن يتولاها فخاف الأمراء وقواد الجند عاقبة تنازله ومنعوه من ذلك وجدّدوا له البيعة وبالغوا فى استرضائه فتولاها كارها وأخذ يتأهب لقتال السلطان محمد، وبينما هو على قدم التأهب والاستعداد إذ جاءت الأنباء بنصرة السلطان محمد على الروم وعزمه على الزحف على مصر

والشام وأخذهما وعمت الإشاعة بذلك وتحققت بتأهب السلطان محمد وإكثاره من جمع الأسلحة وآلات الحرب فكبر خوف الأشرف قايتباى وبالغ هو كذلك فى التأهب والاستعداد وصار يراقب الحوادث مع التحذر فلما تم للسلطان محمد ما أراد من ترتيب الجيوش ولم يبق عليه إلا تسييرهم إلى الشام فاجأته المنية فى مدينة طبقور جابر وجاءت الأخبار بذلك إلى الملك الأشرف قايتباى ففرح وظن بلوغ الغاية، ومات السلطان محمد عن ولدين هما بايزيد وجم المعروف عند أهل التاريخ باسم زيزم وكان بايزيد حاكما بأماسيا وجم حاكما فى بلاد القرمان فوقع بينهما الخلاف واشتد خصامهما على الملك واشتغلا عن الفتح بالمنازعة والمخاصمة فثار الانكشارية بسبب ذلك على قرمانى محمد باشا الصدر الأعظم يومئذ وقتلوه وعاثوا فى البلاد حتى كاد يختل نظام العسكر السلطانى فازداد اطمئنان الأشرف قايتباى وعاد إلى القاهرة بجيوشه ولبث يراقب الحوادث ويتنسم الأخبار واشتد الخصام بين ولدى السلطان محمد إلى حد القتال فقامت الحرب بينهما وطالت أيامها ودخل الأمير جم مدينة بورصة عنوة وقتل فيها من الانكشارية خلقا كثيرا فركب عليه أخوه بايزيد وقهره عند مدينة يكى شهر ففر بمن بقى من عسكره يريد الالتجاء إلى حمى الأشرف قايتباى فتبعه بايزيد بخيله ورجله إلى حدود الديار المصرية ثم رجع ظافراً منصورا ووصل جم إلى القاهرة فى نفر من خواصه فأكرمه الأشرف وأحسن لقاءه وأنزله مكانا رحبا فأقام عنده زهاء السنة ثم سار من مصر إلى حلب وأخذ يراسل الأمير قاسما آخر سلالة أمراء القرمان ويمنيه بأنه إذا أنجده ومكنه من تولى الملك مكان أخيه السلطان بايزيد رد إليه بلاد أجداده وعاهده على المودة والصفاء فمال إليه الأمير قاسم وجمع أحزابه وسار فى نفر كثير مع جم المذكور لمحاصرة قونية عاصمة القرمان فركب عليهم كدك أحمد باشا أحد قواد العساكر العثمانية وهزمهم ومزق جمعهم ففر الأمير جم هاربا، وجاءت الأخبار بذلك إلى الأشرف قايتباى فتطير وزاد خوفه من السلطان بايزيد وعزم على مفاجأته والزحف عليه بالعسكر المصرى قبل أن يدهمه بايزيد بخيله ورجله وجعل من يومئذ يناوى الترك ويقطع على قوافلهم السبل ويشرد ركبهم الراحل إلى بيت الله الحرام وكان ملك الهند قد أرسل إلى السلطان بايزيد سفيرا فى أمر لا محل لذكره هنا فلما وصل السفير إلى مدينة السويس أمر الأشرف قايتباى فقبضوا عليه وجاءوا به إلى القاهرة وعوقه عنده وزحف على أذنة فملكها عنوة وكذلك فعل بطرسوس وقد كانتا فى حوزة العثمانيين فاستعظم السلطان بايزيد ذلك وأكبر وسير سفراء إلى قايتباى فى طلب رد ما أخذه

المصريون من البلاد العثمانية فأرجع قايتباى السفراء بغير جواب وسير عسكرا كثيرا لقتال عساكر بايزيد فكبر كيد السلطان بايزيد وسير هو كذلك جيشا عظيما لقتال عسكر قايتباى فالتقى الجمعان واقتتلوا فكانت الحرب بينهم سجالا ثم انحازت العساكر المصرية إلى ملاطية فأخذها الأشرف قايتباى بخمسة آلاف مقاتل ثم كروا على جند بايزيد وهم فى مضايق الجبال وأعملوا فيهم السيف وقتلوا منهم خلقا كثيرا ومر من بقى وتحصن فى طرسوس وأذنة فأرسل قايتباى الأمير أزبك فى نجدة لإخراج العثمانيين منهما فقاتلهم أزبك قتالا شديدا وأبلى فيهم بلاء حسنا فشق هذا الأمر جدا على السلطان بايزيد وأكبره وآلى على نفسه أن يسترجع أذنة وطرسوس فأنفذ عسكرا عظيما مع صهره الأمير أحمد. وأحمد هذا ابن أمير البشناق ومولده فى بلاد الأرنؤد وتربى فى مهد النصرانية ثم أسلم ودخل فى خدمة آل عثمان حتى بلغ رتبة الإمارة فلما التقى الفريقان اقتتلا قتالا شديدا فانهزم الأمير أحمد وظفرت به الجنود المصرية وانتصروا عليه نصرة عظيمة ووقع أحمد المذكور فى قبضة الأمير أزبك فسار به إلى القاهرة مدحورا ووصل الخبر إلى السلطان بايزيد بما حل بأصحابه فكاد يتميز من الغيظ وجند جندا عظيما وعقد لواءه لأمير من كبار القواد اسمه على باشا فسار فى سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة هجرية ونزل بجيوشه فى بلاد القرمان فعلم الأشرف بخبره وكثرة عساكره فتخوف وعمد إلى طلب الصلح وأنفذ إلى السلطان بايزيد صهره الأمير أحمد واسطة فى ذلك فأبى بايزيد إلا القتال وأحث جيوشه حتى التقت بجيوش الأشرف قايتباى فى أذنة وطوسوس فانتشبت الحرب بينهم فانهزمت جيوش قايتباى شر هزيمة وأخذ منهم العثمانيون أذنه وطرسوس وعاد من بقى من المصريين إلى مصر وفرح السلطان بايزيد بنصرة جيوشه فسار إلى أرمينية فى عسكر عظيم وحاصر تختها وافتتحها بعد قتال شديد وقبض على واليها وسيره إلى القاهرة بدلا من الأمير محمد استخفافا بالأشرف قايتباى فاستعظم الأشرف ذلك وسير الأمير أزبك ثانية فى جيش كبير للقتال فالتقى الفريقان عند طرسوس فواقعهم أزبك فكادوا يهزمونه فعاد إليهم وقارنهم ونال منهم فرجعوا القهقرى ولم يقدروا على القتال فعاد أزبك إلى القاهرة ظافرا غانما فأجله الأشرف وأدناه منه، وحسب الأشرف قايتباى عاقبة تلك الحروب وأوجس منها خيفة فأرسل إلى السلطان بايزيد فى طلب الصلح حقنا للدماء فلم يلتفت بايزيد إلى ذلك وأغلظ فى القول وطلب منه أن يتخلى عن أذنة وطرسوس فإن لم يفعل جاء لقتاله مع جميع دعاة آل عثمان فيفتح مصر عنوة ويعمل السيف فى أهلها فلا يرحم كبيرا ولا صغيرا فأذعن الأشرف

إلى ذلك وتخلى عنهما صاغرا وذلك سنة ست وتسعين وثمانمائة هجرية فانكف بايزيد عن قتاله وعاقده الصلح .

وكان الأشرف قايتباى مع كل هذه الحروب والخطوب كثير التحرز من الخليفة أبى المحاسن يوسف لا يركن إليه ولا يمكنه من شىء من أمور السلطنة ولا يبيح له النزول من قلعة الجبل إلى دار أجداده بالمدينة خوفا من تقرب الأمراء منه وقيام العامة لنصرته فلبث محجورا عليه بقلعة الجبل مقهورا مغلوبا لا يعلم من أحوال المملكة شيئا حتى مات فى يوم السبت رابع عشرى المحرم افتتاح سنة أربع وثمانين وثمانمائة هجرية، كان قد عهد بالخلافة إلى ابن اخيه عبدالعزيز أبى المعز يعقوب ابن المتوكل على الله فكانت خلافة المستنجد نحو ثلاث وعشرين سنة وبضع أشهر .

ومات فى خلافته يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام عشرين سنة وكان كامل الرأى صائب الفكر حسن التدبير محبوبا معظما قامت فى أيامه فتنة عظيمة بسبب ضعف الحكام وسقوط هيبة أصحاب الأمر والنهى فقام العامة على النصارى بالقاهرة وأغلقت جميع كنائسهم ومنعتهم من إقامة شعائر دينهم ثم عم هذا الأمر جميع الأقاليم القبلية والبحرية واشتدت نار الفتنة فوقع القتل والسبى والنهب والتخريب وأريقت الدماء هدرا فى الأزقة والحارات وعجز ولاة الأمر عن ردع العامة وزاد الخطب اشتدادا باشتغال السلطان الملك الأشرف قايتباى بقتال السلطان بايزيد وخلوا القاهرة وغيرها من المرابطين من العساكر والأجناد ومازال الحال على ذلك أياما كثيرة حتى سكنت الفتنة من نفسها وانكف العامة والناس جميعا فى تحرز فكان الخطب شديدا، ولما مات يوحنا البطرك المذكور أقام المتأصلون بعده يوحنا التاسع فكان حادى ثمانيهم ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله .

(الفصل الثالث عشر)

(فى خلافة عبدالعزيز أبى المعز يعقوب ابن المتوكل)

ثم قام بالأمر بعد المستنجد ابن أخيه عبدالعزيز أبو المعز يعقوب ابن المتوكل على الله بويع بالخلافة بعهد من عمه يوم الأثنين سادس عشر المحرم سنة أربع وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة تسع وسبعين وأربعمائة وألف ميلادية، فلما كان عصر يوم الاثنين المذكور صعد إلى قلعة الجبل وحضر القضاة والأعيان فأمضوا عهد عمه ولبس تشريف الخلافة ونزل إلى داره والقضاة بين يديه وكان قد أراد أن يلقب نفسه

بالمستعز بالله ثم وقع التردد بينه وبين المستعين أو المتوكل واستقر الحال على أن يلقب بالمتوكل على الله ، فلما استقرت به الخلافة أحسن السيرة والتدبير وأدنى منه العلماء وتعفف عن أخذ ما يتحصل من مشهد السيدة نفيسة من النذور من زيت وغيره وصرفه في مصالح المكان من عمارة وغيرها وكان الخلفاء قبله يأخذون لأنفسهم أكثره ويفرقون ما يتبقى على من شاءوا من ألزامهم فرفع ذلك كله فلما خبر السلطان الملك الأشرف حاله مال إليه وأحبه ولم يضيق عليه كما كان يفعل بعمه المستنجد ولكنه مع ذلك كان في شاغل عنه بالأنباء المتراكمة عن السلطان بايزيد وخوفه من نقض الصلح واضطرام نار الحرب فكان قلق البال مضطرب البلبال وما زال على هذا الحال حتى مرض ومات في الثاني والعشرين من ذي القعدة سنة إحدى وتسعمائة هجرية فكانت سلطنته تسعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وعشرين يوما فبكاه الناس وحزنوا عليه حزنا عظيما واجتمعت كلمة الأمراء كافة على تولية ولده أبي السعادات محمد فولوه يوم وفاة أبيه ولقبوه بالملك الناصر .

فلما استقر به المنصب أساء السيرة وعبث بالأمور وجار وظلم الرعية فكان جبارا غشوما عتلا زنيما لا رحمة عنده وكان شديد البغض للملة النصرانية على غير سبب وكان النصارى من أهل البلاد إلى هذا الحين لم يتمكنوا من لم شعث ما أفسدته الفتنة السابقة ولا إصلاح ماتهدم من كنائسهم ودورهم وغير ذلك فضيق عليهم وبالغ في تذليلهم وأباح للعامة تتبعهم بالإيذاء ورفع القصص ضدّهم فكان الرجل منهم لا يشعر إلا وقد طرقوا بابه أو أدخلوه عنوة وأخذوا جميع ما وصلت إليه أيديهم من ملبوس وأثاث ثم يأخذون صاحب الدار حتى إذا نزلوا به عند باب داره ذبحوه أو أوقدوا حطبا وألقوه فيه على مرأى من أهله وولده واشتدت نار الفتنة وارتفع لهبها فقتل وحرق خلق كثير وأغلقت الكنائس وسائر بيوت العبادة وتعطلت الشعائر الدينية ،قال بعض أهل التاريخ : فتوجه الناس بقلوبهم إلى الله تعالى وضجوا وعجوا وللناصر بظلمه كل يوم في شأن، فلما كان في بعض الأيام اتفق أن مملوكا من مماليكه أذنب ذنبا صغيرا فأمر به الناصر فسلخ جلده حيا بين يديه فقام عليه عند ذلك طوائف المماليك ونادوا بخلعه فخلعوه كرها وحجروا عليه وضيقوا وتشاوروا فيمن يصلح للولاية فاتفقت كلمتهم على مبايعة الأمير قانصوه الملقب بخمسمائة وهو من مقدمي الأمراء ولقبوه بالملك الأشرف فكانت سلطنة الناصر ستة أشهر إلا أياما قلائل كلها عسف وجور لايطاق، فلما استقرت بقانصوه السلطنة رأى من

اختلال الأحوال وتفشى الفساد فى جميع أمور المملكة ما أقعده عن التدبير وأعجزه عن القيام بمهام السلطنة فعالج الأمر فلم يفلح فأكثر من الأخذ والرد مع الأمراء فلم يتم له أمر فخلع نفسه فكانت سلطنته خمسة أشهر لاغير وكان من أمره بعد ذلك ما سيذكر فى محله إن شاء الله، وأما الخليفة المتوكل فإنه أقام يدبر أمور الإمامة لا يتعرض لشيء من أحوال المملكة عاكفا على ما بيده من حقوق الخلافة حتى مات فى يوم الجمعة الثانى من صفر سنة ثلاث وتسعمائة ولم يعهد بالخلافة لأحد من بعده فكانت خلافته نحوا من عشر سنين فاجتمعت الكلمة على البيعة للخليفة أبى صابر ولقب بالمستمسك ومات فى خلافة المتوكل الذكور يوحنا بطرك الإسكندرية بعد أن أقام ست سنين قضاها فى أنكد عيش وأضيق حال بين أسر واسترقاق وقد ذاقت فى أيامه النصارى من الرزايا والمحن أنواعا وأصنافا وبموته أقيم بعده بنيامين وهو راهب من جبل سينا فكان ثانى ثمانيهم ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

(الفصل الرابع عشر)
(فى خلافة أبى صابر يعقوب المستمسك بالله)

ثم قام بعد الخليفة المتوكل على الله أبوصابر يعقوب بويع بالخلافة يوم السبت الثالث من صفر سنة ثلاث وتسعمائة هجرية أى سنة سبع وتسعين وأربعمائة وألف ميلادية ولقب بالمستمسك بالله وكان حسن السيرة سليم السريرة محبا للخير وأهله عاقلا فأقام فى داره بالمدينة لا يتطرف لشيء من أمور السلطنة ولا يتعلق بأمر من أمور الدولة إلا ما كان بيده من النظر على المشهد النفيسى فمالت إلى محبته القلوب وهابه الأمراء واجتمعوا على طاعته ومال جماعة منهم إلى تسليم مقاليد السلطنة إليه فتحزب آخرون للناصر محمد وطلبوا إرجاعه إلى تخت الملك بعد تنازل الملك الأشرف وخلعه نفسه وانضم إلى هؤلاء جماعة من الكبراء والعلماء ومازالوا حتى فازوا بإرجاعه وتسليم مقاليد الأمور إليه وظنوا إصلاح ما فسد من أخلاقه فلم يستقر به المنصب حتى عاد إلى ما كان عليه من الجور والعسف بالرعية وارتكاب المحرم والفحش مما لا خير فيه وتمادى فى جوره وظلمه فمقته الرعية وأبغضه الأمراء وندموا على توليته الملك وحقدوا عليه وكرهوا مماليكه والمقربين إليه وصاروا يراقبون الفرص للإيقاع به وطال الحال على ذلك أياما، فلما كان سادس عشر ربيع الأول سنة أربع

وتسعين خرج الناصر يريد الجيزة على عادته فكمن له كمين فى الطريق من المماليك وخرجوا عليه وضربوه بالسيوف وتركوه ملقى بالطريق وعادوا إلى القاهرة وأشاعوا خبر موته فاجتمع الأمراء وكبار الجند وتشاوروا فيمن يصلح للولاية بعده فاجتمعت كلمتهم على مبايعة خاله قانصوه الغورى فبايعوه فى يوم الجمعة سابع عشر من الشهر ولقبوه بالملك الظاهر وولوه السلطنة على كره منه إذا كان يعرف ماوراءها من المتاعب وما سيلاقيه من المصاعب، فلما استقر به المنصب رأى من فساد الأحوال ما أقعده وأضعف عزيمته وأبغضه فى الملك فتقاعس وترك الأمور تجرى فى أعنتها وتحجب عن الناس ومنع الأمراء من الحضور إلى خدمته وأغلق دون أهل الظلامات بابه بغضا منه فى السلطنة وكرها فلما أيس الأمراء منه وتحققوا من عزمه على اعتزال المنصب قاموا عليه وخلعوه فى أوائل ذى الحجة سنة خمس وتسعمائة فكانت سلطنته سنة وبضع أشهر وولوا بدله خاله جانبلاط الأشرف قايتباى ولقبوه بالملك الأشرف فتولاها والأمور مختلة والأحوال معتلة وسعد السلطنة فى إدبار فعالجها علها تستقيم فلم يفلح فصمم على خلع نفسه وهم بذلك فأجابوه إليه وخلع فى تاسع عشرى جمادى الآخرة سنة ست وتسعمائة فكانت مدته سنة وأشهرا وأياما.

واختل نظام السلطنة وزالت هيبة الدولة وتطاولت إليها أعناق الطامعين لكثرة العزل والتولية فلما رأى أمراء الشام ذلك وتحققوا أن ذلك إنما هو ناجم عن تفرق الأحزاب وانقسام الآراء وتباين الأهواء اختاروا من بينهم الأمير طومان باى وسيروا الرسل إلى أمراء مصر فى أمر توليته السلطنة فوافقوا على توليته وبايعوه جميعا وطيروا الأخبار بذلك إلى الآفاق ولقبوه بالملك العادل فقدم إلى مصر فى طائفة من الجند الشامى وصعد إلى قلعة الجبل وأمامه الأمراء المصريون ومقدّمو الجند والجنائب السلطانية ودقت لقدومه البشائر وتوسم الناس فيه سمة الخير واستبشروا به فلما قبض على زمام الأمور ورأى من تمرد الجند وإقدامهم على الكبائر بغير خوف ولا حساب لتفشى الخلل فى جميع الأمور وفساد الأحوال شدد عليهم وضيق وآخذهم على كل هفوة فأبغضوه وأضمروا له السوء وصاروا يراقبون الفرص للإيقاع به فأحس بذلك وأخذ يتحرز منهم ويعمل على تفريق كلمتهم وتذليل كبارهم فلم يفلح وقد أكثر المبغضون له وكبر خوفه منهم ففر واختفى أربعين يوما فجعلوا يفتشون عليه حتى عثروا به فى ذى القعدة من السنة فجاءوا به وقتلوه ومثلوا بجثته فكان يوما عبوسا كثر فيه بعد ذلك النهب والسلب والتخريب وإراقة الدماء وتمكن العدو من

عدوه فخاف حينئذ جميع الأمراء وانكمشوا ولم يقدم أحد منهم بعد ذلك على طلب الملك لاستفحال أمر الجند وتصرفهم فى جميع أمور الدولة ثم اجتمع جميع الأمراء وكبار الجند والأعيان والعلماء وأصحاب الوظائف العالية وتشاوروا فى الأمر طويلا ثم اتحدت كلمتهم على إرجاع الأمير قانصوه الغورى إلى دست السلطنة ثانيا لأنهم رأوا أنه لين الجانب سهل الإزالة أى وقت أرادوا خلعه خلعوه لأنه كان أقلهم مالا وأضعفهم حالا وأوهنهم قوة فلما كلموه فى ذلك قال لا أقبل إلا بشرط أن لا تقتلونى فإن رأيتم منى اعوجاجا وأردتم خلعى فأعلمونى فأنزل لكم عن السلطنة وأخلي بيعتكم فعاهدوه على ذلك فقبل منهم فبايعوه فى ذى الحجة من السنةوفرح العساكر ببيعته واستبشروا بولايته وظنوا بلوغ الغاية، قال بعض أهل التاريخ: وكان قانصوه هذا كثير الدهاء كبير المعرفة ذا فطنة وتجربة بالأمور إلا أنه شديد الطمع كثير الظلم جبارا طاغية فجعل يعالج الأمور حتى سكنت الفتنة بما عاهد عليه الجند واشتغلوا عنه وأهملوا أمره فأخذ يعمل التدبير على إهلاكهم وتمزيق شملهم وصار يلقى الفتنة بينهم ويأخذ هذا بهذا ويحرض طائفة على الأخرى ويدس لكبارهم السم فى الطعام ويباعد بين بعضهم والبعض بالأسفار والبعثات الطويلة ،وغير ذلك من الحيل حتى أفنى أكثرهم وأهلك جميع كبارهم وشرد أصحاب الكلمة فيهم وأضعف شوكتهم وأزال صولتهم وفرق كلمتهم وأذهب هيبتهم ثم اتخذ لنفسه مماليك جلبا وأعدهم جندا وبالغ فى ترتيب نظامهم فكانوا بعد قليل ضربة على الرعية يظلمون ويجورون ويعبثون بالخلق ويسلبون المارة وأبناء السبيل وظهر منهم غاية الفساد والجور وهو يتغافل عنهم والناس فى ضجر وابتهال إلى الله بقلوب مفعمة حزنا، فلما قويت بهم شوكته عمد إلى مصادرة الناس فى أموالهم بالقهر والبأس وكثرة أخذه للناس بالشبهات فكثر أصحاب السعاية على بابه فكانوا إذا علموا بأحد من مساتير الناس وشوابه عند السلطان فيرسل إليه أعوانه من أولئك المماليك ويأخذ أمواله بغير رحمة ويسلمه إلى من يعاقبه بأنواع العقوبات حتى يأخذ ما أخفاه من دنياه إلى أن يصبح فقيرا بعد غناه وعمت المصادرة فأخفى الناس أموالهم وتظاهروا بالفقر والمسكنة وعظم ملك قانصوه وكبرت هيبته وعلت كلمته حتى هابه ملوك الروم والمشرق والفرنجة وفك الأسرى منهم وكان له المواكب الهائلة والكلمة المسموعة ومهد طريق الحاج وأمنه فكان يسافر إليه من مصر النفر القليل و نزلت فى أيامه طائفة من الفرنجة على سواحل البحر الأحمر وصاروا يشنون الغارة

على قـوافل التجـارة التى كـانت تأتى إلى مصـر من الأقطار الهندية وبلاد العـرب وغيرها فاستعظم قانصوه ذلك وسير جيشـا عظيما لقتالهم فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالا عنيفا فظفر الفرنجة وانتصـروا على عساكر قانصوه نصرة عظيمة وأهلكوهم فلم ينج منهم أحد وكانت هذه الوقعة من أشد الوقائع وأشأمها على السلطان قانصوه إذ بدأ بعدها نجم سعده فى الأفول وسلطنة فى الانحـلال، ولما كانت سنة ثمان عشرة وتسعمائة جاء إلى مصر الأمـير كركور أخى السلطان سليم ابن السلطان بايزيد فارا من أخيه بعد قـتال على الملك لا محل لإيراده هنا واستنجد قانصوه على قـتال أخيه ففرح قانصوه بمقدمه وجهزه بعشرين سفينة حربية وأمده ببعض العساكر البرية وسيره لفتح القسطنطينية فسار بها كركور فخرجت عليه عمارة عظيمة من السـواحل الشامية وقاتلته وشددت فى قتاله حتى أغرقت جميع المراكب المصرية ودمرتها فلما جاء الخبر بذلك إلى قـانصوه ندم على مـا فعل وخاف شـر السلطان سليم وتحرز وبـعث إليه سفراء فى طلب الصلح وعقد معاهدة على الولاء والمودة فلما تمثل السفراء بين يدى السلطان أغلظ عليهم فى القـول وهددهم وقال لهم قولوا لصاحبكم ليـست السلامة فى كل مرة وإن أنا إلا زاحف على القاهرة فسيلقى صـاحبكم نارا حامية إن شاء الله تعالى فرجع السفراء وأخبروه بما كان فكبر خوف قانصوه وأزعجه الأمر وأخذ يراقب الفرص ويعلل النفس بالأمـانى البعيدة، ومـرض فى هذه الأثناء الخليفة المسـتمسك بالله وثقل مرضه فزاد خـوف الأشرف قانصوه من قيام الفـتنة أيضا فى داخل البلاد وخروج الأحزاب لاسيمـا وقد كان بعض كبار الجند والأمراء ناقمين عليـه متحفزين للبطش به ومازال المرض يشتد بالخليفة حتى مـات فى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة هجرية فكانـت خلافتـه نحوا من عشـرين سنة ولم يعهـد بالخلافة لأحـد من بعده فعجل الأشرف قانصوه فى مبايعة ولده محمد المتوكل على الله وبايعه كذلك الأمراء والقضاة والعلماء خوفا من قيام الفتنة.

ومات فى خلافة المسـتمسك المذكور بنيامين بطرك المتـأصلين بعد أن أقام إحدى عشرة سنة واشتد فى أيامه السلطان الملك الأشـرف قانصوه على النصارى شدّة بالغة فصادر الـكثير منهم فى أموالهم وضـيق عليهم وزاد فى نكايتهم حـتى عاقب بعض النسـاء بالجلد ونحـوه وكان بنيـامين هـذا ورعا تقـيا سـاكن اللب عـمر فى أيامـه ديرابنابشـوى فى برية شهات وبموته خـلا الكرسى سنة ثم أقيم بعـده بطرس ثالث ثمانيهم واسمه داود وكان راهبا بدير أبى مقار فأقام ثمان سنين ومات ووقع فى أيامه

من الشدائد والإحن ما وقع للنصارى فى أيام بنيامين فكان صبورا جلودا متواضعا فأقيم بعده مرقس وهو رابع ثمانيهم واسمه فرج الله وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل الخامس عشر)

(فى خلافة محمد المتوكل على الله ابن المستمسك)

ثم قام بالأمر بعد المستمسك ابنه الخليفة محمد المتوكل على الله بويع بالخلافة ثانى يوم موت الخليفة المستمسك سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة هجرية أى سنة ست عشرة وخمسمائة وألف ميلادية وفى اليوم المذكور صعد الخليفة المشار إليه إلى قلعة الجبل وألبس تشريف الخلافة بحضرة السلطان الملك قانصوه والقضاة والعلماء ونزل إلى داره بالمدينة فى دست الخلافة والقضاة بين يديه والتزم النظر بالمشهد النفيسى على ما كان عليه الخلفاء من قبل واحتجب عن الناس إلا القليل بأسباب الحوادث والفتنة القائمة وتشاغل عنه السلطان قانصوه بما هو فيه من تجنيد الجند وجمع الأسلحة والكراع لقتال السلطان سليم، فقد كانت الأخبار تأتى إليه فى كل يوم أشكالا لاسيما بعد أن سار السلطان سليم فى عسكر جرار لقتال إسماعيل شاه ملك فارس لما بينهما من العداوة القديمة. قال أصحاب التاريخ: وكان سبب هذه العداوة أنه لما عصى السلطان سليم وإخوته والدهم السلطان بايزيد استنجد الأمير أحمد شاه إسماعيل على قتال والده ثم على أخيه من بعده فساعده وقبل من التجأ إليه من أولاده وسير سفراء إلى سلطان مصر قانصوه فى طلب عقد تحالف سرى على الإيقاع بالدولة العثمانية وإيقاف سلاطينها عند حدّهم فعظم هذا الأمر على السلطان سليم وجيش جيشا عظيما لغزو بلاد فارس وأخذها جميعا من إسماعيل شاه ولما كان إسماعيل شاه لا يبدى حراكا ولم يفتح للحرب بابا وكان السلطان سليم على قدم الاستعداد للقتال دس لعماله فى الولايات المتاخمة لبلاد العجم أن يحصوا الشيعيين من العجم النازلين فى بلادهم فأحصوهم سرا فكانوا زهاء أربعين ألفا فأمر بقتلهم صبرا فقتلوا عن آخرهم ثم سار السلطان سليم بجيوشه إلى أدرنه فى الثانى والعشرين من المحرم افتتاح سنة عشرين وتسعمائة فكان كلما مر ببلد أو مدينة فتحها حتى وصل تبريز فلاقاه ملك فارس فى عسكر عظيم واحتدت نار القتال بين

الفريقين فانهزم ملك فارس ومن معه وساقت عساكر السلطان سليم خزائن ملك فارس وآلات حربه وذخيرة جنوده ومازال السلطان سليم يسير خلفه بخيله ورجله حتى وطأ أرض تبريز فقتل وأسر وأراق الدماء وأراد أخذ جميع بلاد فارس ومحو آثار هذه الدولة فلم يفلح لاشتداد القحط والغلاء وانتشار الوباء بين عسكره وبيعت العلو بمائة درهم وبيع الرغيف بمائة درهم وكان ذلك لانقطاع القوافل التى كان أعدها السلطان سليم لتأتى له بالمؤن والعلوفة فتخلفت عنه ولم يوجد بتبريز شىء من المأكول أو الحبوب حيث أحرق ملك فارس جميع الأجران وخرب المبانى وأفسد المزروعات لكى لا يتمكن السلطان سليم من شىء منها فاضطرب السلطان لذلك وخاف شر العاقبة وسأل عن سبب انقطاع القوافل فقالوا له إن سبب ذلك قانصوه الغورى سلطان مصر فإن بينه وبين ملك فارس عهدا على ذلك فقفل السلطان سليم راجعا بمن بقى من عسكره إلى مقر سلطنته وفى نفسه ما فيها وأخذ يتأهب لقتال قانصوه وسلخ مصر منه وأقسم أنه لا ينكف عن الحرب حتى يزيل عنها دولة المماليك الشراكسة ويبيدهم.

وكان من مقدمى الأمراء المصريين أميران أحدهما اسمه خيربك متولى حلب وثانيهما اسمه سيباى الغزالى متولى الشام وكان بينهما وبين السلطان قانصوه الغورى عداوة فى الباطن وقد علم السلطان سليم بذلك فراسلهما فى أمر قتاله بمصر فأوسعا له الأمل وسهلا عليه سبل العمل وحرضاه على ذلك وكشف له عن فساد الأحوال وعجز السلطان قانصوه عن القتال فأحس السلطان قانصوه بذلك وأخذ يراقب الأمور ويبعث بالعيون لتأتى له بصادق الأخبار حتى علم بتأهب السلطان سليم للحركة والقيام من دار سلطنته فأخذ هو كذلك فى التأهب وعرض العساكر والأجناد وجمع الأموال لنفقة الحرب وفتح خزائن البيسارية وحواصل الأمتعة فأخرجوا منها ما أرادوا من كراع وسلاح وأرسل إلى الخليفة المتوكل على الله أن يتأهب للخروج معه إلى حلب ونادى فى جميع العسكر بالتأهب والاستعداد فلما كان يوم الاثنين ثامن عشرى ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة أنفق على العسكر نفقة السفر فكان ما خص كل مملوك مائة دينار وجامكية أربعة أشهر ثمانية آلاف فضة وثمن جمل سبع أشرفيات ثم نادوا فى العسكر بالخروج فخرجوا فى يوم الجمعة سابع ربيع الآخر وساروا تباعا إلى الريدانية وعسكروا بها أياما ثم خرجت أطلاب السلطان وأمير المؤمنين الخليفة وبقية الأمراء والمباشرين وفى صبح يوم السبت خامس عشر

ربيع الآخرة اجتمع سائر الأمراء المقدمين عند السلطان بالميدان وهم بملابس التشريف فخلع عليهم الخلع السنية فكانت عدّتهم خمسة عشر أميرا ثم رسم السلطان بتعيين الأمير طقطاى نائب القلعة أحد المقدمين والأمير بلرزمك المعروف بالناشف والأمير تابى بك العجمى أحد المقدمين وغيرهم من الأمراء نواب غيبة كل منهم فى مسنده حتى يرجع السلطان من هذه الحملة ثم خرج السلطان من باب الإسطبل الذى عند السلم المدرج وأمامه النفير السلطانى المسمى بالبرغيشى وهو فى موكب عظيم وأبهة زائدة وكان يتقدم هذا الموكب ثلاثة أفيال مغشاة بالصناجق وخلفهم العساكر بملابس التشريف تباعا ثم الأمراء رؤوس النوب بالعصى ثم أرباب الوظائف من المباشرين ثم ولد السلطان وبجانبه الأتابكى سودون العجمى ثم القضاة الأربعة ثم أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله محمد ابن المستمسك يعقوب العباسى وهو لابس العمامة البغدادية التى بالعذبتين وعليه قباء بعلبكى بطراز أسود حرير ثم سارت الجنائب السلطانية فكانوا طوالتين من الخيل من أحسن الجياد بعراقى وسروج بفواشى من الحرير الأصفر وطبول وزمور وطوالتين آخرين بكياس وسروج ذهب ومياثر زركش وخلفهم جماعة من رؤس النوب مشاة والجاويشية والطيردارية مشاة بالأطيار ثم البقج والمجامع مغطاة بالحرير الأصفر ثم البخورى بالمنجرة. قال بعض كتاب الأخبار: ثم أقبل السلطان الملك الظاهر قانصوه وكان الخليفة أمامه بنحو العشرين خطوة والسلطان راكب على فرس من جياد الخيل وعلى رأسه كلوتا وهو لابس قباء بعلبكيا أبيض بطراز مزركش والصنجق السلطانى على رأسه وشبل العثمانى مقدم المماليك خلفه ومعه السلحدارية والجم الغفير من الخاصكية والجمدارية ودخل من باب زويلة وشق القاهرة بموكبه هذا فضج الناس له بالدعاء ومازال حتى خرج من باب النصر وسار إلى المعسكر بالريدانية ونزلت فى غروب ذلك اليوم من قلعة الجبل جميع الخزائن السلطانية وكان فيها من الذهب زهاء ألفى ألف دينار نقرة وكثير من الفضة والنحاس ثم نزلت الزردخانة وهى محملة على مائة جمل ونادى المنادى سادس عشر الشهر المذكور بخروج من تعوق من العساكر والأجناد بالقاهرة ومصر القديمة وأن السلطان على عزم السفر يوم الجمعة عشرى الشهر فخرج من بقى ورسم السلطان لجماعة من نواب الشافعية ونواب الحنفية ونواب المالكية ونواب الحنابلة أن يرافقوه فى هذه الغزوة ورسم بذلك لجماعة من مشايخ الحقيقة والأئمة ومشايخ القراء والمؤذنين والكتاب وجماعة من الأطباء والكحالين والحلاقين والمغنين

وجماعة كثيرة من البنائين والنجارين والحدادين ثم قام الركب وسار إلى الديار الشامية ولبث السلطان بالريدانية فى نفر من خواصه وكبار أمرائه أياما فجاءته الأخبار من عامله على حلب بأن السلطان سليم لايريد إلا المصالحة وحقن الدماء وعدم الاندفاع إلى حرب ربما كانت عاقبتها عليه وخيمة فسر السلطان الظاهر بهذا الخبر واعتقد صدق مقال السلطان سليم والأمر على عكس ذلك فقد كان هذا القول خدعة من السلطان سليم ومداهنة لغاية فى نفسه، فلما كان يوم السبت ثانى عشرى ربيع الآخر سار السلطان الملك الظاهر قانصوه من الريدانية وصحبته أمير المؤمنين الخليفة والقضاة الأربعة وولده المعز الناصرى وأقباى الطويل وذلك بعد صلاة الضحى يريد الخانقاه السرياقوسية فكانت مدّة لبثه بالريدانية سبعة أقليم وأقام بالخانقاه يوما وليلة ورحل عنها فى يوم الأحد ثالث عشريه، وكان بمصر من أولاد أحمد بك أخى السلطان سليم غلام اسمه قاسم وكان سبب حضوره إلى مصر أنه لما قام السلطان سليم على أخيه أحمد أبى قاسم المذكور وقتله خافت أم أحمد عليه فسلمته إلى مربيه من الخصيان وأشارت عليه بالهرب إلى الديار الشامية فهربا معا إلى حلب وهما فى هيئة مبتذلة فدخلاها فلبثا بها حينا فلما علم السلطان الملك الظاهر بأمر الصبى المذكور كاتب عامله على حلب فى أمره ورسم بتسييره إلى مصر فجاءها مع مربيه وأقاما بها متنكرين فلما عزم السلطان الظاهر على الشخوص إلى الشام جهز الأمير قاسما المذكور فى عدة من المماليك والفرسان والخدم والحشم ودواب الحمل وقيد بخدمته الأمير ماماى الصغير المحتسب ورسم بخروجه خلفه إلى الشام فى هذه الأبهة والكبكبة كى يشيع خبره ويعلم الناس فى دار السلطنة العثمانية أن بمصر غلاما من سلالة ملوكهم فيخرجون على السلطان سليم بسببه وينحازون إليه فتضعف شوكة السلطان سليم وتسقط هيبته فيظفر به ويعود منصورا وكان الصبى المذكور لم يبلغ من العمر سوى الثالثة عشرة فخرج فى غرة جمادى الأولى من السنة فى موكب حافل وشق من صليبة ابن طولون وعلى رأسه عمامة تركمانية وفى وسطه خنجر وفى أذنه قرط مثمن للغاية وخلفه جماعة من العثمانيين والأمير ماماى المحتسب والأمير اينال باى دوادار سكين ولحق بالركب السلطانى كما رسم الظاهر قانصوه.

ودخل السلطان الملك الظاهر قانصوه بجيوشه إلى الصالحية فى يوم الثلاثاء خامس عشرى ربيع الآخر ثم سار منها إلى قطيا فلاقاه نائبها ومدّ له الموائد وجهزه

بمالاق وسار منها فدخل مدينة غزة فى يوم الخميس رابع جمادى الأولى فلاقاه الأمير دولت باى نائب غزة فأقام بها خمسة أيام ثم رحل عنها إلى دمشق فدخلها يوم الاثنين ثامن عشرى جمادى الأولى فلاقاه الأمير سيباى الغزالى نائب الشام وأظهر الفرح بقدومه ومشى فى ركابه فدخل وأمامه الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء وأرباب الوظائف من المباشرين والجم الغفير من العساكر والناس فلاقاه بها جميع أمراء الشام وعسكرها وحملوا القبة والجلالة على رأسه كما جرت عادة الملوك من القدم وزينت له المدينة ودقت البشائر بقلعة دمشق ونثر على رأسه بعض تجار الفرنجة الذهب والفضة وفرش له سيباى الغزالى تحت أقدام فرسه الشقق الحرير خديعة وغشا فشق وسط المدينة ودخل من الباب المسمى باب النصر وخرج إلى القضاء وسار نحو المصطبة السلطانية بناحية فانول فنزل بها ورسم بعمارتها فرمموها. قال أصحاب التاريخ: ولم يتفق هذا الموكب لغيره من ملوك مصر إلا للملك الأشرف برسباى لما سار إلى دمشق سنة ست وثلاثين وثمانمائة، وأقام السلطان بالمصطبة تسعة أيام ثم رحل عنها إلى حمص ثم إلى حماة فلاقاه عالمها قباى بردى الغزالى وبالغ فى تعظيمه وعمل له موكبا حافلا جدا فأقام بها أياما حتى جاءه الأمير قاسم أخو السلطان سليم فأنزله بها وسار هو بعسكره ومتاعه قاصدا حلبا فدخلها فى يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة فى موكب حافل ومشى أمامه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة وسائر الأمراء وحملت له القبة والجلالة وكان الحامل لها الأمير خيربك عامله على جلب فلم يستقر بالسلطان المقام حتى وفدت عليه رسل السلطان سليم وهم ركن الدين قاضى عسكره وأمير اسمه قراجاه باشا وفى ركابهما سبعمائة راكب فأنزلهم قانصوه فى أحسن مكان وأكرم وفادتهما ودعاهما إلى مقامه وجعل يعاتبهما ويشكو من فعال السلطان سليم وإقدامه على سفك الدماء التى حرم الله سفكها فلاطفاه وهونا عليه الأمر وقالا قد جئنا إلى مقامك وكلانا مفوض فى إجراء كل ما تحب وتختار بشرط أن لا تتعرض لنجدة ملك-فارس وقالا إن السلطان يريد أن ترسل إليه سكرا وحلوى من محصول بلادك فسر الظاهر قانصوه بذلك وظن السلامة والإخلاص وأرسل إليه ما طلب ولم تكن نية السلطان سليم من إرسال هذا الوفد إلا ليسير غور الأمور ويعرف أحوال جيوش الظاهر قانصوه وماعندهم من سلاح وكراع وكان السلطان سليم قد وصل فى هذه الأثناء إلى قيسارية ثم خلع الظاهر على رسل السلطان سليم بخلعا سنية ورسم

للأمير مغلباى دوادار سكين بأن يتوجه إلى السلطان سليم رسولا ومعه بعض التحف وكثير من الهدايا الثمينة وكتاب يعرب عن المودة والولاء والإشارة إلى تقرير قاعدة للصلح بين الفريقين لحسم المشاكل وقطع أسباب الخصومة ولبث ينتظر الجواب فلما أبطأ رسوله جمع جميع الأمراء المقدمين والألوف والنواب وأمراء الطبلخاناه وأمراء العشراوات واستحلفهم على القرآن بأن يكونوا له عونا على العدو ولا يخونوه ولا يخالفوا له أمرا ولا يغدروا به فحلفوا جميعا وحلف معهم خير بك والغزالى ثم نادى في العسكر بالعرض فى الميدان فعرضوا وهم باللباس الكامل ثم مروا من تحت سيفين قد نصبا على شكل قنطرة كعادة الأتراك، وعندهم أن هذا هو القسم الأعظم وأرسل السلطان قانصوه إلى الأمير قاسم بن أحمد بحماة فجاء إلى حلب فخلع عليه وأذاع خبره وطيره إلى الآفاق وجعل يتأهب وبينما هو على هذا الحال إذ جاءه الخبر بأن السلطان سليم قبض على الأمير مغلباى الذى سار إليه بالهدية والكتاب وكبله بالحديد وأبى إلا القتال وقطع دابر الظاهر وأصحابه واستخلاص البلاد منهم، وساق السلطان سليم بعد ذلك بعسكره إلى عنتاب وفتح قلعة ملطية وبهنسا وكركر وغيرهما من القلاع فاضطرب الملك الظاهر وتحير فى أمره ونادى فى طائفة من العسكر بالخروج إلى لقائه فخرج أمير اسمه عبدالرزاق بعسكره وخرج معه خير بك فى نفر من جنده أيضا فكانت عدتهم خمسة آلاف ونزلوا على قيد يوم من مدينة حلب ثم خرج بعدهم سيباى الغزالى نائب الشام والأمير تمراز نائب طرابلس والأمير طراباى نائب صفد ونائب حمص ونائب غزة وتتابع خروجهم بالعسكر والأسلحة فى اليوم السابع عشر من رجب وخرج بعد ذلك من بقى وساروا قاصدين جبلات ووردت الأخبار بذلك إلى نائب الغيبة بمصر فأطلق بعض المحابيس من النساء والرجال وفرق الصدقات ودعا الناس إلى الدعاء للسلطان الملك الظاهر قانصوه بالنصر والتأييد .

وعاد فى هذه الأثناء إلى حلب الأمير مغلباى دوادار الذى سار إلى مقام السلطان سليم رسولا بالكتاب والهدية وهو فى أسوء حال من العرى والتعب وأخبر الظاهر بما ناله من السلطان سليم وتصميمه على القتال ومحو أثر دولة الغورى فهال الملك الظاهر هذا الأمر وأزعجه وخرج من حلب فى يوم الثلاثاء العشرين من رجب ومعه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله العباسى والقضاة الأربعة وساروا إلى جبلان فبات بها ليلة وأصبح فرحل عنها إلى مرج دابق فأقام بها إلى يوم الأحد

سابع عشرى رجب فجاءته الرسل من قبل السلطان سليم تدعوه إلى القتال فنادى فى العسكر بالخروج وركب هو وعليه تخفيفة صغيرة وملوطة وعلى كتفه طير وأخذ يرتب صفوف العسكر ويختار لها مواقع القتال ثم وقف بخواصه الذين يعتمد عليهم فى قلب الجيش وعلى يمينه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله وهو بتخفيفة صغيرة وملوطة وعلى كتفه طير مثل السلطان وعلى رأسه الصنجق الخليفى وكان حول السلطان أربعون مصحفا فى أكياس من الحرير الأصفر على رؤوس جماعة من الأشراف وبينهم مصحف بخط الإمام عثمان بن عفان وحوله أيضا جماعة من الفقراء وهم خليفة أحمد البدوى ومعهم العلم الأحمدى والقادرية ومعهم علم أخضر وخليفة السيد أحمد بن الرفاعى ومعه العلم الخليفى والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة ومعه علم أسود والأمير قاسم ابن أخى السلطان سليم واقف بإزاء الخليفة وعلى رأسه صنجق من الحرير الأحمر وكان خلف السلطان الظاهر الصنجق السلطانى وتحته سنبل العثمانى مقدم المماليك والقضاة الأربعة والأمير تمراز الزردكاش أحد المقدمين واصطفت جيوش السلطان سليم وارتفعت أعلامهم فبرز من جيوش السلطان الملك الظاهر الأتابكى سودون العجمى بعسكره والأمير سيباى الغزالى نائب الشام والمماليك القرانصة للقتال فالتقى الجمعان واقتتلا قتالا عنيفا للغاية فانهزم عسكر السلطان سليم وتقهقروا إلى الوراء فساق خلفهم سودون العجمى وأصحابه وغنموا منهم سبعة صناجق ومكاحل وأسروا منهم عددا كثيرا من رماة البنادق وكادت تتم هزيمتهم وكان خير بك عامل حلب والغزالى والى الشام قد راسلا السلطان سليم واستوثقا منه لأنفسهما بأن يعطى خير بك مصر والغزالى الشام فلما التحم الجمعان واضطرمت النيران وكادت تتم هزيمة عسكر السلطان سليم فر خيربك بمن معه وكانوا فى الميمنة وانضموا إلى صفوف العدو وفر الغزالى بمن معه من العسكر الشامى وكانوا فى الميسرة وبقى السلطان الملك الظاهر بمن معه من خواصه فى القلب فاندفع عليه من بقى من عساكر السلطان سليم فأراد الهرب وحول وجه جواده يريد حلبا فقط ومات تحت سنابك الخيل وقيل أصابه فى الحال فالج فلم يملك نفسه فمات لساعته فانقض عسكر السلطان سليم على من كانوا حوله فقتلوا الأمير بيبرس أحد المقدمين وكثيرا من الخاصكية والغلمان وشردوا من بقى ووطئوا المصاحف والأعلام بسنابك الخليل ونهبوا ما وجدوه فى المعسكر المصرى وزال من تلك الساعة ملك السلطان الملك الظاهر قانصوه فكانت مدة تصرفه فى

ملك مصر والشام وأعمالها خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوما فقد كان ولى الملك فى مستهل شوال سنة ست وتسعمائة ومات فى الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة، وقتل فى هذه الوقعة من الأمراء المقدمين عدة كثيرة وقتل سيباى نائب الشام عند فراره للانضمام إلى عسكر السلطان سليم وعدة أخرى من العمال والنواب وقد ستر وجه الأرض بالجثث من الإنسان والحيوان فكان المشهد مريعا للغاية والخطب شديدا ودخل السلطان سليم وطاق الملك الظاهر فأخذ جميع ما فيه من مال وسلاح وكان شيئا كثيرا وانحاز من بقى من عساكر الظاهر إلى مدينة حلب ليتترسوا فيها فقام عليهم أهلها جميعا ومنعوهم من الدخول وقاتلوا دونها فقتلوا من العسكر خلقا ونهبوا ما كان معهم من سلاح ومتاع وخيول وغنموا ودائعهم التى كانت بالمدينة فارتد من بقى وساروا إلى دمشق فدخلوها وهم فى أسوء حال ما بين ضعيف وجريح بلا لباس ولا سلاح ولحق بهم بعض المتشردين من المباشرين ومن بقى من الأمراء الكبار ولبثوا بها أياما بلا ماء ولازاد إلا القليل جدا وأقام السلطان سليم خارجا عن حلب بالمكان المعروف بميدان حلب حتى تكامل ورود عسكره وجمعوا الأسلاب والغنائم فسار إليه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله يعقوب والقضاة الثلاثة وهم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة محيى الدين الدميرى المالكى وقاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى أما قاضى الحنفية محمد بن الشحنة فكان قد هرب مع العسكر إلى دمشق فناله ما نالهم فلما دخل الخليفة قام له السلطان سليم وأجله وأجلسه وجلس بين يديه ولم يلتفت إلى القضاة ولم يجلهم ثم رسم للخليفة بالمقام فى مدينة حلب وخلع عليه خلعة سنية من مال وملبوس ووكل به من يحرسه ثم صرف القضاة على غير صورة، وخرج إليه بالميدان أمراء حلب فتسلم المدينة وارتفعت راياته على حصونها بلا حرب ولا جلاد وغنم جميع ما كان بها من مال وسلاح وتحف وغير ذلك وهرب قانصوه الأشرف نائب قلعتها وسار إلى الشام مع من هرب من العسكر. قال بعض كتاب الأخبار: وكان بالقلعة من المال ما قيمته مائة ألف ألف دينار خلاف أوانى الذهب والفضة والتحف النفيسة وصلى السلطان سليم صلاة الجمعة فى جامع الأطروش بحلب فخطب الخطيب باسمه ودعا له ولأسلافه وبالغ فى المدح والتعريف وعند ما سمع السلطان سليم الخطيب يقول فى تعريفه: خادم الحرمين الشريفين، أظهر الفرح والسرور بلقب خادم الحرمين الشريفين وخلع على الخطيب خلعا متعددة

وهو على المنبر وأحسن إليه إحسانا كثيرا فلما خرج من الصلاة زينت له المدينة وأوقدوا له الشموع على أبواب الدكاكين وارتفعت له الأصوات بالدعاء فأقام بالميدان أياما وهو يرتب الأمور ويجرى الأحكام ويمهد العقبات ثم ارتحل إلى الشام فخرج من كان بها من العساكر المصرية هاربين وخرج إليه أهل دمشق وطلبوا الأمان فأمنهم ودخل المدينة فى موكب حافل للغاية وأقام بها أياما وخطب له بها الخطباء ووصل من بقى من العسكر المصرى والأمراء إلى القاهرة وهم فى أسوء حال من العرى والجوع والضعف وبينهم كثير من المرضى والجرحى فقام العزاء بالقاهرة على السلطان ومن مات من الأمراء والعسكر والمباشرين وأرباب الوظائف وكثر البكاء والنواح فى جميع البيوت فكان الخطب عظيما والحزن عاما، وجاءت الأخبار إلى الأمير طومان باى الدوادار متولى الغيبة بعزم السلطان سليم على الزحف بجيوشه على القاهرة فهاله الأمر وأزعجه وجمع من بقى من الأمراء المقدمين وأمراء الطبلخاناه وأمراء العشراوات وتكلموا فى الأمر طويلا فاتفقت كلمتهم على تولية الأمير طومان باى المذكور منصب السلطنة فامتنع فألحوا عليه فلم يقبل وأظهر غاية الامتناع ثم ركب وركب معه من الأمراء المقدمين الأمير علان والأمير أنسباى حاجب الحجاب والأمير تمر والأمير بقطاى نائب القلعة وآخرون غيرهم وساروا إلى كوم الجارح عند الشيخ أبى السعود وكان للأمير طومان باى معرفة ثابتة به وصحبة فذكروا للشيخ ما وقع للعساكر المصرية بمرج دابق وما حل بالسلطان قانصوه الغورى وعزم السلطان سليم على الزحف بجيوشه على القاهرة ورغبتهم فى مبايعة الأمير طومان باى بالسلطنة وامتناعه وطال بهم الكلام فى ذلك فقام الشيخ وأحضر المصحف واستحلفهم جميعا على أنه إذا قبل الأمير طومان باى المنصب لايخونونه ولا يغدرونه ولا يخامرون عليه ويرضون بقوله وفعله فحلفوا جميعا على ذلك ثم أعاد عليهم اليمين ثانيا أن لا يظلموا الرعية ولا يجددوا الأحداثات من المشاهرة والمجامعة التى أحدثها الغورى وأن يبطلوا ما على الحوانيت من ذلك وأن يجروا الأمور على ما كانت عليه أيام الملك الأشرف قايتباى ويسيروا الحسبة على طريقة يشبك الجمالى عند ما كان متوليا عليها فحلفوا له على ذلك وقاموا من عنده وقد قبل الأمير طومان باى المنصب وأطاع، فلما كان يوم الجمعة رابع عشر رمضان من السنة صلى الأمير طومان باى صلاة الفجر وركب فركب معه الأمراء المقدمون وأمامهم الفوانيس بالشموع والمشاعل وشق من صليبة ابن طولون وهو بتخفيفة

صغيرة وملوطة بيضاء وكذلك الأمـراء الذين معه فارتفعت له أصوات الناس بالدعاء وصعد إلى باب السلسلة وجلس به وأرسل يستدعى أمـير المؤمنين يعقوب والد أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله فحضر ومعه هارون ولد الخليفة محمد المتوكل على الله وأولاد ابن عم خليل وحـضر قـاضى القضـاة الحنفى حـسام الدين مـحمـد بن الشحنة والقاضى شرف الديـن يحيى بن البردينى أحد نواب الشافعيـة وجماعة من نواب القـضاة الذين بالقـاهرة فلما تـكامل المجلس اجتـمع سائر الأمـراء المقدمـين وغيرهم من الأجناد والعـسكر فأبرز أمير المؤمنين يعقوب ورقـة بالوكالة المطلقة عن ولده المتوكل على الله فتليت بحضرة من حضر وبعد ذلك تقدم الخليفة يعقوب فبايع الأمير طومان باى بالسلـطنة وبايعه هو أيضا وشهد عليهمـا بذلك الشرف يحيى بن البردينى وجماعـة من نواب القضاة فلما تمت له البيعة أحـضروا له الخلعة السلطانية وهى جبة سـوداء وعمامة سـوداء وسيف بدوى ولقبوه بالملك الأشـرف ثم قدموا له فرس النوبة فركب على سلم الحراقة التى بباب السلسلة والخليفة أمامه فطلع من باب سر القصـر الكبير وجلس على تخت المملكة وقـبل الأمراء الأرض بين يديه ودقت البشائر بالقلعة ونودى باسمه فى القاهرة ومصر فارتفعت له الأصوات بالدعاء وفرح الناس به فأنه كان بارا شفيقاً على الرعيـة ميالا إلى خير البلاد فلما كان وقت صلاة الجمعة من ذلك اليوم خرج السلطان الملك الأشرف طومان باى المذكور وصلى صلاة الجمعة وخطب به الشرف يحيى بن البردينى وخطب جميع الخطباء باسمه على المنابر فى ذلك اليوم بعد انقطاع الخطبة خمسين يوما من مصر والقاهرة وغيرهما.

وجـاء فى هذه الأثناء إلى القـاهرة بعض كبـار الأمراء الذيـن تخلفوا بدمـشق ومعهـم جماعة كثـيرة من كبار دمـشق وأعيانها فـرارا من إيذاء جند السلطان سليم فإنهم لما دخلوا دمشق عثوا وأفسدوا ونهبوا الدور وأخذوا كل ما وصلت إليه أيديهم فهاجـر الكثير من أهل دمشق وتفرقـوا وجاء منهم جماعـة إلى القاهرة. قال بعض أصحاب التاريخ: وكثر فـساد عسكر السلطان سليم فتطاولت أيديهم أيضا إلى نهب ما فى القرى المجاورة لدمشق فخرج لقتالهم الأمير ناصر الدين بن الحنش أحد كبار قبائل العرب فلاقاهم عند قابون واقتتل الفريقان قتالا عنيفا فانتصر عليهم ابن الحنش وقهقرهم وأعمل فيهم القتل بالسيف ثم تترس فى دمشق وجاءت الأخبار بذلك إلى السلطان طومان باى فـفرح وتقوت عزائمه ونادى فى العـسكر المصرى الذى تخلف بالقاهرة لحـراستها بعـد خروج قانصوه بأن يتـأهبوا للخروج ثم عرضـهم وعين من الأمراء المقدمـين الذين تخلفو أيضا ستة أمـراء ثم رتب أمور الجند وولى عليهم من

شاء من الأمراء وعين أرباب الوظائف العالية والمباشرين وأمراء الطبلخاناه والعشراوات وغيرهم من أصحاب الوظائف الأخرى وكتب إلى ابن الخشن يستنهض همته إلى قتال السلطان سليم ووعده بولاية حمص وأتابكية الشام إن هو نال من العثمانيين وفرق شملهم وكثر الإرجاف فى هذا الحين واشتد خوف الناس ولم يخرج الحج فى هذه السنة وتعطلت مراسمه وجاءت الأخبار بعزم السلطان سليم على الزحف على غزة بجيوشه بعد أن ملك جميع الديار الشامية من الشام إلى الفرات وأقام الولاة والعمال ورتب الأمور على ما يشاء فلما علم السلطان الأشرف طومان باى بذلك نادى فى العسكر بالخروج إلى الريدانية وخلع على الأمير جان بردى وجعله مقدم هذه الحملة فخرج من يومه إلى الريدانية ونصب وطاقه وأكثر النداء فى العسكر فصاروا يخرجون تباعا والنداء متواصل والأخبارمترادفة بوصول طلائع جيوش السلطان سليم إلى سواد غزة وخرج أصحاب البنادق من الجند وأصحاب المكاحل وغيرهم وتقدم الأمير جان بردى بعسكره يريد غزة وتبعه بعض الأمراء بمماليكهم فالتقت بهم طلائع السلطان سليم على مقربة من غزة فقاتلوهم قتالا عنيفا ولازم كل فريق منهم مواقعه، فلما كان يوم الاثنين حادى عشر ذى القعدة قبض جواسيس السلطان الملك الأشرف طومان باى على جماعة من أصحاب السلطان سليم بطريق بركة الحاج وكانوا نحو خمسة عشر ومعهم شيخ كبير هومقدمهم وكان حضورهم من طريق الدرب السلطانى ولم يأتوا من طريق غزة لوقوف الأمير جان بردى بعسكره عند سواد غزة فلما جاءوا بهم إلى دار الأمير علان الدوادار الكبير أشاروا إلى الشيخ بأن يترجل عن فرسه ليدخل على الأمير فلم يقبل فبطحوه على وجهه وأوسعوه ضربا ومن معه وأمر بهم الدوادار فقيدوهم جميعا بالحديد وألقوهم فى السجن وفتشوهم فوجدوا مع ذلك الشيخ عدة رسائل لبعض الأمراء والمباشرين وأرباب الوظائف العالية بمصر ورسالة إلى السلطان الملك الأشرف طومان باى وهى غاية فى التشديد والغلظة وكلها سباب ووعيد وتهديد إلى أن قال له فيها: ولقد أوحى الله إلىّ بأن أملك جميع البلاد شرقا وغربا كما ملكها ذو القرنين وأن لا تكون كلمة فوق كلمتى ولا يد فوق يدى، وأما أنت فمملوك تباع وتشرى فلا تصح لك ولاية ولايجوز لك التسلط على الأحرار وقد أتت إلىّ السلطنة على ديار مصر بعهد من أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة فان سالمتنا سلمت وأزلنا عنك البأس واضرب السكة باسمنا الشريف ثم اخطب لنا على المنابر قياما

بواجب السلطنة وقد وليناك بعد الطاعـة عمالة مصر وملحقاتهـا إلى مدينة غزة فقط فإن أبيت الطاعة وأظنك فاعـلا أتيت إلى مصر وقتلت جميع من بهـا من الشراكسة حتى الأجنـة الذين فى بطون الأمهـات وأمحو شـأفتهـم عن وجه الأرض، إلى أن قال: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ .

فلما قـرئ هذا الكتاب على السلطان الملك الأشرف طومـان باى بكى بكاء مرا وجمع إليه الأمراء وكلمهم فى الأمر ثم شـدد فى خروج من بقى من العساكر وشاع خبـر ما فى هذا الكتـاب بين الناس فانـزعجوا ونزح بعـضهم إلى أطراف الـقاهرة وبعضهم إلى الصعيد الأعلى بأموالهم وعيالهم وعم الخوف جميع الرعية وامتنع من بقى من العساكر والأجناد من مماليك الطباق لا سيـما المماليك القرانصة من الخروج إلى القتال إلا بعد النفقة وأن ينفذ لكل واحد منهم مائة وثلاثين دينارا فأخذ السلطان يلاطفهم ويـسايرهم حتى قـبلوا خمـسين دينارا فجـمع السلطان هذا المال من أولاد السلطان الملك الغـورى وأولاد السلطان المـلك المؤيد وأولاد السلطان الملك المنصـور وجميع أولاد الأمراء الذين بالقاهرة ومصر ولم يحدث بسببه إحداثا على أهل البلاد كما كان يفعل غيـره من الملوك والسلاطين إذا قامت الحرب من عدو خارجى، وفـى هذه الأثناء جاء الخـبر بوقـوع القتال فـى يوم الأحد سابع عـشرى ذى القـعدة بين العساكرِ المصرية وعساكر السلطان سلـيم تحت أسوار مدينةَ غزة واشتد شدّة بالغة ثم انكشف عن هزيمـة المصريين وفى رواية أن هذه الوقعـة كانت بناحيـة بيسان فـساق عسكر السلطان سليم خلف العسكر المصرى وأكثروا فيهم القتل والطعن فمات منهم خلق كثيـر وخرج الأمير جان بردى مـقدم الجيوش المصريـة والأمير أزرمك الناشف أحد الأمراء المقدمين وغـيرهما من كبار الأمراء والمباشرين وغنمـوا ما كان معهم من سلاح وكـراع وخيول وجـمال ومـات الأمير علىّ باى السـيفى الدوادار أحـد أمراء الطبلخاناه وتشتت من بقى من المصريين وتمزق شـملهم فلما كان يوم الاثنين خامس المحرم افتتاح سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة دخل من بقى من العسكر إلى القاهرة وهم فى أتعس حـال فكان أول من دخل الأميـر جان بردى مـقدم الحـملة والأمـير أزرمك الناشف وبعض أمـراء العشراوات والعـساكر والغلمـان والأتباع فأخـبروا بما نالهم من عـساكـر السلطان سليم وبالغـوا وهولوا وملئوا القلوب خـوفا ورهبـة من سطوة السلطان سليم وشـدة بأس عساكره وأنهم دخلـوا غزة وملكوها وأتى مع من حضر أيضـا والى غزة المسيحى دولت باى فاشتـد غم السـلطان الملك الأشرف وحار

فى أمره ووصلت طلائع الجيوش العثمانية إلى قطيا وقد أباح لهم السلطان سليم مدينة غزة أياما فقتلوا فيها وأراقوا الدماء وأفحشوا فى القتل حتى فى الأطفال والصبيان تشفيا وانتقاما وكان فتح غزة على يدى سنان باشا أحد كبار عسكر السلطان سليم .

واهتم السلطان الملك الأشرف بإعداد المعدات وجمع الذخيرة فجمع منها شيئا كثيرا وسيرها مع بعض طوائف الجند من المماليك وأخلاط الناس من سود ومغاربة وغيرهم وأخرج عدة عجلات تجرها الأبقار وعليها المكاحل النحاس وساروا إلى الريدانية ونزلوا على مقربة من تربة العادل ورسم السلطان بتسليم قيادة هذا الجيش إلى الأمير سودون الدوادار فتقيد عندئذ بخروج الجند وإخراج المعدات وبرز بهم إلى الريدانية وبث العيون والأرصاد لتأتى إليه بالأخبار فأعلموه بأن السلطان سليم خرج من دمشق يريد الديار المصرية وقد قسم عساكره إلى فرقتين فسير أحداهما من طريق الدرب السلطانى وثانيتها من طريق التيه وهو طريق البرية التى سلكها بنو إسرائيل مع موسى عليه السلام عند خروجهم من أرض مصر فسير سودون الخبر بذلك إلى الأشرف بالقاهرة فجمع الأشرف الأمراء وحثهم على الخروج إلى الريدانية فخرجوا وعسكروا بها وتابع الأمير سودون استطلاع الأخبار فعلم أن العدو وصل إلى مدينة غزة وأن السلطان سليم عرَّج فى نفر قليل إلى زيارة بيت المقدس ومقام الخليل إبراهيم وأحسن إلى من بالبيت وعاد ولما كان يوم الاثنين تاسع عشر ذى الحجة نزل السلطان الملك الأشرف ومعه الأمير قاسم ابن أخى السلطان سليم من قلعة الجبل فى عدة وافرة من الجند والغلمان وساروا إلى الريدانية وأقام السلطان بالمصطبة التى بها المعروفة بالمطعم ورسم بترتيب العساكر ووضع المكاحل واستعد للقاء السلطان سليم بالصالحية فمنعه الأمراء وقالوا لا نقاتله إلا بالريدانية فراجعهم فلم يقبلوا فألح عليهم فامتنعوا فأجابهم كارها ورسم بعمل خندق من سبيل علان إلى الجبل الأحمر وإلى منتهى مزارع المطرية فعملوه ووضعوا عليه الطوارق والمكاحل وأتى إلى الريدانية الكثير من القصابين والخبازين والبياعين على اختلافهم وخيموا هناك وأرسل الأشرف الأمير قانصوه العادلى الذى كان كاشف الشرقية ليستكشف خبر مجىء السلطان سليم بجيوشه إلى قطيا فعاد فى يوم الأحد خامس عشرى الشهر ومعه رأسا شخصين من عساكر السلطان سليم ورجل من أبناء حلب كان فى خدمة الأمير خير بك واليها الذى انضم إلى عسكر السلطان سليم وكان هو سبب هزيمة المصريين

وموت السلطان كما تقدم بيان ذلك في محله وكان قانصوه المذكور لما وصل إلى الصالحية وجد أن طائفة من عسكر السلطان سليم قد دخلتها وأخذت منها بعض المؤنة وعلائف الدواب الحمل فقبض على اثنين منهم واحتز رأسهما وقبض على ثالث وهو من أتباع خيربك وأتى بالرأسين والرجل إلى الأشرف بالمصطبة فسأل السلطان ذلك الرجل عن أحوال عسكر السلطان سليم ووجدوا معه عدة رسائل من خيربك إلى بعض الأمراء المقدمين بمصر فألقوه في السجن مقيدا بالحديد وأخفوا عن الناس خبره وخبر تلك الرسائل .

وكان السلطان سليم كلما مر ببلد أو قرية أوقصبة في طريقه أحسن إلى أهلها فيهرب من بها من الشراكسة أو يختفي ويتنكر وما زال على هذا الحال حتى وصلوا بلبيس ومنها جاءوا إلى العكرشة فلما علم الأشرف بوصولهم إلى الكرشة هم بأن يلقاهم بيـنا ويقاتلهم على ما هم فيه من التعب والجوع فلم تمكنه الأمراء من ذلك وقالوا لا نقاتلهم الآن وكأنهم كانوا على عهد مع السلطان سليم في ذلك فلما لم يقاتلوه وأفسحوا له في الأجل سار بعسكره من غير ممانع حتى دخل الخانكاه فخرج أهلها على وجوههم إلى القاهرة مولولين فرسم والى القاهرة بغلق الأبواب الكبرى فغلقوا باب الفتوح وباب النصر وباب الشعرية وباب البحر وباب القنطرة وغيرها من الأبواب وأغلقت أسواق المدينة وتعطلت الطواحين فقل الدقيق والخبز من الأسواق واشتد الجوع بالفقراء، ولما كان يوم الخميس تاسع عشرى ذى الحجة قام السلطان سليم بعسكره من بركة الحاج إلى الجبل الأحمر فقام للقائه الأشرف وصمم على القتال بغير مهل والتقى الفريقان فاقتتلا قتالا عنيفا فقتل من عسكر السلطان سليم عدة وافرة وقتل سنان باشا أحد مقدمى جند السلطان سليم فحزن عليه السلطان حزنا عظيما. قال بعض الكتاب: حتى أنه قال وأى فائدة لى فى مصر بعد يوسف يريد (سنان باشا المذكور) واشتد السلطان سليم على عساكره وقسمهم إلى قسمين وسير أحدهما من خلف الجبل الأحمر وزحف بالثاني نحو الريدانية حيث معسكر السلطان طومان باى ثم انضم القسمان وأعملا القتل برمى البنادق والمكاحل واشتد الرمى وتراسل على العساكر المصرية فلم تكن إلا ساعة أو بعض ساعة حتى قتل أكثر الأمراء المصريين وعدد عديد من العساكر والأجناد فتمت هزيمة المصريين وفر من بقى منهم يريد النجاة ووقف الأشرف طومان باى يقاتل الأعداء مقاتلة الأسود الطوارى وحوله نفر من العبيد الرماة والمماليك السلحدارية ثم عمد بعد ذلك إلى

الفرار ففر إلى طرا ودخلت العساكر العثمانية إلى القاهرة فعاثوا وقتلوا ونهبوا وحرقوا وخربوا جميع بيوت الأمراء وأخذوا ما فى الحواصل والأشوان ولبثوا على هذا الحال اليوم كله فكان يوما عبوسا قمطريرا فقال فى ذلك الشيخ بدر الدين الزيتونى :

يبكى على مصر وسكانها	قد خربت أركانها العامرة
وأصبحت بالذل مقهورة	من بعد ما كانت هى القاهرة

وأصبح يوم الاثنين سلخ ذى الحجة سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة فدخل القاهرة أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله ومعه بعض كبار الأمراء من أصحاب السلطان سليم وطائفة كثيرة من عسكره ودخل معه الأمير خيربك والى حلب وقاضى القضاة الشافعية كمال الدين الطويل والقاضى المالكى محيى الدين الدميرى والقاضى الحنبلى شهاب الدين الفتوحى وكان دخول الخليفة المتوكل على الله من باب النصر فشق القاهرة وأمامه المناداة على الناس بالأمن والأمان والبيع والشراء والتحذير من إخفاء أحد من المماليك الشراكسة والدعاء للسلطان المظفر سليم خان فلم بسمع الناس النداء ضجوا بالدعاء، قال بعض كتاب الأخبار: ومع ذلك لم تكن العساكر لتكف عن النهب وقتل النساء والأطفال والقبض على كل من وجدوه من المماليك فكانوا إذا قبضوا على أحد منهم ساروا به إلى الريدانية حيث السلطان فيذبحونه بين يديه ويحتزون رأسه ويعلقونه حتى كثرت الرمم وانتشرت من الريدانية إلى سفح الجبل الأحمر إلى مزارع المطرية ولبث الحال على ذلك ثلاثة أيام كاملة والناس فى هول ولا هول القيامة، وخطب فى ذلك اليوم للسلطان سليم على منابر مصر والقاهرة وقد بالغ بعض الخطباء فى خطبته فقال: وانصر اللهم السلطان ابن السلطان ملك البرين والبحرين وكاسر الجيشين وسلطان العراقين وخادم الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه اللهم انصره نصرا عزيزا وافتح له فتحا مبينا يامالك الدنيا والآخرة يارب العالمين فسر السلطان سليم بذلك سرورا عظيما.

وأرسل السلطان جماعة من الانكشارية فقيدهم بحراسة الأبواب ومنع العسكر من العبث ونهب البيوت فمنعوهم وسكنت خواطر الناس قليلا وأرسل السلطان خلف المعز الناصرى محمد ابن السلطان الغورى فلما حضر بين يديه خلع عليه

وألبسه قفطانا مخملا مذهبا وألبسه عمامة عثمانية ورسم له بأن يسكن فى مدرسة أبيه التى أنشأها فى الشرابشيين وعين بعض الكشاف للأقاليم القبلية والبحرية وخلع على الزينى بركات بن موسى وجعله يتحدث على الحسبة ونزل السلطان سليم فى يوم الأحد ثانى المحرم افتتاح سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة من الريدانية إلى بولاق ونصب خيامه بها من تحت الرصيف إلى آخر الجزيرة الوسطى وقد أحضروا له مفاتيح قلعة الجبل فلم يلتفت إليها ولا أحلها محلا ثم دخل فى ثانى يوم القاهرة من باب النصر وشق المدينة فى موكب حافل للغاية وأمامه الجنائب والعساكر والأجناد وطوائف الغلمان وهو فى هيبة و جلالة عظيمة ثم رجع إلى بولاق وأقام بوطاقة يرتب الأمور ويفرق المناصب بين قومه وقد ظن موت السلطان الملك الأشرف طومان باى مع من قتلوا فى الوقعة وتمزيق شمل من بقى من العساكر المصرية واطمأن لذلك قلبه فلم يلتفت إلا إلى تنظيم الأحوال وترتيب الأمور على ما تقتضيه مصلحة الرعية وكان من الأمور بعد ذلك ما سيتلى عليك مفصلا فى الجزء الثالث إن شاء الله تعالى.

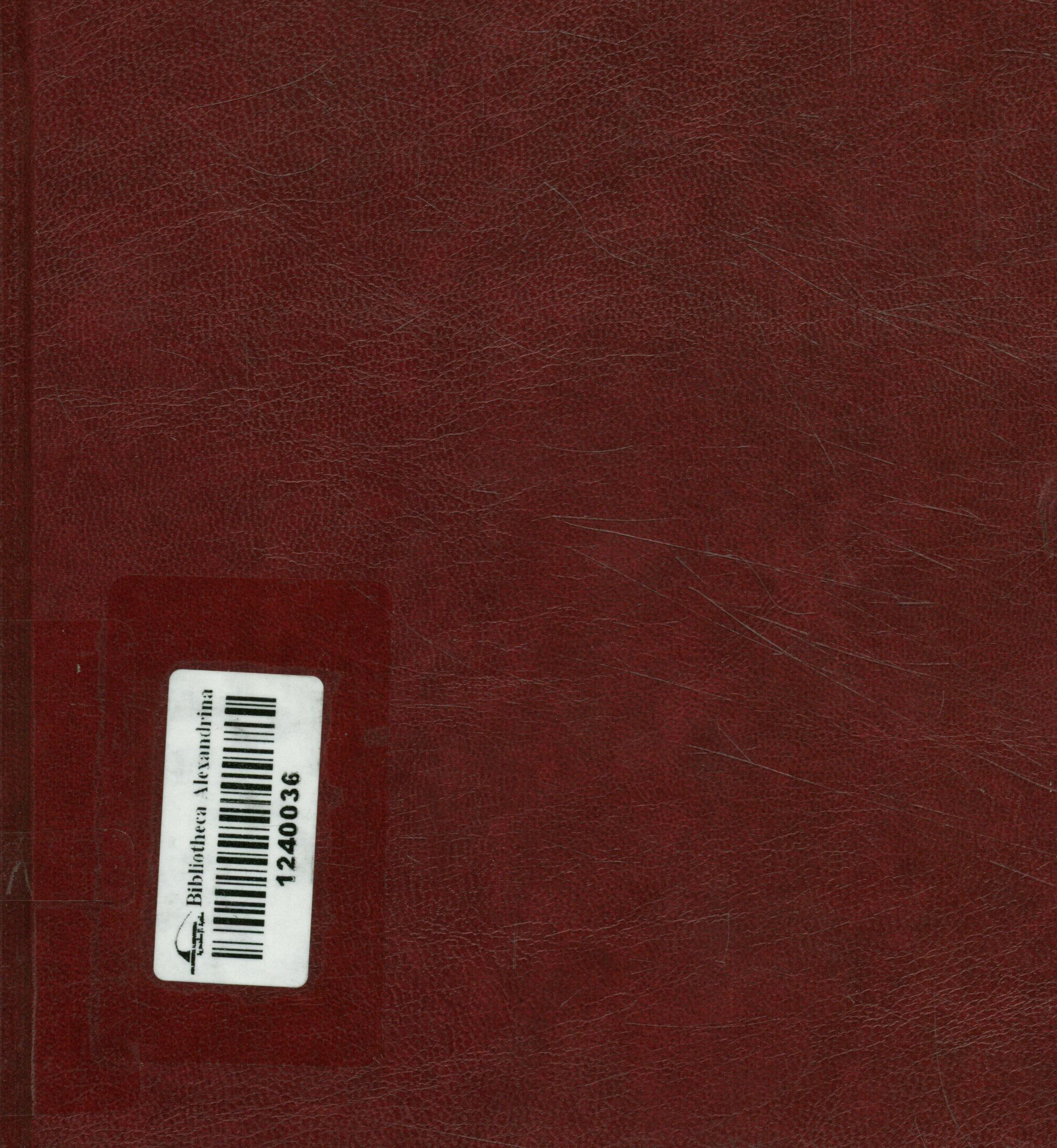
تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث مبتدئا بمختصر تاريخ ملوك آل عثمان

قبل فتح مصر بالجيوش العثمانية ثم ماجرى بعد دخول

السلطان سليم بجيوشه إلى القاهرة إلى ظهور

الحاج محمد على باشا الكبير

وولايته


Bibliotheca Alexandrina
12240036